رقصة الجاكراندا



بيتر كيماني

ترجمة: رؤى عزام

بيتر كيماني

رقصة الجاكاراندا

ترجمة: رؤى عزّام



رقصة الجاكارانـد!

رقصة الجاكاراندا

تأليف: بيتر كيماني
ترجمة: رؤى عزّام

الترقيم الدولي (ISBN): 978-9948-25-017-3



إصدارات روايات (إحدى شركات مجموعة كلمات)
الطبعة الأولى 2022

القصباء - مبنى D
هاتف: 5566696 6 971+ فاكس: 5566691 6 971+
ص. ب. 21969 الشارقة، الإمارات العربية المتحدة
info@rewayat.ae
www.rewayat.ae

تمت الموافقة على المحتوى من قبل المجلس الوطني للإعلام
المرجع: MC-02-01-3669573
التصنيف العمري: +17

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
Dance of the Jakaranda

Originally published in English by Akashic Books,
New York, (www.akashicbooks.com)



هذا العمل روائيٌ وكلّ الأسماء والشخصيات والأماكن والأحداث فيه من وحي خيال الكاتب وتُستعمل أدبياً. أيّ تشابه يجمعه بأحداث واقعية أو أشخاص حقيقيّين أحياء أو أموات، فليس إلّا صدفة بحتة.



لذكرى والديّ إستير وانغاري كيماني

وريبيكا نجيري نغانغا

ولأجل ليزا وسامورا وتومايني

الذين يتابعون نسلهما.



تليجرام
هنا
سور الأزبكية

رقصة الجاكاراندا

مدخل

في ذلك العام، استُبدلت المصابيح الكهربائية بحشرات الحباحب في المستنقعات، وجنَّ جنون القرويّين عندما سمعوا تلك الضوضاء الهائلة، فقد ظنّها الكثير منهم، خطأً، موجات من الهزّات الأرضية التي لم تكن نادرة الحدوث هنا، إذ إنَّ السُكّان المحليين كانوا معتادين على تكرّر الزلازل على امتداد "الوادي المتصدّع" إلى درجة أنَّهم أوجدوا تفسيراً لسبب حدوثها، وهو: تنزّه الربّ في كونه، كانوا يؤمنون بهذه الفكرة من دون رؤية الربّ، لكنَّهم في ذلك اليوم بالتحديد رأوا مصدر الضجة.

لقد كان مخلوقاً وحشياً يشبه الأفعى، برأس أسود منتصب مثل رأس الكوبرا، يسحب خلفه صناديق بنيّة صدئة، زاحفاً عبر السافانا، يسعل بشكل متقطّع، بينما ينفث دخاناً أسود مزرقّاً. شبك القرويّون أيديهم متضرّعين وانتحبوا: ***yuKiini!***[1] تعال وشاهد القضبان المعدنية التي زرعها هؤلاء الرجال الغرباء قبل عدة مواسم، والتي، بعد أن تركناها من دون مساس، تحولت إلى وحش ينزلق عبر الأراضي. كانت الأفعى العملاقة قطاراً، والعام هو 1901، عصرٌ انتشر فيه الرجال البيض لاكتشاف العالم لملوكهم وملكاتهم في أراضٍ بعيدة.

وهكذا حين أطلَّ مراقب سكّة الحديد، أو كما يسميه العديد من الأشخاص (السيد)، من نافذة مقصورته في الدرجة الأولى في ذلك الصباح

---

1 يستعمل الكاتب عدداً من الجمل المأخوذة من اللغات المحلية المتعددة التي لا يمكن دوماً إيجاد ترجمة لها، وقد تعمّد تركها من دون تفسير واضح في عدد من المواقع في هذا الكتاب دلالة على اعتزازه بثقافته. (المترجمة).

الضبابي، لم ينتبه إلى مشهد القرويين المذهولين الذين أفلتوا مجارفهم وانطلقوا يجْرُونَ، أو الذين قادوا قطعانهم بعيداً عن المراعي الخضراء في رعب مطلق من الكائن الذي كان يعبر أرضهم، ولم يشارك السيد في دويّ احتفالات التاماشا[2] التي عمَّت المقطورات حيث كان العمّال البريطانيون، والهنود، والأفارقة -كلٌّ منهم في حجراتهم المخصصة- يحتفلون برحلة القطار الأولى، عوضاً عن ذلك، كان السيد مسحوراً بالأرض الممتدة التي بدت مختلفة كثيراً عمّا يتذكّره من رحلته السابقة، بدا له أنَّ المسطّح المائي تضخّم من بِركة إلى بحيرة كبيرة، ربما كانت عيناه تخدعانه، أو ربما بعدما كان يزحف فوق تلك الأرض على ظهر حمار أو حمار وحش، أصبح المشهد مختلفاً تماماً من موقعه العالي في القطار، على اليسار لفظ ينبوع حارٌ مياهاً ساخنة، وشكّل بُخارُه غيوماً من العدم فوقَه، بدت كما لو أنّها مصنوعة من الصوف.

لا بدّ من تسمية أحد هذه الينابيع تيمناً بسالي، فكّر السيد، بينما أثارت فيه هذه الفكرة مزيجاً من الألم والرقّة اللذين طالما صاحبا ذكرياته المتعلقة بزوجته الإنكليزية التي فارقها منذ أربع سنوات، وهي السبب الذي جعله يتطلّع للعودة إلى إنكلترا. في مرفأ "مومباسا"، على بُعد خمسمائة ميل، كانت تنتظره سفينة، هناك بدأ إنشاء خطّ سكّة الحديد، وانتهى في رأسٍ أطلق عليه اسم (مرفأ فيكتوريا) مانحاً البحيرة هناك الاسم نفسه، على شرف ملكة إنكلترا، وهكذا صارت السكّة التي بدأت من شواطئ البحر الهندي تمرُّ الآن عبر الأراضي الداخلية لتصل إلى ضفاف بحيرة فيكتوريا، كانتِ هذه هي المهمّة التي أتت به إلى (محمية شرق إفريقيا البريطانية)، وقد اكتملت الآن.

---

2 التاماشا: مزيج من الرقص والغناء الاحتفالي.

لقد نال تسريحاً من الخدمة العسكرية بامتياز الشرف الكامل، هكذا أبلغوه عبر برقية أتت من لندن، بينما كان يتردّد في ذهنه صدى اللهجة العسكرية التي ضبطت إيقاع حياته على مدى ثلاثة وعشرين عاماً، وقد أخبروه كذلك عن وجود رسالة تتضمّن كامل تفاصيل تسريحه، مبعوثة على متن (إس إس بريتانيا)، وهي السفينة التي سوف تحمله إلى الوطن إنكلترا، حبس السيد ابتسامة واتته عند تأمّل هذه الفكرة، كما أنّه قمعها أكثر بادّعاء هرش قمة رأسه، حيث يندمج خط شعره المنحسر مع حدود جبهته فيشكّلان شيئاً يشبه الوهدة.

"سعداء هم أنقياء القلب." قال الكاهن ريتشارد تيرنبول وهو يجلس إلى جانب السيد، بينما تعالت جلجلة القطار: كاكورو-كاكارا، كاكورو-كاكارا، أمسكا بقسمين مختلفين من العمود اللامع الذي كان مثبّتاً ليتمسّك به الركاب، كما لو كانا راقصي تعرٍّ، على الرغم من أنَّ مؤخرتيهما لم تتلامسا أبداً.

أومأ السيد برأسه وابتسم بحزن لكنّه لم يقل شيئاً، بل انسحب ببطء إلى المقبرة الموجودة في ذهنه حيث تنبسط الذكريات، أراد أن يتشرّب مشهد هذه الأرض في ذاكرته قدر ما يستطيع، لكنَّ دفقةً مفاجئةً من المشاعر تصاعدت إلى حنجرته بشكل خانق، كان صعباً عليه تخيّل أنَّ هذه الأرض التي ينزلق القطار فيها بكلّ سلاسة كانت في الماضي درباً من الزحف المضني الذي استغرقهم أربع سنوات لإتمام عملهم فيه، أربع سنوات في البريّة، ما جعله يثبت كلّ هذه المدّة هو فكرة الرحلة الأولى الناجحة للقطار، لقد وصلت هذه اللحظة أخيراً، لكنّ السيد شعر بنوع من الانقباض، إذ إنَّ ذكريات ماضيه الأليم منعته من الاستمتاع حقاً بهذه الاحتفالات.

صرخ الكاهن تيرنبول، وكأنّه كان قادراً على قراءة أفكار السيد: "ابتهج!"

بينما اقترب القطار من بلدة جديدة، بدت، كالعديد من المستعمرات الأخرى التي مرّوا بها، كما لو أنها انبثقت من تحت الأرض متّبعة خطوات محطات القطار.

على جانبَي المقطورات، كان العمال الهنود والأفارقة الذين يسافرون في الدرجتين الثانية والثالثة، يصنعون الموسيقا من أيّ شيء تطاله أيديهم، من قوارير الخشخشة والملاعق، ومن التصفيق والتهليل، كانت الجدران التي تفصل بين الأعراق المختلفة لا تزال قائمة، تماماً كما ظلّت خلال سنوات الإنشاء، حافظت المجموعات العرقية المختلفة، كما كتب السيد في إحدى برقياته إلى لندن، على المسافات بينها مثل قضبان السكّة الحديدية، إلا أنَّ السكّة الفعلية كانت نتاج عملهم الجمعي؛ ثمرة كدِّ الأيادي السوداء والسمراء والبيضاء.

رقص العمال الأفارقة والهنود بابتهاج على متن القطار، وانضمّ إليهم الكاهن تيرنبول هازّاً رأسه ومموّجاً جسده بحماس، لكنَّ السيد بقي من دون حراك خلال رقصات "رازماتاز"، لم يكن قادراً على التلذّذ بالحدث، بل بقي مشتّتاً تائهاً في أفكاره، كان يستغرب اشتياقه لهذه الأرض قبل مغادرتها حتى، لقد ظلَّ يتوقّع هذه اللحظة لأربع سنوات، والآن حين حلّت، تحوّل كلّ التوق الذي كان يُراكمه إلى عُقَدٍ من القلق، ليس فقط حيال المستقبل ومكان سالي في مخططاته للأمور، لكن أيضاً حيال الحاضر وكيف سيصير قريباً في طيِّ الماضي.

في محاولته للتخلّص من القلق، حدّق السيد خارجاً، "هذا هو المكان الذي تركنا فيه ذلك النذل." قال للكاهن تيرنبول وهو يصنع بسبابته سهماً منحنياً يشير إلى بقعة محددة حيث انتصبت صفوف من أكواخ الروندافل[3] المصنوعة من الطين والأغصان الدقيقة، كانت الجدران مجيرّة

3 الروندافل: نوع من الأكواخ الإفريقية ذات السقوف المدببة، تصنع عادة من الحجارة المثبتة مع بعضها بالطين أو الرمال الممزوجة مع روث الأبقار.

بطين أبيض، بينما الألواح على السقوف تصطفّ مرتّبةً كما لو كانت أرتالاً من الذرة.

"الأب الفار؟"

"نعم، ابن الـ. النذل." أجاب السيد، ضابطاً كلماته في الوقت المناسب قبل أن يشتم في حضرة رجل من رجال الربّ.

"جميعنا خذلنا الرب." قال الكاهن تيرنبول بهدوء، محدقاً خارج العربة، بينما كادت الأكواخ تختفي عن أنظارهم. "يسعدني أنّي أخذت الطفلة تحت وصايتي."

"هل تأكّدت شكوكنا؟"

"أيّ شكوك؟"

"أنّه والد الطفلة؟"

هزَّ الكاهن تيرنبول رأسه نافياً من دون أن ينبس بكلمة.

استدار إليه السيد وواجهه: "ماذا تعني بالتحديد؟"

"لا."

"ماذا تقصد؟"

"لا شيء."

"لماذا؟"

"هذا سرٌّ لا يعلمه إلا والدة الطفلة."

فتح السيد فمه، ثم تنهّد ورفع كتفيه باستنكار، "هل هي هندية أم قوقازية؟"

"ما الفرق؟"

"الشعر؟ الأنف؟ أليس ذلك واضحاً للغاية...؟"

"لا شيء في الحياة واضح حقاً."

"إذاً، هل تؤكّد أنَّ الطفلة هندية أو قوقازية؟"

"وما أهمية ذلك؟"

"إنَّه مهم."

"لماذا؟"

فتح السيد فمه، مظهراً ابتسامة شاحبة:

"لأنَّه..."

"ما حدث قد حدث." قال الكاهن تيرنبول، "أنا الآن والد الفتاة، وسوف أربّيها كما لو كانت من صلبي."

فتح السيد فمه من جديد، ثم ظلَّ صامتاً، لقد أثقل على رجل الدين بما يكفي من الأسرار.

عاد الرجلان إلى التحديق من النافذة، ذراعاهما تلتفّان حول العمود اللامع، ووجهاهما يكادان يتلامسان، بينما مطّا عنقيهما للنظر خارجاً -لكنَّ مؤخرتيهما ظلّتا أبعد ما يمكن عن بعضهما- وقد شدّا جسديهما في زاوية عجيبة جعلتهما يبدوان كزوج من البط، غابت البحيرة تقريباً عن ناظريهما، ولم يتبقَّ سوى شظية ضوء ظاهرة في مكانها، بدت الغيوم فوق ينبوع المياه الحارّة كما لو أنها غيّرت شكلها.

"أيّها الكاهن." قال السيد وهو يقابله، "أعرف أنَّ كتابك المقدس ينصُّ على وجود الجنَّة في مكان آخر، لكنّي أظنّ أنّها قريبة من هنا."

ابتسم الكاهن تيرنبول، مرخياً ياقته، وأجاب: "أخشى ذلك."

"ولماذا تخشاه؟"

"لأنه لا ينبغي للربّ العيش على هذه المقربة من الوثنيّين."

منزل الموسيقا

1

"بلد الربّ" هكذا وصف الكاهن تيرنبول هذه الأرض عام 1893 في رسالته الرعوية الأولى للكنيسة الأم في إنكلترا، وتحدّث فيها عن العجائب التي شاهدها خلال أسفاره، من نعومة التراب على الشواطئ الساحلية البكر، إلى البحيرات المذهلة التي بدا أنها تظهر من العدم في وسط الغابات، إلى التوغّل الدراماتيكي في ما سمّاه الجغرافيون الأوروبيون (الوادي المتصدّع).

على الرغم من أنَّ السكان الأصليين لا يعرفون الربّ، إلا أنَّ كمال أرضهم يطرح شكوكاً حقيقية حول كيفية إمكان خلق هذا المكان على يد الآلهة الوثنيين، كتب الكاهن تيرنبول موثّقاً في رسائله، أمّا ما عجز عن الاستفاضة به كان تساؤله إن كان محض وجوده هنا هو ما يسمو بالأرض الوثنية ليجعلها مُلكية تامّة للربّ أم لا، لكنْ مجدداً، كان من العبث التحدث عن الأمور البديهية، في ذلك العصر، كان الرجل الأبيض والربّ وجهين لعملة واحدة، حتى إنَّ السُكّان الأصليين كانوا يمتلكون عبارة تصف هذه الفكرة: ***Muthungu na Ngai no undu umwe***[4].

حين بدأ الكاهن تيرنبول الوعظ في (ناكورو) كان يحب وصف مهمته بأنّها أمر من الربّ، فقد كان مقدّراً له القدوم إلى هنا منذ البداية، لقد استعمل مصطلحات السُكّان المحليين في وصف القطار بالأفعى لاستذكار قصة النبي (يونان)، خادم الربِّ الذي تحدّى أوامره فابتلعه الحوت ثم لفظه عند مدينة "نينوى"، حيث كان يجب أن يذهب منذ البدء لينشر كلمة

---

4 Muthungu na Ngai no undu umwe. : الرجل الأبيض والربّ هما واحد (السواحيلية).

الربّ، وأخبرهم أنَّ ناكورو كانت (نينوى) الخاصة به، حيث خرج من بطن الأفعى المعدنية.

حكاية (نينوى) كانت كذبة بيضاء، استولى الكاهن تيرنبول على عبارة قالها السيد لوصف الأحداث الدرامية التي أعقبت وصوله إلى (مومباسا) لاستئناف رحلة عودته إلى إنكلترا، كانت رسالة تسريح السيد من الخدمة في المستعمرة موجودة فعلاً، لكنّها احتوت على هدية غير متوقّعة، لطالما كان يضغط بشدّة للحصول على لقب الفروسية لقاء خدماته للإمبراطورية، ونصّت الرسالة بالفعل على أنَّ رؤساءه قد وافقوا على منحه شيئاً ما، لكنَّ الشرح الموسّع في الرسالة لتفاصيل المنحة، جعله يدرك الاختلاف الجذريّ للأمر مقارنة بما كان يفكّر به، كانت جائزته اختيار قطعة أرض له في أيّ مكان من المستعمرة، الشرط الوحيد لذلك هو وجود الأرض بين مَعْلَمين طبيعيين واضحين لتسهيل عملية تعيين الحدود.

أدرك السيد على الفور أنَّ الأمر برمّته مجرد خطأ بيروقراطي سيخضع للتصحيح في الوقت المناسب، لكن بما أنّه صار متعلّقاً بالأرض، فقد خَلُصَ إلى أنه يستطيع اصطياد عصفورين بحجر واحد، سيقبل بالأرض، لكنَّ ذلك لن يثنيه عن المطالبة بلقب الفروسية، تذكّر ينبوع المياه الحارة الذي يحبس الأنفاس والبحيرة في (الوادي المتصدّع) وقرّر أنها الأرض التي يرغب بها، وقد عرض عليه الكاهن تيرنبول مرافقته في رحلة عودته إلى الوادي.

"هذه طريقك إلى دمشق[5]." قال الكاهن تيرنبول بنغمة ترتيلية، فأجابه السيدِ: "بل أشعر أنَّها تشبه قصة الرجل الذي ذهب إلى "نينوى" أيّها الكاهن."

5 دلالة على تغيّر كبير في طريقة تفكيرالشخص وتأتي العبارة من اعتناق بولس الطرسوسي للمسيحية بعد أن كان يضطهد المسيحيين، وهو أمر حدث بينما كان في طريقه من القدس إلى دمشق.

"يونان؟"[6]

"أجل، أظنّ أنّ اسمه (يونان)، أنا في بطن ما يسميه المحليون بالأفعى، مقدّر عليّ العودة إلى البراري الإفريقية."

ابتسم الكاهن تيرنبول ولمس ياقته ثم قال" "أعرف ما تتحدث عنه." وكانت هذه طريقته في القول إنّه يُرجئ المشاركة في المحادثة، لأنّه كان مشغولاً بفكرة أكثر إلحاحاً، كان يفكّر أنّ قصة (نينوى) تبدو عميقة وروحانية في الوقت نفسه وأودعها ذاكرته ليستعملها في المستقبل.

"تستطيع بناء منزل لسالي." قال الكاهن تيرنبول للسيد حين وصلا إلى (ناكورو)، "قصرٌ بين الينبوع والبحيرة."

فكّر السيد بأنّ ذلك سيكون نوعاً من التجديف، لكنّه لم يعبّر للكاهن عن قلقه، بناء منزل بين معجزتين طبيعيتين كان يبدو له تحدياً لإبداع الربّ.

إنَّ سبب وضوح الأمور في ذهنه كان الحديث عن الهندي الهارب، الهندي الذي يتحفّظ السيد في ذكره، والذي كان الكاهن تيرنبول يربّي طفلته.

"يطلب منّا الربّ حُبَّ أعدائنا، وقد قرّبك من الهندي ليمتحن إيمانك." قال الكاهن تيرنبول، مضيفاً على الفور: "ابنِ لسالي صرحاً للحبّ مثل ذلك البناء الجميل في الهند..."

"تاج محل." قال السيد بنبرة انتصار، وكأنّ احتدام المشاعر بجدّ ذاته سيضخُّ الإرادة بطريقة ما في البناء العظيم ليصير موجوداً.

"وهؤلاء العمال الهنود يعرفون بالتأكيد كيفية بناء صروح مشابهة."

"عملياً، هم لا يزالون تحت إمرتي." قال السيد مذكّراً.

"إذاً فلتأمرهم ليبدؤوا العمل."

---

6 يونان: النبي يونس في الثقافة الإسلامية.

تقول أسطورة بناء منزل السيد إنّه استغرق وقتاً طويلاً كان كافياً لجعل الأطفال الذين ولدوا في بداية الإنشاء قادرين على السير عند اكتماله، بينما يقول بعضهم إنَّ التشييد استمرّ على مدار الساعة، بمصابيح كهربائية مشعّة عُلّقت على الأشجار لتنير للعمال طريقهم في الليل، مع ذلك فقد ادّعى بعض القرويين أنّهم خلدوا إلى النوم في إحدى الليالي، وعندما استيقظوا في الصباح التالي وجدوا البناء العالي يطلّ مشرفاً عليهم.

لكنَّ السبب الذي جعل السيد يصبح أسطورة خلال حياته هو ما حدث لهذا المنزل.

بعد انتهاء إنشائه بمدّة قصيرة، أُغلقت مصاريع نوافذ "صرح الحبّ" بحيث لا يتخلّلها النور خلال حداد السيد، وتهامس القرويون حول فقدانه لحبيبته الغامضة، التي رمته مثل طبق ساخن من ثريد **الأوغالي**[7]، شكّك بعضهم في هذا القول، مؤكدين أنّه من المستحيل لأيّ إنسان الاختباء كلّ هذه المدة في جحر مثل حيوان الهوكو -وهو نوع من القوارض- وبدؤوا بإيجاد طرق للتأكد إنْ كان لا يزال موجوداً في المنزل، إحدى الطرق التقليدية كانت تتمثّل في جمع بيوض الطيور البريّة من محيط البحيرة التي منحت القرية اسمها، ثم سلقها في مياه الينبوع الحارّ، وقذفها على المصاريع الخشبية، وقال القرويون إنَّ البيض المسلوق يرتدّ عند اصطدامه أفضل من البيض النيء، إذ لم تكن نيتهم توسيخ البناء، بل استفزاز السيد المحزون، ***ngombo ya wendo***، أو عبد الحب، كما لقبوه في سباته، لم يخرج أحد من المنزل، وهكذا استنتجوا أنَّ السيد قد رحل إلى الأبد.

وفي أحد الصباحات، بينما بزغت الشمس الرقيقة من الشرق، فُتحت

---

7 الأوغالي: ثريد يصنع من دقيق الذرة.

المصاريع، وشُرّعت النوافذ، وسُمعت صرخات عالية تعلن إعادة الافتتاح، تجاوز السيد حزنه، لكنَّ ذلك أتى مقروناً بمرسوم ذي طبيعة مثيرة للاهتمام: لقد أمر بتعليق إنذارات حول الملكية بأكملها تنصُّ على أنَّ أيّ أنثى تتجاوز حدود الملكية ستُردى بالرصاص على الفور، لقد انتهت كلّ شؤونه مع النساء، ***kabisa***[8].

لكن بما أنَّ عدداً قليلاً من السُكّان المحليين كانوا قادرين على القراءة أصلاً، وأولئك القادرون على القراءة كانوا حريصين للغاية على سلامة الرجل الأبيض، فمن الصعب تحديد أيّ الوجوه المتعلّقة بحياة السيد والمنزل كانت حقيقة، وأيّها من وحي الخيال.

ما حصل فعلياً هو أنَّ السيد حوّل قصره إلى منزل مزرعة، وجلب إليه الحيوانات الحلوب، ثم أخذ يجوب الأراضي الشاسعة على ظهر الحصان ليشاهد الحيوانات وهي ترعى، لقد كان هذا انحداراً في منزلته عند الأخذ بعين الاعتبار أنّه قد قضى سنوات عديدة يراقب البشر يعملون، وهو يمتطي، مثل المسيح، ظهر بغل، ثم أُتبع البغل بحمار وحش مكمّم، خشية أن يعضّ السيد، كانت الحيوانات الحلوب الجميلة بألوانها البنية والبيضاء والسوداء ترعى، بينما تجثم طيور البجع على ظهورها تراقبها وهي تجزّ العشب، تخيلوا السكون غير المُقاطع لنعمة المواشي هذه، الهمهمة المنخفضة للحيوانات المجترّة يعزّزه صوت صفير النباتات الشوكية من بعيد، لا يقاطع هذا الهدوء سوى صوت بقرة مكتوم وهي تحكّ جسدها حيث التصقت عليه قرادة ما، لكن حتى ذلك كان يبدو جزءاً من الجو الطبيعي، بجعة تطير من دون إحداث أيّ صوت بعد ارتعاشة من عضلات جسم مضيفها، ثم تحطّ من

---

8 kabisa: قطعاً (السواحيلية).

جديد، الفضلات المتساقطة برفق عبر فواصل زمنية محسوبة والتي تفتح بوابة نهر من البول.

أُحيطت المزرعة بسياج مكهرب، يفصل مملكة الحيوانات هذه، كانت الحيوانات البريّة التي تأتي غالباً إلى حفرة سقاية قريبة تتعرض لصعقة تعيدها إلى جادة الصواب في حال لمست السياج، وتعلّم معظمها الحفاظ على مسافة أمان بعيداً عنه.

مع حلول الغسق، كانت الحيوانات التي لم تُحلب تحمل ضروعها المتورّمة بتثاقل، بينما يتقاطر الحليب من حلماتها إلى أن يسيل مبللاً تربة القطن السوداء حتى التشرّب، مستثيراً أفكاراً حول تلك الأرض الممعنة في القدِم، حيث يتدفق الحليب والعسل.

راقبت الحيواناتُ البريّة المشهدَ الحليبي، لكنَّ أياً منها لم يتجرأ على لمس السائل، حتى عندما شكّل نهيراً صغيراً وسال خارج السور، كان لديها ما يكفي من المعرفة لتلتزم بشرب ماء البحيرة الذي تعرفه، كان أحد الغزلان يجامع ظبيةً بعد إطفاء عطشه، وبدا ذلك كما لو أنّه يستحضر أنواعاً أخرى من العطش، بينما كان الضبع مقتنعاً بأنّ ذراع السيد ستسقط من عنف تلويحه بها، كان يقهقه لفكرةِ وجبةِ طعام لن تتحقق في الواقع أبداً. هرولت الزرافات عبر السافانا البنية، ونهقت حمير الوحش بخطوط جسدها المتعرّجة البيضاء والسوداء محاوِلَةً اجتذاب انتباه السيد، وهي تتوق لاجتياز الحدّ الفاصل لتترك البريّة وتكون تحت سيادة سلطته المنزلية.

حدث كلُّ ذلك قبل حلول الوباء الذي قضى على قطيع الحيوانات الحلوب بأكمله، بينما لم يؤثّر في أيٍّ من الحيوانات البريّة التي بدت كما لو أنها تنعم بصحة أفضل في مرحلة الاضطراب تلك.

تحوّل منزل المزرعة بعد ذلك إلى نادٍ خاصّ يأتي إليه الرجالُ البيضُ بقبّعاتهم السوداء ذات الحواشي العريضة وجزماتهم بارتفاع الركبة، ويجلسون على مقاعد ذات ظهور مرتفعة، وبندقياتهم مستعدة في انتظار الحيوانات البريّة القادمة إلى حفرة السقاية، بدا كما لو أنهم يمقتون الحيوانات بسبب الوباء الذي أحبط حلم خط الأنابيب، كما سمّى السيد خطته العظيمة لتركيب شبكة من الأنابيب عبر البلاد بأسْرِها لتزوّدها بالحليب عوضاً عن الماء.

سوف يتوفّر الكثير من الحليب ليشربه الجميع. صرّح السيد، حتى إنَّ السكّان الأصليين سيمتلكون ما يكفي منه لتناوله أو غسل بشرتهم الدكناء إن كانوا يرغبون، قد يكون الحليب قادراً على تفتيح ألوان جلودهم.

بعد الوباء توافد العديد من الرجال، وتوافدت النساء أكثر إلى حقل الرماية وشارك الجميع في المراهنات. مع كميات المشروبات التي احتساها الجميع، كان من النادر إيجاد يد ثابتة قادرة على إطلاق النار بشكل لائق، خاصة إن كانت الطلقة ستقاطع حيوانين يمارسان تزاوجهما، وكما لو أنّ الأمرين مترابطان، كان البشر يتصرّفون بشكل مشابه، مثبِتين أنَّ وجودهم لسنوات تحت الشمس لم يكن قادراً على محو غرائزهم البدائية، وهكذا اكتسب حقل الرماية مفهوماً جديداً تماماً.

كان اسم السيد الحقيقي هو (إيان إدوارد ماكدونالد)، مع ذلك لم يكن هنالك شيء حقيقي حيال هويته، كان من السهل عليه أن يكون (واسايك) أو (وانياندبه) أو (واينداينا) بسبب طلاقته في تكلم اللغات المحلية، إلا أنّه كان يستمتع سرّاً بلقب السيد، لذلك لم يحتجّ عليه أو يؤكّد على استعماله، ولم تكن هناك غرابة في هذا اللقب، لأنَّ المستعمرة التي أتى ليخدم فيها باسم

الربّ والوطن بحدّ ذاتها، لم تكن تمتلك اسماً ثابتاً، بل كانت تُدعَى (محمية شرق إفريقيا البريطانية) قبل تعميدها باسم (مستعمرة كنيا) وفي يونيو من عام 1963 -بعد ستة عقود من بناء صرح الحب- سوف تمتلك البلاد اسماً جديداً: (كينيا) كما سوف يشار إلى المنزل الذي بناه ماكدونالد باسم جديد أيضاً -فندق الجاكاراندا- ليخلّد اسم أشجار (الجاكاراندا) التي زرعها من أجل حبيبته سالي، وعلى الرغم من أنَّ الأشجار قد ذوت منذ زمن بعيد، تماماً مثلما جفَّ حبّه الغامض، إلا أنَّ مرور الوقت لم يساهم إلا في إنعاش الذاكرة وتعزيز غموض صرح حبّ السيد.

وفيما راكم منزل السيد عدداً من القصص حوله في السنوات التي أعقبت إنشاءه، لم يكن البناء الوحيد في المنطقة، فأوّل المستعمرين الذين وصلوا للاستقرار إلى جانب البحيرة كان الهندي (بابو راجان سليم)، الذي اشتهر لوقت قصير بأنه والد الطفلة التي ربّاها الكاهن تيرنبول، نعم، إنَّ منزل الروندافيل الذي بناه لم يكن معلماً جغرافياً بارزاً، لكن -كما كان يقول لرفاقه العمّال الهنود الذين أصرّوا على أنَّ السيد قد بنى قصره لإغاظتهم- أن يكون الأمر غير بارز يختلف تماماً عن كونه غير موجود، لاحقاً، وصل الأفارقة وبنوا أكواخهم على الجانب الآخر من البحيرة ليتمّموا ثلاثي العداوة الذي نشأ في البداية على شواطئ "مومباسا"، على بعد مئات الأميال، حين بدأ تركيب خطّ سكّة الحديد، وكما كان الكاهن تيرنبول يحبّ إخبار أيّ أحد مستعد للاستماع إليه، فإنَّ آثام الآباء سيُبتلى بها أبناؤهم مضاعفة ألف مرة.

وللمسنين من السكّان المحليين حكمتهم الخاصة بهم في هذا الصدد، وهي تقول: ***Majuto ni mjukuu***، ومعناها إنَّ الأبناء يدفعون ثمن أخطاء أسلافهم.

وهكذا في نهاية المطاف، وقع حمل ستين عاماً من النزاعات بين الرجلين العجوزين -أحدهما أسمر، وهو بابو، والآخر أبيض، وهو السيد- على عاتق حفيد (بابو راجان سليم) واسمه راجان، وحفاظاً على تقاليد الصرح، فقد بدأ كلّ شيء من السعي وراء الحبّ.

2

في تلك الليلة المعتدلة من عام 1963، كان راجان حفيد بابو في فندق "الجاكاراندا"، حيث يمكن العثور عليه معظم الوقت، ينتظر ليعتلي المسرح مع فرقته، بينما كان يشقّ طريقه نحو الحمامات، انطفأت الأضواء، أثار الانقطاع مزيجاً من الصرخات الساخطة، وصيحات وأنين السقاة المتذمرين عند المشارب والذين أدركوا على الفور حجم الاحتمالات التي يطرحها غطاء الظلمة: سيفرُّ الأنذال من دون تسديد فواتيرهم، سيقترب العُشّاق من بعضهم أكثر، وسيحصل القرويون على فرصة لقذف البيض المتعفن على *wazungu*[9].

لم يكن هذا السلاح الأخير بالفظاظة التي يبدو عليها، بل كان تنازلاً عن عملية الرشق بالحجارة التي استخدمها روّاد المكان في البدء للنيل من المنشأة، لأنَّ الفصل العنصري كان إلزامياً في الماضي في فندق (الجاكاراندا)، بلافتة معلّقة على المدخل تقول: لا يُسمح بدخول الأفارقة أو الكلاب.

في الواقع، كان يُسمح لبعض الأفارقة بالدخول: عمال التنظيف

---

9 wazungu: بيض البشرة.

والبستانيين والطهاة والحراس الذين حرصوا على راحة سادة ***wazungu***، لكنَّ دخول الكلاب كان ممنوعاً قطعياً لأسباب لا يستطيع أحد تذكّرها، وكان هذا الأمر مربكاً للعديد من الأشخاص بالنظر إلى أهمية الكلاب في حياة ***wazungu***، الذين كانوا على الدوام يحدّثون أو يحتضنون أو ينزّهون أحدها، في جزء آخر من المستعمرة، أطلق ***mzungu***[10] النار على رجل إفريقي لأنه رجم كلبه الذي هاجمه.

إذاً في شهر يونيو من ذلك العام، عام 1963، على مشارف الاستقلال، حين انتشر الخبر بأنَّ جميع الأعراق مرحّب بها في فندق (الجاكاراندا) الذي كان حكراً على البيض، شكَّ العديد من الأفارقة بأنَّ منع الكلاب من الدخول سوف يُلغَى، فحملوا الحجارة كإجراء احترازي.

حين لم يجدوا أيّ كلب في الفندق، استبدل روّاد المكان البيض بالحجارة، لأن خبرتهم السابقة مع ***wazungu***، جعلتهم يعتقدون أنّه من الحمق لقاؤهم بأيدٍ خاوية، خاصّة أنّ بيوض (الفلامينغو) التي لم تفقس بعد كانت متوافرة حول البحيرة التي منحت البلدة اسمها، كما أنَّ استعمال البيض، حسب ما خلصوا إليه، كان يؤكّد للرجال البيض أنهم لا يحملون أيّ ضغينة تجاههم، وهكذا انتهت معظم جولات احتساء الشراب تقريباً بتحطّم بعض البيوض المتعفّنة على وجوه بيضاء.

توقف راجان فجأة، ينازعه الاختيار بين التقدّم إلى الحمّام أو تحسّس طريقه عائداً إلى أمان كواليس المسرح، مرّت لحظة أو اثنتان قبل أن يبدو له ضوء ما من بعيد، شمعة تومئ في الممر، تمدّ بظلها لساناً يلعق الجدران مع كلّ هبّة ريح.

---

10 mzungu: الرّجل الأبيض.

عاود راجان محاولاته للوصول إلى المرحاض، بخطوات قصيرة ومتردّدة؛ لأنّه كان لا يزال غير قادر على الرؤية بوضوح وتسبّب الضغط داخل مثانته في بطء حركته، جرَّ قدميه خطوات قليلة فقط عندما شعر -لأنّه لم يستطع الرؤية حقّاً- بأحدهم يقترب، وقد غلب على ظنّه أنّها امرأة، كان ظلها مؤطّراً بنور الشمعة الخافت، ومشابك شعرها تصنع هالة فوق رأسها. بينما اقتربت، كان قادراً على استنشاق عطرها الحلو اللاذع الذي هبط عليه مثل موجة بحر تمشطه.

استدار راجان نحو اليمين ليتجنّب الاصطدام بها، لكن وركها كان في تلك الناحية، حين مال إلى اليسار وجد وركها الآخر فيه، محنيّاً مثل وتر القوس، ومن دون أن تنبس بكلمة واحدة، منحته هذه الغريبة واحدة من أرقّ القُبل التي قد تلقّاها في حياته ثم اندفعت مبتعدة في الظلمة، وقف راجان مشلولاً للحظة، بينما تردّد صدى طرق حذاء الغريبة على الأرض مثل صوت مياه الاستحمام في الآذان.

تكرر صوت طقطقة فوق رأسه قبل أن تغمر دفقة من النور البهو بأكمله، بالتزامن مع صرخات مديح من روّاد المكان المجتمعين في (الجاكارندا).

لعق راجان شفتيه؛ فشعر بطعم خفيف لألطف عطر لافندر، ووجد رائحته مذهلة للغاية، كانت بعض الفتيات الإفريقيات اللواتي قبّلهن في الماضي يضمّخن شفاههنّ بمرهم (بنت السودان) العطري، الذي كان طعمه الحادّ الحلو يحوّل شفاههنّ إلى زوج من ثمار الجوافا الناضجة، لكنَّ هؤلاء كنَّ قلة، وهنَّ الحضريات اللواتي تجاوزن جذورهن القروية لاكتساب أذواق جديدة، معظم القرويات كنَّ يلطّخن وجوههن وشفاههن بالهلام المخصّص

لترطيب ضروع الحيوانات، لأنه حتى وقت قريب للغاية، كان الإنسان والحيوان يتشاركان المساكن نفسها، وحتى الطعام والشراب ذاتهما أيضاً.

لم يكن حال الفتيات الهنديات أفضل، على الرّغم من أنَّ استعمالهنَّ لمرهم (الفازلين) على شفاههن كان خطوة تقدميّة بعض الشيء، لم يسبق لراجان تقبيل فتاة بيضاء، فلم تكن لديه فكرة عن طعم شفاههن، ولا يعود ذلك إلى قلّة محاولاته، بل إلى أنّه لم يستطع الاقتراب من أيّ فتاة بيضاء إلى درجة تسمح له بتقبيلها، إذ إنَّ كلَّ شيء في حياته كان منظّماً وفقاً للون بشرته، قضى طيلة حياته رجلاً أسمر في عالم السود الخاضع لسيطرة الرجل الأبيض، لكن الآن وقد صارت ***uhuru***[11] وشيكة الحدوث، وبدأت الجدران التي كانت تفصل الأعراق لسنوات بالتهاوي، فربما تكون هذه فرصته، إذ إنَّ الجميع بدؤوا باختبار حدود حرياتهم واستكشاف آفاق جديدة.

كانت شفاه اللافندر شيئاً خارج تجاربه، وقادت فكرة تقبيل فتاة بيضاء في العتمة راجان إلى وقفة ذعر جعلت مثانته تفلت في بنطاله قطرة أو اثنتين، وخشي للحظة أنَّ ما خرج منه هو شيء آخر، فحاول من دون جدوى قيادة أفكاره باتّجاه مختلف.

لم يستطع راجان التذكّر حقاً ما إذا كانت شفاه الغريبة قد لمست شفته السفلية أم العلوية، أو إن كان حتى قد فتح فمه بشكل ملائم لتلقّي القبلة، لكنّ الطعم في فمه بدا أبدياً، تراجع الشعور الحارق في مثانته، وانتابته عوضاً عنه دغدغة من الإثارة. وعلى الرغم من أنَّ راجان لم يكن بعيداً عن المرحاض في تلك اللحظة أكثر من عدة خطوات، واستطاع اشتمام رائحة الحمامات اللاذعة في الجو، إلا أنّه قرّر الطواف في الفندق والبحث عن الغريبة التي

---

11 uhuru: الحرية (السواحيلية).

قبّلته. في الخارج وعلى أراضي الفندق، تباطأت خطواته حين وصل إلى مفترق طرق، أشارت ألواح خشبية بحوافّ حادّة إلى الاتّجاهات المختلفة للمكان، بينما أخفت لطخات سوداء الخربشةَ التي كانت تحدّد في السابق: "للأشخاص البيض فقط." لعق راجان شفتيه من جديد، كان الطعم الغامض لا يزال عالقاً بلسانه، وقد بدا له أقوى من المرة الماضية التي تفقّده فيها.

سلك الطريق المفضي إلى النادي، أو منزل المزرعة، كما كان يُعرف حتى الآن لماكدونالد وجيْلِ الرجال الذين صاروا الآن يتكلمون بعمق وبطء بسبب تراكم الغبار الذي سدّ حناجرهم عبر السنوات، والذين صارت جلودهم مثل جلود الطيور بسبب التقدّم في السنّ، كانوا لا يزالون يأتون إلى النادي، ويرتعشون، بينما يشيرون إلى حيث كانت المزرعة موجودة في الماضي، غير قادرين على قول اسمها بسبب المشاعر التي يهيّجها الاسم في صدورهم، يتذكّرون الأيام الهادئة حين كانت أيديهم ثابتة بما فيه الكفاية لموازنة أكواب القياس الصغيرة لتحديد الجرعة الكافية من الدواء لبقرة تعطس في الليل، الفارق هو أنَّ هذه الجرعات صارت تُعطى للبشر الآن. خطا راجان بحذر إلى النادي وحدّق في مجموعة من الرجال المتحلّقين عند النضد، هؤلاء الرجال الذين كانوا بيضاً في ما مضى، بدوا الآن ورديي اللون مثل الخنازير، جلسوا بثبات على كراسيهم، أعناقهم الثخينة تحمل رؤوساً كانت في الماضي شامخة ومنتصبة، لكنّها الآن محنية بانهزام، أيديهم المشعرة مطبقة على كؤوس طويلة ذات حوافّ مثلجة، لم يكن هناك امرأة واحدة على مدّ البصر، وبدا الرجال الأربعة حزينين، الأشياء الوحيدة التي بدت على قيد الحياة هي رؤوس ثلاثة حيوانات من وحيد القرن وحيوانَي جاموس كانت مرفوعةً فوق نضد المشرب الرئيس، عيونها زجاجية تحدّق في الفراغ، كما لو كانت خائفة من كآبة مستقبلها.

أسرع راجان سالكاً الطريق المؤدّي إلى المُلحق، والذي كان خلال العصر الاستعماري مخصصاً للهنود، لكن حتى في ذلك الوقت، لم يُسمح إلا لقلّة من الهنود المميزين بالدخول إليه، كان الملحق شبه خاوٍ الآن إلا من ثلاثة رجال وامرأتين جلست إحداهما على حجر الرجل الأثقل وزناً، وهي تداعب بشفاهها حافّات شحمة أذنه، بينما تعبث يدها تحت عمامته، نظر راجان باهتمام إلى المرأة المستغرقة في التقبيل والمداعبة واستنتج على الفور أنها لم تكن قادرة على التقبيل بالرقة التي شعر بها في الظلام، كانت المرأة الثانية تشرب من قارورة خضراء، وشفتاها مطليتان بلون أحمر قرمزي، استدارت حين لاحظت راجان وهي تدفع عن عينها خصلة شعر شاردة بحركة راقية:

"يا ***bhai***[12] الجميل، هل تُحبُّ أن أرضعك؟" قهقهت، بينما داعبت صدرها الكبير الممتلئ بيديها الاثنتين "الحليب داخلهما يحرقني."

إن كانت المرأة قادرة على تحويل الشعير المخمّر ونبات الجنجل إلى حليب طازج، وكانت لا تزال قادرة على ملاحظة وسامة راجان بدقّة، فلا بدَّ أنها أكثر صحواً مما ظنها، كان لراجان وجه وسيم، بعينين ثاقبتين محاطتين بأهداب دكناء عزّزت شكل أنفه المعقوف الذي بدا كما لو أنه منحوت بمثالية.

فرَّ راجان، سالكاً الطريق إلى حفرة السقاية، ممرٌّ كان ببساطة عبارة عن قطعٍ من القماش المشمّع الممدود عبر هياكل من الحديد المطروق ليصنع منطقة جلوس خارجية، لقد كان جديداً للغاية، أُعدَّ لاستضافة الأفارقة حينَ أشارت تطوّرات الأمة السياسية إلى حتمية ***uhuru***، بما أنَّ الأفارقة

---

12 bhai: أخي (البنغالية)

كانوا سيُدعَون في النهاية إلى المائدة الرئيسة، فقد قرّرت إدارة الفندق أنّه سيكون من المفيد تخصيص منتدى لهم حيث يمكنهم اكتساب شيء من آداب المائدة، لكن بالكاد ظهر أيّ أثر يدل على نجاح هدف الإدارة، إذ تقوّست الطاولات البلاستيكية البيضاء تحت ثقل غابة من قوارير الجعة الخضراء والبنية، وقد كان هذا دليلاً على حاجتهم إلى تشذيب عاداتهم السلوكية وتعلّم طلب مشروب واحد في كلّ مرة.

على الرغم من السماح في الماضي لعدد من الأفارقة المميّزين بالدخول إلى المبنى، ومعظمهم كانوا أغنياء بما فيه الكفاية ليتمكّنوا من التمتّع ببهرجة التنعّم، إلا أنهم مع ذلك وجدوا عرض الكميات الوفيرة من الكحول أمراً لا يُقاوم.

حين فتح (الجاكاراندا) أبوابه أمام الأفارقة في يونيو من عام 1963، وصل بعض الأشخاص ببساطة حفاة الأقدام أو على الدراجات قائلين إنّهم حضروا ليشاهدوا المكان، وبدا أنّهم يشاهدونه بأسنانهم، غير قادرين على إخفاء تفاجُئِهم برؤيةِ لمحاتٍ من الرجال البيض والهنود بكلّ هذا القرب، بما أنَّ العديد منهم لم يمتلكوا نقوداً لينفقوها، فقد تحلّقوا حول جهاز تلفاز أبيض وأسود، رُكّب في إحدى الزوايا، وقضوا الأمسيات في مشاهدة الأخبار.

الطبيعة بلا شكّ، فضلاً عن البشر، كانت قادرة على تقديم أخبار مثيرة للاهتمام دورياً، في الليلة الماضية أُعلن عن ثوران بركان **لونغونوت**[13]، حيث قذف بالحمم التي سالت مخلّفةً وراءها طريقاً متعرّجاً، لكنَّ أكثر ما استمتع به روّاد المكان هو سماع صوت قائدهم الهادر، الذي ذاع صيت غموضه حتى قبل أن يباشر مهامّه، كان بالمختصر (رجلاً كبيراً) وكل ما احتاجه مساعدوه لتحقيق أيّ أمر كان الاعتماد على اسمه، أو التلميح بأنهم كانوا يتصرّفون

13 لونغونوت: قمة بركانية تقع جنوب شرق بحيرة "نايفاشا" في الوادي المتصدع، كينيا.

حسب أوامره، في تلك الحالات كانوا يقولون إنّهم "يتصرفون تبعاً لأوامر صادرة من فوق." إذاً لقد بثّ (الرجل الكبير) الذي يسكن في الأعلى حسب ما يفترضون، الرهبة والفزع فيهم.

أصبحت حفرة السقاية، المسماة كذلك بسبب قربها من منهل الحيوانات البريّة، بقعة مفضلة للسياح فضلاً عن السكان المحليين على الجانب الآخر من الفاصل العرقي، لكن بما أنَّ جميع الأعراق لم تخض تجربة التفاعل الاجتماعي مع بعضها من قبل، فإنَّ لقاءهم الأول كان يشابه اقتراب الحيوانات المتوتّرة بغرض التلامس للمرة الأولى، إن كانت الحيوانات تبدأ باشتمام قرون بعضها بعضاً، فإنَّ البشر بدؤوا بقياس بعضهم عن بعد، مع تعليقات حول الأحداث التي وردت في الأخبار، قبل أن تصبح الأجواء أكثر ودية وينتهي بهم الأمر على الطاولة نفسها يحتسون الشراب معاً.

تفحّص راجان جميع الوجوه الأنثوية، واستقر نظره على عدد من أزواج الشفاه التي استدارت وجوه صاحباتها نحوه، كانت في الغالب شفاهاً هندية وإفريقية، غليظة من فرط استخدام مراهم (بنت السودان) و(الفازلين). لم تكن هنالك نسوة بيض في المكان، بدأت آمال راجان بالتضاؤل، لعق شفتيه مجدداً وهو يهزُّ رأسه ليصدَّ الفكرة التي تقرضه: ما السبب الذي يجعل لمسة امرأة واحدة تسحره إلى هذه الدرجة؟ بدت النكهة الغامضة كما لو أنَّها أخذت الآن بالتبدّد، وهو ما عزّز شعوره باليأس.

تابع مسيره على غير هدى، قبل أن يسلك الطريق المؤدّي إلى محل الجزارة، آملاً أنّ الغريبة صاحبة القبلة قد أتت إلى هنا بطريقة ما، كان محلّ الجزارة هو المكان ذاته الذي جلس فيه جده بابو خلال رحلته الأولى لإنشاء السكّة، زيارة حدثت بعد عدة أسابيع من الإقناع، قال بابو ببساطة من دون

أيّ توضيح، إنّه لم يكن من الملائم له الذهاب إلى (الجاكاراندا) لأسباب تاريخية موغلة في القدم، حين أصرّ راجان على المطالبة بتفسير واضح، أجاب بابو: "يستمر الطفل الأحمق بالرضاعة من ثدي والدته الميتة لأنّه لا يستطيع التفريق بين النوم والموت."

لطالما تساءل راجان إن كان للسّبب التاريخي الذي يفكّر فيه بابو علاقةٌ بماكدونالد، المالك الهرم للمزرعة التي أصبحت (فندق الجاكاراندا)، والذي لا يزال يعيش في منزل على الملكية مترامية الأطراف، كان ماكدونالد يأتي في بعض الأحيان لمشاهدة تمارين راجان وفرقته، في تلك المناسبات، كان الرجل العجوز يقف، مومئاً برأسه مع الإيقاع، قبل أن ينسحب بالهدوء نفسه الذي أتى به، يقاطع وقع أقدامه المتثاقل طرقٌ لطيف من عكازته، لاحظ راجان أنَّ ماكدونالد بدأ يوليه اهتماماً أكبر منذ عرف أنّه حفيد بابو: "فلتسلّم لي على البقرة العجوز." كان يقول لراجان بينما يسير مبتعداً.

لم يعمل راجان على إيصال هذه الرسالة أبداً لأنّ بابو كان يتوتّر في كلّ مرة يَرِد فيها ذكر ماكدونالد أو (الجاكاراندا)، إلّا أنّه نجح في إقناع جدّه بطرح الماضي جانباً والقدوم لمشاهدة عرضه.

كان محلّ الجزارة يقع في بناء خُصص في الماضي سكناً لخدّام منزل ماكدونالد، أُزيل أحد الجدران ليتيح عرض الذبائح المعلقة رأساً على عقب، كما أمّنت هذه المنطقة إطلالة بانورامية على السهول في الوقت نفسه، كان السياج الكهربائي لا يزال قائماً بين المنشأة والبريّة، كما استمرّت الحيوانات في القدوم إلى حفرة السقاية، لكنها توقّفت عن التزاوج، في حين استُبدلت كاميرات السّيّاح في حقل الرماية بالبنادق، وقد اعتقد معظم الناس أنَّ الحيوانات تجد ومضات فلاش كاميرات التصوير تطفلية، أو ربما كانت

تعرف أنّها غير قادرة على تهديد وجودها، لذلك لم تشعر بضرورة التناسل، لكنّ بعض الأشخاص اعتقدوا أنّ البشر قد أفسدوا الحيوانات لأنَّ الحيوانات شاهدتهم يفعلون فعلتهم على مدى سنوات طويلة، وبهذا اكتسبت الحيوانات العادة البشرية بالشعور بالإثارة فقط تحت الضغط الشديد.

قارن راجان بين المظاهر المختلفة للحوم الطهي، اللحم النيء والحيوانات التي تطوف في البريّة، يستطيع المرء اختيار الحيوان الذي يرغب في أن يُذبح له من أجل العشاء، معظم اللحوم كانت تأتي من الماعز، والخراف -لحم الغنم والضأن- والدجاج، والحبش، وجميعها حلّت مكان الأبقار الحلوب، كان اللحم يحمّر، يسلق، يُقلى، يُشوى، أو يحضّر بطريقة (تامبوكيزا) التي كانت تتلخّص في رمي اللحم والخضار والبهارات داخل قدر حساء كبيرة معاً. انتصبت خارج محل الجزارة مشواة بحجم رجل، أرجلها المهتزّة العالية قادرة على حمل كميات مذهلة من اللحم وفتحاتها المتعددة تتنفس بجهد كبير، كأنها غارقة في الطلبات المتكررة لمنح حياة جديدة للفحم المصنوع من السيقان الميتة لشجرة الأقاقيا والشجيرات الجافّة والعظام المتحجرة، وفي النهاية، بعد عدّة تشنجات من الهيجان والتنهّد والأنفاس الثقيلة، تنبعث الحياة في المشواة بلطف، فتتحول طبقات الفحم الأسود إلى بني يشبه لون الفجر، قبل أن يتحول بدوره إلى أحمر بلون المساء، كانت المشواة هي الغراء الذي جمع الأيدي البيضاء والوردية والسوداء والسمراء معاً، كلّها تشير إلى قطعة اللحم التي تطالب بالحصول عليها.

كان المشهد تجسيداً للرّغبة مطلقة العنان، إذ سال لعاب الرجال والنساء من أجل اللحم الآخذ في النضوج، بينما راقب قسم آخر منهم الحيوانات، ونمت لديهم رغبات أخرى تخصّهم. تحلّق الجميع هناك ليأكلوا

حتى التخمة، ووقعت مهمة إطعامهم جميعاً على عاتق غاثينجي القصّاب، بعبارته المتكررة: ***"Ngoja kidogo!"*** التي كانت تعني أنَّ على المرء التحلّي بالصبر عند التعامل معه، فعبارته **انتظر دقيقةً** غالباً ما عنت الانتظار ساعاتٍ، لأنّ غاثينجي اعتاد بيع اللحم بأسرع مما يحتاج من الوقت لشيّه، وبعض السادة الجائعين كانوا أكثر من مستعدين لحثّه على التعاون معهم بمنحه القليل من النقود الإضافية.

جاب راجان محلّ الجزارة، وهو يتذكّر جدّه ثانية، حين زار بابو المكان للمرة الأولى، لاحظ، على الرغم من وعد الاستقلال القادم، أنَّ الرجال لا يزالون صائدين وجامعين، والنساء ينتظرن عند المائدة ليُطعَمن، تصديقاً لكلام بابو، لم تكن هناك امرأة واحدة في محلّ الجزارة.

تصادق بابو وغاثينجي على الفور، كانت واحدة من تلك الليالي الهادئة حين يكون المرء محشوراً في زاوية الشهر السيئة، وهذا يحدث تقريباً في الأسبوع الثالث منه، حيث يكون الناس قد أنفقوا سُلف منتصف الشهر، بينما يبدو الراتب القادم كأنه لا يزال يبعد سنوات عنهم. بالكاد استقرَّ بابو المتحدّب والمتكئ على عكازه في كرسيه حتى سار غاثينجي نحو المائدة وانحنى باحترام متملّق، "هذا هو الرجل بعينه!" قال الجزّار محيياً بابو، بينما وضع فوق الطاولة صينية خشبية عليها قطعة من اللحم.

"هذا هو لحم (الكيونجو)، لقمة واحدة فحسب ستكفي لإسكات وخزات الجوع." قال بكرم، وهو يشرّح اللحم المفتول فاتحاً إياه، فتنزُّ الأجزاء المملوءة بالعصارة قطرات من الزيت، ثم يتابع تقطيعها إلى أجزاء أصغر: "أتدري، لقد سمعنا الكثير عنك يا ***mzee***[14]".

---

14 mzee: الكبير (السواحيلية).

"أرجو أنك سمعت أموراً حسنة." أجاب بابو متورّداً، بينما التفت إلى حفيده راجان: "يستمرّ في طلب حكايات عن الماضي، لكنّي لا أعرف كيف يعيد إخبار الناس بها."

"يحكيها بشكل ممتاز." قال غاثينجي مؤكّداً، ثم تابع: "أتدري، الآن ونحن على وشك الاحتفال بالاستقلال، يبرز اسمك عظيماً بين آباء هذه الأمة."

"لا ترفع صوتك إلى هذه الدرجة." حذّره بابو، "فبعضهم لا يؤمنون أنَّ الأبوة مسؤولية مشتركة."

"لا تكترث، فأنت والدنا، أخبرني، أين تعلمت كلّ هذه اللغات؟ السواحيلية[15]، ولغات الكيكيو[16] واللوو[17] والكالينجين؟[18]" قال غاثينجي ضاغطاً للحصول على إجابة.

"حسناً، كلّ ذلك أتى من يوميات العمل." قال بابو مصرّحاً، "عملت مع رجال من مختلف المجتمعات، لذلك تعلّمتُ لغاتهم."

"أتعرف ما الجزء الأصعب في كلّ هذا يا ***mzee*** الطيب؟" قال غاثينجي، "إنّك بنيت سكّة الحديد بهاتين اليدين... السكّة التي تربط الآن أرض السواحيليين وأرض الليو، أرض الكيكيو وأرض الكالينجيين."

"حدث كل ذلك في يوميات العمل."

أشار غاثينجي بيده طالباً منه التوقف عن الكلام، "توقف عندك،

---

15 السواحيلية: اللغة الرسمية الأولى لكينيا وتنزانيا، واللغة الأم للشعب السواحيلي.

16 الكيكيو: أكثر الجماعات العرقية انتشاراً في كينيا وتضم ما يقارب 22% من إجمالي السكّان.

17 اللوو: مجموعة عرقية تتوزع في عدة مناطق ودول إفريقية، تنحدر أصولها من مدينة (واو) جنوب السودان.

18 الكالينجين: مجموعة عرقية تقطن بكثافة في منطقة الوادي المتصدّع في كينيا، بلغ تعدادها عام 2009 حوالي 4.9 مليون نسمة.

ngoja kidogo." كان قد لاحظ أنَّ بابو لم يتناول لقمة واحدة، كما أنّه لا يزال يضع أسنانه الاصطناعية، انطلق غاثينجي مسرعاً إلى محلّ الجزارة، ثم عاد بعد وهلة بفنجان من حساء ميوتيتا[19] وكوب من الماء وضع فيه بابو طقم أسنانه، وهو يرتشف الحساء في الوقت نفسه، وقد أتمّ الرجلان هذه العملية بصمت.

"سمعتُ أنَّ هذا المنزل بالذات له حكاية مثيرة للاهتمام." قال غاثينجي بنبرة تآمرية.

"احذر." قال بابو مبتسماً، وهو يظهر لثته العارية، "للجدران آذان."

"أوافقك الرأي." قال غاثينجي، "دعنا لا نغتب الجدول بينما نجلس فوق حجارته."

"هذا قول حكيم."

استدعى أحد الزبائن غاثينجي إلى محل الجزارة، ارتشف بابو رشفة أخرى من الحساء وتنهّد، كان الحساء لاذعاً، تماماً كما يحبّه، تناول لقمة من نقانق ميتورا وأخذ يمضغها بعصبية، متسائلاً إن كان اللحم الذي فيها حلالاً، نعم، هو لم يكن متديّناً حقاً، إلا أنّه أحبَّ تناول الطعام الصحيح، كانت النقانق شهية على الرغم من أنها مالحة قليلاً.

بعد وقت قصير اعتلى راجان المسرح، لافتاً انتباه الجمهور إلى ضيف مميّز في المكان، لوّح بابو بعكازه بينما هلّل روّاد المكان.

توقّف راجان عند المشواة معيداً أفكاره إلى الحاضر وإلى الغريبة الغامضة صاحبة القبلة، ودفّأ يديه بذهن منشغل.

---

19 ميوتيتا: حساء قوي يساعد على التخلّص من الحمّى، ويُصنع من مستخلص مستخرج من شجرة تسمى الأسطركن.

مع عودة الأضواء، فقدت المشواة شيئاً من ألقها، لكنَّ حدّة حرارتها لم تتأثر، كان اللحم منتشراً على قطعة شبكية فوق الفحم الحار، أخمدت قطرة من الدماء شعلة لهب زرقاء متأججة، وتبعتها نقطة من الدهن، لكنها علقت بين قطعتين متوهجتين من الفحم، بعد عدة لحظات، تيبست النقطة البيضاء متحوّلة إلى عقدة سوداء، وعصارتها الدهنية تتقاطر إلى الأسفل متحولّة إلى شرارات، أزَّ اللحم، بينما كان لونه الأحمر الوردي يتحوّل إلى بنّي ذهبي، لحق ذلك صوت فرقعةٍ صدَرَ حين انتفخت كلية وانفجرت، لترسل رشّة من الدهن الذي أذكى اللهب الجديد المتقافز إلى أعلى المشواة، مثل شهاب في ليلة مظلمة، ثم ذوى مترجرجاً.

شعر راجان بريح خفيفة تمرّ في المكان، رفع عينيه ونظر إلى الحيوانات عند حفرة السقاية، والتي كانت، بدورها، ترفع آذانها محاولة الاستماع إلى صوت أيِّ خطر قد يتهدد حياتها، عادت ذبائح الحيوانات التي قُتلت لتأمين لحم اليوم إلى الحياة، تؤدّي رقصتها رأساً على عقب في محل الجزارة، لتجذب اهتمام روّاد المكان من جديد، امتزج أزيز اللحم باهتياج الفحم في جلبة الليل، فرقعة فلينة زجاجة معمّمة ومثلّجة تفقد أعلاها، طقطقة كؤوس الأنخاب، إرخاء الأحزمة، وهمهمة الرجال والنساء السكارى يغري بعضهم بعضاً.

تقدمت الموسيقا، بينما رفع أحدهم صوته:

"تالياً على المسرح، **الراج الهندي**، ملك موسيقا **الموغيثي**[20] بلا منازع... تالياً على المسرح..."

---

20 الموغيثي: موسيقا ابتدعها شعب الكيكويو الكيني، عادة ما يغنّي فيها مغنٍّ أساسي، يرافقه عدد من عازفي الجيتار، وتعني الكلمة حرفياً (القطار).

على الرغم من أنّ راجان لم يدرك هذا حقاً، إلا أنه كان قد أتمَّ حلقة كاملة، ممشّطاً المؤسسة بأكملها في بحثه عن الغريبة صاحبة القبلة من دون جدوى، ووصل تقريباً إلى الحمّامات من جديد، كادت الموسيقا المتكررة وتهليل الجمهور يسقطانه على ركبتيه، هنالك شيء شديد الجبروت تفرضه الموسيقا وتفاعل الجمهور الحيوي، ناداه أحدهم، وتعالى صوت الموسيقا المتكررة من جديد، بينما نبضت الطبول وانتحب الجيتار.

فجأة عاوده إدراك الضغط في مثانته، كألف إبرة تخزه وتحفر فيه شعوراً معتدلاً من الحرقة، ألم يقارب المتعة، مشى متثاقلاً إلى المبوَلة، وأنصت إلى الصوت الإيقاعي الرتيب الذي ينقره البول في الحوض الأبيض، بينما يرتفع ضباب من البخار بتكاسل في الهواء، شعر بالسعادة والخفّة، بينما جرى نحو الكواليس من دون غسل يديه، ينعم بالأمان في الضوء الخافت الآن وقد أصبح أكثر انعزالاً بسبب طعم قبلة الغريبة.

مشى نحو الميكروفون على المسرح وعدّله ليلائم طوله، كان ضئيل الجسم مثل مراهق غير مكتمل النمو، وله قبضة من الشعر حالك السواد مثبتة في مؤخر رأسه برباط شعر أحمر وذهبي وأخضر، حين كان المعجبون يرونه للمرة الأولى كانوا يعلّقون قائلين إنَّ شهرته لا تتناسب مع صاحبها؛ لأنَّ قامته كانت قصيرة بالمقارنة مع سمعته العملاقة.

كانت الآلات الموسيقية تجتمع معاً في وتيرة متصاعدة، ارتعش راجان لذّةً وأومأ بتقدير إلى العازفين، وهو يطرق قدمه اليمنى متجاوباً مع الإيقاع الذي بدا كأنه يبقبق داخله.

في سنواته التأسيسية في الغناء، لم يستطع راجان طرح الخوف الذي كان يعتريه قبل رفع ستائر المسرح، إذ لم يكن متأكّداً من ردّة فعل الجمهور،

أحياناً، كانت تتلاشى من ذهنه كلمات الأغنيات التي قضى أسابيع طويلة في التدرّب عليها حالما يواجه مئات العيون المحدقة به، صحيح أنّه الآن قد أصبح رابط الجأش أكثر، إلا أنَّ مهابة ما قبل التأدية على المسرح لم تفارقه حقاً، وقد ساعده أن يكون تحت تأثير مادة ما، كانوا يُسمون السُكر قبل الصعود على المسرح (القوة الدافعة)، وهو يحتسي عدة أكواب من الجعة حتى (يحرر) ذهنه.

ترك راجان الآلات الموسيقية تستمرّ في العزف، صرير الأرغن، عويل الجيتار، ونبضات الطبول التي تتكاثف معاً في نوبة من الهياج، انتزع الميكروفون بعنف من حامله ومشى نحو حافة المسرح حيث تسابقت عشرات الأيادي للمسه، دندن بصوت منخفض ومتأوّه:

Barua nakutumia

Nikufunze ya dunia

Usije ukaangamia

Ewe wangu—eeeeeeeeeee! [21]

أغلق عينيه وترك الموسيقا تغمر وجهه، الذي تلوّى الآن ليصبح قناعاً من الألم واللذّة، كانت الأجواء محمومة، وقد صمت جميع روّاد المكان، بينما راح جسده الصغير يتشرّب كل الموسيقا الصادرة عن الأوركسترا، ويطلق صوته الطاقة بشذرات متقطّعة، كان المعجبون منوّمين مغناطيسياً، وحين غنّى القسم الرئيس من الأغنية مجدداً، أخذ الجمهور يردده معه، محوّلاً الأغنِية إلى نداء وجواب، موحّداً بذلك جميع الذين جلسوا في أقسام مختلفة وقد فصلتهم أعراقهم في وقت ما، بطريقة متصاعدة قبل أن ينتظموا في

21 أرسل لك رسالة... لأعلمك بالدنيا... لئلّا تهلكك... أوه أجل - أووووه (السواحيلية).

النغمة المتكررة الأساسية.

تصيّد راجان فتاة جميلة من بين حشد الأيدي التي لوّحت له بحماسة، لطالما كان يختار الفتيات الأكثر حسناً لهذه الرقصة، فهي تمهيد لرقصة أكثر رقّة ستحدث لاحقاً في الكواليس، كانت الفتاة ترتدي حذاءً بكعب عالٍ، وقد صعدت السلالم ذات الصرير كما لو كانت تسير على أرضية من البيض، كانت تنورتها أضيق من أن تسمح لها بأخذ خطوات واسعة، ما أثار تهليلاً أعلى من طرف الجمهور، تشقلب قلب راجان حين لمح ساقها العارية، مدَّ ذراعه ممسكاً بيدها الدقيقة ثم جذبها إلى المسرح.

انتقلت الموسيقا بسلاسة إلى إيقاع أسرع، أدار راجان ظهره للفتاة الجميلة التي كانت طبعاً تعرف الخطوات، رفعت يديها إلى كتفيه، قفز معجبون آخرون إلى المسرح ووضعوا أيديهم على من أمامهم، وسريعاً شكّلت جماعة الرقص طابوراً. كانت هذه الرقصة تُسمّى (موغيثي)، رقصة القطار، وكانت تجلب إلى المسرح القصص التي حكاها بابو جد راجان عن حياته خلال تركيب سكّة الحديد.

في تلك الليلة، وعلى الرغم من أنّه كان يرقص رقصة (موغيثي) وهو يقود هذا اللواء من الشباب والعجائز على حدٍّ سواء، حاشداً إياهم على حلبة رقص (الجاكاراندا) المكتظة غير المستوية وهم يقلّدون حركة القطار، الأيدي على الأكتاف وعلى الخصور المكتنزة، الأرجل تطرق الأرض بتزامن مثالي يضاهي أرجل حشرة أم أربع وأربعين، كانت عيناه تنظران إلى الأسفل، تفتشان عن الحذاء ذي الكعب العالي الذي لا يمكن أن ترتديه إلّا الغريبة صاحبة القبلة.

لقد قبّل العديد من النساء، منذ سطوع نجمه في (ناكورو) -كان مقياس

شهرته يعود إلى ظهوره مراراً في صحيفة (ناكورو تايمز)- لم يكن يعوزه الاهتمام الأنثوي على الإطلاق، في الواقع، كان هنالك العديد من العروض لدرجة جعلته هو وايرا، صديق طفولته وزميله في الفرقة، يطوّران شيفرات للتمييز بين النساء:

(موجز الأنباء)، كانت العلامة التي يسِمان بها الفتيات اللواتي يرتدين ملابس تكشف معظم أجسادهن. (استثمار طويل الأمد) كان إشارة إلى الفتيات ذوات الأجساد الضخمة. (قريباً) هي إشارة للحسناوات صغيرات السنّ اللواتي كنّ على مشارف التحوّل إلى نساء حقيقيات. (وجبة خارجية) كانت تعني الفتيات الضئيلات اللواتي يمكن حزمهن وأخذهن مثل كيس من رقائق البطاطس.

كانت العديد من النساء الأخريات، بمختلف الأشكال والأحجام التي تتحدّى هذه التصنيفات يتسللن إلى الكواليس ويمتدحن موهبة راجان الغنائية، وكان هو يشكرهن على مديحهن بأدب حتى حين كان يميل إلى الهرب بعيداً، والاختباء من النساء السكارى اللواتي كنّ يصرخن لأنهنّ لا يستطعن السمع جيداً، ومن النساء المتقدمات في السنّ اللواتي كنّ يتعلقن ببقايا الشباب، أو الفتيات الجميلات ذوات الأنفاس الكريهة، وبروح مبادئ ***uhuru*** كانا يتجنّبان صاحبات هذه المقاييس، أمّا اللواتي كنّ يردن اختبار حدود حريتهن الجديدة فكنّ يُشجعن على التقدم إلى الكواليس.

بالكاد ينطبق اسم (كواليس) على هذا المكان، فهو مجرد مساحة ضئيلة تتشارِك جداراً مع محلّ الجزارة، تُوضع فيها المعدّات الموسيقية بعد كلّ أداء، كان البشر يتكوّمون فوق المعدّات المكدسة ويحاولون صنع نوع مختلف من الموسيقا، مصابيح النيون تومض في الخارج، غمامات الدخان من محلّ

الجزارة تعزّز تأثيرات المسرح.

قبل وصول الغريبة صاحبة القبلة بأسبوع واحد إلى المشهد، كانت امرأة خيلية الشعر تتجول في الكواليس تبوح لراجان بحبّها بصوت خشن أجشّ عندما تعثّرت بالمعدات، بينما كانت لا تزال متمسّكة بكوب جعتها، كانت متمددة على الأرض حين أشار إليها راجان لتنضمّ إليه، لكنها كانت أكثر ثمالة من أن تحرّك أيّ عضو من جسمها، مشى راجان نحوها ولمس شعرها، فسقط الشعر المستعار الخيلي كاشفاً عن ضفائر دقيقة سخيفة المظهر، مدَّ يده ليساعدها على النهوض فسقطت أظافرها البلاستيكية، كما هوت أهدابها الاصطناعية حين ردّت رأسها إلى الخلف لتنظر إليه مباشرة، ثم أزالت المرأة طقم أسنانها ورمته في كوب جعتها، حين حلّت خطافات حمالة صدرها، سقطت قبّتاها الصلبتان لتكشفا عن نهدين ذابلين.

فرَّ راجان طالباً تدخّل إيرا الذي ألقى نظرة واحدة على المرأة ثم قال: "مكان البقرات القبيحات هو محلّ الجزارة!" وبهذه الكلمات دُحرجت المرأة، عارية كالحيوانات، إلى محلّ الجزارة حيث استقبلها غاثينجي بعرفان فلسفي: ***Ciakorire Wacu mugunda*** [22]، قد يبدو هذا مثل محاولة لإعادة توزيع الموارد، لكن الشبان في تلك الأيام، سمّوه نضوجاً.

كانوا يجلسون ويضحكون ويتبادلون أنخاب قواريرهم المعمّمة في اليوم التالي، ثم يشربون ويضحكون أكثر، بينما يروون أحداث الليل، يعزفون الموسيقا وتزحف المزيد من المعجبات مسلوبات العقل إلى الكواليس لتكرار الأداء.

---

22 Ciakorire Wacu mugunda: لقد وجد الطعام (واكو) في الحقل، وهي حكمة تدلُّ على أنَّ رزق المرء يأتي إليه بنفسه إن استمرَّ في العمل بجدّ.

من المذهل حقاً قلة عدد الكلمات التي على المرء تبادلها في الكواليس، المكان الذي كان بعض أعضاء الفرقة يسمونه ***kichinjio***[23] أو المسلخ، ربما لم يرَ إيرا أو أيٌّ من أعضاء الفرقة الآخرين حاجة للمزيد من التواصل، ومثل الحيوانات، كانوا يستعملون تقفّي الأثر لاختيار فريستهم، لكن لم يكن الجميع مستعدّاً للمضي في هذه اللعبة. قبل أسبوعين، رفضت فتاة تدعى "آنجي" التعاون مع راجان، على الرغم من أنّها ولجت الكواليس وتعرّت من ملابسها وسألت مطالبةً بصوت هادئ: "ماذا أعني لك؟"

استند راجان على مرفقه الأيمن ونظر إلى الفتاة باهتمام، حتى في الضوء الخافت، كان من الواضح أنها باهرة الجمال، بدا نهداها العاريان منتصبين مثل جفنتين مترعتين، ووركاها العريضان غير متناسقين مع جسدها الصغير، بدا وجودها الهادئ والجميل شاذّاً وسط صوت الضجيج الصاخب القادم من محلّ الجزارة: جوقة السكارى وهم يطلبون جولات جديدة من الشراب وأنين المعدّات الموسيقية تحت وزن شخصين بالغين، ظلّ راجان صامتاً.

"إذذذذاً، هل سمعت سؤالي؟" رددت آنجي من دون أيّ نبرة انزعاج.

شعر راجان بامتعاضه يتصاعد مثل الحموضة المعوية بعد وجبة دسمة، ماذا تتوقع منه هذه الفتاة؟ ولماذا تُحمّل توقعاتها عبء أنّها يجب أن تعني له شيئاً؟

ارتدت آنجي ملابسها واستعدت للمغادرة: "إن كنت تودّ رؤيتي، سأكون في (موونشاين) غداً في الرابعة بعد الظهر." قالت معلنة، "إنّهم يقدّمون شاياً مخمراً لذيذاً." كان موونشاين مؤسسة أخرى من تلك التي كان دخولَها في الماضي حكراً على البيض، وكانت الشابات الإفريقيات يواكبن

---

23 kichinjio: مكان تقديم الأضاحي (السواحيلية).

ركب الحضارة البيضاء سريعاً، مثل احتساء شاي الساعة الرابعة، إن كانت هذه هي المرأة الإفريقية العصرية، فكّر راجان مرتجفاً، فإنه ومن على شاكلته في ورطة كبيرة، إذ إنَّ حقبة الأشياء المجانية قاربت على الانتهاء. التزم راجان بالموعد متذمّراً في اليوم التالي، لكنّه وصل متأخراً نصف ساعة، "ما من استعجال في إفريقيا!" قالت آنجي بمرح، "أنت تدرك بالتأكيد أنّك تستحق الانتظار." كانت تجلس إلى جانب حوض السباحة، بجانب جدار مكلّس، انعكست صورة مقلوبة لها على سطح المياه، صورة أعادت إلى ذهن راجان حكاية الرحلة الغدّارة التي سلكها جدّه بابو بالقارب من الهند إلى مومباسا قبل سنوات عديدة، اقترب راجان من الفتاة، بدت مختلفة كثيراً عن رؤاه الليلية، تذكّر شعرها ذا النهايات المدببة محيطاً بكامل وجهها، لكنّه الآن مشدود إلى الخلف ومثبّت بدبابيس الشعر، مبرزاً جبهتها التي التمعت في مواجهة الشمس، كانت العظام المرتفعة لوجنتيها لا تزال حادّة، أكثر حدّة ربما من إزميل النحّات، ووجهها الهادئ، الطفولي تقريباً، يناقض القناع الناضج، المتمرّس الذي شاهده في الليل، ولأنّه كان معتاداً على الظلمة والراحة التي تُشعره بها الأضواء متعددة الألوان، فقد أخذ راجان يطرف جفنيه بتكرار مثل حيوان خارج جحره، لقد أدرك للمرة الأولى كم كان من النادر له مواجهة ضوء النهار، فعادة ما ينام طيلة النهار ويغنّي في الليل، بدت الشمس مُعمية له، لم يعرف ماذا عليه أن يقول، فهو لم يحتج أبداً أن يقول شيئاً للنساء.

كلهن أتين عند أقدامه تحت إغراء موسيقاه، ورمين أجسادهن عليه من دون أيّ كلمة، أكبر مجهود كان يبذله هو مدّ يده وانتقاء القلّة المختارة من بين بحر المعجبات المفتونات، كان الميكروفون هو عصاه السحرية التي

تجذبهنّ إليه، من دونه كان بلا حول.

أمسكت آنجي يده وشدّت عليها، عيناها دكناوان بالقوة والغموض، انكمش وفكّر بصورة حوض السباحة، متخيلاً نظراتهما منعكسة على سطح الماء، شعر كأنه يغرق في بركة عينيها وصارت يده رخوة في يدها فلم يعد قادراً على الاستمرار في القبض عليها، أسدل نظراته وسحب يده، ثم استأذن ليذهب إلى الحمّام، على الرّغم من أنّه لم يشعر بأيّ حاجة طارئة لذلك، استعمل الباب الخلفي وغادر المكان من دون أن ينطق بكلمة.

غالباً ما كان راجان يستيقظ في أسرّة بالكاد يتذكّر كيف وصل إليها من الأساس، لكنّه لم يحتج إلى أن يقول أيّ شيء هناك لتسيير الأمور، وفي عدد من المرّات كان يشعر بلمحة من الندم، وهو يتجنّب قبلات من أفواه آسنة، أو يتملّص قبل أن تمنحه آسراته الإذن بالمغادرة، مخرجاً نفسه من فوضى لم يشأ أن يعلق فيها، في حالات كهذه، كانت النساء الأكبر عمراً هنَّ المتّهمات، لقد كره إصرارهنَّ على الأحاديث القصيرة التي لا تنتهي إلّا بجرح المشاعر، كان هناك ليقضي وقتاً ممتعاً، لا ليتحدث عن أمور الحياة، أمّا الأسوأ، فهو النساء اللواتي يسألنه عن رأيه في المستقبل القريب تحت إمرة حاكم أسود البشرة، لكنَّ الأمر الذي كان يستمتع به حقاً هو مضاجعة نساء من مختلف الأجيال وتقييم سلوكياتهن وقيمهن تجاه الحياة والحب، لقد اكتشف أنَّ جميع النساء، سواء كنَّ صغيرات أم كبيرات، يسعين خلف تأكيدٍ للحب، أو على الأقل تصريح ما بأنهنَّ يعنين شيئاً بالنسبة له.

الحقيقة كانت أنهنَّ لا يعنين شيئاً، وكان يشكّ أنهن على الأرجح يعرفن هذه الحقيقة، مع ذلك لم يكنَّ قادرات على تركه وشأنه.

ثم وصلت الغريبة صاحبة القبلة وأفسدت كلّ شيء، بهذه البساطة،

لأنَّ القبلة تلك بنكهة اللافندر في ليلة يونيو المعتدلة من عام 1963 بثّت في راجان اضطراباً أصاب بعدواه ذهنه، ثم امتدّ لاحقاً إلى قلبه.

كان يمرّ بلحظات محرجة حين يتوقف فجأة أثناء سيره، مقتنعاً بأنَّ فتاة مرَّ بها في الشارع هي الغريبة صاحبة القبلة، ليجد مظهرها تحوّل إلى صورة مختلفة عن تلك التي في ذهنه، في أوقات أخرى كان يمشي إلى المغاسل في الجاكاراندا ليعيد ملاحقة خطاها، وقد ذهب إلى هناك مراراً حتى بدأ أعضاء الفرقة بالتخمين أنَّ لديه حالة خطيرة من الإسهال.

في لحظات اليأس، كان يقف على نواصي الشوارع، يتفحّص النساء المارّات قبل أن ينظم شجاعته ليواجه إحداهنَّ بعبارة أعدّها مسبقاً، لكنه يتردّد بعد أن يتفحّصها عن قرب، ظنّ أنَّ الغريبة صاحبة القبلة تمتلك غمازتين على خديها وابتسامة رقيقة تتلاعب على شفتيها الممتلئتين، بينما تمشي مبتعدة عنه، لكنها في رؤى أخرى كانت تبدو مكتنزة وغير مبتسمة، في بعض الأحيان كان يكتشف أنّه منحها ملامح من نساء مختلفات مررن في ماضيه حتى اختلط كلّ شيء عليه، ثم يتذكّر أنّه لم ير وجهها حقاً؛ لأنَّ المكان كان غارقاً في العتمة.

في أحد الصباحات، جال راجان من باب إلى باب باحثاً عن شابّات ينتعلن أحذية ذات كعوب مرتفعة، وقد ادّعى أنّه مصوّر يعمل في مجال الأزياء ويبحث عن عارضات لمحاكاة رقصة (الفلامينغو) التي كانت حتّى ذلك الوقت، لكنَّ أحداً لم يتذكّر رؤية أيّ شابّة تنتعل حذاء كهذا، ولم يكن السؤال أكثر من تذكرة للجميع بأنهم لم يرتدوا أيّ نوع من الأحذية. تعززت لا منطقية هذا السؤال بتعليق سيدة في منتصف العمر حين قالت: "وهل يستطيع أحد عزق الأرض أو جلب حمل من الحطب وهو يرتدي حذاءً كالذي تصفه؟"

صفقت المرأة كفيها المشقّقتين للتعبير عن فزعها وصرخت: ***yu kiini!*** لم يستطع الوصول إلى منازل البيض، لأنَّ أحداً منهم لم يكن ليجيب جرس الباب، كما أنّه كان خائفاً من المغامرة بالدخول من دون إذن، لأنّ معظم البيوت كانت تحمل لافتات تحذّر من ***kalimbwa*** أي كلاب متوحشة، وبعد أن وصل بحثه إلى نهاية عقيمة، طرقت ذهنه فكرة وضع إعلان في عمود القلوب الوحيدة في صحيفة (ناكورو تايمز)، لكن من هي التي يبحث عنها؟ أكانت طويلة أم قصيرة؟ دقيقة الجسم أم ممتلئة؟ كم عدد النساء اللواتي سيطابقن ذلك الوصف في (ناكورو)؟ أهي بيضاء البشرة، سوداء أم سمراء؟ تجمّد عقله أمام هذه الأسئلة، لأيٍّ مجموعة من هذه الثلاثة يمكن أن تنتمي فتاة قادرة على التقبيل بهذا الرقي؟ بيضاء على الأرجح، لكنَّ الإفريقيات والهنديات والعربيات كنَّ قادرات على إذهال البيضاوات بعد شهرين فقط من نيلهن لحرياتهن.

لو كان يعرف الأصول العرقية للغريبة صاحبة القبلة، هل كان ذلك ليضيّق دائرة بحثه ويمنحه نتائج أفضل؟ ربما ستخلق المعرفة في الواقع إشكالية كبيرة، فكيف سيصف إعجابه من دون إظهار تحيزاته حيال تاريخها المتخيّل؟ في النهاية، لا يرتدي البشر هوياتهم على وجوههم، أين سيصنّفها في بلاد توجد فيها عشرات المجتمعات؟ وكيف سيصف نفسه على أيّ حال؟ كيني ذو أصول هندية يبحث عن امرأة رشيقة وجميلة قادرة على ارتداء حذاء بكعب عالٍ في الظلام؟

ـ وهل سيكون من الدقيق وصف نفسه بالهندي، بينما معارفه الوحيدة عن شبه القارة تأتي من القصص التي سمعها من أجداده؟ أدرك مذعوراً مخاطر التاريخ والافتراضات التي تحملها الرموز، العمامة تدلّ على أنَّ

الشخص من السيخ[24] لكنّ شعب أكورينوالمولو[25] في البرغون[26] يرتدونها أيضاً، في ذلك المكان يمكن لأيّ كان أن يكون أيّ شيء، وحين بدت الأمور أكيدة ومستقرّة، كانت الطبيعة تنفجر لتذكّره بطبيعة الإنسان الدنيوية، بركان هاجع يثب ليلوّن الأرض برمادي شاحب، انزلاق أرضي يطرح كتلاً من التربة الحمراء تدفن المنازل داخل بطن الأرض، فيمسح المعالم التي استعملها البشر لتحديد تفاصيل وجودهم.

بعد أن أصابه الإرهاق أخيراً من عدم جدوى بحثه، عاد راجان إلى روتينه المتمحور حول الشرب والأكل والغناء في الجاكاراندا.

لم يمثّل ذلك المكان منزل ميلودراما راجان الشخصية فحسب، فقد كان جوّ الفندق عابقاً بالعرض المسرحي الخاصّ بغاثينجي القصّاب أيضاً، أدوات حرفته هي ساطور حادّ، فطنة لاذعة، ورِجْلان رشيقتان مقحمتان بدقّة داخل زوج من الشباشب صغيرة المقاس، أصابع رجليه تَشتمُّ الأرض باحثة عن أيّ مشاكل، تخيّلوا الرجل يرتدي شيئاً كان في قديم الزمان معطفاً أبيض لحماية الملابس من الغبار ثم بهت لونه إلى البني بفعل الزيت والأوساخ، وجهه لحيم يبتسم مظهراً أسنانه في وجه زبون نافد الصبر، يده تداعب الذبيحة برقّة، بينما تمزّق الأخرى عنها شرائح اللحم بكلّ لطف كما لو أنّ الحيوان سيتألّم من تقطيعه بهذا الشكل.

"Choma, chemsha, au tumbukiza?"[27] يسأل غاثينجي، متوقفاً لينظر إلى الزبون، "يا صديقي." يتابع، "دعني أقل لك، ***undo kwo***

---

24 السيخ: ديانة توحيدية درامية، نشأت في شمالي الهند في القرن الخامس عشر، وهي واحدة من أحدث الأديان الرئيسة في العالم.

25 أكورينو المولو: مجموعة عرقية، تعدادها أقلّ من ألف نسمة، يدينون بالإسلام.

26 البرغون: بلدة صغيرة في كينيا تقع على بعد 30 كم غرب العاصمة الإقليمية: ناكورو.

27 "Choma, chemsha, au tumbukiza": مشوي، مسلوق أم بطريقة تامبوكيزا؟

undo، إن كنت تريد هذا اللحم للشيّ فلا بد أن يكون عليه القليل من الدهن، القليل فقط ليجعله يئزّ على المشواة." يشرح بينما تمرُّ سكينه في كتلة لها لون الحليب الفاسد، كان يجمع اللحم بدقّة متناهية ثم القطع التي اقتصّها من الكتلة ويرميها كلّها على الميزان بالعنف الذي حطّم به (موسى) الألواح على جبل سيناء، وعندها يؤدّي الميزان رقصة مهتزّة قبل أن يستقرَّ المؤشّر على الوزن المطلوب تماماً، فيطرق غاثينجي على الغطاء المعدني ليتأكد من صحة الوزن، ثم يومض ضحكة عريضة للزبون المنتظر سائلاً إياه ***"Sawa sawa?"***[28]

وهو يمرّر سيخاً معدنياً داخل قطع اللحم فيثقبها ويلفّها في رزمة يلقيها فوق كتفه، فتحطُّ الصرة فوق منضدة المطبخ محدثة صوت ارتطام خفيف، ثم يصرخ بعدها ***"Choma Hiyo ni"***[29] مشيراً إلى أنَّ اللحم جاهز للشيّ.

"كيف تستطيع أن تكون بهذه الدقّة؟" يسأله الزبون المحتار بينما يناوله النقود.

"يا صديقي، دعني أخبرك ***Undo kwo undo***، مرة بعد مرة، أنا سيّد اللحم." يردّ غاثينجي بلمحة من الغرور بينما يعيد إليه الفكّة، أوراق المئة شِلن في جيب الصدر اليمين، أوراق الخمسين في اليسار، الشلنات المفردة في الجانب الأيسر من بنطاله، والعشرينات في الأيمن، جميع الفئات الكبيرة من العملات الأخرى كانت مخبّأة داخل طبقات الملابس التي يرتديها غاثينجي في جِيب مخيّط داخل معطفه يسميه ***kabangue***[30] وهو ما يعني أنه يفضّل

---

28 Sawa sawa: جيد تماماً.

29 Choma Hiyo ni: هذه للشّي.

30 kabangue: الطارئ.

الموت على مفارقة محتوياته، بينما كان اللحم يشوى، كان غاثينجي يسير بين مختلف الزبائن، مكتملاً بقبعة رئيس الطهاة الخاصّة به، مثل قائد أسطول بحري يتفقّد حرس الشرف، ثم يضع بخفّة لوح تقطيع يحمل لحماً حارّاً على المائدة ليسترضي زبوناً غاضباً ينتظر منذ ساعات.

ويقول له: "هذا هو ***kionjo***[31] معدٌّ فقط ليشحذ الشهية بينما يُطهى اللحم."

كان السادة الجائعون يتخاطفون القطع أسرع مما تتطلب لتقطيعها، ثم يُثنون على القصّاب لعمله الممتاز، وينتظرون، إلا أنَّ روّاد المكان المشدوهين كانوا يشكّلون صفّاً عند محل الجزارة عندما ينضج اللحم الذي طلبوه.

مطالبين **بأرطالهم من اللحم**[32]، لأنَّ غاثينجي نادراً ما كان يبيعهم الوزن الذي طلبوه بأمانة، بما أنَّ المنطقة كانت بالإجمال سيئة الإضاءة، فإنّ أعين السكارى كانت مغشاة بفعل الكحول غالباً، ولم يلاحظ أحد منهم الخيط الشفاف المتدلّي من الميزان، كما لم يتساءل أيّ شخص عن سبب انتعال غاثينجي للشبشب الذي يمكّنه من سحب الخيط بسهولة باستعمال أصابع قدميه، كان الزبائن الذين لا يحصلون على كامل الفكّة المتبقية لهم يهددون غاثينجي، ليس فقط بالاقتصاص من جيبه ***kabangue*** بل ومن خنّاقه أيضاً، في معظم الحالات مالت النزاعات إلى الغليان والامتداد نحو خشبة مسرح الموسيقا، لتنتهي بعدها بهدنة هشّة تستمرّ حتى يأتي غاثينجي بطبق الأمعاء، الطبق الاسترضائي الوحيد المتوفر، لكنّه بحدّ ذاته موضوع للخلاف المستمرّ.

---

31 kionjo: لحم تذوّق فاتح للشهية.

32 أرطال اللحم: إشارة إلى مسرحية شكسبير (تاجر البندقية)، حين طلب شايلوك اليهودي رطل لحم من جسد أنطونيو لقاء دَينه الذي لم يستطع تسديده خلال المهلة التي اتفقا عليها.

"لا تضاهي الأحشاء ذلك اللحم الذي سرقته منّا." قال أحدهم متّهماً في إحدى الأمسيات.

"من قال إنّي سرقت لحماً من أيّ شخص؟" قال غاثينجي مدّعياً، ساطور اللحم في إحدى يديه، والمصباح الكهربائي العاري يتراقص فوق رأسه، أطبق صمت متوتر، سعل أحدهم بعصبية، استرخى غاثينجي وأسقط الساطور، ثم مشى بطريقة خرقاء نحو الجماعة المتذمّرة، كرشه الكبير ناتئ أمامه، بينما تصدر طيّات معطفه الحامي من الغبار حفيفاً مثل ذيل البطة.

"يوماً من الأيام سنشوي كرشك هذا." قال أحدهم مثيراً زوبعة من الضحك.

"سوف يتحمّص جيداً بالدهن الذي عليه." علّق آخر.

"يا صديقي، دعني أقل لك ***Undo kwo undo***، يقول الإنجيل إنَّ المرء يأكل حيث يعمل، أنا آكل من عرق جبيني، لدينا مَثل يقول إنّ الإنسان إن شبع، فعليه تغطية بطنه، لكن إن كان هناك شخص جائع، فأنا سوف أطعمه."

"إذاً ماذا حلَّ بلحمنا؟" قال الصوت الذي اتّهم غاثينجي بالسرقة مصرّاً.

"يا صديقي، دعني أقل لك ...***Undo kwo undo***" كرّر غاثينجي بثقة. "ألم تسمع بالرجل الذي تشاجر مع النار لأنها استهلكت اللحم الخاص به؟ أم كنت تعتقد أن النار تتغذى على عروق اللحم وأجزاء ***mikengeria***؟"

"ويبي، أيّها الساقي، قدم لغاثينجي شيئاً من الجعة."

صرخ أحدهم: "اجلب له شراباً، لقد تكلّم مثل عشرة حكماء!"

وهكذا، كان النزاع حول اللحم والأحشاء يُحَلُّ بأكواب من الجعة المتبوعة بعبارة: "أيّها النادل، اجلب لنا جولة أخرى من الجعة، ولا تدع غاثينجي يظمأ، يا غاثينجي هات لنا كيلو ونصفاً إضافيّين من اللحم، ولا

تدع الحرارة تستنزف الأجزاء الريّانة منه، واترك فيه بعض العظام أيضاً."

ومن نضده، يصرخ غاثينجي: "هاي! اطلبوا من (الراج الهندي) أن يُسمعنا بعض الموسيقا حتى تكتمل الصفقة." وعندها لا يكون أمام إيرا وراجان وباقي الفرقة خيار سوى الانصياع.

استطاعت إلهاءات من هذا النوع صرف ذهن راجان عن التفكير في الغريبة صاحبة القبلة، وانحسر قلقه، تساءل بصمت إن كانت قدرة روّاد المكان على الاحتمال هي ما يسمح لهم بإطاقة بؤسه الموسيقي.

لكنّه استمرّ بالإحساس، من دون أن يكون قادراً على تفسير الأمر، أنَّ الغريبة صاحبة القبلة كانت تعرفه، لهذا قبّلته في الممرّ المعتم، وحتى حين تخلّى عن عملية البحث لم يكن قادراً على نسيانها.

ثم عادت في أحد الأيام، بهذه البساطة، كان راجان على مسرح الجاكاراندا، يمدُّ يده لاصطياد فتاة جميلة من بين الجمهور، حين استطاع اشتمام ذلك العطر اللاذع الحلو، الذي لا يمكن له إخطاؤه، مثل نحلة تجتذبها نبتة مزهرة، قفز عن المسرح ومشى بخطى واسعة نحو الطاولة التي ظنّ أنَّ الرائحة تهبّ منها كالنسيم، وجد نفسه يقف على مسافة قدم واحدة من شابّة مذهلة الجمال، وحتى في الضوء الواهن، كان حضورها طاغياً، جلست مستقيمة الظهر، بينما شعرها الغزير الطويل يصل حتى خصرها، حين وقفت لتحيي راجان، رأى أنَّ خصرها الدقيق كانت متّصلاً بورك هائل الحجم، أو كما كان يحب غاثينجي القصّاب أن يقول، كانت تحمل وركها وأوراك جيرانها، حين تحرّكت، اهتزَّ نهداها المنتصبان بخفّة، على الرّغم من حركتها الرّقيقة، وبدت بشرتها كما لو أنّ لونها قد تغيّر من الأسمر إلى الأبيض إلى الأسمر، بينما تراقصت الأضواء المتذبذبة حولها.

عام 1902، وبعد بناء صرح حبّ السيد بمدة قصيرة، أتت سالي في رحلة إلى (ناكورو) واختبرت مباشرة كيف حصلت البلدة على اسمها، بينما رفعت ساقها لتعتلي العربة التي أُرسلت لإحضارها، تصاعدت وتيرة ريح وقحة، ***ngoma cia aka***، أو الشياطين الإناث، كما يسميها المحليون، فأخذت تعصف بتنورتها يمنة ويسرة قبل أن تسقط قبعتها عن رأسها، حين انحنت سالي لتلتقط قبعتها، طيّرت الريح تنورتها الطويلة الواسعة فقلبتها فوق رأسها، كاشفة عن مؤخرتها الشبيهة بمؤخرة عنزة الماساي، ذلك إن تجاهلنا سروالها الكريمي الذي يشبه بشرتها الفاتحة.

وأدرك الخدم الأفارقة الذين أُرسلوا لإحضارها على الفور بفطرتهم السليمة أنَّ عليهم الفرار فوراً لإنقاذ حيواتهم الغالية، إذ إنّهم خافوا أن يُقحَموا بطريقة ما في هذا الموقف المذلّ، على الرغم من أنَّهم لم يتآمروا مع الطبيعة لإحراج السيدة الإنكليزية، إلا أنَّ رؤية عريّها كانت تحمل معها سمةً من الانتهاك، ففي النهاية كان ***muthungu*** والربّ شيئاً واحداً.

هذه هي القصة التي كان السكان المحليون يحبّون تداولها، بينما يلتهمون كميات هائلة من الطعام. على الرغم من أنَّ الصلة بين الريح العاصفة وحقيقة سالي العارية ورفضها للسيد، الذي كان معظم الأشخاص لا يزالون ينادونه باسم ماكدونالد، لم تُوضّح بشكل صحيح.

لكن، في هذه الأرض التي يتقاطع فيها التاريخ مع الأسطورة، يبقى ما حدث للمرأة الإنكليزية أمراً غير مؤكد، أمّا المؤكد فهو عهد ماكدونالد ألّا يكلّم أيّ امرأة أخرى بعدما رفضته سالي، للمرة الثانية.

***

المرة الأولى التي هجرت فيها سالي ماكدونالد كانت مسبوقة بمواجهة في جنوب إفريقيا التي كانت محطّته الأخيرة قبل إسناد مهمة (محمية شرق إفريقيا البريطانية) إليه، حدث ذلك في الصباح الباكر، حين عاد إلى المنزل فجأة ليجلب دفتر يوميات نسيه، كان قد ترك سالي في السرير، ربما تحدّق في الفراغ، أو تنقّب أنفها، أو تفعل أياً من الأشياء التي تفعلها ربّات المنازل قبل أن يستطعن استحضار طاقاتهن للنهوض ومواجهة يوم آخر.

بالنسبة لسالي، لم يكن هناك ما عليها مواجهته، عدا الشمس التي كانت تحمي نفسها منها بقبّعة مكسيكيّة كبيرة، بينما تقصُّ الأزهار من مرج حديقتها التي كان بستانيٌّ بدوام كاملٍ يعتني بها، وتحمي يديها من أشواك شجيرات الورود بزوج من القفّازات، كان المرء قادراً على تتبّع درب نهار (سالي) عبر متابعة خطّ فناجينها، فنجان إلى جانب السرير لشاي الصباح الباكر الذي تحتسيه وهي لا تزال في منامتها وقدماها غارقتان في شبشب مدفّئ للقدمين على شكل ضفدع، بينما تقلّب صفحات مجلة تحتوي على صور كبيرة لكلاب أصيلة.

فنجان قرب النافذة لشاي الساعة العاشرة الذي تحتسيه من خلف نظارات دكناء أو ستائر مسدلة بينما تبدي إعجابها بجبل تيبل[33]، فنجان على مائدة الطعام لشراب ما قبل الغداء، يُحتسى مع قطعة من خبز مصنوع من حبوب كاملة وطبقة خفيفة من الزبد فوقه، كان إناء الزبدة بحد ذاته موضوع حرب شعواء بين سالي وماكدونالد: هو يحبُّ أن يكون سطح

---

33 تيبل: جبل تيبل أو جبل الطاولة، هو جبل مسطّح القمة يشكّل علامة بارزة تطلّ على مدينة (كيبتاون) في جنوب إفريقيا، كما أنّه مصوّرعلى علم هذه المدينة.

الزبدة أملس ومرتباً، وهي تحبّ استعمال الحافّة المثلومة من السكين، تاركة آثاراً بشعة في الإناء، بالنسبة إلى ماكدونالد فقد كانت هذه الطريقة تعكس الفوضى المتشابكة لحياة سالي، والذي كان قدره أن يتعامل معها، أصبح تنعيم سطح الزبدة واحداً من مهامّ عديدة في روتينه اليومي.

أمّا فنجان الشرفة فقد كان مخصّصاً لشاي الساعة الرابعة، الذي تحتسيه مع البسكويت أو الفاكهة، لم تكن الخادمة تجمع هذا الأثر الطويل من الفناجين إلا بعد أن تخرج سالي للتنزه في المساء، لأنّها كانت تكره مقاطعة خلوتها، وكان الحفاظ على خلوتها هو السبب الذي استعملته للاستمرار في تأخير إنجاب الأطفال: "لا أستطيع التعامل مع الأطفال." قالت بجديّة.

"لا مشكلة عندي مع الأنوف التي يسيل مخاطها أو المؤخرات المبلّلة، لكنّني لا أستطيع احتمال صرخات تلك الأفواه الخالية من الأسنان."

كان ماكدونالد قد لاحظ منذ زمن بعيد ذلك المسار الطويل من الفناجين، لكنه لم يشتكِ من الأمر، فلقد تعلّم -لأنه يعتبر نفسه جندياً حكيماً- أن يختار معاركه بحصافة، إذاً في ذلك الصباح المشؤوم، خاف أن يُقلق سكينة سالي، فتسلل بهدوء إلى المنزل ليجلب دفتر يومياته.

كان يسير على رؤوس أصابعه حين سمع صوت تأوّه قادم من غرفة النوم، توقّف وردَّ رأسه إلى الخلف، سمع تأوهاً آخر، وبدا أنه ينمُّ عن اللذة، شكَّ بأن تحصل سالي على متعة من هذا النوع لمجرد النظر إلى الكلاب الأصيلة ذات الآذان الكبيرة في مجلاتها، شقَّ طريقه نحو باب غرفة النوم، فتحه بهدوء ودخل، لم يكن وجه سالي غارقاً في إحدى المجلات مثلما كان يشكّ، في الواقع، لم يستطع حتى رؤية وجهها، كان المشهد محجوباً بمؤخرة رأس بدا له مألوفاً بشكل مخيف.

استطاع أن يرى عنق رجل ما، بعروق بارزة بسبب الجهد الذي يبذله، وكان منشغلاً بالمهمة التي يؤدّيها إلى درجة أنّه لم يلاحظ حضور ماكدونالد.

أدرك ماكدونالد أنّ الرجل كان بستانيّه أسود البشرة، كان يرى الرجل في وضعية مشابهة وهو يعمل في الحديقة، يداعب التربة ليقتلع الأعشاب، أو يشذّب الشجيرات، والآن يبذل عناية متفانية مشابهة ليؤدّي هذه المهمة، ولبرهة، لم يلاحظ الرجل ولا سالي وجود ماكدونالد، حين لاحظته سالي أخيراً، وبدأت بالصراخ، ظنَّ الرجل الأسود أنّها تصرخ بسبب شيء فعله هو، فتابع ما كان يفعله، لكن حين أسقط ماكدونالد دفتر يومياته من يديه المرتعشتين اللّتين أصبحتا عاجزتين عن حمل أيّ شيء، انتبه الرجل لوجود المتطفّل.

أين يمكن لرجل أن يضرب آخر حتى يُسبّب أكبر قدر ممكن من الألم، من دون أن يؤذي غروره الذي يسحقه مجرد وجود هذا المعتدي تحت سقف بيته؟

بدا ماكدونالد منوّماً مغناطيسياً بفعل هذه المعضلة، تماماً كما تُذهل دفقة النور المفاجئ حشرة خرجت للتوِّ من شقّ في الأثاث، كانت غريزة الجندي في ماكدونالد تخبره بأن يقطع العضو المعتدي، لكنّه لم يمتلك أدنى فكرة ماذا سيفعل به، على الجندي تصوّر العملية بأكملها قبل الإتيان بأيِّ خطوة، هل عليه رميه للكلاب؟ أم الاحتفاظ به كتذكار؟ لم يكن يمتلك سلاحاً في يده، ربما يمكنه استعمال أسنانه، لكنَّ ذلك سيجعل جزءاً من غضبه حميماً، وهو لم يكن متوحّشاً، ليس بعد.

لم يكن بالتأكيد موافقاً على وجود رجل في سريره، لكنَّ تدريبه علّمه أن يُحيّد المشاعر عن العمل، لهذا اختُرعت الأسلحة النارية، لخلق مسافة بين المهاجمين وضحاياهم، حاول الإمساك برجله، لكنَّ الرجل كان

زلقاً مثل سمكة، ولاحظ كم كان ملمس قصبة ساقه أنثوياً، فهي خالية من الشعر أو الندوب.

عقد ماكدونالد العزم على ترك ندبة دائمة على جسده، هرع خارج غرفة النوم ليأتي بسلاح من حقيبته في غرفة الجلوس، لكنّه سريعاً ما تذكّر أنّها كانت في العربة التي تنتظره في الخارج، كان يخسر وقتاً حرجاً، لذلك ركض عائداً إلى غرفة النوم، ليجد الرجل قد اختفى هارباً من النافذة، كانت سالي قد لملمت نفسها وجلست على حافّة السرير منكسرة.

حدّق بها بهياج لعدة لحظات، وهو يرتعش غضباً وخوفاً مما كان يفكّر فيه، صفع سالي صفعة واحدة، صفعة جندي تركت صوت طنين في أذنها.

حين يغمره الارتباك، كما شعر في تلك اللحظة، دائماً ما كانت تعوزه الكلمات تماماً، وحين نطق أخيراً، لم تكن كلماته توبيخاً ذاتياً ولا احتجاجاً، "حتى وإن كان عليكِ فعل هذه الأمور، ألا تودّين أن تكوني محترمة في عين القانون؟"

حملق ماكدونالد فيها قبل أن يسير مبتعداً، كان ذلك تذكيراً مفيداً بأنّه تحت ظل قوانين الفصل العنصري في جنوب إفريقيا، فإنَّ تخالط الأجناس محظور، لذلك مُنع الهنود والسود والبيض وأصحاب البشرات الملونة من التزاوج مع أشخاص من خارج أعراقهم، بينما كان هذا التصريح دلالة على ولاء ماكدونالد للقانون، فإنّه في الوقت نفسه طريقته للقول: يمكنكِ فعل ما تشائين، لكن بالتأكيد ليس مع السود.

لم يناقشا هذه الحادثة بعد ذلك، كانا يتعاملان مع بعضهما بطريقة كان يحب أهل (ناكورو) تسميتها "العدم بواسطة الفم" لم يكلّم أحدهما الآخر أبداً، كان الإذلال قد دفع ماكدونالد إلى الصمت، إذ لم تكن هناك

طريقة لفتح الموضوع من دون طرح شكوك تتعلق بقدراته الذكورية، ففي النهاية، لم يقبض على زوجته وهي تسرق طعاماً أو ملابس، بل قادت خادمها، خادمها الأسود، بعيداً عن أحواض الأزهار نحو سريرها، ليؤدّي دوراً، إمّا فشل هو في أدائه، أو لم يؤدّه بشكل يوصلها إلى الرضى، أمّا بالنسبة إلى سالي فقد بقيت صامتة لأنّها فقدت السمع في واحدة من أذنيها، كما أنّها كانت أكثر انزعاجاً من أن تتحدث على أيّ حال.

لذلك فقد رأى ماكدونالد في إسناد مهمة (مستعمرة شرق إفريقيا البريطانية) إليه مهرباً من محنته الشخصية وإذلاله، وربما سيحصل هو وسالي على فرصة أخرى لإنقاذ زواجهما المضطرب.

سوف أكون (قائم مقام) الإقليم بأكمله، كتب إليها، وعشرات الخدم تحت إمرتي، فحتى إن سعلت، سيأتي أحدهم على الأرجح ليتأكّد إن كنت قد ناديته...

كان ردُّ سالي مقتضباً: حتى وإن كنت الحاكم، لن أذهب معك إلى أيّ مكان، لا الآن ولا في المستقبل.

وهكذا قالت سالي التي تمتلك جذوراً من الثراء والملكية، وكانت مصدر سخرية مستمر بالنسبة لأقران ماكدونالد، قالت إنّها سوف تبقى في إنكلترا بقيّة حياتها. استطاع إقناعها بعد ذلك ألّا تتقدم بطلب للانفصال عنه، أن تمنحهما بعض الوقت لإعادة تدبّر الأمور.

ثم عزم ماكدونالد على عمل أفضل ما يجيده، العمل بجدّ واكتساب الأوسمة لخدمته بريطانيا العظمى، وفكّر في نفسه أنَّ سالي ستفخر به، ربما ستصغي إلى كلامه إن جرى ترسيمه فارساً، سيكون صاحب لقب، تماماً مثل والدها.

هذا ما حفّزه ليسافر إلى شرق إفريقيا، ليترأس المشروع الذي أقرّ رؤساؤه في لندن بأنفسهم أنّه جنوني نوعاً ما، أمّا مهندسوه اللندنيون فقد سمّوه (قطار إكسبريس الجنوني)، متسائلين أين سيبدأ خطّ سكّة الحديد وأين سينتهي، إذ لا يمكن إيجاد شيء ذي قيمة في البراري الإفريقية، لكن كان لا بدّ من إتمام هذا الأمر، وكان ماكدونالد ملتزماً تماماً بفكرة أنّ إنشاء سكّة حديدٍ في المنطقة الداخلية الإفريقية هو سبيله نحو إثبات ذاته والحصول على مصادقة لها، بعد وصوله إلى المستنقعات التي نمت لتتحول إلى بلدة (ناكورو) في وقت قصير، ظنّ معظم السكان المحليون أنه كان مجنوناً تماماً.

(سنوات عزلة إيان إدوارد ماكدونالد)، كما أصبحت السنوات الأربع من الخلوة معروفة في معتقدات ناكورو، فاقت بكثير تلك الساعات القليلة التي قضاها الكاهن تيرنبول في بطن الوحش المعدني، إن كان المرء ليقبل بموازاته الخرافية، مع الأيام الثلاثة التي قضاها (يونان) في بطن الحوت، أو مع تلك الأربعين يوماً التي قضاها المسيح في البريّة، لكن في هذا المكان الذي تتقاطع فيه الأساطير مع التاريخ، ويتصادم فيه الماضي مع الحاضر، يصير لزاماً علينا توضيح الظروف المحيطة بمنزل ماكدونالد وبسالي، المرأة التي بناه من أجلها، إذ إنَّ المرء لا يستطيع التحدّث عن المغني الهندي راجان، عبد الحب، من دون التحدث عن ***ngombo ya wendo*** الأصلي، فالحكايتان تبدآن وتنتهيان في هذا المكان، المنزل الذي بناه ماكدونالد -متموضعاً بين ينبوع حارّ وبحيرة منعشة البرودة- والذي أصبح في النهاية مسرحاً لجدالات غيرِ لائقة وحبّ جيّاش، لاستيعاب القصّة بأكملها، علينا إعادة عقارب الساعة والتفكير بالسافانا الجافّة حيث لا ينتصب شيءٌ سوى أشجار الأقاقيا غير مكتملة النمو ورؤوسها الشوكية مردودة إلى الخلف باستسلام

مطلق تحت الشمس الحارقة، هذا كان ميراث ماكدونالد من الخسارة، العزاء الحلو المرُّ للنبالة التي كان يطمع بنيلها من ملكة إنكلترا، نبالة ضاعت في فجوات البيروقراطية بين لندن ومكان تكليفه في مستعمرة (مومباسا).

وهكذا، كما كان دأب ماكدونالد دائماً، تجاهلَ أيّ أمارات تدلّ على العكس، وتابع أحلامه بوجود مستقبل ممكن له ولسالي، رأى الأرض العذراء وارتعش بالشهوة، فهو يستطيع قهر الطبيعة وتثبيت سيطرته، وبهذا يصنع لنفسه مجده الخاصّ، ويترك أثره في هذا العالم خلال ذلك، لقد زار أماكن متعددة في المستعمرة حيث اعتنق السُكّان المحليون أسماء البعثات التبشيرية التي خاطرت في الوصول إليهم، وعند تذكّرهم شعر بغصة في حنجرته، لأنّ ذكريات وجود رجال الربّ بقيت طويلاً بعد رحيلهم، كانت هناك بلدة **كابارنيت**[34] التي سُمّيت تيمناً بالكاهن (بارنيت) الذي نصب خيمته في (أرض الناندي)، كما يمكن الإشارة إلى بلدة (كيريغيتي) في (أرض الكيكويو)، حيث خلّد حبُّ البريطانيين لرياضة (الكريكيت) وجودهم في اسم المكان.

فوق كلّ شيء، أراد ماكدونالد إسعاد سالي، التي جافته منذ حادثة جنوب إفريقيا، وطوال مدة إنشاء سكّة الحديد، وسوف يثبت لها أنّه جدير بحبها.

لذلك، بعد وقت قصير من تأكيد تسريحه، وصدور تأكيد ثانٍ من لندن بأنَّ اللقب المرجوّ نظير خدماته للإمبراطورية قد استُبدل به خطأً صكُّ ملكيّةٍ قطعة من الأرض لم يرغب بها أو يحتج إليها، كتب ماكدونالد إلى سالي، لم يتلقَّ ردّاً لرسالته الأولى، أو الثانية أو الثالثة أو الرابعة، لكنها أجابت

---

34. كابارنيت: بلدة في مقاطعة (بارينغو)، كينيا.

رسالته السابعة، موضحة أنّ إصراره لم يكن هو الدافع وراء إجابتها، وقد علقت بأن الإصرار دلالة على الحمق -فالرجل الحكيم يمتلك وسائل عديدة لإيصال رسالته، كما قالت- لكنَّ رسالته الأخيرة وصلت في يوم ميلادها، ولم يكن من الجائز التعامل بأيّ نوع من اللؤم في يومها المميز هذا.

قالت سالي إنّها سوف تفكّر في زيارته، ما كان يعني أنها تنظر إلى طلبه بصورةٍ إيجابية، كان يعرف أنَّ سالي ليست من النوع المفكّر، فهي تتصرف وفقاً لنوازعها، وأيُّ ادّعاء بالتفكير، يعني في الواقع أنّها قد اتّخذت قرارها. وصلت رسالتها الأخيرة لتأكيد تواريخ وخطّ رحلتها بعد ستة أشهر، وسوف تصل إلى البلاد بعد ستة أشهر أخرى، كما أضافت:

ينتابني الفضول حيال الطريقة التي بِتَّ تستعمل فيها الشوكة والسكين في هذه الأيام، أتذكّر أنك كنت تجد صعوبة في غرف الزبدة من إنائها ووضعها على الطبق الجانبي، إذ لطالما أحببتَ دهن الزبدة على الخبز مباشرة من الإناء، الأمر الذي لم يفشل في جعلي غاضبة في كلّ مرة، أشكُّ في أنك قد أصبحت تتناول الزبدة من إنائها فورا الآن، بما أنَّ منطقك العسكري لا بدَّ أن يخبرك أنَّ الخبز والزبدة سيلتقيان في المعدة نهاية الأمر.

أرادت (سالي) معرفة إن كان قد تحوّل إلى واحد من السكّان الأصليين، وفكّر ماكدونالد بسعادة أنّه سوف يثبت لها تحوّله إلى شخص أكثر رقياً، سيريها كيف أصبح يضاهي بالرفعة أيّ رجل إنكليزي آخر، بل في الواقع، يضاهي والدها الذي نسخ منه تصميم منزله الريفي في (ديربيشاير) لبناء منزل (ناكورو)، لقد جعل رجاله يعملون مثل الحمير، معظمهم حرفيون جلبهم من الفريق المختار لصيانة سكّة الحديد، ولذلك فقد عملوا من دون أن يمنحهم قرشاً واحداً، لم يعرف أحد منهم أنَّ مشرفهم القديم قد تقاعد.

جُلبت كتل الإسمنت من مستعمرات أخرى بعيدة مثل (الكونغو) و(نياسالاند)، وسُحبت صعوداً بأيدي عمال أفارقة، استُعملت هذه الكتل كأركانٍ أساسٍ ذات تدرّج لوني مختلف بدرجة بسيطة عن باقي الجدار، وكانت مرتّبة بفواصل محسوبة لتصوير نمط على شكل سلّم، حافظ ماكدونالد على تقسيم العمّال الذي كان مطبّقاً أيام إنشاء السكّة، شكّل العمال الأفارقة فريقاً مع حِرَفيٍّ هنديٍّ، وتولّى مهندسٌ أبيضُ اسمُه (جونسون) وقد لقّبه العمال الأفارقة باسم (ما-جوني) الإشراف العام.

غنّى العمال الأغاني ليُشجعوا بعضهم على العمل، وألقوا بالنكات ليصرفوا تركيزهم عن المجهود الذي يقصم الظهر. "هاي، يا رجل، سيعشّش طير على رأسك معتقداً أنّه شجرة!" كان أحد العمال يعبث بهذا القول مع آخر يبدو كسولاً.

"ربما سيساعده في بناء عشّه." يشارك عامل آخر في السخرية.

خلال تركيب سكّة الحديد، لم يكن ماكدونالد يشجّع المزاح بين العمال لأنّه يعتقد أنّ أولئك المشغولين بتحريك ألسنتهم يوجّهون طاقاتهم خطأً، لكنّه أصبح أكثر تسامحاً خلال بناء المنزل، ولم يعرف العمال هذه الحقيقة في الواقع، وليأمنوا تبعات هذا التصرف؛ كانوا مستمرّين في التزام الصمت حين يرونه يقترب منهم. عندما يعجز العمال عن الوصول إلى الأهداف المتوقّعة، كان ماكدونالد ينظّم لهم ورديات ليلية، وذلك هو الوقت الذي استُبدلت فيه المصابيح الكهربائية في السبخات بحشرات الحباحب، وانجذب السُكّان المحليون الذين لم يعرفوا الكهرباء من قبل إلى الأضواء مثل فراشات العث التي كانت تطنّ حول المصابيح، تحرق أجنحتها وهي تؤدّي رقصة الموت الخاصّة بها قبل أن تفسح الطريق أمام حشرات انتحارية

أخرى. تجمهر السكان المحليون بذهول قائلين: ***Muthungu ni hatari***[35]، وهم يبدون إعجابهم بالاكتشافات التي جلبها الرجل الأبيض إلى قريتهم، بهذه المعنويات، لم يتكلّم الكثيرون عن البنّائين الذين ماتوا أو أُصيبوا بإعاقة ما خلال عملهم، أو الذين افترستهم الحيوانات البريّة أثناء وردياتهم الليلية، وحتى أولئك الذين تحدّثوا عن الأمر أنهوا حديثهم بعبق فلسفي: لا يكون المسلخ من دون الدماء فيه.

اكتمل بناء المنزل في عشرة أشهر، أي قبل ستين يوماً من الموعد النهائي المخطط له، كرّس ماكدونالد الشهور الأخيرة للإشراف على الحدائق وأشجار الجاكاراندا التي طلب زراعتها على طول الطريق المؤدّي من محطة القطار إلى منزله؛ حتى تتظلّل سالي بالبراعم الأرجوانية في اللحظة التي تطأ فيها قدمها الأرض في عام 1902، أتت فكرة البراعم من الإنجيل مباشرة، أو من تذكّر ماكدونالد الضبابي لقداسات الكاهن تيرنبول التي تتحدث عن دخول المسيح الدرامي إلى القدس حين ظلّله أتباعه المتحمسون بأوراق النخيل.

لقد اعتقد أنّ أشجار الجاكاراندا تعكس جمال سالي، وقد كانت مكتملة البراعم حين أُرسل حشد من الخدم مع عربة يجرّها حصان لإحضار سالي من محطة قطار (ناكورو) التي تبعد أميالاً قليلة، كانت بعض الأشجار قد طرحت أوراقها جاعلة الأرض السوداء سجادة أرجوانية. بقي ماكدونالد في المنزل لاستقبال الضيوف الذين دُعوا لحضور مأدبة احتفالية، كما دُعيت فرقة من (نايروبي) البعيدة لتعزف خلال الحفل، فضلاً عن رئيس طهاة وطاقم مطبخ، كان هذا رئيس الطهاة ذاته الذي طهى لأول حاَكم استعماري عام 1901، وسوف يُكلّف بالطهي لملكة إنكلترا حين

---

35 Muthungu ni hatari: الرجال البيض خطيرون.

تحضر لزيارة المستعمرة بعد عدة سنوات، جُلبت المعجنات الإنكليزية الطازجة على متن الطائرة التي تُحضر البريد أسبوعياً من نايروبي، انبعثت الروائح الطيبة، وانتشرت موسيقا الآلات النفخية في الجوّ، ممزوجة بضحكات الضيوف الذين وصلوا، فحملت معها إحساساً بالبهجة لهذا الحشد، في قاعة الطعام كانت هناك مشرفة أُتيَ بها من نيروبي ومعها قائمة لتضمن جلوس الأشخاص المناسبين على كلّ مائدة، فعلى سبيل المثال، أُجلِس مهندسو قسم سكّة الحديد مع مختصين في مجال الفنادق وموظفين مدنيين ورجال أعمال. تلخّصت الفكرة في جمع أصحاب المهن المتعدّدة لجعل المحادثات أكثر إثارة للاهتمام، ووضع مختلف وجهات النظر على طاولة النقاش، كانت الموسيقا الإيقاعية الصادرة عن آلات التشيللو والآلات النفخية متناسبة تماماً مع المرطبات الخفيفة المقدمة في أرجاء المكان، أُجلِس الكاهن تيرنبول بين عالم أنثروبولوجيا مختص في البحث الميداني من جامعة لندن يدعى جيسي بوردي، وقائم مقام متقاعد يدعى هنري جيمس، على الطرف الآخر من الطاولة جلست امرأة فتيّة ذات وجه مسفوع بالشمس وأنف مغطّى بالنمش، كان اسمها روزماري تيرنر وقد قهقهت حين عرّف الكاهن تيرنبول[36] بنفسه.

"**كيف يمكن أن يكون لكاهنٍ هذا الاسم المغرور؟**" قالت متشدّقة، ثم قضت بقيّة الأمسية وهي تدوس على حذائه وتقرصه من فخذه، ما حصل لاحقاً يبقى موضوعاً لجدال حامي الوطيس حتى يومنا هذا، من دون الوصول إلى خلاصة واضحة أو إجماع على تفاصيله.

مع مرور الوقت، تكتسب الإشاعات الماضية أوتاداً، ولهذا أصبحت

36 تيرنبول: متحدرمن اللغة الإنكليزية الشمالية والاسكتلندية، ويعني الرجل الذي يمتلك من القوة والشجاعة ما يكفي ليجعل ثوراً مندفعاً يغير اتّجاهه.

سالي أو ***malkia***[37] أسطورةً نتيجة أفعالها، لكن كما يقول السُكّان المحليون: لا دخان بلا نار، والدخان والضباب اللذان أحاطا بزيارة سالي كانا يحملان أمراً ثابتاً وحيداً: أنّها قد أتت فعلاً إلى الحفل متخفّية ثم غادرته سريعاً.

ادّعى بعضهم أنّها حضرت متنكّرة كمتسوّلة لتختبر لطف ماكدونالد، فطاردها الحرّاس على الفور، كما زعم آخرون أنها زارت عطّاراً عند وصولها إلى الشاطئ، فمنحها أعشاباً خاصّة وحلياً سحرية منحتها القدرة على التحوّل إلى قطّة، لتستطيع التجسّس على منزل ماكدونالد وأصدقائه قبل أن تغادر مسرعة، ويختفي كلّ أثر لها، أمّا الإشاعة الثالثة التي أصبحت راسخة في معتقدات (ناكورو) فهي أنَّ سالي وصلت الحفل من دون أيّ تنكّر، ألقت نظرة واحدة على الصرح المبني على شرفها، سخرت منه وشبّهته بقنّ الدجاج، ثم بصقت على الأرض لتظهر تقززها قبل أن تسير مبتعدة وماكدونالد يجري على إثرها ويتوسّلها أن تعود إليه.

إذاً، لحسم هذا النقاش، سنخبركم بالقصة الحقيقية لأحداث ذلك اليوم: وصلت سالي على متن القطار القادم من (مومباسا) كما كان مخططاً له، ورأت الخدم الأفارقة في انتظارها، كانوا يحملون لوحة باسمها مكتوبة بخطّ يد ماكدونالد المخربش الملتفّ، والذي يمكن تمييزه عن بعد ميل، لوّحت سالي للخدم الذين اندفعوا مضطربين لجمع أمتعتها وتوضيبها في العربة، بينما رفعت رجلها لتعتلي العربة، عملت الريح الوقحة التي ذكرناها آنفاً عملها جاعلة تنورتها فوق رأسها لوقت قصير، فشعرت بإحراج بسيط من دون أن تفقد ابتهاجها، حتى بعد أن تخلّى الخدم عن مهمتهم.

---

37 malkia: الملكة (السواحيلية).

خبَّ الحصان عائداً إلى المنزل جارّا الأمتعة من دون الضيفة المهمة فهلع ماكدونالد حين رأى الحصان يعود بحقيبتين، لكن من غير الخدم أو سالي، كانت ردّة فعله دقيقة رياضياً: بجمع العوامل كلّها، استخلص أنَّ سالي والخدم كانوا معاً، بينما تدفّقت ذكريات ذلك الصباح في جنوب إفريقيا عائدة إلى ذهنه، توقف ليفكّر أكثر، كان هنالك أربعة خدم معنيين، حتى مع ترجيح احتمال مضاجعة سالي لخدمها، فهي بالتأكيد لن تستطيع التعامل معهم جميعاً في الوقت نفسه، اجتاحته موجة من الراحة بينما أدرك استحالة وجودهم جميعاً معاً، لكنَّ ظهور الحصان بأمتعة سالي يعني أنها التقت بخدمه، إذاً أين هم؟

بينما استمرَّ الضيوف في الوصول وتحيّة الأصدقاء القدامى، نظّم ماكدونالد على عجل فرقةً بحثٍ استطاعت العثور على جميع الخدم في أقل من ساعة، عند تذكّره لاختطاف أحد المهندسين البريطانيين قبل أربع سنوات، خشي ماكدونالد أن يتحوّل هذا الأمر إلى أزمة مشابهة، فأمر بتقييد الخدم ومنعهم من الفرار باستعمال كلّ الوسائل اللازمة، وهي رسالة مبطنة لما كان رجال الجيش يسمونه (قوة ملائمة). من مظهر الجروح والكدمات والأنوف الدامية التي بدت على الخدم، كان من الواضح أنَّ أولئك الذين أُرسلوا خلفهم قد التزموا بتعليمات ماكدونالد حرفياً، شارك بعض الضيوف السكارى في حملة التأديب حين أُتي بالرجال الأربعة إلى منزل ماكدونالد وقد أُوثقت أيديهم وراء ظهورهم ورُبطوا معاً بحبل واحد، وهكذا إن سقط أحدهم فسيتبعه الباقون.

وصلت سالي إلى مجمّع الأبنية خلال هذا الاضطراب، بعد أن قضت ساعة تقطف الأزهار، بينما تتقفى أثر الحصان، أثارها هذا المشهد بأكمله

ولم تعد تفكّر في السبب الذي قد يكون دفع الخدم إلى الفرار، وميّزت الرجل الذي كان يحمل اللافتة باسمها على الفور، كان مجروحاً أسفل عينه اليسرى، ونظر إليها بتوسّل حين وصلت، فكّرت سالي بحقيقتها العارية، بينما تذكّرت انفضاحها بفعل الريح، كانت تلك طريقة الطبيعة لتذكيرها بضعفها، تماماً مثلما يمشط الإعصار الشواطئ ليعيد للبشر كل الفضلات التي رموها في البحر لدهور، أو كفردة حذاء تطفو إلى سطح الماء بعد غرق صاحبها، اعتقدت سالي أنها تمرُّ بتجربة تتعمد إخبارها أنّها إنسان عادي، ذكّرتها تجربة شبه عريها بالولادة في هذا العالم الجديد، لا يكسوها شيء سوى جلدها.

لم تتفوّه سالي بكلمة واحدة، ولم تتجاوز الرواق، استدارت ببساطة وعادت من حيث أتت، باختلاج في صدرها وارتعاش في شفتيها، بينما عاودتها ذكريات أيامها في الجامعة، كانت قد بدأت بارتياد جامعة لندن لدراسة التاريخ، والتحقت بدافع الفضول بصفٍّ ثانوي يختصُّ بالتاريخ الإفريقي، كُرّس جزء كبير من هذه الدراسة لمناقشة تجارة العبيد عبر المحيط الأطلسي، غمرت الكوابيس سالي وهي تقرأ عن المعاملة اللّا إنسانية التي تعرّض لها العبيد في هذه الرحلات، لكنّ أكثر ما فطر قلبها كان رؤيتها لاسم جدها الأكبر في قائمة التُجّار الذين نقلوا العبيد الأفارقة عبر مدينة (بريستول) الإنكليزية إلى الأراضي الجديدة، كيف يمكن لرجل تربطها به صلة قرابة أن يكون مشتركاً في ظلم مثل هذا؟

نظّمت سالي اعتصاماً فردياً ضدّ العبودية عبر تعويض أيّ شخص أسود سوف تقابله، شاءت الصدفة أن يكون طالباً ملتحياً من (غانا)، رأته في المكتبة عدّة مرات، خجولاً وأخرق بعض الشيء، دعته إلى شراب

وأعطته رقم غرفتها، ثم غادرت هاربة قبل أن يستطيع استجماع صوته للردّ، وصل إلى غرفتها حسب الاتّفاق وقرع الباب باستحياء، قبل أن يتاح له قول: ***Asantehene***[38]، كانت سالي قد خنقته بالقبل وعرّته من ملابسه، كان من السهل إساءة فهم الموضوع على أنه اغتصاب لولا أنَّ الشاب استرخى ورسم على وجهه ابتسامة عريضة.

لم يتوقّف احتجاج المرأة الواحدة الذي نظّمته سالي عند هذه الحادثة، فموعدها مع البستاني في جنوب إفريقيا كان نابعاً من الغريزة ذاتها، شعور خفيّ بالذنب للمعاملة السيئة التي تعرّض لها السود في الماضي واشتراك جدّها في هذا الأمر، بعد قراءتها روايةَ (قلب الظلام) للكاتب (جوزيف كونراد) اكتمل انسلاخها عن امتيازات البيض، أمّا الطريقة التي علّلت بها صواب أو أخلاقية المتعة المستقاة من تشغيل العبيد -الذي كان أساس ثروة عائلتها- فهو أمرٌ مجهولٌ للجميع، قد يكون السبب نفسه الذي يجعل الجندي يسارع في بذل حياته من أجل وطنه، حتى وإن كانت القضية التي تدفع به إلى خطوط المعركة الأمامية نوعاً من الخداع، أو للأشخاص الروحانيين فهو السبب ذاته الذي يجعل رجلاً فاضلاً يفني حياته من أجل الخطأةِ، أمّا تصرفات سالي الداعرة فلم تجعلها فاجرة ولا فاضلة، فأفعالها كانت تزدري القوانين الأرضية، إلا أنّها كانت بعيدة عن كلّ ما هو سماوي، مع ذلك، فمن الصعب الانفصال عن الميزة البسيطة التي منحها إياها ماضيها، والتي جعلتها متحرّرة من قسوة الحاجة إلى كسب قوت يومها، وهكذا تكون قادرة على ارتكاب الزنى وفقاً لإرادتها، وهو واقع أمّنه لها أجدادها قبل عقود طويلة، ويمكن اعتبار حميميّتها مع الرجال السود، سواء كانوا طلاباً

38 Asantehene: شكراً (السواحيلية).

في لندن أو بستانيين في جنوب إفريقيا، نوعاً من ردّ الجميل، شكرٍ للأسلاف السود الذين جعلوا مستقبلها المريح ممكناً.

لذلك عندما لمحت سالي خدم ماكدونالد يتعرّضون لمعاملة وحشية، عاد إليها امتعاضها ذاك ومشت مبتعدة بصمت، صحيح أنها لم تنطق بكلمة، إلا أنَّ العديد من الكلمات قيلت عنها، خاصة بعدما أبلغ ماكدونالد المنكمش والمهزوم ضيوفه المجتمعين، أنَّ ضيفة الشرف على الأرجح لن تزين بحضورها هذه الاحتفالات بسبب بعض التطوّرات غير المتوقعة، لم يكن قادراً على استخلاص أيّ معلومات من الخدم عدا تلك التي تخصّ حادثة الريح وهروبهم من المحطة، لكنَّ الضيوف الذين احتسوا شراباً أكثر من اللازم بقليل صرخوا أنَّ ماكدونالد كان يكذب، لأنَّ بعضهم رأوا ضيفة غامضة تصل وتغادر على الفور تقريباً، ولأنَّ أحداً من المستعمرة لم يقابلها سابقاً، علّق جميعهم على لون بشرتها الذي كان أكثر بياضاً من بشرة أيّ شخص عرفوه في حياتهم، فضلاً عن مشيتها الخفيفة والمهيبة، ونمط ملبسها الذي كان أثقل مما يحتاجه طقس (ناكورو).

كانت رسالة سالي بعد ذلك بشهر هي التي حطّمت قلب ماكدونالد، وأدّت به إلى اكتئاب جعله يحبس نفسه ويعيش في حداد على خسارته، بحلول ذلك الوقت كان ماكدونالد قد تأكّد من وصول سالي إلى الشاطئ حسب ما هو مجدول، ثم مغادرتها مسرعة بعد ذلك، لكنّه لم يمتلك أيّ طريقة للتأكد ما إذا كانت قد زارت منزله أم لا.

أشعر باضطراب شديد وأنا أكتب هذه الرسالة، وهي الأخيرة
منّي إليك، إنَّ قسوتك تجاهي وتجاه أقرانك من البشر، والتي

شهدتُها واحتملتها على مدى الأعوام هي الأساس الذي أتقدّم بناءً عليه بدعوى للانفصال عنك، قلبك هو قلب الظلام.

سالي

لو أنَّ السكان المحليين اطّلعوا شخصياً على هذا الخطاب لاستنتجوا أنَّ سالي ليست إلّا ساحرة تمتلك القدرة على إلقاء تعويذة سحرية لإفلات الروح من عقالها، ذلك لأنَّ المنزل الذي بناه ماكدونالد تحوّل بعد ذلك بقليل إلى قلب ظلام حقيقي، بنوافذه التي بقيت مغلقة لأعوام، واللافتات المنتشرة في كلّ مكان لتذكّر النساء بالبقاء خارج أراضي الملكية. لم يُسمح إلّا للخدم الذكور بالدخول إلى مجمّع الأبنية، وهم أيضاً أُمروا بارتداء أزياء موحدة سوداء لأنَّ سيدهم كان في حداد، على الرغم من أنّه لم يحدّد الشيء الذي فقده فعلاً، أمّا بعض الخدم المفرطون في حماستهم فقد اختاروا ارتداء ملابس من قماش خشن للتعبير عن ولائهم، بينما امتنع الخدم الذين عرفوا أمر الشيفرة السرية المتضمنة في الإعلانات المنتشرة في المكان عن لمس زوجاتهم تضامناً مع سيدهم.

وحين فُتحت الأبواب والنوافذ أخيراً، تفاجأ القرويون برؤية الأبقار ترفع رؤوسها الكبيرة في المدخل، وهو الوقت الذي تحوّل فيه الصرح إلى منزل مزرعة أفسح المجال لاحقاً لمنشأة اجتماعية تركّز على الفصل العنصري، والتي تحوّلت في النهاية إلى مكان متعدد التجهيزات والثقافات يسمّى (الجاكاراندا)، وقد استُبدل بحرف c[39] الذي كان برأي ماكدونالد ذا إيحاءات "استعمارية" حرفُ k المستقى من كلمة (كينيا).

---

39 c: من كلمة Colonial أي استعماري.

والآن، على مشارف الجمهورية الجديدة والفجر الجديد لمواطنيها بألوان بشراتهم المتعددة، كان (الجاكاراندا) على وشك اكتساب هوية جديدة، مرة أخرى.

4

للتاريخ طرق غريبة في الإعلان عن نفسه للحاضر، سواء حدث في ظلمة مريحة أو نور معميّ، وقد يتجلّى برقّة حبة فاصولياء تفلق قشرتها لتخرج منها ثم تصنع موسيقا بسقوطها، وحتى حين تسقط هذه البذرة في أرض خصبة فإنّها تتلّوى من شدّة سقوطها على الأرض وتمدّ يداً خضراء لتنهض، إنَّ بذرة الدهشة التي نبتت من ارتعاش قبلة في تلك الليلة المظلمة استطاعت، خلال أشهر قليلة، أن تنمو بسرعة فائقة، وهكذا أدّت الأحداث إلى أن يصل التاريخ القديم الذي استطاع بابو تفاديه لجيلين كاملين إلى عتبة منزله فجأة، ثم بدأ بالانتشار بحركات بطيئة متعمدة مثل حبل يحترق، وتوهّج الجمر يمتدّ فيه من عقدة إلى عقدة.

ما يثير الحيرة حقّاً كان الدقة التي تمتلكها هذه المكاشفات، مثل الوباء المذكور في الكتاب المقدّس والذي أصاب كلّ المنازل التي لم يضع أصحابها علامة أعلى أبوابها، انبعثت رواسب ماضي بابو وطفت على السطح منزلقة من تحت بابه المقفل، لتفاجئه على حين غرة.

لكنّ هذا استعجال للأحداث، ودفن للدراما الفريدة التي أُميط اللثام عنها في الليلة التي عاودت فيها مريم الظهور في الجاكاراندا بطريقة مذهلة، وأعادت ترتيب كلّ الحيوات التي لمستها، ليس فقط بلسانها ذي

الطعم الشهير، بل كذلك بالكلمات التي انزلقت عن هذا العضو بذاته، إذاً دعونا نتوقف هنا لنتلذذ باللحظة، حين هبط راجان عن المنصة تجتذبه رائحة العطر الحلوة اللاذعة، ومدَّ يده مثل ورقة شجر تتوق للضوء بعد أشهر من الظلمة، مدّ يده نحو المرأة التي شكَّ أنّها الغريبة صاحبة القبلة، والتي شعر بأنَّ وجوده معتمد تماماً عليها.

ظلّت الصبية جالسة بلا حراك، ومن الواضح أنها لم تفهم آداب الرقص في الجاكاراندا، كما أنَّ ظلّ راجان الضئيل كان يواجه أضواء الرقص متّخذاً وضعية تمثال، شعره مربوط على هيئة ذيل حصان، شفته السفلى ترتعش بالتوقّع والفزع، يده لا تزال ممدودةً للفتاة المترددة، كلّ ذلك أمام مئات الأزواج من الأعين التي بدت كأنها منوّمة مغناطيسياً تحت وقع هذا المشهد، شقَّ الصمت الغامر صوت ضربة متردّدة على الطبل، بينما ركع راجان عند أقدام مريم، والكلمات تنبعث إلى الحياة على شفتيه فوراً:

Malaika, nakupenda malaika

nami nifanyeje

kijana mwenzio...[40]

ضجَّ الجمهور مستحسناً، بينما بدأت الفرقة تعزف موسيقا أغنية الحبّ البطيئة التي يحفظها الجميع عن ظهر قلب، أومضت مريم ابتسامة خجولة ثم وقفت، كان الصخب الفوري الذي ملأ المكان قادراً على الإطاحة بسقف الجاكاراندا، وهكذا فحتى مريم لم تكن قادرة على مقاومة اللحن الغزلي،

---

40 ملكة، أحببتُ ملكة
وماذا أفعل
يا صاحبي...

خطَت بضع خطوات تجاه راجان الذي قادها نحو المسرح، مؤدّياً رقصة صغيرة لأنه كان بالكاد قادراً على تمالك نشوته، حين تردّدت على السلالم المؤدّية إلى حلبة الرقص، حملها راجان عن الأرض وأخذ يهزّها بين ذراعيه، لكنه تفاجأ بأنها أثقل وزناً ممّا كان يظنّه، وكاد يخطئ في إحدى الدرجات، إلّا أنّه استعاد توازنه في اللحظة الأخيرة، تخدّرت هي بالبهجة، أو ربما الخوف، بينما صعد بها السلالم، ثم وضعها على المسرح.

استعادت ثباتها وقد التمع قرطاها الدائريّان الكبيران تحت الأضواء المتذبذبة، وشعرها الكثيف يصل حتى خصرها.

ابتسمت ابتسامة عريضة، مظهرة توأماً من الغمّازات، وهي تفرد تجعيدات تنورتها الطويلة. وفكّر راجان، إن كانت هذه هي الغريبة صاحبة القبلة التي صادفها في الظلام، فإنها بالتأكيد لم تكن تخشى أن تكون تحت الأضواء.

تلاشت أغنية الحبّ، واستُبدل بها لحن (موغيشي) الذي جلب إلى المسرح القصص التي كان راجان يسمعها من جدّه بابو عن تجاربه خلال تركيب سكّة الحديد، كانت الرقصة تقليداً لحركة القطار، وقاد راجان مريم للالتحاق بخطّ روّاد المكان وهم يؤدّون دوراتهم عبر ساحة الرقص، وأقدامهم متباعدة إلى أقصى حدٍّ لتقليد سكّة الحديد، وكلّ لفّة حول الملكية تعبّر عن رحلة كاملة.

كانت الأغنية التالية تسمى رقصة ***marebe***[41] وتتضمن قرعًا مدويّاً على الطبول متبوعاً بعويل الجيتار وأصوات نفخ الساكسفون، سُمّيت هذه الأغنية برقصة ***marebe*** لأنها كانت تحكي قصة تاجر هندي باغته أسد في

41 marebe: الآثار أو العلامات (السواحيلية).

غابة تسافو[42] بينما كان يقود بغله إلى المخيم، كان البغل محمّلًا بدلاء من البارافين وحين هاجمه الأسد، حكى بابو لراجان كيف علقت مخالبه بالحبال التي تثبّت الدلاء، حاول البغل الفرار لكنّه شُلّ بسبب الخوف والوزن الإضافي على ظهره، لم يستطع الأسد تخليص نفسه من الحبال الغليظة، تصادمت دلاء البارافين، بينما نهق البغل وهو يحاول طرح الوحش الثقيل عن جسمه.

تصاعدت الأغنية بقرع طبول أعلى يمثّل تصادم الدلاء، وهو عمل أدّاه (تشيغي) قارع الطبول بحسٍّ درامي هائل، كان ينزلق من طبل إلى آخر، مستفزاً روّاد المكان بقوله إنَّ الطبول الجلدية لم تكن مشدودة كفاية، وكانت تحتاج إلى حرارة أعلى، كان يدّعي أنّه سوف يتّجه نحو محلّ الجزارة، لكنَّ المعجبين كانوا يلوّحون له ليعود وهم يلقون بالنقود المعدنية على الطبل، والتي كان تشيغي يقبلها باحترام كوميدي، إن قدّم أحدهم له عملة ورقية، خاصة إن كان المانح امرأة، فقد كان يشير لهم بوضعها في نطاق بنطاله، بينما يلتمع صدره العاري بالعرق.

انعقد لسان (راجان) حين انفرد أخيراً بمريم في الكواليس عند نهاية الحفل الموسيقي.

"أعتذر عن التعريف المتأخر بنفسي." قالت مريم، وهي تقدّم نفسها بشكل لائق، حين قال راجان اسمه ابتسمت بعذوبة: "ومن لا يعرفك؟" قالت بصوت كالنسيم.

حدّق راجان بها ببساطة، منذهلاً بالجمال الذي بدا كما لو أنّه يشعُّ من كلّ مسام جسدها، تألّق وجهُها مع كلّ التفاتة، وقرطاها الفضّيان يتراقصان فيومضان في المكان المعتم، كانت تنتعل زوجاً من الأحذية ذات الكعب العالي

---

42 تسافو: أقدم وأكبر محمية طبيعية في كينيا، تعيش فيها الأسود آكلة البشر.

وأدرك راجان جزِعاً أنها تفوقه طولاً، كانت بالغة الجمال، فلم يستطع تخيّلها تؤدّي أياً من الأمور الاعتيادية التي يفعلها الناس العاديون، مثل امتلاك حركة أمعاء، لم يستطع تخيّل بشاعة كهذه تصدر عن شكل خلّاب كهذا.

"صرتَ فجأة شديد الصمت." همست مريم.

أراد أن يغلق عينيه ويغرق في غزلية هديل صوتها، كان عقله يعدو عبر الشهور القليلة المنصرمة، حين كانت فكرة وجود مريم بحدّ ذاتها تلغي وخزات جوعه وتبعث فيه يأساً ثاقباً جعله يخشى أن يفقد صوابه، تذكّر ليالي الأرق العديدة التي كان يتألم فيها شوقاً إليها، وها هي الآن، في مكان سيّئ الإضاءة، قريبٍ من مكان لقائهما الأول، تبدو أبهى ممّا يتذكّرها حتى، انبعثت ذكرى القبلة من جديد بقوة جعلت راجان يترنّح نحو مريم ويشدّها إليه.

"مهلاً، مهلاً ... *pole pole*[43]" قالت محتجّة: "لا تقفز عَلَيّ كما لو كنت دراجة مسروقة."

ضحك راجان: "أنت لا تدركين كم انتظرت هذه اللّحظة..."

"ظننت أننا بالكاد التقينا منذ ساعة واحدة." ردّت مريم.

أوقف راجان نفسه قبل أن يندفع بالحديث عن قبلتهما الأولى في الظلام والأثر الذي تركته فيه، كان محتاجاً لتقبيل الفتاة ليتأكّد أنها الصبية المنشودة.

"أريد الذهاب إلى البيت." قالت مريم.

"تريدين أن اصطحبك إلى المنزل؟"

ابتسمتْ "سيكون ذلك لطيفاً."

"أين تَسكنين؟"

---

43 pole pole: لا تتعجّل (السواحيلية).

"أين تسكن؟"

"تعنين بيتي؟"

"وما المكان الآخر الذي تسميه البيت؟"

"أنا في البيت الآن!"

"توقّف عن العبث معي."

"أتمنى لو كنتُ أستطيع العبث معك!" ابتسم راجان على الرغم من أنه شعر بعقدة من الفزع المتخثّر في معدته، البيت يعني منزل جدّيه، بابو وفاطمة، بالتأكيد لم تكن هذه الفتاة تعتقد أنّه سيأخذها هناك في أول ليلة يخرجان فيها معاً.

غمر الخزي راجان، كان عمره واحداً وعشرين عاماً ولم ينتقل بعد، ومن المحتمل أنّه لن يغادر البيت أبداً لأنه كان فتى بنجابياً وقدره أن يعيش كلّ حياته مع جديه، حسد رفاقه في الفرقة، فلكل واحد منهم مكان خاصّ به خارج منزل عائلته، امتلك إيرا مسكناً صغيراً منفصلاً عن منزل والدته، لم يكن فخماً، مجرد كوخ من الصفيح، عشرة أقدام بعشرة أقدام، وجدرانه مغطاة بأوراق تغليف اللحوم، بسرير واحد وأرضية ترابية، لكنَّ إيرا استمدَّ منه هيبة كبيرة حين كان يقول لأعضاء الفرقة الآخرين: "لا بدَّ أن أسرع إلى البيت، لديَّ عصفور في القفص..."

لم يكن راجان ليحلم بقول عبارة مثل هذه، كما أنَّ ترتيبات كواليس مسرح الجاكاراندا ساعدت على تقليل تعقيدات من هذا النوع.

لم يسبق له اصطحاب فتاة إلى البيت، إلى منزل جدّيه، لكن في الواقع، لم تعبّر أيّ فتاة من قبل عن رغبة من هذا النوع، بدا أنهنَّ قانعات بتحقيق شهواتهن في الكواليس، لكنَّ هذه لم تكن فتاة عادية، لقد فتّش عنها

لتسعة أشهر وأرادت أن يكون التعامل معها ***pole pole*** فهي ليست دراجة مسروقة.

في تلك الليلة انتهى المطاف براجان ومريم في كوخ إيرا المصنوع من الصفيح على أطراف بحيرة (ناكورو)، قرب أشجار التفاح من نوع ***kei*** [44] والأسيجة التي فصلت منازل الهنود عن منازل الأفارقة، كانت المساكن البيضاء مرتفعة وقريبة من المكان الذي بنى فيه ماكدونالد منزله، وشكّل مخطط البلدة مثلثاً غير مستقر الهيئة، فكلّ جماعة كانت تسابق الأخرى في البناء على إحدى النهايات البعيدة للبحيرة.

المرة الأولى التي التقى فيها إيرا براجان كانت عند السياج الذي يفصل بين الهنود والأفارقة قبل خمسة عشر عاماً، كان إيرا في التاسعة وراجان في السادسة حين أطلَّ برأسه فوق السور الفاصل بين بيته وبيت إيرا في أحد الأيام، أهم ما يتذكّره إيرا عن ذلك اللقاء الأول هو شبه راجان الكبير بلوحة المسيح المعلقة في غرفة معيشتهم، إلا أنّ إكليل الأشواك لم يكن على رأسه بل عند عنقه حيث وصلت حافّة السياج الشائك.

"Maze, umeona mpira?" [45] سأل راجان عند لقائهما الأول، وصوته الرقيق يتردّد مثل الناي:

"إيييييييههه؟" صرخ إيرا.

"كرة الكريكت خاصتنا."

"أين هي؟"

"لقد تدحرجت للتوّ تحت السور." قال الصبي ذو الطوق الشوكي: "هل رأيتها؟"

---

44 kei: تفاح صغير إلى متوسط الحجم، ينمو أصلًا في جنوب إفريقيا.

45 Maze, umeona mpira: هل رأيت الكرة؟ (السواحيلية).

تظاهر إيرا بالبحث، على الرغم من أنَّ الكرة الصلبة الصغيرة كانت تحت عقب قدمه، "*sioni!*"[46] قال بنبرة تنبئ بانتهاء البحث.

"*sawa!*"[47] ردَّ الفتى الآخر باستسلام، ثم مشى بعيداً.

كان إيرا قد خبّأ ثماني عشرة كرة حين اكتشفت والدته أمرها: كرات تنس وكرات كريكيت وكرات قدم، "لن أؤوي لصّاً في هذا المنزل." قالت بينما عاقبته بالضرب على هذا التجاوز: "أعدها إلى المكان الذي جلبتها منه وإلا..."

أبقت والدة إيرا تهديدها غير المحدّد معلقاً، لكنّه كان يمتلك تصوّراً جيداً عمّا سوف يتبعه، كان الابن الأكبر والذكر الوحيد من بين أربعة أطفال، وكانت أمّه مصمّمة على جعله قدوة حسنة لإخوته الأصغر، أمّا والده فقد كان في معسكر اعتقال استعماري، حيث جرى احتجاز الآلاف.

"قد نكون فقراء، لكننا لسنا لصوصاً." قالت والدة إيرا مذكّرة إياه، مشى بتثاقل إلى السور ورمى الكرات من فوقه، ودموعه تتدحرج على وجهه.

قاد ضجيج هبوط الكرات راجان إلى السياج مجدّداً، واستطاع لمح إيرا يختفي داخل بيتهم الطيني، كما لاحظ أنّه كان حافي القدمين.

دخل راجان إلى منزله وانتقى زوجاً من الأحذية لم يعد يناسب مقاس رجله، ثم عاد إلى السياج: "***Maze! Maze! Maaaaaaaaazeeeeeeeeeee!***" طفا صوته عبر الهواء.

ظلَّ إيرا بعيداً، عاد راجان مرّات عديدة إلى السور في ذلك اليوم، كان يريد مقابلة إعادة الكرات التي ظلَّ هو وأقرباؤه يبحثون عنها شهوراً طويلةً بالمثل، لذلك فقد قرّر إرسال هديته في تلك الأمسية.

حطّ زوج الأحذية على سقف الصفيح حيث كانت عائلة إيرا تنتظر

---

46 sioni!: لا أرى شيئاً. (السواحيلية).

47 sawa!: حسناً. (السواحيلية).

نضوج الطعام فوق النار خارج المنزل، على الرغم من كونها رمية طفل إلا أنَّ الحذاء حطَّ بقوة معقولة، مسبباً تساقط لفائف من السخام من السقف داخل قدر الطعام.

في البدء، لم تعرف والدة إيرا كيف تتعامل مع الموقف، فسلّحت نفسها بقطعة ثقيلة من الخشب، وخطت نحو الخارج باحثة عن الجهة المعادية.

كانت الحكومة قد أعلنت حالة من الطوارئ، ووضعت المستعمرة بأكملها تحت حظر تجوّل بالقوة، تضاءلت التفاعلات المجتمعية إلى تذمّر مستمر، وتكدّرت الحياة الثقافية إذ لم يُسمح لأحد بالخروج قبل شروق الشمس أو بعد غروبها، كانت الحيوانات في البريّة أكثر حرية، لم يكن في مقدور المرء السفر من إحدى بقاع البلاد إلى بقعة أخرى فيها من دون تصريح من الزعيم المحلّي، الذي يستمدُّ سلطته من ضابط المقاطعة المسؤول أبيض البشرة، وتعيّن على جميع السكّان المحليين تعليق ***kipande*** [48] في أعناقهم مثل الكلاب، توضّح اسم الشخص وعنوانه، ولم يتوقف الشبه عند هذا الأمر، إذ إنّه كما تدلّ قلادة طوق الكلب على خلوّه من الأمراض، وتلقّيه لمجموعة كبيرة من اللقاحات، فإن ***kipande*** حول عنق الشخص كانت دليلاً على مروره عبر السلطات الاستعمارية، وأنه لا يشكّل أيّ خطر على باقي البشر.

لذلك التزم كلّ إنسان بشؤونه الخاصة ما لم يكن مضطرّاً بشدّة للسفر، ما جعل صوت الاصطدام على السقف مربكاً أكثر بكثير. خطت والدة إيرا إلى الخارج لترى أمامها زوجاً ضئيلاً من الأحذية السوداء، سطحها مكشوط ويكشف عن لبّ بنّي اللون.

---

48 kipande: بطاقة تعريف (السواحيلية).

[49] ***"Maze! Maze! Chukua viatu mimi nampa yeye!"***

غنى راجان من فوق السور.

تنهّدت والدة إيرا مسقطة قطعة الخشب من يدها، ثم عادت إلى الداخل.

"هؤلاء الهنود مولعون بتسبيب ***madharau***[50]، إن كانوا يرغبون في منح شيء ما، فلماذا لا يفعلون ذلك بأسلوب الجيران الصالحين؟ إنّ من يجلب الحذاء هو طفل..."

كانت إثارة إيرا تفوق الوصف، إذ لم يسبق له انتعال أيِّ حذاء، وكان مظهر الحذاء الأسود غامراً، لكنّه عرف من نظرة واحدة على وجه أمّه ضرورة التزام جانب الحذر.

"اذهب!" حثّت إيرا بهمس شرس، "اذهب والتقط ما رموه لك كما يُرمى الثريد البائت للكلب، إن رأيتك تنتعل هذا الحذاء..." وتركت تهديدها معلّقاً من جديد.

انتظرَ حتى غادرتْ أمّه إلى العمل في اليوم التالي قبل أن يحاول انتعال الحذاء، انطلق مسرعاً نحو الخارج وأحضر طست الغسيل، بدا الحوض المعدنيّ الثقيل خفيفاً بين يديه والسعادة تغمره وتغنّي في قلبه، انحنى عند خزّان الماء وفتح الصنبور، تساقطت قطرات الماء بلطف، وأخذت تضرب قعر الحوض بصوت يشبه الطنين بينما تملؤه.

"إياك أن تُفرغ الخزّان." صرخت سيري شقيقة إيرا الصغرى.

أغلق الصنبور وجلس على العشب المتناثر في رقعات عشوائية فوق

---

49 Maze! Maze! Chukua viatu mimi nampa yeye!: فلتأخذ الحذاء الذي أعطيه لك (السواحيلية).

50 Madharau: الأذى (السواحيلية).

التربة الحمراء، ثم غسل رجليه، وجفّفهما سريعاً بقطعة من القماش، كانت الحماسة تسلب أنفاسه وهو يحاول انتعال الحذاء.

حاول إيرا حشر رجله، لكنها كانت أكبر من اللازم، فقفز إلى المطبخ وأتى بملعقة، إلا أنها لم تساعده في مهمّته، استعمل الهلام المخصّص لترطيب ضروع الحيوانات على الجزء الخلفي من الحذاء ودفع قدمه داخله، وأدّى الحيلة نفسها مع القدم الأخرى، لكنَّ الحذاء كان ضيّقاً للغاية، وبالكاد استطاع الوقوف منتصباً، شعر بأنه طفل صغير يجرّب خطواته الأولى.

نزع إيرا الحذاء متذمّراً ثم أخفاه، على أمل أن يمنحه لواحدة من أخواته الأصغر حين تلين والدته قليلاً، بعد مرور عدّة أشهر، لم يستطع تذكّر المكان الذي أخفى الحذاء فيه، ما حوّل هديّة راجان الكريمة إلى هدر فظيع.

مع عودة مريم إلى الجاكاراندا، كان راجان قادراً على التصريح بكلّ فخر: لديَّ عصفور في القفص... حتى إن كان القفص مستعاراً، وحتى إن لم يكن قادراً بعد على تصديق حسن حظه.

بقي مشدوهاً بجمالها الذي استمرّ في التألق تحت ضوء مصباح الكيروسين القصديري في كوخ إيرا، كانت الشعلة الضعيفة ترمي بظلالها من جدار إلى آخر، حملت عيناها لمحة من الزرقة، والتمعتا بروعة حين نظرت إليه.

عقب وصولها، رمت مريم بحقيبتيها على الأرض، وارتمت على السرير كما لو أنها عاشت في هذا المكان طوال حياتها، عاد إيرا بشراشف نظيفة للسرير قبل أن يستأذن ليقضي الليلة في منزل تشيغي قارع الطبول، كان أعضاء الفرقة يمتلكون الحرية في الذهاب إلى منازل بعضهم من دون

تحذير مسبق أو تسويغات، هكذا كانت الأخوّة في الفرقة، فقد فهم كلٌّ منهم هذه التعديلات الضرورية لإفساح المجال أمام (ضيف يبيت الليلة)، كما أحبَّ الرجال الإشارة للأشخاص من هذا النوع، حتى وإن كان الأمر يعني انحشارهم مثل أسماك السردين، لأنَّ العينين في الواقع هما مستقر النوم الوحيد، فلا تهمّ التفاصيل الأخرى.

أشار راجان إلى مريم لتساعده في ترتيب الملاءة، أمسكت بإحدى زواياها ثم علّقت: "كنت أظنني ضيفة، لكن يبدو أنّني قد صرت خادمة المنزل!" ضحك راجان ولم يجب.

حين رفعت مريم جهتها من الملاءة، صنعت تياراً هوائياً بسيطاً أطفأ شعلة المصباح، فغرقت الغرفة في العتمة.

عمَّ صمتٌ قصير قبل أن يرتمي الاثنان على السرير في نوبة من الضحك، وفي هذا الوضع تلقّى راجان قبلة من مريم، وقد حملت بلا أدنى شكّ نكهة اللافندر.

أعقب القبلة حفيف ملابس مريم وهي تتعرى قبل أن تندسَّ فيه وتبدأ بتقبيل عنقه ووجهه، خلع ملابسه بتردّد، منتظراً أن تستعجله بنزع هذه القطعة من الملابس أو تلك، كانت تداعب جسمه بأكمله، لسانها الدافئ الرطب يتلوى على جلده بمرونة ثعبان، بقي راجان ساكناً تماماً، وقد شلّه الخوف.

كان يحاول التوفيق بين مختلف نسخ مريم التي اختبرها، هناك مريم المستقرّة في ذهنه منذ تلك القبلة الأولى في الظلام، والأحداث التالية خلال بحثه عنها، وهناك مريم التي عادت، لينة العريكة وتتصرّف كما لو كانت في المنزل في أي مكان يأخذها إليه، وهناك مريم في الغرفة المعتمة، عارية

كالحيوانات، أنفاسها الحارّة تحرق جلده، حين كانت تجسُّ جسده بلسانها وصلت إلى سرّته واتجهت أكثر نحو الأسفل، فوهن جسمه.

"ما المشكلة؟" سألته بهدوء.

لم يجب.

"ما المشكلة يا صديقي؟" قالت من جديد بصوت هادئ.

"لا أعرف." قال راجان بصدق.

"استرخِ يا عزيزي..." قالت مهدّئة إياه: "استرررررخِ."

وهذا ما فعله راجان على مدى الأيام القليلة اللاحقة، جسداهما العاريان يشهدان على مرور الوقت.

حصل طيرَا الحب على وجباتِ طعام سريّة مهرّبة بفواصل مناسبة من مطابخ مختلفة، **الأروروت**[51] والبطاطس الحلوة من مطبخ والدة إيرا، **خبز النان**[52] المدهون بالزبدة والسمبوسة مختلسة من مطبخ فاطمة جدة راجان، أمّا الشاي المحلّى مع الحليب فقد كان يأتي من المنزلين.

تنصُّ الأعراف الاجتماعية على حظر قضاء الفتيات الليل في منازل أحبائِهن الشبّان، لذلك فإنَّ قضاء عدة ليالٍ كان يُعدّ انتهاكاً كبيراً.

حين عجزت مريم عن إيجاد مفاتيح حقائبها، تسلّل راجان إلى البيت مجدّداً وعاد ببعضٍ من قمصانه وسراويل الجينز خاصته، وقد كان قياسها مطابقاً لمقاس مريم.

"يبدو أنّك كنت تحتفظ بملابسي." علّقت مريم بمرح وهي ترتمي على السرير مجدّداً وتدنو منه، بدا كما لو أنهما يستطيعان العيش بهذه الطريقة لباقي حياتيهما.

---

51 الأروروت: نبات عشبي، يُستخرج النشاء من جذره الذي يشبه البطاطس.

52 خبز النان: خبز مسطّح ينتشر تحضيره في جنوب ووسط آسيا.

إنَّ طول النهار زمنٌ طويلٌ لذلك الذي ينشغل بشكل رئيس بالأكل والشرب والنوم، في الواقع، يمكن أن نقول ذلك عن النهار والليل، لأنَّ المرء، إن قضى النهار في الأكل والشرب، من غير المرجح أن ينام/ تنام في الليل، بدأت العديد من المؤسسات بالظهور في ناكورو، معلنة عن نفسها أنها ملاهٍ نهارية وليلية.

قد يفترِض المرء أنَّ زوار النهار يختلفون عن بومات الليل، لكنَّ ذلك لم يكن صحيحاً بالضرورة، هكذا كان راجان ومريم يحتفلان نهاراً وليلاً، حتى في عزلة منزل إيرا.

بحلول يومهما الثالث على التوالي معاً، كانت مريم قد حازت على كامل ثقة راجان، أخبرها أموراً لم تسبق له مشاركتها مع أحد، حتى إيرا.

هناك شيء مثير للفضول حيال رغبة البشر بالإفضاء بهمومهم للغرباء تماماً عنهم، ربما يعود ذلك إلى أنَّ الغرباء، مثل جدول الماء، يتابعون مسيرهم مع طلوع الفجر، ما يقلّل من احتمالية استعمال ما نشاركه معهم ضدّنا، أو ربما لأنَّ الغريب لا يُطلق أحكاماً علينا، وقد أثبتت مريم أنّها غير متسرّعة في إطلاق أحكامها منذ تلك الليلة الأولى مع راجان، الذي غالبه خوفه فجعله يفشل في الارتقاء لمواكبة الحدث، حثّته ببساطة على الاسترخاء، وقالت ضاحكة إنّها لم تسمع عن أيّ شخص مات لقلة ممارسته الجنس، تماماً كما ردّت على راجان في الصباح التالي حين تذمّر من استعمالها المفرط للسكر في شايها.

"هل سبق أن سمعت بنحلة نُقلت إلى المشفى لأنها تناولت الكثير من العسل؟" أجابته.

كانت طبيعتها العذبة هي التي شجّعت راجان على مشاركة أسراره

معها، على الرغم من أنّها شاركته القليل جداً عن نفسها وعن حقائبها المغلقة الغامضة، لكنَّ راجان لم يشعر بأيّ ندم لمشاركتها قصته، أخبرها باقتضاب عن بحثه عنها، متجنّباً الأجزاء المحرجة من الموضوع.

"أنت بقرة حقاً!" قالت بحبور: "ما تحتاجه هو أن يحلبك أحدهم جيّداً ليخلّصك من كلّ الحماقة التي فيك."

ضحك راجان معها، ثم تابع الحديث عن حياته، جزعاً من أنَّ سؤاله عن حياتها هي قد يجعلها تفرّ منه.

وهكذا أخبرها عن جده بابو وجدته فاطمة، ووالده رشيد الذي سافر ليدرس في إنكلترا ثم بقي هناك، ووالدته أمينة التي لحقت به في نهاية المطاف.

"لقد تركني في ذروة حالة الطوارئ، حين كنت في العاشرة تقريباً." قال راجان عن والده: "والآن صار عمري ضِعف ذلك."

"هل تشتاق إليه؟"

توقّف راجان عن الكلام ونظر إلى مريم: "أنتِ أول شخص يسألني هذا السؤال." قال متنهداً: "لقد مضت عشر سنوات من العزلة، وكلُّ ما يقوله جدي حين أسأله عن والدي هو: لقد أتينا في مراكب شراعية لنبني خطّ سكّة الحديد، ثم غادرنا في طائرات."

"هل تشتاق إليه؟" سألت مريم بإصرار بعد صمت قصير.

"لا أعرف." هزَّ كتفه العارية مستنكراً.

ثم قال بعد لحظة: "في بعض الأحيان، أتساءل كيف كانت حياتي لتصبح لو أنّه ظلَّ إلى جانبي."

لفّت مريم ذراعيها حوله: "سوف تكون على ما يرام." قالت مؤكّدة

بنبرة توحي بأنها تتكلم إلى طفل.

"سنكون على ما يرام..."

في يومهما الرابع معاً، اصطحبها راجان إلى الجاكاراندا من جديد وألّف أغنية من أجلها، بهذه البساطة، أو كما يقول المحليّون: ***hau hau.***

لاحقاً في تلك الليلة، وبينما كان ينقّح الأغنية مُدْخِلاً فيها كلمات من لغات محليّة، سألته مريم كيف تعلّم لغة الكيكويو، وهي لغة كانت شائعة في ناكورو، إلّا أنّها نادراً ما كانت تدور على ألسنة الهنود.

وهكذا روى لها راجان قصة رحلته قبل ثلاث سنوات، حين بلغ الثامنة عشرة.

"ظننتها مزحة." اعترف راجان، "كان جدي يلقي بنكاته المعتادة حول سكّة الحديد، لكنّه في هذه المرة قال إنّي سوف أذهب في رحلة بريّة في الصباح التالي، لقد أتينا في مراكب شراعيّة لنضع سكّة الحديد، إذاً فلنسافر على الطريق، هكذا أخبرنا جميعاً."

تفحّص بابو المائدة حيث اجتمع دستتان من الأصدقاء وأفراد العائلة للاحتفال ببلوغ راجان هذه المرحلة المهمّة من حياته، ثم قال: "لقد كانت هذه البلاد شديدة الكرم معنا، ومن اللباقة أن نردَّ لها الجميل." توقف لبرهة ونظر باتّجاه راجان، "سوف أمرّر عصا القيادة إلى هذا الشاب، الآن وقد بلغ سنّ الرشد، لقد حان دوره ليذهب ويشاهد العالم..."

هذا كلُّ ما قاله بابو، وقد ظنّ راجان أنَّ الأمر انتهى عند ذلك، لكن في الصباح التالي أخبروه أنَّ بابو ينتظره وهو مستعدٌّ للانطلاق في رحلة لخدمة بلاده، في البداية ظنّ راجان أنَّ بابو يخادعه، إلى أن خرج نحو مدخل السيارات حيث شاهد موراج، صبي العائلة، كما كانت فاطمة تحبّ تسميته،

يدير المحرّك.

"ما الذي يحدث؟" سأل راجان: "إلى أين نحن ذاهبون؟"

"لا داعي للجدال أيها الشابّ." ردَّ بابو بهدوء: "سنتحدث في طريقنا إلى (ندوندوري)، سوف تكون معلّماً جيداً."

"أين؟ متى؟ لماذا؟" جنَّ جنون راجان بينما دفعه موراج داخل السيارة.

حالما صارا داخل المركبة، قال بابو بهدوء: "إنْ كان الفتية الأميركيون قادرين على السفر عبر العالم ليكونوا متطوّعين، فما عذر فتى هندي يهدر شبابه في مهنة مضحكة مثل إنتاج أصوات تحاكي صوت القطار؟"

"شعرتُ بأنني أُنفى من البلاد." قال راجان لمريم في ذلك اليوم: "كنت غاضباً من جدّي، غاضباً لأنَّ عليَّ الرحيل عن كلّ أصدقائي من دون وداع لائق، غاضباً لأنني أُجبَر على خدمة بلادي كمدرّس في منطقة نائية."

مع استمرار قوانين الطوارئ، كانت البلاد مقفرة، ولم يصادفوا في طريقهم سوى القليل من الأشخاص، معظمهم عناصر أمن، رجال في أواسط أعمارهم يرتدون سراويل قصيرة خاكية اللون، تشبه أرجلهم الطويلة الرمادية أرجل طيور لقالق أبي سعن، وتماثل أسلحتهم منزلية الصنع مناقيرها القاتلة.

حين وصلوا إلى ندوندوري وجّه بابو السائق موراج نحو طريق ترابي يقود إلى منزل خشبي متواضع ذي طابق واحد، محاط بأشجار الأوكاليبتوس.

كان المكان هادئاً بصورة مخيفة، وسأل راجان بنبرة من الرعب في صوته إن كانت هذه هي المدرسة التي سوف يعمل فيها؟

ابتسم بابو وقال شارحاً: "هذا منزل آل كريم، لديهم عمل متواضع هنا، حين يشتهي الهنود خبز الروتي البيتي أو السمبوسة أو البرياني، فهذا هو المكان

الذي يأتون إليه، وأنت سوف تكون محظوظاً بتناول وجبات مطهوة منزلياً في كل يوم."

لم يقل راجان أيّ شيء، فتابع بابو: "أريدك أن تتعرّف إلى صديقي وعائلته، أنت تعرف قصة تحطّم مركبنا الشراعي في طريقنا إلى هذه البلاد لبناء سكّة الحديد، كان كريم على متن ذلك المركب، إنّهم أشخاص طيبون، لقد كنّا مثل أسرة واحدة في شبابنا... نعم، لقد كنت في الماضي شاباً." قهقه بابو، "لدى كريم حفيدة تقاربك سناً، في الواقع كنتما تعرفان بعضكما في صغركما."

هزَّ راجان كتفيه مستنكراً ولم يعلّق، كانت هذه معلومات أكثر من اللازم، على أيّ حال، ما الذي يهمّه من أمر عائلة هندية تعيش في وسط اللّا مكان؟ كلّ ما يحتاجه الآن هو العودة إلى البيت واستئناف حياته.

لم يكد المحرك ينطفئ حتى خرج رجل ضئيل منحسر الشعر، وعلى وجهه ابتسامة عريضة وجدها راجان مغيظة.

"كريم يا صديقي العزيز." حيّاه بابو، تعانقا ثم أخذا يتفحّصان بعضهما.

"لم تَشِخ يوماً واحداً منذ آخر مرة رأيتك فيها." قال كريم، "لقد غمرتك الآلهة بلطفها."

"ليس لدينا ما نتذمّر بشأنه." أجاب بابو، "تبدو في أتمّ عافية." نظر إلى المجمّع السكني الذي لم يتغيّر كثيراً خلال العقود القليلة المنصرمة.

"لا بدَّ أنَّ هذا هو السيد راجان." قال كريم بحماسة.

"أتعلم، حين رأيتك للمرة الأولى كنت هكذا." قوّس راحتيه المفتوحتين كما لو كان يهدهد رضيعاً بين ذراعيه، "والآن تفوقني طولاً." قال مضيفاً، وهو يقف إلى جانب راجان ليقارن طوليهما.

لم يتفوّه راجان بكلمة.

فُتحت نافذتان ضئيلتان بالتزامن، بينما أطلّت أبديا زوجة كريم بوجهها الممتلئ، وفي الطابق العلويّ تلصّصت ليلى، حفيدتهما، من بين ستائر الدانتيل لترى ما يحدث في الأسفل.

وعلى الفور، شعر راجان بأنّهما لا تعجبانه، عاهد نفسه بالنّأي عن هاتين المرأتين الفضوليّتين.

لوّح بابو للمرأة الواقفة داخل ***duka***[53] في الطابق السفلي.

"أبديا، تعالي وسلمي على ضيوفنا." نادى كريم زوجته، "أنت أيضاً يا ليلى." لوّح لحفيدته التي كان ظلّها ظاهراً عبر الستائر.

بينما اقتربت المرأتان من الرجال، جرَّ راجان قدميه بتثاقل وضيق، تحدّث كريم وبابو باللغة البنجابية التي كان راجان بالكاد يفهمها، وشاركتهم أبديا الحديث، وشقَّ موراج طريقه نحو الغابات ليتبوّل، تاركاً راجان وليلى يقفان بصورة محرجة، يتفحصان بعضهما بشكّ.

"تعرّفا على بعضكما." دفعتهما أبديا، "ليلى، اسأليه عن المدرسة التي يرتادها."

نفذّت ليلى كلام جدتها، لكنَّ راجان أجاب بخشونة: "أنا لا أذهب إلى المدرسة."

"لا تذهب إلى المدرسة؟!"

"لا!"

مشى راجان مبتعداً قليلاً عن الأجداد، وفهمت ليلى إشارته فتبعته.

"كيف هذا؟!"

---

duka: المتجر (السواحيلية).

"كيف ماذا؟"

"كيف لا تذهب إلى المدرسة؟"

"حسناً... أنا أذهب."

"حقاً؟"

"سوف ألتحق بمدرسة جديدة."

"حقاً؟ لا بدَّ أنّك متحمس."

قاسها راجان بنظرة، كانت فتاة صغيرة سريعة الانفعال، فكّر، لا تتعدّى الخامسة عشرة من العمر.

"لم أعد تلميذاً." قال بنبرة تحمل شيئاً من التعالي، "سوف أصبح مدرّساً."

فتحت ليلى عينيها على وسعهما "تعني أنّك الشخص الذي كان جدّي يتحدث عنه؟"

كان راجان على وشك الإجابة حين ناداهما جدّه ليعودا. "لستُ متفرّغاً طوال اليوم، بينما أنتما الاثنان لديكما وقت طويل للتعارف."

غمزت أبديا زوجها الذي تنحنح ثم ابتسم.

"حسناً حسناً أيّها السيد راجان، الآن صار لديك بيت آخر بعيداً عن البيت، أنا متأكّد من أنّ ليلى ستسعد بأخذك في جولة..."

لم يكن هناك الكثير لرؤيته في الغرف ذات الأثاث المتناثر، التي عبرتها ليلى على استعجال قبل أن تقوده نحو غرفة بسريرِ رحلاتٍ قابلٍ للطيّ، محشور في إحدى زواياها.

"هذه غرفتك." قالت ليلى "ذكّرني بأن أجلب لك بعض الملاءات."

سمعوا صوت بابو من جديد، وأسرع راجان خارجاً.

"عليك أخذ أمتعتك من السيارة أيّها الشاب، ماذا أقول لجدّتك عندما

أعود؟"

هزَّ راجان كتفيه بلا مبالاة، ولم يقل شيئاً.

"مدير المدرسة ينتظرك في الغد، فلتنل قسطاً من الراحة وتقرأ قليلاً، كُن مستعداً."

أومأ راجان.

لم يرتح ولم يتهيّأ للمدرسة، اكتفى بالجلوس، مصعوقاً بمجرى الأحداث، لو أنَّ أحدهم أخبره بما سيتعرض له في الاثنتي عشرة ساعة المنصرمة، لظنّها مزحة قاسية.

ألقى نظرة في أرجاء الغرفة، كان منزل آل كريم صاخباً، أبديا تتحدّث بصوت مثل آلة الحياكة، كريم يبتسم طوال النهار والليل، وليلى تجلس لافّة ساقاً فوق الأخرى وتقهقه بينما تستمع إلى الأغاني الهندية التي تتفجر من مذياع الترانزستور الخاصّ بها، حين لم يكن كريم أو أبديا منتبهين، كانت ليلى تنظر إلى راجان مقلّبة عينيها بتبرم.

كان العشاء يقدّم في هذه الفوضى، ولم يطل الأمر براجان حتى يستأذن مغادراً المائدة، عرضت ليلى عليه أن تُحضر له الملاءات، وبينما اتّجه نحو غرفته وهو متعب حتى عظامه، حاولتْ جعله يتعثر، تظاهر بأنّه لم يلاحظ ذلك، وهكذا حين جلبت له الملاءات، قلّبت عينيها بتبرم ومدّت لسانها، ضحك راجان بهدوء وتمنى لها ليلة طيبة.

اشتملت المدرسة على عدّة أكواخ روندافيل مبنية من الطين والأغِصان، وأسطح مسقوفة بالعشب، أقام دستة من الأساتذة الآخرين حفلة صغيرة على شرف راجان، كان مدير المدرسة قصير القامة ذا شاربين، بشعر مفروق من وسط رأسه في تصفيفةٍ كانت تُسمَى (سيارة الشحن)، لأنَّ

الفُرجة في وسط الشعر كانت واسعة بما يكفي لتمرّ شاحنة عبرها.

"وجودك هنا يُشعرنا بالفخر والتميز." قال مدير المدرسة بصوت مرتجف لأنه لم تسبق له رؤية هندي من هذا القرب، حدّق الأطفال براجان مندهشين.

"Haiya, muthungu! Muthungu!" صرخ المتدفّقون منهم إلى الصفوف بعد انتهاء الفسحة، منبّهين رفاقهم ليأتوا ويروا رجلاً أبيض، بدا أنَّ بضعة ساعات في السيارة قد حوّلت بشرته السمراء إلى اللون الأبيض.

تطوّع راجان لتدريس مادة التاريخ، لكنَّ مدير المدرسة الضئيل كانت لديه خطط أخرى. "لماذا لا تدرّس اللغة الإنكليزية؟ الأطفال يظنونك رجلاً أبيض!"

كان هنالك قرابة عشرين طفلاً في الصفّ، ثلاثة أو أربعة يتشاركون كلّ مقعد، ولذلك تعيّن على كلّ واحد منهم إفساح المجال للآخر ليكتب وإلا تصادم مرفقاهما.

"صباح الخير أيّها الطلاب." قال راجان مبتسماً في يومه الأول.

"صباح الخير يا سيدتي." أجاب الصفّ، لم يشعر راجان بالإهانة، فقد خمّن، وكان تخمينه صحيحاً، أنَّ مدرّس الإنكليزية السابق كان امرأة.

"الصبية ذكور، الفتيات إناث." بدأ وهو يشير إلى طلاب عشوائيّين. "هل أنت ذكر أم أنثى؟"

العديد من الصبية قالوا إنَّهم إناث، بينما قالت بعض الفتيات أنهنَّ ذكور، ما أثار الكثير من الضحك لدى رفاقهم.

في الأسبوع الثاني من تعيين راجان حضرت ليلى إلى المدرسة بعد ظهيرة أحد الأيام. "تقول جدتي إنّ أيّ فتى هندي سيشتاق بالتأكيد لتناول

السمبوسة وشاي الماسالا، لذلك فقد حضّرت بعضاً منها خصيصاً من أجلك." قالت دفعة واحدة.

أومأ راجان بامتنان، وتساءل في نفسه عن السبب الذي يمنع تأجيل هذه الوجبة حتى يعود إلى المنزل، دعا ليلى إلى غرفة المدرّسين المتواضعة وصبَّ بعضاً من الشاي الحار في الفنجان الوحيد المتوفر، جميع الأساتذة الآخرين كانوا في صفوفهم.

"***Karibu,***[54]" دعاها لتشاركه احتساء الشاي.

"اشرب أنتَ أولاً." ردّت ليلى.

"لا، أنتِ أولاً."

"أنا طلبتُ منك أولاً."

"أنا مضيفكِ."

"أنا صنعتُ الشاي."

"ألم تقولي إنَّ جدتك هي من صنعه."

"هي وأنا."

"إذاً ماذا حضّرتْ كلٌّ منكما؟"

"هي صنعته، وأنا استمعتُ لها، قالت إنَّ الشاي مثل الحُب، أعذبُ عندما نتشاركه."

تضرّج راجان، ماذا تعرف هذه الطفلة عن الحبّ؟

"هل تؤيّد هذا الكلام؟"

"أيّ كلام؟"

"فكرة أنَّ الحُبَّ مثل فنجان من الشاي." قالت ليلى بابتسامة عريضة.

---

54 Karibu: تفضل (السواحيلية).

"ظننت أنَّ جدتك كانت تتحدث عنك، وليس عني."

"لكن ها نحن هنا، مع فنجان من الشاي لنتشاركه."

"لماذا؟" أجاب راجان بحذر.

"لأنك تمتلك فنجاناً واحداً فقط..."

انتهى بهما المطاف بأخذ رشفات من الفنجان وهما يقهقهان بهدوء، على الرغم من هواجسه الأولية، أدرك راجان أنه يستمتع كثيراً برفقة ليلى، واستمرّ هذا الأمر في الأسابيع اللاحقة، أكثرُ ما استمتع به كان نزهاتهما المسائية، أحياناً كانا يلعبان ألعاباً على طول الطريق تنتهي بعض الأوقات في غرفة راجان، في إحدى المرّات، بينما كانا يتصارعان على سريره، أدرك راجان فجأةً أنَّ جسد ليلى الطفولي كان يتحوّل إلى جسم امرأة، كان لها ثديان كبيران تخفيهما تحت كنزات فضفاضة، وقد أدركت هي اكتشافه حين أرخى قبضته ومسح على وجهها برقّة، وفي اللحظة التي كانا فيها على وشك تبادل القبل، وصل صوت أبديا إلى الغرفة:

"ليييلللللى!"

هرعت ليلى خارج الغرفة من دون أن تنطق بكلمة، وما حدث تالياً كان انفجارَ عنادٍ بنجابي عنيف انتهى بلطمة.

في تلك الليلة، بقي راجان متحصّناً في غرفته، ولم ينزل لتناول العشاء، مغموراً بعار الإمساك به وهو يعبث مع ليلى، كما بدأ بالتمشي لأوقات طويلة عبر القرية بعد انتهاء المدرسة ليتجنّب مواجهة أبديا.

في المدرسة كان ينجرف من ساعة إلى ساعة، من يوم إلى آخر، من دون أن يتوضّح له حتى الآن السبب الذي جعل جدّه يسارع في إرساله إلى البريّة، كان المدرسّون الآخرون أكبر منه سناً، وفي البداية دعاه بعضهم إلى منازلهم،

لكنَّ راجان رفض جميع الدعوات، وهذه هي الفترة التي بدأ فيها بقراءة الكتب التي أعطاه إياها بابو: قصة تجاربي مع الحقيقة للمهاتما غاندي، تعليمي الأكبر لبوكر تي واشنطن، في مواجهة جبل كينيا لجومو كينياتا، وأتكلم عن الحرية لكوامي نكروما.

خلال واحدة من نزهاته المنعزلة، التقى بصبي صغير يبلغ الخامسة أو السادسة من العمر، كان الصبي يتحدّث بلا توقف بلغة الكيكويو وفي يده وعاء من الثريد الذي كان يرتشف منه بين نوبات من النشقات المملوءة بالمخاط.

دلَّ لباس الطفل الخاكي الموحّد على أنّه يرتاد المدرسة التي كان راجان يدرّس فيها، لكنّه لم يكن ليستطيع تمييزه من بين ثلاثمئة تلميذ آخرين، بينما استمرّ الطفل في حواره من طرف واحد بلغة الكيكويو، أومأ راجان وابتسم وهو يتابع سيره.

في أحد الأيام، تبع الصبي راجان إلى منزل كريم وأبديا وهو يحمل هدية من خبز الشاباتي الملفوف في ورقة ممزّقة من كتاب الرياضيات، في يوم آخر، أحضر ليتراً من الحليب في قارورة مشروبات غازية، وفي مرة ثالثة جلب بيضة مكسورة على إثر حادث بسيط في الطريق.

بعد عدة أسابيع، أدرك راجان أنّه لم يكن قادراً على فهم كلام الصبي كلّه فحسب، بل أصبح في استطاعته أيضاً مشاركته بعض الأحاديث القصيرة، استاءت ليلى من موضع عاطفة راجان الجديد، وتجاهل كريم وأبديا الصبي تماماً، ومع نهاية الفصل الدراسي صار راجان يتقن لغة الكيكويو بطلاقة.

"أراد جدّي منّي ردَّ بعض الجميل للمجتمع، لكنّني اكتسبت شيئاً عوضاً عن ذلك، لغة جعلتني كينياً حقيقياً." قال راجان لمريم في تلك الليلة، "كانت

ابتسامته تمتدّ من أذن إلى أخرى حين حضر في نهاية الفصل الدراسي ليعيدني إلى المنزل، لم يفصح عن السبب الذي جعله بهذه السعادة، لكنّه بدا فخوراً أنّي استطعت النجاة من هذا الموقف، وكمكافأة إضافية تعلّمت لغة جديدة، وهكذا كانت رحلة ندوندوري نوعاً من التحضير لما سوف يأتي لاحقاً..."

"بأي طريقة؟"

"أشعر أنّي لو كنت عاجزاً عن تكلّم أيّ لغة محلية، لما كان فنّي أصلياً، وسأكون مجرد ***muhindi***[55] آخر."

"لماذا تقول هذا الكلام؟"

"أنا هندي، ألستُ كذلك؟"

"ما الذي يعنيه هذا؟"

"لا أعرف." هزَّ كتفيه دون مبالاة، "يحمل لون بشرتي..."

تمهّل في الكلام، "أو على الأقلّ كان يحمل في الماضي، دلالاتٍ سياسية، البيض في رأس الهرم، والهنود بعدهم، ثم العرب، وفي النهاية يأتي الأفارقة، هذا هو الامتياز السياسي."

"ما الذي تغيّر الآن؟"

"نحن ننتظر لنعرف، لكن مع حلول الاستقلال سيكون الأفارقة في أعلى الهرم."

"و...؟"

"لا أعرف، الهنود في الوسط؟ البيض في الأسفل؟"

"ماذا يقول أصدقاؤك؟"

---

55 muhindi: هندي (السواحيلية).

"أيّ أصدقاء؟"

"رفاقك في الفرقة."

"إيرا طبعاً صديقي منذ كان عمري خمس أو ست سنوات، ونحن لا نخوض محادثات سياسية، هو صديقي ببساطة."

"وهل يشعر تجاهك بالطريقة نفسها؟"

"ماذا تعنين؟"

"هل يعتبرك صديقه من دون شروط؟"

"بالتأكيد."

"إذاً ما هذا الضغط الذي تشعر به حول تكلّم اللغات المحلية؟"

"أسأتِ فهمي، لا يتعلق الأمر بأصدقائي، بل بي، أريد أن أكون أكثر من مجرد هندي، أريد أن أكون كينياً متشبّعاً بثقافات أخرى."

"لا أصدّق ما تقول." قالت مريم برقّة وهي تهزّ رأسها.

"لماذا؟ أنا أخبرك الحقيقة."

"أنا لا أشكّك في تفاصيل حكايتك، ما لا أصدّقه هو ذهابك إلى قريتي، لقد نشأت قرب تلك المدرسة تماماً!" قالت بتعجب، "في الواقع، إنّ أسرتي الحاضنة هي من أنشأت هذه المدرسة."

"حقاً؟! إذاً عليكِ الالتقاء بجدّي، من المؤكد أنّه يعرف أسرتك."

"قلت لك إنّهم أسرتي الحاضنة."

"وما الفرق، إنهم لا يزالون أسرتك!"

"ليس تماماً، هناك سبب لوجود كلمة حاضنة في الاسم."

"ماذا تعنين؟"

"العائلة الحاضنة أقلّ مرتبة بطريقة ما."

"أقل مرتبة! يا إلهي، أين تعلمتِ التكلم بهذه الطريقة! لكن، حقاً، من تكون عائلتك الحقيقية؟"

"ليتني أعرف."

"لا بد أنّك تمزحين."

"أبداً، لا أعرف عائلتي، ولا يهمّني أن أعرف، حسناً يهمّني، لكنّي لا أعرفهم."

"وهذا يجعل منك...؟"

"Mkosa kabila"[56]

"كوني جديّة."

"بلى، ليس لي قبيلة." بعد دقيقة، أضافت مريم: "ليست لي عائلة."

أمعن راجان النظر فيها باهتمام شديد، بدت كما لو أنها نتاج تصالب بين عرقين، عربي وهندي، أو قوقازي وإفريقي، أو مزيج من الأربعة معاً، "بالمناسبة، ما هو عرقك؟"

"وما أهمية هذا الأمر؟"

"إنه حقاً غير مهم..."

"تماماً، ولذلك فلا داعي لأن تنشغل به، لكنَّ ما يزعجني هو تلك الفتاة ليلى، ماذا حدث لها؟"

"متى؟ قبل أم بعد؟"

"أتعني بأنكما فعلتماها؟!"

"أعني قبل أم بعد رحلتي؟"

"كفَّ عن التحذلق، أفعلتماها أم لا؟"

---

56 Mkosa kabila: بلا قبيلة (السواحيلية).

"ماذا تظنين؟"

"أخبرني أنت!"

"ولماذا -حسب عبارتك- تشغلين نفسك بهذا الموضوع؟"

"لستُ منشغلة به، لكني فقط، فقط أشعر بالفضول."

"حسناً، دعيني أخبرك ما الذي أثار فضولي فعلاً إلى أقصى حدّ. أعطت جدة ليلى جدّي انطباعاً بأننا مقرّبان للغاية، لكن حين كنتُ هناك، فعلت كلّ ما في وسعها لتبقينا بعيدين عن بعض."

"هذا غريب." أكّدت مريم، "لكنه لا يجيب عن سؤالي!"

"لن أجيب عن سؤالك." صرّح راجان.

كان بابو قد لاحظ الساعات التي يغيبها راجان، إذ بالكاد يجلس لعدّة دقائق في كلّ مرة، وقال لزوجته فاطمة: "أظنّه يعاني من متاعب مع النساء، إنه يتصرّف كما لو أنّ النمل يسير في مؤخرته."

تنحنحت فاطمة وقالت: "لقد لاحظت كذلك اضطرابه."

"إنه يمضي الكثير من الوقت هناك." تابع بابو وهو ينظر من النافذة باتّجاه منزل عائلة إيرا، "أترين؟ هذه طبعات قدميه، أظنّهم قد صنعوا فجوة في السياج." أشار إلى أجمات مرتفعة حيث التقى إيرا براجان للمرّة الأولى، والتي صارت الآن كتلة شديدة العلو من أوراق النباتات التي تحجب الجهة الأخرى تماماً، في الجزء الأسفل من السياج كانت هناك فجوة اعتاد راجان التسلّل منها.

"على الشبّان المرور بهذه المراحل، أليس كذلك؟" قالت فاطمة بهدوء.

"أنا لا أقول عكس ذلك." أجاب بابو مدافعاً، "على كلّ شخص تعلّم أمور الحياة هذه بطريقته الخاصة." توقف قليلاً، لكنَّ فاطمة لم تقل شيئاً.

"كان عليَّ إخباره." قال بابو في النهاية، ثم تنهّد كما لو أنَّ هذا الاعتراف قد أزال حملاً من على صدره. "كان عليّ إخباره."

"قلت لك، لكن ماذا تقول الحكمة؟ يستخفّ الجميع بنبوءة المرأة إلى أن تتحقق."

"ليس هناك ما يستدعي التنبؤ، لم يحدث شيء."

"أنت لست متأكداً من هذا الأمر." عارضته فاطمة.

"أعرف."

"لقد قلتَ للتو إنَّه ربما يواجِه مشاكل متعلقة بالنساء." ذكّرَت بابو.

"قلتُ إنّي أشكّ في ذلك، لكنَّ هذا لا يعني نهاية العالم."

"لكنّه قد ينهي العديد من الأمور..."

"لا يزال لدينا الوقت الكافي لإخباره، أليس كذلك؟"

"علينا إخباره قريباً، يجب أن يعرف قبل فوات الأوان."

"لا يفوت الأوان أبداً."

"هذا ما كنتَ تقوله طوال هذه السنوات." قالت فاطمة وقد بدأت نبرة من الانزعاج تتسلّلُ إلى صوتها.

"هل تعلم ماذا سيحلُّ بسمعتنا إن ألغينا الخطبة؟"

"دعي الشابَّ وشأنه." قال بابو وهو يستند على ظهر كرسيه.

"إن لم تخبره فسوف أخبره أنا." هدّدت فاطمة.

"كنت أنوي إخباره قبل ثلاث سنوات حين بلغ سنّ الرشد، لكنَّ الأمور كانت معقّدة تحت ظلِّ قانون الطوارئ."

مشت فاطمة إلى النافذة حيث كان بابو واقفاً قبل لحظات، "وسوف تكون الأمور أكثر تعقيداً إن لم يعرف، يحتاج إلى أن يعرف حتى يستريح قلبه."

"ومن قال إنَّ قلبه ليس مرتاحاً."

"لماذا يجب أن يكون كلّ شيء بالغ الصعوبة؟"

"ألم أقل إنّي سوف أخبره؟ لقد عرّفته على العائلة، والتقى بالفتاة، وبدا أنّ أحدهما معجب بالآخر، ماذا يستطيع المرء أن يفعل أكثر من الانتظار؟"

"لو لم يكن لاهياً بهذه الشؤون الموسيقية، التي وافقت عليها أنت ضد إرادتي، لما كان يعبث طوال الوقت مع كلّ هؤلاء الفتيات."

"إنه لا يعبث مع أيّ فتاة."

"ألم تقل للتوّ إنّك تشكُّ في ذلك؟ أم تريد إنكار كلماتك قبل أن تجفّ من على شفتيك؟"

"لا تقوّليني ما لم أقله."

"أخبرني، أيّ فتى هندي يعزف الموسيقا في هذه البلدة؟ هه؟ قل لي!"

أرى أنَّ لديك ***maneno***[57]، في البدء كان الأمر متعلقاً بالخطبة، ثم بالعبث مع الفتيات، والآن الموسيقا..."

"أنا أقول لك إنّك تفسد ذلك الصبي، لكن هل تصغي إليّ؟ أتمنى لو كان والده هنا."

"هيا، هيا! الآن فهمتُ الموضوع، أصبحت المشكلة أنّي أفسد الصبي لأنَّ والده ليس هنا."

"لكنَّ هذه هي الحقيقة، أليست كذلك؟"

"لديكِ القدرة دوماً على إذهالي." قال بابو، وهو يهزّ رأسه، "أنا الذي نبهتكِ لهذا الأمر حتى نستطيع مراقبة الشابّ معاً، والآن أنتِ، تذهلينني فحسب..."

---

57 maneno: كلام (السواحيلية).

كان ارتباطهما مثيراً للاهتمام، "أيتها الزوجة." قال بابو لفاطمة عقب وصولها إلى ناكورو، بعد عدّة سنوات من افتراقهما أثناء عمل بابو في إنشاء السكّة. "زواجنا كان مدبّراً، لذلك لا ضرر من أن ندبّر ترتيباً يناسبنا في حياتنا اليومية."

تنهّدت فاطمة فحسب.

"أولاً." بدأ بابو، "أقسم أنّي لن أسألك عن ابنك ذاك إن وعدتِ ألّا تتحدّثي بأمر الأطفال الذين سمعتِ أنهم يُنسبون إليّ، ثانياً، لن يكون هناك التزامات بأن يلمس أحدنا الآخر، إلا إن اقتضت الضرورة استعمال دواء ما، أو تبادل التحية في اجتماعات العائلة، كما لا شأن لأيٍّ منّا بالمكان الذي يذهب إليه الآخر للحصول على بعض (اللمس)."

"حقاً؟" سألت فاطمة.

"نعم، حقاً." قال بابو، "للتأكّد من أنَّ هذه القاعدة تُنفَّذ بحذافيرها، فلنجلب صبيّك ذاك لينام بيننا، في المكان المسمّى أرضاً حيادية، وهكذا نضمن ألّا يلمس أحدنا الآخر بالخطأ أثناء نومنا، أخيراً، دعينا نتّفق أنَّ ابنك هذا سوف يصبح ابننا معاً، ولا حاجة به لمعرفة هذه القصة، شريطة أن يغادر منزلي حين يبلغ الثامنة عشرة، ما قولك؟"

بقيت فاطمة صامتة لبرهة قبل أن تجيب بتردّد: "أنت، يبدو أنّك فكّرت في الموضوع جيداً، إذاً ربما عليَّ أنا أيضاً التفكير قبل إجابتك."

"لا داعي للتفكير، أيّتها الزوجة، ليس هنالك ما يستدعي التفكير، كلّ ما أحتاجه منك ببساطة هو نعم أو لا."

"هذا ما تظنّه." قالت فاطمة مراوغةً، "لكنّ الأمر ليس بهذه السهولة."

"بل هو بالغ السهولة، ***mboga kabisa*** كما يقول السواحيليون، سهل

مثل مضغ حفنة من الخضار، الأمر الوحيد الذي قد يستدعي بعض التفكير هو إيجاد مكان للحصول على بعض (اللمس) بما أنَّ ذلك لن يكون موجوداً في البيت. لكن من المنحى الذي تبدو عليه الأمور، أظنّ أنّنا لن نجد صعوبة في العثور على ذلك."

كانت فاطمة صامتة.

"نعم أم لا؟"

لم تنبس فاطمة بكلمة.

"سوف أعتبر ذلك (لا) أنثوية، والتي قد تعني (نعم)."

"بابو راجان سليم، هل فقدت عقلك؟"

"ظننتُ أنّك تعرفين ذلك مسبقاً." أجاب بابو وهو ينهض ليغادر.

وهكذا كان كشف مريم حول مدرسة ندوندوري هو الذي دفع راجان ليقدّمها إلى جدّه في هذا الوقت المبكر من علاقتهما، كان راجان سعيداً بأنَّ الفتاة الأولى التي يصطحبها إلى المنزل كانت تمتلك شيئاً مشتركاً مع جده.

كان بابو يقضي معظم يومه جالساً يهزُّ كرسيّه الدوّار، سيجارُه في يده، نظّارات القراءة على جبهته، تمسكها خصلات من الشعر الذي يبدو خشناً في الصباح، مموّجاً في الظهيرة وناعماً عند المساء، على الشرفة، وهو المكان الذي وجده فيه راجان ومريم.

أصبح عمره ثلاثةً وثمانين عاماً، وكان الحدث الوحيد الذي يمنح المعنى لحياته الآن هو الاستيقاظ باكراً للاستعداد لما يسميه (طابور نداء الصباح)، يستحِم ويتأنّق في ملبسه ببنطال وقميص نظيفين بلون خاكي، ثم يسرع بشكل روتيني إلى البوابة المطلّة على الطريق الرئيس بانتظار صافرة بائع المثلجات المندفع على الدرب وهو يجرّ عربة من الطيبات.

يحييه بابو *"Afande!"*[58] رافعاً يده اليمنى، ثم يعود إلى المنزل مبتسماً لأنّه، كما يقول، قد أثبت حضوره في سجلّ العمال لذلك اليوم.

في طفولتهم، كان راجان وأبناء أقاربه: آشا وسايدا يشاركون في الطّقس الصباحي، ويتنافسون على إيصال عكاز بابو ونظاراته الخاصّة بالقراءة وطقم أسنانه الاصطناعية إليه، بينما كان يتشمّس، كان تمثيل نظام الأبوّة يبعث الحماسة في ذريّته، على الرغم من أنّ راجان بعد أن أصبح أكبر سناً كان يخشى أنّ جدّه يعاني اضطراباً ذهنياً طفيفاً، لكنّه فهم تماماً حين صار راشداً أنّ هذه كانت طريقة بابو في ممارسة بعض التمارين الرياضيّة مع الإبقاء على شيء يتطلّع إليه كلّ صباح، كان ينسى في بعض الأحيان، أي إنه يعيد رواية القصص، لكنّه بالإجمال كان صحيح العقل.

رسم بابو ابتسامة على وجهه، بينما اقترب الاثنان منه، لكنّه بقي في كرسيّه، وغمازته التي تحت ذقنه بادية بوضوح، حين مدّت مريم يدها لمصافحته، علّق من دون تكلّف: "أرى أنّكَ أحضرت لي فتاة جميلة." لم يفلت يدها فوراً، فبقيت مريم متدلّية في وقفتها بزاوية محرجة، بينما لا تفصل بين وجهيهما أكثر من بعض البوصات، "ما اسمك؟" سألها برقّة.

"مريم."

"واسمك الآخر؟"

"ميوريني."

"ما اسم والدك؟"

"بابا! ألا يمكن لضيفتي الجلوس قبل أن تتعرض للاستجواب؟" قال راجان باحتجاج وهو يسحب مريم مداعباً.

---

58 Afande: سيدي (السواحيلية).

لم يرخِ بابو قبضته، بينما ادّعت أنّها منقادة للصراع.

"ميو-ري-ني..." قال بابو متأمّلاً، "هذا اسم من (أرض الماساي)، صحيح؟"

أومأت مريم.

"في هذه الحالة، عليك تحيتي بالشكل الملائم."

أحنت مريم رأسها بطاعة، ووضع بابو راحة يده عليه، كما تنصُّ عادات (الماساي) التي ينصاع فيها الشبّان لكبار السن ويتلقّون مباركتهم في المقابل، أتمَّ بابو الطقوس برفع قميصه وإرسال رذاذ من اللعاب.

"بابا مريم من ندوندوري." قال راجان مفتخراً.

قال بابو وهو يفلت يدها أخيراً.

"أهذا صحيح؟"

"نعم." أجاب راجان قبل أن تتسنّى لمريم فرصة الردّ.

"حتى إنّها تعرف الأشخاص الذين أنشؤوا المدرسة التي كنتُ أدرّس فيها."

"حقاً؟" قال بابو بحماسة.

"نعم." أجاب راجان، "لكنّها قصّة ليوم آخر."

"أهلاً بك في البيت يا ***mrembo***.[59]" قال بابو بينما شقَّ راجان ومريم طريقهما إلى داخل المنزل.

كان راجان متحمّساً وهو يصطحب مريم في جولة في أرجاء المنزل، وهما يتهامسان طوال الوقت حتى لا يزعجا جدته التي كانت في قيلولة، أخذها إلى غرفته وأخبرها ممازحاً بأنها ستكون جناحهما في هذا المنزل، حيث

---

59 mrembo: جميلة (السواحيلية).

سيعيشان زوجاً وزوجة عندما يرتبطان، الكلام الذي سبّب صدور قهقهة عالية من مريم جعلتهما يخشيان أنهما قد أيقظا فاطمة، وقد استيقظت فاطمة فعلاً، ربما لأنّها سمعت الضحكات، أو ربما لأنَّ غريزة الأمومة لديها أخبرتها بوجود أنثى أخرى في منطقة نفوذها.

"*Rajaa! Rajaa! Mama akuita!*"[60] هكذا أعلنت كيوكو الخادمة عن استدعاء فاطمة لهما.

ابتسم راجان لمريم، فسوّت قميصها القطني، الذي كان في الواقع قميصه هو، ودفعت شعرها بعيداً عن وجهها وسألته: "كيف أبدو؟"

"جميلة." قال مؤكّداً.

وقفت فاطمة أسفل السلَّم في انتظار الشابّين، كانت امرأة قصيرة، يترك تقاطع الساري الذي ترتديه مساحة واسعة تكشف أضلعها المتباينة، بشرتها مجعدة قليلاً، وشعرها منحسر من وسطه بحيث كانت الخصلات المرميّة على ظهرها مائلةً إلى جانب واحد، فبدت مثل عرف الأسد الذي كانت قادرة على أن تماثله بالشراسة، إلّا أنها عندما تبتسم، ينغرز خداها بتوأم من الغمّازات، فيكشفان عن امرأة جميلة.

حين استدارت لتواجه راجان ومريم لم تكن ابتسامتها قادرة على بثّ البريق في عينيها.

"أيّ نوع من المضيفين أنت؟ تُحضِر ضيفة معك ثم تتوارى عن الأنظار." قالت فاطمة موبّخةً، بينما عدّلت الساري الذي ترتديه، وصوتها لا يزال مثقلاً بالنوم.

"هل قدّمت كيوكو طعاماً لضيفتك؟"

---

60 Rajaa! Rajaa! Mama akuita: راجا! راجا! الأم تناديك.

"نعم ماما." أكّد راجان بمرح، "لقد أُطعمت الضيفة جيّداً."

"هل تكلمت مع بابا؟" أصرّت فاطمة.

لطالما استطاع راجان تمييز فحوى نبرة صوتها، إنها دلالة على دنوّ المتاعب.

"أظنّ ذلك..." قال من دون يقين، "ألقينا عليه التحية عند وصولنا."

كان بابو لا يزال يتشمّس في الخارج، وظلُّ جسده المستلقي يشفُّ عبر اللوح الزجاجي المثبّت في الباب.

"لا يلقي المرء التحية فحسب عندما يأتي بضيف إلى المنزل، لا بدَّ من الجلوس وتبادل أطراف الحديث." قالت فاطمة.

فهم راجان الآن أنها كانت تتحقّق من رضى بابو عن وجود ضيفته لأنها لم تكن راضية عن ذلك كما هو واضح.

"اذهب! اذهب وتحدّث إليه!" قالت فاطمة.

عاد راجان بتذمّر إلى الشرفة.

بقيت مريم واقفة أمام فاطمة.

"آه، أرجوكِ اجلسي يا عزيزتي، أتودّين شرب شيء ما؟"

"لا، شكراً." أجابتها، "لقد أكلتُ حتى الامتلاء، في الواقع، ما أحتاجه حقّاً هو بعض الشمس، لقد كنت في الداخل طوال..." أوقفت مريم نفسها في الوقت المناسب، قبل أن تكشف عن معلومات سرّية، على الأقل في ما يتعلق براجان، لقد كان ذلك صحيحاً، فهما لم يتمتّعا بقسط كافٍ من أشعة الشمس طوال الأسبوع، لأنهما كانا يسبتان في كوخ إيرا.

"كما تشائين." قالت فاطمة بكرم، "فلتذهبي للجلوس مع الرجال إن كان هذا ما تحبين فعله، ظننتُ أننا نستطيع تجاذب أطراف الحديث امرأة

لامرأة..."

"في وقت لاحق، بالتأكيد، أنا فقط أشتهي القليل من حرارة الشمس."

وبهذه الكلمات تركت مريم فاطمة وانضمّت إلى بابو وراجان في الخارج.

"إذاً." قال بابو وهو جالس ويرفع قدميه على كرسي منخفض، "قلت إنّك من ندوندوري؟"

"نعم، ندوندوري ولايكيبيا." أجابت مريم.

"إذاً لديك بيتان...؟"

"بابا، لماذا تضايق صديقتي؟ دعها تسترخي."

"إنها صديقتي أنا الآن أيضاً، ولي حرية سؤالها عن أيّ شيء." أجاب بابو، "أليس ذلك صحيحاً يا ***mrembo***؟"

أومأت مبتسمة.

"اذهب وأخبر ماما أن تصنع لنا بعض الشاي." قال بابو لراجان.

"لقد سبق لنا احتساء الشاي."

"لم تحضّره هي، بل شخص آخر."

"وما أهمية ذلك؟" قال راجان متحدّياً.

"في اليوم الأول الذي تجلب فيه فتاة بهذا الجمال إلى المنزل، لا يصحُّ إلّا أن تصنع ***bibi***[61] الشاي."

"حقاً؟"

"هذا ما يجب أن تكون عليه الأمور." قال بابو.

إنَّ احتشاد الأحداث التي أدّت إلى التقاء بابو ومريم، عجوز مسلم وامرأة شابّة -ولدا بفاصل ستين سنة- تفوق أيّ تفسير ممكن عدا أنَّ

---

61 bibi: الجدة (السواحيلية).

القدر جمعهما عامداً، لكن حتى مع الإيمان بمذهب الكلبية[62] فإنَّ القدر يُضعف ما يقدّمه بنفسه عبر إظهار هدوء خادع حول أحداث استثنائيّة للغاية، في تلك اللّحظات سريعة المرور، حتى حين طلب راجان تحضير إبريق طازج من الشاي وقالت مريم إنَّ أمها هي رحيمة سليم التي كانت والدتها سنية، ابنة الزعيم لونانا -معلنة الكلمات التي لم تُنطق لستين عاماً- استمرت الطيور في الغناء، وأسقط أحد الطيور الطنانة فضلاته الطبشورية على الشرفة، وقطعت الطائرات العسكرية السماء في تدريباتها الخاصة من أجل احتفالات الاستقلال التي تبعد أشهراً قليلة، انكسر غُصين جاف من شجرة خوخ إفريقي قريبة، واعتلى ذكر بط إحدى الإناث وهو يصفّر مع اقتراب ذروة جماعه ليكشف عن عضوه الرطب، في الأسفل، سحقت فاطمة الزنجبيل في الهاون الخشبي، وعملت كيوكو على إذكاء الجمر في الكانون باستخدام قطعة من الورق المقوى، بعد أن أشعلته لإعداد وجبة المساء.

على الرغم من أنَّ أحداً منهم لم يكن مدركاً لذلك، فإنّ هذه اللحظة حدثت ومضت، ولن يعود سكان منزل بابو راجان سليم كما كانوا في السابق أبداً، إذ إنَّ هذه المرأة الشابّة الغامضة مزقتهم إرباً بلسانها الذي يلقي تعويذات على البشر. لم تكن مريم مدركة لقوتها هذه، لكنّها حين نطقت تلك الكلمات، التي قالتها ببراءة ومن دون أدنى نية بإلحاق الضرر بأحد، سقطت على بابو مثل ضربات حقيقية نالت من جسده، أمال رأسه عن مقعده القابل للبسط، محاولاً الاعتدال في جلسته من دون جدوى.

ثم انتصب على رجليه قبل أن يتذكّر غياب عكازه، التوى جسمه إثر محاولته الفرار من المكان للمرة الثانية، طارت نظارته عن وجهه وسقطت

---

62 الكلبية: مذهب فلسفي يقوم على مجاراة الطبيعة وعدم الاهتمام بالعُرف.

أسنانه الاصطناعية من فمه، بينما انتصبت كتلة شعره الأبيض الأنيق على رأسه مثل أشواك النيص، وانبعث صوت اصطدامٍ قويٍ حين انقلب مقعده وسقط بابو عقبه، زحف على أربع، وهو يصرخ بصوت أجشّ.

"البوق، البوق." ناح بابو، "فلينفخ أحدكم البوق، البوق..."

اندفعت فاطمة نحو راجان باضطراب، وهي ترتجف من الغضب، يرتعش اللغد المتدلي من عنقها مثل دجاجة على وشك وضع بيضة، "أترى ما فعلت أيّها الفتى الأحمق؟" قالت بهمس وحشي.

"لقد أتيت بلعنة على أسرتك، والآن ستدهمنا روح البحر، ألم تعلم أنّك مرتبط بخطبة منذ ولادتك؟"



منزل الصمت

5

بالكاد كان بابو قد دخل سنّ الرجولة حين انطلق في الرحلة البحرية من الهند إلى مومباسا. مراهق ضامر، نحيل مثل القصب، وواحد من أربعين بالغاً وستة أطفال على متن المركب، كانوا على متن (إم. في. سلاما) المتّجهة إلى محمية (شرق إفريقيا البريطانية)، ثمانية من الرجال كانوا طاقم السفينة تحت إمرة ناهودا، القبطان الذي يعرج بوضوح في قدمه اليمنى ويقضي معظم الأيام جالساً في جلالٍ مهيب، يحدّق في الأفق باستعمال منظاره، كان مشهد قلنسوته والبروز الأسود لعدستَي المنظار يمنحانه مظهراً سريالياً يشبه حيوان كركدن عابس.

من بين الرجال التسعة الذين كانوا يقصدون المحميّة للعمل فيها، اصطحب خمسةٌ زوجاتهم، ومنهم بابو، باقي النساء كنَّ أكبر سناً، يسافرن للاجتماع بأزواجهنَّ في المستعمرة حيث يعملون كتقنيين وحرفيين منذ عام واحد، بعمره البالغ تسعة عشر عاماً، كان بابو أصغر الحرفيين، وبشعره ذي النهايات المدبّبة، وجبهته العالية، لم يكن بمقدور المرء النظر إليه من دون أن يبتسم، خلال طفولته في البنجاب، اعتاد أقرانه تركيز اهتمامهم على جزء آخر من جسده بعد أن وجدوه -أي هؤلاء الصبية الصغار- مضحكاً بينما كانوا جميعاً يجرون عراة في الأرجاء.

الفتيات كنّ يرتدين أثواباً صغيرة، في حين يُترك الصّبْيَة عراة تماماً، بينما تقهقه الأمهات قائلات إنَّ ذلك حسن لأعضائهم الذكورية، يجب أن يُطلق لها العنان لتنمو إلى حدّها الأقصى.

عند بلوغه الرابعة، بدأ بابو بارتداء قميص طويل نوعاً ما، ليؤدّي

مهمة سروال قصير في الوقت نفسه، إذ إنَّ سرّته المتضخمة أصبحت لعبة لبقية الأطفال، كان أحد الفتية قد عصرها بشدة خلال شجار ما، الأمر الذي جعلها تصدر صوت صرير حادّ، منذ ذلك الوقت أصبحت السرّة محطّ إذلال مستمر، بين عشية وضحاها صار اسمه الفتى صاحب السرّة الصافرة، وحتى الأطفال الصغار الذين لم تنبت أسنانهم بعد كانوا يعرفون بأمر بابو، فتى السرّة المغنّية، وهكذا منحته والدته قميصاً طويلاً، لكنَّ هذه التغطية جذبت المزيد من السخرية: "نحن نعرف ما تخفيه، كان الأطفال يغنّون، لديك فرعة عوضاً عن السرّة."

بعد أن استبدَّ القلق بوالديه خشية تحوّل قضية السرّة تلك إلى إرباك دائم، قرّرا إلحاقه بمؤسسة ***madrassa***[63]، وفكّرا أنّه في ذلك المكان يرتدي كلّ طفل ثوب ***Kanzu***[64] وهذا سيجعل أمر سّرة بابو يُنسى سريعاً.

في المدرسة الجديدة، نأى بابو بنفسه عن الجميع، كان معلمه مخيّباً للآمال، يُحدّد لهم في كلّ صباح الآية أو السورة التي عليهم حفظها، ثم يدفن وجهه بين صفحات القرآن، بينما ينشغل الأطفال بالحفظ، لم يكن يُسمح لأيّ أحد بالذهاب ولا حتّى إلى الحمام قبل حفظ الجزء المقرّر عليه من القرآن.

كره بابو ذلك، وبالتدريج تطورت لديه كراهية للسلطة بجميع تجلّياتها، بالذات تلك المنسوبة إلى الدين.

لم يتجاوز بابو أبداً قلقه الناتج عن كشف سرّته، وحتى حين كان هو وكريم يتشمّسان على سطح المركب، لم يكشف بطنه أبداً، كان كريم يبلغ العشرين من عمره حين التقى الرجلان على متن الرحلة إلى مومباسا.

---

63 ma-drassa: مدرسة دينية إسلامية.

64 kanzu: ثوب طويل وفضفاض.

وكثيراً ما استسلم بابو وكريم للنوم وهما يسترخيان تحت أشعة الشمس، وينصتان إلى أصوات النساء المهدّئة في الأسفل، قضت النساء الأكبر سنّاً أوقاتهنّ في الحديث المستمرّ والحفاظ على اشتعال مواقد الكيروسين لغلي الماء اللازم لتحضير الأرز أو العجين المرقوق لصناعة خبز الشاباتي[65] أو الروتي.[66]

كان الطعام يوزّع بحصص مقنّنة بحذر وكذلك مياه الشرب، فالخطّة تقضي بالوصول إلى وجهتهم بعد ثلاثة أسابيع، لكن كما يحب معظم البحّارين أن يضيفوا، "إن شاء الله" ما يعني أنهم يسلّمون رحلتهم لإرادة الله.

طغى على ركّاب القارب جوّ من المودّة، بدأت النساء بالغناء مع بداية الرحلة، بينما لعب الأطفال لعبة ***bano***[67] في المساحات الصغيرة التي لم يكن يشغلها البالغون أو الحمولة، لعب بعض الرجال بأوراق اللعب، بينما انشغل آخرون بالقراءة، وجد بابو السلام على متن هذه السفينة، كان يغفو وهو يعدُّ النجوم، بينما يتساءل عمّا يخبّئه المستقبل له، متحمساً لأنّه يبدأ حياة جديدة في بلاد جديدة ومع زوجة جديدة إلى جانبه.

وأجابته الطبيعة في يومهم السادس في البحر، بدأ ذلك النهار كأيّ يوم اعتيادي، أشرقت الشمس متوهّجة في الشرق، حين لامست ومضاتها المحيط أخذت تتنطّط فوقه راسمة تدرّجات ذهبية اللون، أخذ بابو شهيقاً عميقاً ووضع يديه الاثنتين على صدره "الحمد لله، الحمد لله." ترنّم بالعرفان لهذا الجمال الوفير، بعد وقت قصير عمّت الحركة أرجاء القارب، فرفض

---

65 الشاباتي: نوع من الخبز ترجع أصوله إلى البنجاب ويحضّر على شكل أقراص صغيرة الحجم.

66 الروتي: خبز رقيق يشيع تحضيره في الهند وباكستان.

67 bano: لعبة الكرات الزجاجية (البلي).

بحّارة ذوو عضلات من أعضاء الطاقم لنشل ليترات كثيرة من ماء البحر اللازم للاستحمام، وقدّمت النساء الشاي وخبز التشاباتي للفطور، تناول الأطفال حبّات التمر القليلة المتبقية ثم تقاذفوا بنواها.

رُفع الصاري ذو الشراع المثلث الذي كان يخفق بحماسة، بدؤوا يتحرّكون من جديد، وناهودا يحدّق في البعيد عبر منظاره.

كان بابو وكريم قد عادا إلى ظهر السفينة، لقد تعلّم بابو خلال الأيام القليلة المنصرمة أنّه يعمل على أفضل شاكلة حين يتصرّف عكس التيار، ينام حين يكون الجميع يقظاً، ويسهر في الليل حين ينام الجميع، والسبب الرئيس لذلك هو أنّه لا يطيق ضوء النهار المعمي، ويجد عتمة الليل مريحة للغاية.

بعد أن صار هذا روتينَه المعتاد، كان بابو ينجرف في النوم تحت دفء أشعّة شمس الصباح على إيقاع أغاني النساء، وصرخات الأطفال اللّاهين وهمهمات الرجال المنشغلين بأوراق اللعب في مكان قريب، لكنه حالما غفا في ذلك اليوم، استيقظ فزعاً وجسمه مغطّى بطبقة رقيقة من العرق اللامع، فتح عينيه وأخذ يطرف بهما في مواجهة الشمس الساطعة، ثم لمح ناهودا يعبر مجتازاً النساء والأطفال ونظرة من الفزع تعتلي وجهه، توقفت السفينة، كان الصاري مرفوعاً، إلّا أنَّ الأشرعة متهدّلة.

أسرع ناهودا إلى الصاري وهو يقبض على شيء ما في يديه، كانت بعض أوراق الأشجار الجافّة التي سحقها بين راحتيه ورماها في الهواء، وهي حيلة شائعة يستعملها الصيّادون في البراري أيضاً لمعرفة اتّجاه الريح، سقطت الأوراق الجافّة فوراً فوق رأس ناهودا، رسم بابو ابتسامة عريضة على وجهه ونكز كريم بمرفقه، والذي بدوره قهقه ضاحكاً، كان رأس ناهودا يبدو مثل عشّ عصفور.

"ما الذي يضحككما؟" حملق ناهودا بغضب، تمالك كريم نفسه، لكنَّ بابو استمرّ في الابتسام.

في ذلك اليوم عمل الطاقم على تغيير الصواري من الكبيرة إلى الصغيرة وبالعكس ستَّ مرات، لكنَّ السفينة لم تتحرك أكثر من ياردات معدودة، وأهمّ تقدماتها كان انتفاضةً مفاجئةً حين ترنّحت إلى الأمام، ثم توقّفت بعنف حركة رجل ثمل ينزلق على الطين، ذوت أغنيات النساء واختفت ثرثرة إعداد الطعام، حتى الرجال الهاذرون الذين كانوا يتبادلون القصص، بينما ينشغلون بأوراق اللعب صاروا الآن يئنّون ويتنهدون فقط، الأطفال وحدهم واصلوا لعبهم، لكنهم كانوا منزعجين من البالغين الذين لم يفعلوا شيئاً سوى تركيز أنظارهم عليهم، كما أنّهم بطريقة ما كانوا في طريق الجميع، أيّاً كان الاتّجاه الذي يذهبون إليه، علّا الأسى جميع الوجوه، حتى ابتسامة بابو تقلّصت، إلا أنها لم تتلاشَ كلّياً، نكز كريم من جديد حين لمح ناهودا منثنياً على الدعاء وهو يعجن عقد السبحة بين يديه المرتعشين.

"سلّم الكابتن سفينته لإرادة الله." قال بابو.

شخر كريم وهو يكتم ضحكه.

"**لا شيء يضاهي أن مرء يكون شاب.**"[68] قال أحد الرجال المشتركين بحلقة أوراق اللعب بنبرة لم تكن مؤنّبة ولا مطرية. "**يعرضون أسنان هم طوال وقت!**"

تابع بابو الابتسام.

---

68 يجدر التنوية بأنَّ عدداً من الشخصيات ذات الأصول الهندية في هذه الرواية يتحدثون اللغة الإنكليزية بمخارج حروف خاطئة بسبب طبيعة صوتيات لغاتهم الأم وقد أدرج الكاتب كلماتهم بتهجئة إنكليزية خاطئة للدلالة على هذا الأمر فوجب ترجمتها إلى عربية خاطئة التركيب لهذا السبب (المترجمة).

"نفترض أنَّه لم تعد باليد حيلة سوى الاستسلام لإرادة الله." صرخ بابو.

على الرغم من أنَّ العمال كانوا هنوداً بغالبيتهم، إلا أنّهم كانوا ينطقون بمختلف اللغات واللهجات، لذلك استعملوا الإنكليزية كقاسم مشترك.

أوقف ناهودا تضرعاته وخطا نحو بابو، كان قد نزع قلنسوته كاشفاً عن خطّ شعر منحسر، فبدا مثل أسد من دون عرفه، مع ذلك فقد كان يتصرّف بشراسة أخافت بابو لوهلة، لم يكن ناهودا ينتعل حذاءً، فبدت رجله اليمنى أقصر ممّا يتذكرها بابو، كانت منامة الشوريدار[69] التي يرتديها توحي بشيء من الضعف لأنها جعلته يبدو مثل صبي صغير ينهض من السرير، خاطب بابو باللغة الجرموخية[70]، وهي لغة كان الشابّ يفهمها تماماً.

"لماذا تسخر من الربّ وأنا أدعوه بجِدٍّ لينقذنا؟"

لم يجب بابو.

"لماذا تسخر من ابتهالي؟"

"لماذا تعتقد أنَّ ابتهالك بهذه الأهمية؟ جميع من على هذه السفينة يتضرّعون." أجاب بابو بلهجةٍ متحدّية.

"لماذا تسخر من دعائي؟" كرّر ناهودا كأنه لم يسمع الردّ.

نفد صبر بابو وقد وجد امتعاضه الذي كان يغلي ببطء من كلّ أشكال السلطة منفذاً ليخرج منه: "إن كانت مناجاتك للربّ بهذه الأهمية التي تلمّح إليها، إذاً فأنا أتوقع أنَّ على الفلاحين زراعة أراضيهم عندما تتبول أنت." قال، ثم أضاف بكلّ الغضب الذي استطاع حشده: "وإنَّ هذه السفينة سوف تتحرك إن أطلقت ريحاً من مؤخرتك."

---

69 منامة الشوريدار: لباس يتألّف من قميص وسروال فضفاضين، يشيع ارتداؤهما في الهند كلباس مريح.

70 الجرموخية: الأبجدية المستعملة للّغة البنجابية.

كانت عبارة ناهودا التالية صيحة حرب، محمولة على صوت مرتجف يبعث الرعب في النفوس، وحتى أولئك الذين لم يعرفوا لغته فهموا إشارة انتزاع الشعر من قمة رأسه المستنزف من الشعر، كان يلقي بلعنة على بابو: "أعتقد أنّ رأسك مملوء بالماء عوضاً عن الدماغ، أدعو الله، الربّ القدير الذي ازدريتَ عبده المُخلص، أن يلقي بلعنته عليك وعلى نسلك." قال منتحباً، "لتفيض الدماء حتى تصل إلى عتبة منزلك، لتكن نساؤك عقيمات، لتجفّ بذورك، لينتصر الأعداء عليك، فلتهبط لعنة الربّ على عائلتك بأسرها."

تجمّد بابو وهو يشيح ببصره عن فاطمة، بينما غمرته ذكريات ليلة زفافهما الذي حدث منذ أيام قليلة، نظّم والداه العرس على عجل، ولم تسبق له رؤية العروس قبل حفل الزفاف، كان يعرف منذ سنوات بأمر الخطبة، إنّما لم تسبق له رؤية عروسه، بالكاد خطرت له فكرة زفافه المستقبليّ في السابق، فكلّ طاقاته توجّهت نحو فضوله للتّعرف على العالم، راودته رؤى عن إفريقيا، الغموض، الغابات السوداء، الأنهار التي تجري بلا نهاية من دون أن يكون لها نبع معروف، كلّها أسرّت مخيلته، لذلك فقد اغتنم الفرصة حين قرأ إعلاناتٍ عن شواغر عملٍ لصالح الحكومة الاستعمارية البريطانية في إفريقيا.

مع اقتراب رحلته الوشيكة، اتّفقت أسرته وأسرة فاطمة على أنَّ الوقت قد حانَ لتزويجهما، مرَّ بمرحلة الطقوس بملل ولا مبالاة، وأظهر مقداراً لا يُذكر من الحماسة حين قدّموا له عروسه أخيراً، فتاة صغيرة بيدينِ دقيقتين تنضحان برسومات الأزهار المنقوشة بالحناء.

نظرت إلى الأسفل حين كان يحدّق في عينيها، وشعر بابو باختلاج بسيط يسري في جسده حين أمسك يدها، العضو الوحيد الظاهر من جسمها تقريباً.

تصاعد اهتمام بابو وفضوله في تلك الليلة، بينما أخذ ينزع عنها ملابسها، ويجرّدها من الساري والملابس المصنوعة من **الكاليكو**[71] كما لو كان يُخرج عبوّةَ طعام من غلافها، إلى أن استلقت عارية أمامه في النهاية، لم يكن قد رأى امرأة عارية من قبل، لكنّه وجد فاطمة أكثر نحولاً ممّا يحب، يشفُّ جلدها عن ضلوعها، كما أنَّ لديها تجويفات حول حوضها، مع ذلك فقد شعر بالإثارة لرؤية امرأة عارية، لمس بشرتها المتورّدة، وأخذ يداعبها باهتمام وسلاسة، حين وصل إلى البقعة التي بين ساقيها، كان قد بلغ ذروة حماسه، فقفز فوقها متعجّلاً في اللحظة نفسها التي أفسح الضغط العظيم داخله المجال أمام سائل مبيض اللون شقَّ طريقه ليستقرّ على بطن فاطمة.

ارتمى بابو على جانب جسده وهو يتنهّد مرتاحاً، لكنَّ ذلك تحوّل سريعاً إلى إحباطٍ مع تلاشي السائل الذي طرحه على سطح قطعة القماش البيضاء المبسوطة تحت فاطمة للتّحقّق من عذريتها.

فزع بابو من مظهر قطعة القماش النظيفة، كان الآن مرهقاً، ومهما حاول فلن يستطيع جعل عضوه ينتصب من جديد، إنَّ غياب الدم عن قطعة القماش البيضاء كفيل بطرح شكوك تتعلّق بخداعه ليتزوج امرأة غير عذراء، وفي المقابل، فإنّه قد يعني كذلك عجزه عن إتمام الزواج، في كلتا الحالتين سينتهي به الأمر ببيضة على وجهه.

داعب بابو عروسه من جديد، ملامساً أجزاء مختلفة من جسمها من دون أن يتلقى ردة فعل تُذكَر، تصاعد غضبه وهو يفكر بمسار أحداثٍ ينقذ كرامته وسمعته، عبر سنوات طفولته كان يُعرف بلقب (الكوبرا الضاربة)، شهرة أذكتها الشجارات التي خاضها مع الأولاد الذين سخروا من سرّته

---

71 الكاليكو: قماش رخيص مصنوع من القطن غير المعالج بالكامل.

المتضخمة، وكان سلاحه الذي يختاره هو جبهته البارزة.

قبّل بابو ثديي فاطمة بخفّة، ثم عنقها ووجهها، حدّق في عينيها لوهلة قبل أن يضرب قصبة أنفها بجبهته، مرّت ومضة من الفزع والغضب في عينيها، لكنّها انتحبت بصمت كأنها كانت تتحفز لضربة أسوأ.

أخذ بابو قطعة القماش الممدودة تحتها بسرعة ومسح بها قطرات الدم التي سالت من منخري فاطمة، يبدو أنَّ فكرته عن إثبات العذرية كانت موجهة نحو ثقب خاطئ.

بقي الرُكّاب معلّقين وسط البحر لستّة أيام وستّ ليالٍ، استلقت فاطمة في إحدى الزوايا تنتحب وكتفاها المحنيتان تسندان رأسها الصغير، شعرها يغطّي وجهها وتلتصق خصَلُهُ مع بعضها بأثر الدموع مثل شعر أكواز الذرة، انسحب بابو وكريم إلى إحدى زوايا السفينة ولاحظ الاثنان الموجة الهائلة المقتربة، لكنّهما لم يدركا قوّتها إلّا بعد فوات الأوان، بعد ستّة أيّامٍ وستّ ليالٍ من السكون التام، كان هنالك ما يتحرّك في البحر.

أخذت الموجة المتعاظمة تلتف وتدور أثناء اقترابها قبل أن تلطم جانب السفينة.

دار المركب من أثر الضربة، وهو يهتزُّ من جانب إلى آخر، بينما صرخت النساء والأطفال طالبين النجدة، حين تراجعت وتيرة الأمواج الأقوى والأسرع، عاد المركب للدوران، ولجأ الرجال والنساء والأطفال إلى تكرار ما فعله أجدادهم لأجيال عديدة، الطَرْقُ على أيّ غرضٍ تطاله أيديهم ليجعلوا روح البحر تهدأ، نفخ ناهودا البوق ثم ركع ليبتهل، صوته يرتعش لكنّه لا يزال مشبوبَ العاطفة، انقلب لون السماء من الأزرق إلى الرمادي، وأصبح من الصعب الجزم إن كان البحر في البعيد يرتفع نحو السماء أم إنَّ السماء

ذابت في البحر، قبض العدم الرمادي على المحيط والسماء، لم يشعر بابو وكريم من مكانهما في حافة القارب إلّا برواسب المياه المالحة عند أقدامهما قبل أن تقفز لتصفع وجهيهما، غمرت العاصفة كلّ صرخات النساء والأطفال في الأسفل، وكان تضرّع ناهودا هو آخر صوت سُمع على متن السفينة بنبرته المذعورة والمتألّمة.

عكس جميع التوقعات، وصل جميع ركاب (إم. في. سلاما) من الهند إلى شواطئ مومباسا في ليلة الأول من أغسطس عام 1897، غرق ثلاثة أطفال خلال الرحلة، بينما أجرى صيّادو مومباسا الإسعافات الأولية للناجين من الأطفال والبالغين، كان لمعظمهم بطون منتفخة، ضغطوا عليها لإخراج الماء منها، كما أنّ أحد الأطفال كان قد انكمش ليصبح بحجم حذاء، كان من العسير جدّاً التمييز بين الرجال والنساء لأنَّ أثداء النساء كانت قد تسطّحت، كما خسرن استدارة أجسامهن.

معظم الناجين كانوا أضعف من أن يسيروا على أقدامهم، فزحفوا على أيديهم وأرجلهم حالما لمسوا الشاطئ، مثل سلطعونات ضخمة تركض على سطح الأرض باحثة عن حفرة لتسبت فيها، نظر بعض البحّارة إليهم بريبة، إذ لم يكونوا واثقين إن كان هؤلاء بشراً أم جماعةً من معشر[72] ***jinn*** كما خشي بعضهم. ثلاثةُ أطفالٍ آخرون غابوا في حالة فقدان للوعي، واثنان منهم لم يستيقظا أبداً، أمّا فاطمة التي ظلّت تجلس القرفصاء في زاوية مشبعة بالماء على المركب لمدة طويلة جداً، فلم تعد قادرة على استعمال ساقيها وكان على الآخرين جرّها بعيداً، فصنعت خلفها أثراً كالذي تتركه البزاقة، لقد اعتقدتْ على الفور أنَّ لعنة ناهودا أصبحت سارية المفعول، لكنَّ لقاء بابو

---

72 jinn: الجن.

بماكدونالد بعد عدة أيام هو الذي عزّز هذا التصوّر حقاً.

في تلك الليلة، وبعد سحب ركاب السفينة المحطّمة إلى الشاطئ بأمان، كان بريق البدر الفضّيّ الذي يضيء المحيط يشعُّ في السماء، وشارع مومباسا الوحيد يضج بالحياة، الجذوات اللعوبة للشموع تدلُّ على أكشاك الطعام حيث استقرت غلايات مصنوعة من الصفيح فوق الجمر المتّقد لصناعة الشاي، وفي أكشاك أخرى أعدّت نساء يشبهن الخفافيش -لأنهن كنَّ يرتدين ملاءات سوداء لا تبدي سوى عيونهن- الأطعمة للبيع، أسقطت إحداهن العجين في مقلاة كبيرة لتصنع فطائر المحامري[73]، فتراقص أزيز الزيت، بائعة أخرى كانت تبعث الهواء على الفحم في موقد الجيكو[74] لتشوي المشيكاكي[75]، كان سوق الطعام محتشداً بالنشاط، بينما نادى الباعة على المارّين ليجرّبوا تذوّق أطايبهم، لكنَّ جميع تلك الأصوات كانت مكتومة لآذان الواصلين الجدد، وحده ناهودا من يستطيع بينهم فهم اللغة السواحيلية، إلّا أنّه كان قد فقد وعيه في هذه المرحلة.

يتذكّر بابو وصولهم إلى مومباسا على أنّه مسيرة الأموات، إذ لم يكن قادراً على التمييز إن كان لا يزال حياً أم لا، أو إن كان الطفل الذي يحمله بين ذراعيه على قيد الحياة، لم يستطع حتى استيعاب مكانه، هل كان على اليابسة أم لا يزال في البحر، علّا هدير البحر قريباً للغاية كما اختلطت أصوات الكثير من المتكلمين حوله، ولم يستطع فهم شيء منها، كلُّ ما استطاع سماعه داخل رأسه هو طنين مستمرّ يشبه صوت البحث في المذياع عن تردّد الإرسال.

---

73 المحامري: فطائر مثلّثة مقلية تُصنع بحليب جوز الهند وتنكّه بالهال.

74 الجيكو: موقد سيراميكي يستخدم فيه الفحم للطّهي، ويوجد بشكل رئيس في المنازل الكينية.

75 المشيكاكي: قطع لحم تُغرز فيها أسياخ معدنية ثم تشوى فوق الفحم.

لقد أُخذوا إلى فندق ما، وقُدِّم الحساء للواعين منهم، استدعى الصيّادون اثنين من ممارسي الطب الشعبي إلى الفندق، فوصفا بعض الأعشاب لإيقاظ من كانوا فاقدي الوعي، وأشعلوا البخور لطرد الأرواح الشرّيرة التي قد تكون متربّصة بالناجين.

في الصباح الباكر من اليوم التالي، رأى بابو أنَّ نوافذ النُزل تطلّ على مشهد بانورامي لمومباسا، يبدو فيه خليط من أكواخ الروندافل المجصّصة باللونين المرجاني والزيزفوني، سقوفها المصنوعة من أوراق النباتات المجفّفة وأسطحها المعدنية تجتمع معاً لتبدو مثل لوحة زيتية بهية.

كان السوق مساحة مفتوحة محاطة بأشجارِ النّخيل، وعلى الرغم من أنَّ الوقت مبكر للغاية، فقد كان السوق شبه ممتلئ، تنافست الأصوات لاجتذاب اهتمام الزبائن، وتصاعدت ريح نتنة من البحر، زعق كلب هجين إثر ركلة من حذاءٍ بُنّي اللون، حقَّ تاجر أسماك ذيل سمكة بلطية ممتدحاً كم هي طازجة، بينما شرّح بائع آخر حبة ناضجة من المانجا، فهقهت امرأة تعرض ملبوسات مطبوعة يدوياً، فكشفت عن سنّ من الذهب المزيّف في فمها، وطرق أحد التجار بسكينه على العاج، بينما نعق أحد الديكة، نهق حمار يجرُّ عربة محمّلة فأسقط بضع قطرات من شراب ***mnazi***[76]، أخذ أحد الباعة يقسم لزبون يساومه على السعر، ووبخت إحدى الأمّهات طفلها المحزوم على ظهرها، تعارك أحد العمال مع أدواته، وهدر البحر من جديد ليؤكّد سلطته، دعا ***muezzin***[77] **المؤمنين لصلاة الصبح**[78]، تحوّلت

---

76 Mnazi: مشروب روحي مصنوع من جوز الهند.

77 Muezzin: المؤذّن (السواحيلية).

78 دعا المؤذّن المؤمنين لصلاة الصبح: على الرغم من أنَّ أذان الفجر لا يكون بعد طلوع النهار (المترجمة).

مومباسا إلى برج بابل، بينما حاولت اللغات السواحيلية والعربية والبنجابية والغوجاراتية والهندية والمهاراتية التفاهم مع بعضها.

حدّق بابو من النافذة ومشّطته موجة من الترقّب، أراد أن يلمس التراب، ويرمي حصاةً في البحر وينتظر ليسمع صوت ارتطامها بالماء، كان لا يزال ضعيفاً، لكنَّ روحه أرادت ملء رئتيه بالهواء النقي وهو يخطو إلى الخارج، لم يتذكّر زوجته الجديدة إلا عندما رأى امرأتين تساعدان ثالثة، كان في البحر لمدّة أطول ممّا كان متزوجاً، فبقي طبعه طبع فتى لا همَّ له ولا يلقي بالاً لأيّ شيء.

شعر بنوع من الخجل لأنّه لم يفكّر بفاطمة حتى هذه اللحظة، فانطلق عائداً إلى الداخل ليتفقّدها، لكنَّ مهمته قوطعت بسبب رجل يرتدي زيّاً رسمياً أبيض وقبعة عريضة الحواف، ويحمل هراوة أخذ يلوّح بها في الهواء، بينما يقول بتعجب: "مِنْ هذا الطريق، أيّها العامل المبتدئ! جميع العمال يجتمعون الآن!"

أشار بابو إلى النساء: "يجب أن أرى زوجتي."

"أيّها العامل المبتدئ، بالكاد مرّت عليك دقيقة واحدة هنا وأصبحت مشتاقاً لزوجتك؟"

"زوجتي ليست على ما يرام." قال بابو بحزم.

"ما اللغة التي يفهمها هؤلاء الأشخاص؟"

سأل ماكدونالد بسخط واضح، وهو يتوجّه إلى مساعده، المشرف باترسون، "هل تستطيع تنظيم هؤلاء العمال المبتدئين؟ يتعيّن علينا إحصاء الجميع قبض ماكدونالد على رسغ بابو بطريقة مداعبة، لكنَّ قبضته كانت من الإحكام بحيث لم يستطع بابو تخليص نفسه منها.

شقَّ باترسون طريقه إلى حيث كان الهنود الواصلون حديثاً يلعبون لعبة ***bao***[79] وأكوابٌ صغيرةٌ من ***kahawa thungu***[80] موضوعة بين أرجلهم.

استدعى باترسون الطبّال المحلي نيوندو وأشار إليه ليبدأ قرع الطبل.

سريعاً، ملأت الموسيقا الأجواء بينما نبضت الطبول، وبدأ الرجال يطلّون من المنازل ويملؤون الشوارع المغبرة مثلما تطلّ حشرات الجراد من حفرها.

"لقد اعتقلتُ أحد المواطنين." قال ماكدونالد لبابو وهو يبتسم.

ابتسم بابو بدوره لكنّه لم يتكلّم، إنّها المرة الأولى التي يكون فيها على هذا القرب من رجل أبيض البشرة، أصابعه البيضاء تحيط بمعصم بابو الأسمر.

"من أين أنت؟" سأله ماكدونالد.

"البنجاب." ردَّ بابو بسلاسة.

"متى وصلت إلى هنا؟"

"وصلت للتو... أو ربما البارحة؟ لقد فقدت الإحساس بالزمن."

أرخى ماكدونالد قبضته عن رسغ بابو، "أنتم الجماعة التي تحطّمت سفينتها؟"

هزَّ بابو كتفيه بلا مبالاة، "أعتقد ذلك."

"يا إلهي! وأنت تقف على قدميك؟ عليك نيل قسط من الراحة."

هزَّ بابو كتفيه مجدداً "أنا، أنا بخير."

"ليس عليك القدوم الآن." أخبره ماكدونالد، "يمكنك المجيء غداً، أو عندما تجد نفسك مستعداً، نحن نحصي عدد الأشخاص مرّة كلّ يومين."

---

79 bao: لعبة لوحية شائعة بين أوساط السواحيليين.

80 kahawa thungu: قهوة مرّة (السواحيلية).

أُعجب بابو بماكدونالد على الفور، قرّر البقاء ومشاهدة الإجراءات من بعيد، حالما يخلو الشاطئ سوف يلمس البحر ويرمي حصاة فيه.

كان لماكدونالد شاربٌ مقوّسٌ يشبه في مهامّه شوارب القطة، يمرّر سبابته فيه عندما يتوتر، ويلفُّ أطرافه عندما يشعر بالاستمتاع، ويرتعش هذا الشارب عندما يكون صاحبه منزعجاً، طلب ماكدونالد من رجاله أن يجمعوا العمال الهنود ويقودوهم إلى (حصن يسوع)، المَعْلَم المنتصب في مركز البلدة، والذي تحوّلت حجارته المتآكلة إلى لون بُنّي يشبه قشرة الخبز الخارجية، بينما نبتت الطحالب الخضراء من شقوقها، لم تكن له نوافذ، فالفتحة الوحيدة الظاهرة منه كانت فوهة مدفع مصوّب باتّجاه البحر، وقد بَنى البرتغاليون هذا الحصن قبل أربعة قرون حين احتلوا الشاطئ.

استغرق اجتماع كلّ العمال أمام البناء ما يقارب الساعتين، وقف ماكدونالد أمام الحشد، جزمته السوداء شديدة اللمعان، بحيث كان المرء قادراً على رؤية انعكاس صورته على سطح جلدها، وبنطاله الأبيض مكوي بدقّة شديدة حتى بدا كأنه قادر على الوقوف من دون أن يرتديه أحد، بشرته البيضاء التي لطّختها حرارة الشمس ببقع حمراء جعلته يبدو مثل سمكة خارج الماء، لكنَّ انعكاس أشعتها على ملابسه الناصعة جعل التحديق إليه من دون تظليل المرء لعينيه بيده أمراً بالغ الصعوبة، أخذ ماكدونالد الصافرة من باترسون ونفخ فيها نافثاً وساحباً أنفاسه خلالها، غدا صوته حادّاً، بينما حاول التفوّق على هدير المحيط الذي بدا أعلى الآن، وقد صَمَت جميع العمال.

كان مجموع العمال الحالي هو 249 عاملاً، وصلوا على دفعات عبر أيام الأسبوع المنصرم، وتحوّلت ألوان جلودهم الباهتة بسبب التعرّض المطوّل للشمس والمياه المالحة إلى البنيّ الأدكن الذي يماثل لون الجنادب في

السافانا، انضمّ بابو إلى الاجتماع بهدوء، مدفوعاً برغبته في ربي الحصاة في المحيط، وقف عند أطراف الحشد يستمع إلى ماكدونالد بنفاد صبر.

"بالنيابة عن حكومة جلالة ملكة إنكلترا، أودّ أن أرحّب بكم جميعاً في محمية شرق إفريقيا البريطانية، وأشكركم على استعدادكم للدعم في خدمة جلالتها، لن أطيل عليكم الآن لأنّي أعرف أنكم جميعاً قد قطعتم رحلات قاسية للقدوم، وبعضكم كابد مخاطر عظيمة ليصل إلى هنا، أثمّن التزامكم بخدمة جلالتها، أودّ البدء ببعض التحذيرات: في هذا التعهد، هنالك قواعد للاتفاقية.

أنا جندي -حسناً في الواقع كنت جندياً في حياتي السابقة- لكنَّ الجنود لا يتقاعدون ولا يموتون، وهكذا أستطيع القول إنّي لا أزال جندياً، ما يعني تعاملي مع القوانين بجدّية كبيرة، وبهذا فإنّ الذين ينتهكون القوانين سيصبحون ضيوف الدولة في هذا البناء..."

أشار ماكدونالد إلى البناء المنتصب والمتآكل، أتت هذه الاستراتيجيّة مباشرة من كتيّبات البعثات التبشيرية، بداية الحكمة هي مخافة الربّ، إنَّ جعل المجرمين المحتملين يخشون السجون التي تنتظرهم في المستقبل هو رادع قوي.

اندفع الرجال الموشكون على الانهيار بفعل الإرهاق والتجفاف من فورهم داخل البناء الحجري، لقد أخطؤوا فهمَ عبارة (ضيوف الدولة) فظنّوها تعني أنَّ هذا الحصن سيكون منزل ضيافتهم، تذمّر العمال باللغات الأردية والبنجابية والكوجارتية، لكنَّ استهجانهم كان موحّداً: لماذا يبدو هذا النُزل مهملاً للغاية؟

قرر ماكدونالد تركهم يتجولون، كانت هنالك ثلاثة طوابق للبناء،

الطابق العلوي حسن الإنارة والتهوية، وله إطلالة خلّابة على البحر اللّا نهائي، وسم ماكدونالد في ملاحظاته الطابق العلوي على أنه (للبيض)، أما الطوابق السفلية فكان وسمها: (الآخرون)، حتى سجنه كان مصمّماً وفقاً للهرمية العرقية، فلأصحاب البشرة البيضاء أفضل الأماكن المتوفّرة، أما الأعراق الأخرى فتنال ما يتبقّى.

للطابق الأوسط إنارة خفيفة، إلّا أنَّ بعض الضوء كان يتسرّب من منطقة البيض إليها، كما كان بمقدور المرء رؤية شيء من معالم البحر عبر الشقوق التي لم تملأها الأعشاب، أما الطابق السفلي فقد كان محاطاً بعباءة من العتمة المطبقة، كان صدى كلام العمال يتردّد، بينما تخفق الخفافيش بأجنحتها من دون صوت، حين تعتاد عينا المرء الظلام، كان يلاحظ تعرّق الجدران بسبب الحر الشديد وسوء التهوية.

نفخ ماكدونالد في صافرته صوتاً حادّاً مرتفع النبرة، فهمه العمال على أنّه استدعاء لهم للخروج من المبنى، امتثلوا وتجمّعوا حيث كانوا يقفون أول الأمر، لكنَّ معظمهم ترك أمتعته في أفضل الزوايا إضاءة داخل الحصن، حين عرف الرجال أنَّ البناء المعتم كان السجن الذي ينتظر أيّ مسيء، جرى ستة منهم على الفور، ثلاثة هرعوا إلى السفينة التي جلبتهم من الهند وأخذوا يتوسّلون التجار ليعيدوهم إلى الوطن، لكنَّ تجار السفن جذبوا اثنين منهم من أكتافهما بخفة ثم رموهما عند أقدام ماكدونالد مثل (شوالين) من البطاطس، أما الرجل الثالث الذي كان أثقلهم وزناً فقد سُحل ورمي بالطريقة نفسها مع الآخرين، ابتسم ماكدونالد للمرة الأولى، كاشفاً عن صدع أسفل ذقنه، لم يكن يفتح فمه حقاً حين يبتسم، بل ينتفخ خداه قليلاً وترتعش شفتاه، وُضع الرجال الثلاثة في أصفاد متصلة.

"سيدخل هؤلاء الثلاثة التاريخ على أنّهم أول السجناء في محمية شرق إفريقيا البريطانية." أعلن ماكدونالد قبل أن يبدأ بجرِّ الرجل الذي في المنتصف والذي سحب معه بدوره الرجلين الآخرين، فتقاطعت أذرع الثلاثة مثل حبال متشابكة، تحدّث الرجال اللغات الكوجارتية والأردية والبنجابية وأخذوا يصرخون في إحباطٍ عجزَهُم عن فهم بعضهم.

كان ماكدونالد قد اقترب من مدخل السجن حين صرخ أحد الأسرى بفجاجة: "*Woooooooiiiiiiiiiiiiiiiiiii iiiiiiii*." لم تكن هذه صرخة نابعةً من إرهاق الرحلة أو الجوع البادي في أعينهم، بل كانت إدراكاً لإهانتهم المُذلّة، لقد نجوا من كوارث مريعة في البحر فقط ليرسوا على هذه الأرض الجحيمية، من الصعب تحديد صاحب الصرخة الأولى من بين الرجال الثلاثة، لكنَّ صداها ارتدَّ عن الجدران وأخذ يتصاعد في إيقاع رنّان، فصار صوت الثلاثة واحداً وأتى الردُّ من بقية العمّال على الفور، هم كذلك صرخوا:

"*Woooooooiiiiiiiiiiiiiiiiiii iiiiiiii*." بدت الرياح الصلفة كما لو أنها تحمل الصرخة وترميها في البحر، فتعود لتطفو بعد لحظات بحدّة أكبر، والمياه التي تلامس الشاطئ تصرخ فتُضاعف الصوت آلاف المرات، أما الأمواج المتكسّرة فهي تهدر بغضب حاملة الصرخة، شأنها شأن أصغر وأضعف الموجات التي تتضاءل مع اقترابها نحو الشاطئ فتتحطم إلى رغوة زَبَدية على الرمال البيضاء.

مشى بابو نحو ماكدونالد، كان يريد المساعدة في ترجمة ما يقوله الأسرى الثلاثة، لكنَّ مجموعة من التقنيين تبعت خطواته، كانوا ينتظرون أن ينبري أحدهم ليطلق الطلقة الأولى حتى ينضموا إليه، لاقى مسيرهم شعبية بين العمّال فتزامنت صرخاتهم مع الخطوات.

"Wooooooiiiiiiiiiiiiiiii iiiiiii".

صار بابو شديد القرب من ماكدونالد.

"Wooooooiiiiiiiiiiiiiiii iiiiiii".

تحركت شفتا ماكدونالد لكنّه لم يقل شيئاً، كاد يقسم أنَّ وجه بابو بدا مألوفاً للغاية، لكنَّه لم يستطع حقاً تذكّر شيء عنه، أين رأى هذه الجبهة الضخمة؟ مشى الرجل بأسرع ممّا يمكن لهذه الإجابة أن تقفز إلى ذاكرة ماكدونالد، نفخ في الصافرة مجدداً، لكنّه بدا متقطّع الأنفاس إذ لم يُسمع سوى صوت شيء من النشيج، وارتعشت شفتاه، بحلول هذا الوقت كان معظم العمال قد حملوا أسلحة بسيطة في أيديهم، منتقاة من المعدات المتنوعة التي في حوزتهم، كانوا مسلّحين بالعتلات والمناشير والمطارق والكمّاشات والقرّاضات والمديات والشواكيش، شارك الرجال المحليون الذين استُؤجروا لأداء أعمال التحميل في هذه المسيرة، حتى أشجار النخيل التي وقفت صامتة على الشواطئ لمئات السنين بدت كأنّها تفتح أفواهها للمرّة الأولى فأضاف حفيف أوراقها نغمة سوبرانو للأغنية، وظهر أنَّ التجار وزبائنهم والكلاب الهجينة كلهم يشاركون في العويل بخوف، مكتسبين قوّة دفع جعلت حتى السفينة في البحر تبدو متأرجحة كأنها في قبضة نوبة من الصرع.

"Wooooooiiiiiiiiiiiiiiii iiiiiii".

أفلت ماكدونالد الأسرى من قبضته وسحب مسدّسه، أطلق طلقة واحدة في الهواء، لكنَّ صوتها كان مكتوماً للغاية، كأنّه صوت كسر قطعة من الخشب على ركبة مثنية، أطلق ماكدونالد جميع ما في مخزن المسدس إلى أن فرغ، كلّ ما فعله صوت الإطلاق هو إخافة عصافير الدوري لتغادر أعشاشها وتشارك في الأغنية.

".Woooooooiiiiiiiiiiiiiiiii iiiiiii"

".Woooooooiiiiiiiiiiiiiiiii iiiiiii"

تشقلبت العصافير وأدّت جميع أنواع الحركات في الهواء، هرب ماكدونالد في ذعر إلى داخل السجن، ارتقى درجات برج المراقبة متسللاً مثل عنكبوت، وصل إلى مخزن الأسلحة واتّجه مباشرة نحو المدفع الذي كانت فوهته بارزةً باتّجاه البحر، ثم أطلق منه طلقة واحدة.

لكن مجدداً، اختُرعت أسطورة جديدة، ولأيام وأسابيع وأشهر لاحقة، جلس الشبّان تحت شجرة جوز الهند وأنصتوا لصوت نيوندو وهو يعيد ويكرّر رواية قصة اليوم الذي أُطلق فيه المدفع.

لم يكن السواحيليون يستمتعون بشيء أكثر من قصّة محكية بطريقة جيّدة.

"!Wacha Kiswahili" يصرخ أحدهم بمرح في وجه نيوندو حين يشكّ أنّه يخلط ترتيب الأحداث، الأمر الذي كان يعجب معظم المتجمّعين.

"Wallahi[81] أنا أخبركم الحقيقة، لقد رأيت ذلك بأمّ عيني." يقول نيوندو معارضاً وهو يُلوّح بيده ليهشّ ذبابة عن كوب شايه الأسود قبل أن يأخذ جرعةً كبيرةً منه ويتجشّأ برضى.

"أقسم على ذلك، ***haki ya mama***[82]كل ما أقوله لكم هو الصدق." يصرّ نيوندو ثم يستحضر العواقب الوخيمة التي يمكن أن تحلّ به إن كان يكذب، ومنها مضاجعة والدته.

شهد إطلاق المدفع عدد قليل للغاية من الأفارقة، حين بدأ الصخب انسحب معظم الحمّالين، إذ كانت لديهم حكمة تشجّع الحفاظ على مسافة

---

81 Wallahi: والله (السواحيلية).

82 haki ya mama: بحقّ أمي (السواحيلية).

أمان عند مواجهة الكوارث لئلّا ينسكب شيء من الدماء عليهم.

"Sikiz"[83] روى نيوندو: "لم أعرف أنّي سأحيا إلى أن أشهد يوماً كهذا، أتعرفون؟ هؤلاء الرجال البيض جعلونا نتراجع مهزومين ومخزيين بعد أن أرونا قطعهم المعدنيّة الصغيرة التي تنفث الدخان، عاملناهم كما لو كانوا آلهة صغاراً، والآن أعرف أنّهم لا شيء، علاجهم هو ***muhindi***، الهندي خطير، اسمعوا كلامي، دعوه وشأنه، إنه علاج اضطهاد الرجل الأبيض، لقد رأيت هندياً يلقّن رجلاً أبيض درساً لا يُنسى بعينَيَّ هاتين..."

"Aisee! Chai! Chai hala hala!"[84] صرخ نيوندو طالباً كوباً طازجاً من الشاي. "أريد أن يفهم هؤلاء الناس الحكاية، وقد بدأ صوتي يبحُّ من التعب، ***Chai hala hala!***.

يحصل على كوبه الطازج فيرتشف منه ويتابع.

"Ushaona bwana?"[85] يسأل ليسترعي اهتمام جمهوره، على الرغم من أنَّ نيوندو لم يعرف بابو بالاسم، إلا أنّه كان يصف جبهته البارزة بدقة: ***"Sokwemtu"***[86] قال.

ثم أعاد تمثيل الطريقة التي مشى بها باتجاه ***mzungu*** وهو يحمل مسدساً ويطالب بالإفراج عن العمال الهنود الثلاثة الذين كانوا يصرخون.

"و***Bwana Mkubwa***[87] الرجل الذي كانت ثيابه تضاهي الشمس في سطوعها ارتعش مثل ورقة شجر، بينما سار الهندي نحوه، لم يكن طويل القامة كثيراً إلا أنه يبث الرهبة في القلوب بما يكفي، أعتقد أنّه كان يخطط

---

83 Sikiz: استمع (السواحيلية).

84 Aisee! Chai! Chai hala hala: أنت! الشاي! الشاي هنا هنا(السواحيلية).

85 Ushaona bwana?: هل رأيتم السيد (السواحيلية).

86 Sokwe mtu: الرجل القرد (السواحيلية).

87 Bwana Mkubwa: الرئيس الكبير (السواحيلية).

لاستعمال جبهته لسحق الرجل الأبيض، لكنَّ ***mzungu*** كاد يبلل سرواله من الخوف."

ارتشف نيوندو الشاي مجدداً، "كنت جالساً هناك مع طبلي حين تقدم هذا الهندي ***jinni***، أما ***Bwana Mkubwa*** الذي كان شاربه يتراقص لأنَّ صاحبه كاد يفقد صوابه من الذعر، فقد سحب ***chuma***[88] الصغيرة الخاصة به وأطلق النار على الهندي المقترب، باو! باو! باو! واحد، اثنان، ثلاثة."

"يرشق الرصاصات هكذا؟" قاطعه واحدٌ من الجمهور: "وييبي يا نيوندو، توقف عن ***Kiswahili***."

"***Sikiza***" تضرّع نيوندو.

"أنا أقول لك، ***haki ya mama***، أقسم بوالدتي.

Risasi[89]، باو، باو، باو! لكنَّ هذا الجني الهندي لم يكن يشعر بشيء، كما لو أنَّ الرصاصات لا تستطيع اختراق جلده، كانت تطير بسرعة مبتعدةً عنه وتسقط في المحيط، أو تذوب في الهواء."

"لم تصبه أيّ رصاصة؟" سأل صوت آخر.

"ولا واحدة، لهذا انطلق ***Bwana Mkubwa*** هارباً واختفى داخل البناء."

"هل ذهب ليختبئ؟"

"لا، انتظر وأنصت، أنا الذي أخبر القصة، استمع، استمع يا صديقي، إن أخبرك أحدهم أنَّ هناك صوتاً أعلى من انفجار المدفع فإنه بالتأكيد كاذب." تابع نيوندو: "ثقوا بكلامي، لا شيء يضاهي صوت إطلاق المدفع، إنه يطغى على كلّ الأصوات."

---

88 chuma: الحديدة (السواحيلية).

89 Risasi: رصاص (السواحيلية).

زعم نيوندو أنَّ جميع طيور الدوري علّقت رفرفة أجنحتها لتستمع إلى صوت الانفجار، لأنه لم يسبق لها سماع صوتٍ كهذا، واستوت أمواج البحر الهادر لتتجنّب نيران المدفع إلى درجة أنَّ البحر بأكمله صار مسطحاً مثل مرآة تعكس الشمس القابعة في السماء.

"أعتقد أنَّ البحر كان بالاستواء نفسه حين مشى ذلك النبي الشهير الذي يستمرّ الواعظ (رجل الأبقار) في الحديث عنه فوق الماء، أسقطتْ أشجار النخيل كلّ ثمارها، مكتملة النمو وغير مكتملة النمو، ناضجة وغير ناضجة." أخفض نيوندو صوته وقال بنبرة منخفضة: "كامرأة تجهض جنينها." ثم تابع روايته بنبرة معدّلة لتصبح مناسبة: "كانت الأغصان المهتزّة معلّقة في الجوّ، والأوراق مقوّسة بشكل غريب مثل رأس مضفور الشعر... ***Maajabu***[90].

إن رأيتم ***muhindi*** فحيّوه باحترام، الهندي هو علاج الرجل الأبيض، منذ أن شهدتُ تلك الحادثة لم أعد أخشى البيض." قال نيوندو في الخلاصة، وهو يطلب كوباً آخر من الشاي، "الشاي الجيد يجعل الدماغ يغلي."

6

سجّل ماكدونالد أحداث ذلك اليوم -الثاني من أغسطس عام 1897- على أنّها أول احتجاج عمّالي منظّم في محمية شرق إفريقيا البريطانية، ولأنّه كان جندياً محترفاً فقد كان خبيراً في مواضيع إدارة المعلومات، لذا فقد تيقّن أنّه لو سمّى ما حدث تمرّداً أو حتى حصاراً، فإنّ قادته في لندن سوف يجنُّ

---

90 Maajabu: عجائب (السواحيلية).

جنونهم، وربما يستدعون الحاكم الاستعماري تشارلز إريكسون الذي كان على الطريق في العاصمة الاستعمارية نيروبي التي لا تبعد أكثر من خمسمئة ميل، ليُعهَد إليه عندها بإنشاء سكّة الحديد في مومباسا، لذلك قدّم ماكدونالد المعلومات التي تصبُّ في مصلحته فحسب، وكان همّه الأكبر هو الشروع في تركيب خطّ السكّة.

كان ماكدونالد لا يزال يرتعش حين يتذكّر اللّحظة التي زحف فيها بابو نحوه، عرف أنّه رأى تلك الجبهة من قبل في مكان آخر، وظنّه حمّالاً مبعوثاً برسالة عاجلة له، لكنّه لم يكن يحمل شيئاً، حين رأى ماكدونالد العمّال الآخرين يشاركون في المسيرة، أدرك خطأ ظنّه.

هناك شيء مرعب في هذه الجبهة، إذ إنّها تصرف الانتباه عن العينين فتجعل المرء يفقد تركيزه ولا يعرف تماماً إلى أين تتّجه، إنَّ التفسير الأولي الخاطئ لنيّات بابو هو ما زرع بذور العداوة التي نمت إلى حقد استمرّ لحياة كاملة.

دفع الخوف ماكدونالد لاتّخاذ إجراءات يسمّيها الجنود العودة إلى نقطة البداية، ليفهم حجم ما يواجهه، كان عليه استيعاب المشهد المحلي، وعرف أنّه سوف يجد معلومات وافرة في الملاحظات التي تركها سلفه الكابتن جون آدمز والتي كان يُرجئ قراءتها.

المرسل: الكابتن جون آدمز، المفوض السابق لمحمية شرق إفريقيا البريطانية.

المرسل إليه: إيان إدوارد ماكدونالد، مفوّض محمية شرق إفريقيا البريطانية

التاريخ: الثاني عشر من ديسمبر عام 1896.

أرسل إليك تحياتي بعدد حبات الرمل في المحيط، وعدد أوراق النبات في الأجمة، هذه طريقتي لأخبرك أنني عشت في هذا المكان بما فيه الكفاية لأكتسب الأحاسيس المحلّية، مثل طريقة مبالغتهم في الكلام، أهلًا بك في مومباسا.

لا بدّ لي من القول بدايةً إنَّ هذا المكان يطابق في واقعه ما يُحكى عنه، إذ إنّه وجهة يسهل السفر إليها وتصعب مغادرتها، وأنا أوافق تمامًا على هذه المشاعر، فلا تقل لاحقًا إنَّ أحدًا لم يحذّرك من فتنته...

لم تبدُ الأمور على هذه الشاكلة حين وصلتُ للمرة الأولى منذ سنتين في تلك الأمسية البعيدة بصحبة بغلين ورجلين.

سوف ترث البغلين، لكن لا يمكن لك الحصول على الرجلين، أحدهما من قبيلة الوانيايكا، بالرغم من أني سمعت أنهم يعتبرون هذا الاسم ازدرائيًا، ويصرّون على تسميتهم بقبيلة جيرياما[91]، والآخر من قبيلة كيكويو[92]، لا يمكن لك ورث الرجلين لأنهما غادرا، السبب الوحيد الذي يجعلني أشاركك هذه المعلومة هو الحرص على ألّا توظفهما من جديد، أو أيًا من قبيلتيهما لأداء شؤونك المنزلية، إنهم أشخاصٌ سيّئون.

بغضّ النظر عن أنّ الرجل من قبيلة كيكويو الذي وظّفته

---

91 جيرياما: واحدة من القبائل التسع التي تشكّل مجلس البلدات التسع mijikenda في كينيا، يبلغ تعداد سكّان هذه القبيلة حوالي 531,751 نسمة.

92 كيكويو: أكبر المجموعات العرقية في كينيا، ويبلغ تعداد سكانها 8.1 مليون نسمة عام 2019.

ليعمل طاهيًا كان كسولًا للغاية، فقد كان يحمل في عينيه نظرةً حالمةً طوال الوقت بدت لي مخيفةً فعلًا، وقد علمت لاحقًا أنَّ أيّ فرد من **الكيكويو** أثناء خدمته كان يخطط طوال الوقت للطريقة التي سينهبك بها ليستطيع في أحد الأيام الجلوس على مائدة وتلقّي الخدمة من الآخرين، أما الرجل من قبيلة **وانيايكا** أو **جيرياما** فقد كان كسولًا إلى درجة أنّه قطع كلّ أشجاري كي لا يتعيّن عليه كنس المجمّع كلّ صباح.

لكنّي أحيد عن الموضوع، أترى، كما ذكرت لك في بداية الرسالة، لقد كان هذان العامان طويلين للغاية إلى درجة أنّي اكتسبت أساليب السُكّان الأصليين الملتوية في الكلام، ما أعني قوله هو ضرورة قدومك هنا مبتهجًا لأنّك ستجد العديد من الأمور المملوءة بالبهجة والباعثة عليها، في البدء، مومباسا مكان معقّد، إنها بلدة قديمة تقع على مرفأ يعود تاريخه إلى عدة قرون، لكنّها تبدو عالقة هناك، مجمّدة في الزمن بطريقة سنجدها حسنة إن فكرنا بها، وصل البرتغاليون أو ***Wareno*** كما يسمّيهم المحليون، في القرن الخامس عشر، وأتى العرب بعدهم مباشرة.

جلب البرتغاليون الذرة إلى مومباسا، بينما شحن العرب جميع الحبوب وأخذوها.

حين تضاءلت كميات الحبوب الموجودة، بدؤوا في خطف السُكّان الأصليين وبيعهم، الهنود والصينيون كانوا موجودين طوال الوقت، يديرون أعمالهم بطرقهم المشبوهة المعهودة، أي إنّك لا تستطيع فهم طبيعة عملهم، لكنهم يتربّصون طوال الوقت.

أظن أنّك الآن بدأت تفهم الصورة التي أحاول رسمها لك، يمكنك اعتبار مومباسا مثل طبق بتري[93] يجمع الحضارات، والنتيجة النهائية فيه هي العديد من الناس غير المتحضّرين المجموعين معًا لأنهم ينتقون على ما يبدو أسوأ الأشخاص من بين الجميع، قد تتساءل عن السبب الذي يجعلني أرى ذلك مقلقًا، مع أنَّ عملنا هو جعل هؤلاء الأشخاص متحضّرين، وطالما توجد أقوام غير متحضّرة في مكان ما من العالم فإنَّ عمل الإنكليز مضمون، لكن درجة جلافة تصرفاتهم قد تكون مقلقة حقًا، وغامرة في بعض الأحيان.

لا أعرف إن كنتُ أخبرتك عن الإحساس الغريب الذي يتملّك المرء في مرفأ مومباسا، شيء يذكّرك بالبلدات البريطانية ذات المرافئ مثل برايتون[94] وساوثهامبتون[95] ويمكنني الإضافة أنَّ المشهد الاجتماعي المحلّي يشبه إلى حدّ كبير ما تُوصف به مدينة أثينا الأثرية، حيث يقضي السُكّان المحلّيون أيامهم في الجدال على اللّا شيء، هناك تجمعات مشابهة في مومباسا، بالأخصّ بين الجماعات الإفريقية/ العربية، أو بين السواحيليين كما يسمّونهم هنا.

إنها مجموعة نشأت من التناسل بين العرب والأفارقة، ويبدو أنّهم يتزاوجون طوال الوقت، لأنهم صاروا أمّة كاملة جديدة، بلغتها الخاصّة بها، ستجد القليل من الهنود في كلّ تجمّع بليد من

---

93 طبق بتري: وعاء مسطّح دائريّ الشكل وشفّاف مع غطاء، يُصنع من الزجاج أو اللدائن، ويستعمله علماء الأحياء لزراعة الخلايا.

94 برايتون: مدينة تقع في إقليم شرق ساسكس في جنوب بريطانيا.

95 ساوثهامبتون: مدينة وميناء رئيس في هامبشير، إنكلترا.

هذا النوع، إلا أنَّ الثرثارين الحقيقيين هم الأفارقة/ العرب، لديهم استعداد للجلوس والحديث عن أيّ شيء تحت وجه الشمس، قد يكون ما يتحلّقون حوله هو جدال سخيف مثل تقرير حبّة الفاكهة الناضجة بما فيه الكفاية للأكل، لكن عوضًا عن فصل هذا الجدال بتسلّق الشجرة فإنهم ينتظرون سقوط الثمرة، هذا يعني أنّهم قد يقضون أيامًا في الجدال حول حبّة فاكهة معيّنة، بينما ينتظرون تدخّل الطبيعة.

قد يخطر لك أن تسأل عن السبب الذي يجعلني أخبرك كلّ هذا، في الحقيقة، لأنَّ المتمارضين الجبناء يتسبّبون في نتائج خطيرة في ما يتعلق بتزويد العمال محليًا.

تُحدِثُ هذه اللّقاءات -أو ***vikao***[96] كما يسميها الأفارقة/ العرب- آثارًا سلبية على إمكانية الحصول على عمّال محلّيين، إنَّ محاولة إيجاد عمّال مأجورين هنا هي أمر محبط للغاية، ولا تنس أنّنا نتحدث عن سكان أصليين فظيعين وخمولين ولصوص، أي إنّهم ليسوا عمّالًا محترفين، لا تستطيع إرغامهم على العمل، وإن آلمتهم حتى الموت، موقفهم تجاه العمل غير صحي بشكل مذهل، وسبب هذا جزئيًا هو اعتبار العمل مهمّة المرأة، فالرجال الحقيقيون يذهبون إلى الغابة ليصطادوا، والنساء وحدهن من يحنين ظهورهن ويتصارعن مع التربة، تعرّضت فرقة من الحمّالين المحلّيين للسخرية الشديدة لأنهم كانوا يضعون الأحمال على رؤوسهم -وقال رجال آخرون إنهم يشبهون النساء العائدات بالماء من الجدول- إلى

---

96 Vikao: المنتديات (السواحيلية).

درجة أنَّ حملتنا بأكملها اختفت بين الأجمات مع جميع بضائعنا التي كانت فوق رؤوسهم، بالطبع فإنَّ اللصوص بينهم كانوا ينتظرون أيّ عذر للفرار.

أما العوامل الأخرى لصعوبة تأمين العمّال محليًا فهي خطيرة، منذ إعلان إلغاء العبودية في بريطانيا العظمى، اكتشف العرب وأتباعهم، الذين هم من **الواكامبا**[97] **والوانيايكا** أو **الجيرياما** كما يحبون أن يُدعوا، اكتشفوا وجهات جديدة لحمولاتهم البشرية، يتعلق ذلك ببدء سلطان زنجبار، السيد سعيد زراعة القرنفل في بلاده لتعويض المردود الذي كانت تجارة العبيد تدرّه.

نبتة القرنفل، لضرورة التوضيح، هي نوع من البهارات من العائلة الثومية، وهي محصول يتطلب عمالة مكثفة، لأنَّ جنيها يستمر طوال العام، ويحتاج كلّ عنقود قرنفل إلى القطف يدويًا من دون إلحاق الأذى بغصنه، تعقب ذلك أيامٌ من التجفيف قبل أن يُباع المحصول، يتصرّف هذا النبات مثل الحرباء في تغيير لونه، فهو يكون أرجوانيًا في براعمه وأخضر بعد قطفه، ثم يصبح بنّيًّا عند تجفيفه، دعني أخبرك لماذا عليك معرفة كلّ هذه التفاصيل، ولماذا تكترث أصلًا إن كان الأمر يتطلب من العبيد في الحقول العربية عامًا كاملًا لجني حفنة من القرنفل.

يمتلك سلطان زنجبار خطًّا ساحليًا، لذلك ليس من مصلحتنا معاداته من دون أن تقتضي الضرورة ذلك، حين أصرّ رجالنا في لندن على ضرورة عدم التساهل مع العبودية بجميع أشكالها، دُعيتُ

97 الواكامبا: مجموعة عرقيّة تتمركز في المناطق الشرقية والجنوبية الشرقية من كينيا.[97]

إلى تقديم تعويضات متواضعة لتجّار العبيد العرب لقاء كلّ عبد يطلقون سراحه، وهو أمر قد تتوجّب عليك متابعته.

ثانيًا، يمتلك الأفارقة/ العرب قدرًا من الخبرة في الإدارة، وإن كانوا قد اكتسبوها بضرب مصالح الآخرين عرض الحائط، ونحتاج إليهم لترسيخ إدارتنا في المنطقة الداخلية.

ما يقودنا إلى اقتراحي الأول:

بالنظر إلى التاريخ المعقّد للمنطقة الساحلية، علينا العثور على طرق للوصول إلى سُكّان المنطقة الداخلية، والذين يفوقون الجماعات الزائلة والفائقة اقتصاديًا من الهنود والأفارقة/ العرب، سوف أفصّل هذه المسألة بموضوعيّة أكبر بعد قليل، لكن في البداية دعني أتعمّق أكثر في شرح المشهد الاجتماعي.

صبّت الطبيعة جامّ غضبها على الأرض، كـأنّنا لا نواجه ما يكفي من المشاكل، شهدنا مجاعة مدمّرة استمرت طيلة العامين اللّذين قضيتهما هنا، أشكُّ في أنَّ السكان المحليين المتطيرين استنتجوا بالتأكيد أنَّ اختفاء المطر كان يتعلّق بطريقة ما بوجودنا بينهم، وهو أمر لا يُعد سيئًا في واقع الأمر.

إن كانوا يعتقدون أنَّ لنا القدرة على التدخّل في مسار الطبيعة فقد يتقبّلون تعليماتنا بمرونة أكبر، لكنّي لم أنجح حقًا في هذا الأمر.

لقد أتينا بمحلّل نفسي من لندن على أمل فهم درجة التطيّر الموجودة بين السكان المحليّين، كانت لديه طريقة ذكية في جمع العينات، تمثّلت في طلبه من المشاركين أن يحكوا أنواع الأحلام

التي كانت تنتابهم منذ وصول البيض، بما أنَّ الأحلام تُستقى غالبًا من اللّا وعي فقد أملنا أن نعرف عبرها مواقفهم تجاهنا، لكنَّ جميع السكان الأصليّين قالوا إنّهم توقفوا عن رؤية الأحلام منذ أن وطئت أقدامنا هذا المكان، وهكذا ترى نوع المكر الذي سيتعيّن عليك التعامل معه، إنه أمر فطري عند غالبية هؤلاء القوم.

لكنّ الأسوأ كان ما حصل تاليًا، حين رأينا تدهوُر الأوضاع باضطراد بسبب المجاعة، قرّرنا التحرك لإنقاذ الموقف، ذهبنا إلى الداخل وأجرينا استبيانًا مختصًّا بسوء التغذية، شمل الاستبيان حوالي 50 عائلة، ما يقارب 2000 طفل وبالغ، فوجدنا أنَّ 30٪ منهم تقريبًا لم يمتلكوا طعامًا كافيًا، أي إنّهم يتناولون وجبة عرضية كلّ عدة أيام، بينما عانى 10٪ من سوء تغذيةٍ حادّ، ومعظمهم من الأطفال، ثم اتخذنا إجراءات للتخفيف من تفاقم الوضع عبر جلب شحنات من الهند محمّلة بالذرة التي أتت في الأصل من هذا المكان، كانت الرياح الموسمية ممتازة للغاية.

لكنَّ تدخلنا كان يحمل الإيجابيات والسلبيات، رفض المحلّيون تلقّي الحبوب منّا قطعيًا، خشية أن تكون طُعمًا لاستدراجهم نحو الأسر والعبودية، وهذا، كما علمنا لاحقًا، ناتج عن الطرق اللّا أخلاقية التي كان العرب يستعملونها على مدى السنوات الماضية، لقد أُخبرت لاحقًا أنّ واجهة واتامو المائية تستقي اسمها من التمر الحلو المتدلّي الذي كان يعلّقه التجّار هناك لاستدراج السكان الأصليين وأسرهم وإرسالهم بعيدًا في السفن، لذلك خافوا هدية الحبوب التي قدّمناها، ولم يلمس أحد منهم الذرة.

إن كنت تظنّ هذا مفاجئًا، فسوف تزداد حيرتك الآن، أصبح سكان الوانيايكا الأصليّون الذين كانوا أكثر المتضرّرين من المجاعة، والذين رفضوا أن يلمسوا ذرّة حبوبٍ من يد رجل أبيض، أصبحوا يرهنون زوجاتهم وبناتهم لدى التُجّار العرب لقاء الحبوب، نصّ الاتفاق على أنَّه حال تحسّن أحوالهم سيسددون ديونهم وتُعاد نساؤهم إليهم، أنا عاجز كليًا عن فهم منطق أفعالهم هذه حتى وإن كانت حياتي تتعلّق على فهمه، لكن على ما يبدو فإن هذا تقليد أثبت جدارته عبر الزمن ولا تتردّد العائلات التي تعاني الصعوبات في رهن الزوجات أو البنات، مع ذلك فقد هاجرتْ أسرٌ أخرى إلى الأراضي الزراعية قرب نهر ساباكي[98] وازدهرت إلى درجة أنها أصبحت قادرة على مدّ يد العون إلى أفراد قبائلها في بقاع أخرى من الأرض الداخلية، وهذا دليل مُثبت على قدرة السكان الأصليين على إعمال ذهنهم وإيجاد طرق للنجاة عند تعرضّهم لظروف شديدة القسوة.

لطالما لازمني سؤال مُلِحّ، هل كانت تصرفات السُكّان الأصليين لتختلف لو أنهم عاشوا في أجواء يطغى عليها الصقيع طوال العام عوضًا عن هذه الحرارة اللاذعة؟ لا بدّ أنّهم لن يتجولوا عراة، أو ينتظروا الثمار لتسقط عن الأشجار، كانوا بالتأكيد سيجدون وسائل ليرتدوا ملابس دافئة وربما ليخزّنوا بعض الطعام للأيام المثلجة.

أعتقد أنّي أنسب إليهم أمورًا لا يستحقونها فقط لأنّهم

---

98 ساباكي: ثاني أطول أنهار كينيا (390 كم).

استطاعوا تأمين طعامهم، لكن في الواقع، حتى الطيور التي لا أيدي لها ورؤوسها بالغة الصغر، لديها من المخيّلة ما يكفي لإنجاز مآثر من هذا النوع، إنّي أنحرف عن الموضوع من جديد، ما أريد قوله هو إنّي لم أكن أتوقع من السُكّان المحليين أن ينجزوا شيئًا، ولهذا لم تفُتني ملاحظة أصغر أفعالهم، وقد رأيت مبادرة السُكّان الذين هاجروا إلى ضفة نهر الساباكي إنجازًا بارزًا بالفعل.

ولهذا قد تتفاجأ إن أخبرتك أنّ مبادرة الازدهار على ضفاف الساباكي وضعتنا في طريق الاصطدام مع السكان المحليين، نعم، لدينا مشاكل معهم حين يجلسون ويتحدّثون، وحين ينهضون ويعملون.

وهذا هو السبب، منازل الوانيايكا أو الجيرياما منظمة في مجموعات، يشكّل عدد منها قرية ويَفضُّ فيها مجلسٌ من كبار الحكماء جميع النزاعات التي تحدث مستعينين بالكايا[99]، لا بدّ أنّك صرت تدرك الآن موضوع الإيمان بالخرافات وارتباطه بالحضارات البدائية، حتى وإن واجهت هذا الأمر في أماكن أخرى، فهنا منبعه الأساسي، والكايا حسب معتقدات الوانيايكا هو المسكن المقدّس لإلههم، وهم يُطعمون الأشجار لحومًا وعسلًا فيه، أظنّ أنّ هذه التغذية الغنية هي التي جعلت حبّات التين في هذه الكايا تنمو إلى أحجام هائلة لدرجة يعجز فيها عدّة رجال معًا عن تطويق جذع شجرة واحدة منها، يخشى الناس هؤلاء الحكماء بشدّة، كما يشيع الخوف من أن يسحر أحدُ الأشخاص الآخر إلى درجة أنّك ترى الأطفال الصغار يرتدون تمائم منذ ولادتهم

99 الكايا: المكان المقدّس للقرى التسع في كينيا.

لتحميهم من الأذى.

يقدّم لنا هذا الأمر فرصة الاستثمار في السيكولوجيا اللّا منطقية لديهم لنحقّق خرقًا في تحويل تفكير السكان إلى اتّجاه آخر.

ويبرع الكاهن تيرنبول في هذا الأمر، وهو رجل أقترحُ عليك لقاءه والتعرّف عليه، إنّه ينتمي إلى (مجتمع مهمة الكنيسة)، ولديه صبي محلّي يؤدّي أعمال الترجمة له، ليس بارعًا حقًّا لكنّه أفضل من لا شيء.

يبدو أنّي فقدت سلسلة أفكاري مجددًا حيال التطيّر المحلّي، آه نعم، الآن أتذكّر... إنَّ هجرة الجيرياما إلى مستعمرة ساباكي أضعفت سلطة الحكماء على الشبّان لأنهم تركوا الكايا في قراهم القديمة، من دون الكايا والقوى الغامضة المرتبطة بها، لا يعود للآباء رأي في شؤون أبنائهم، وبالتالي تضعف سيطرة الحكماء على مصالح المجتمع الروحية والسياسية، وهذا يعني أننا إن أردنا طرح طلبات تشمل المجتمع بأسره -مثل الضرائب- فلا يوجد سلطة مركزية قادرة على فرض تنفيذ القرارات، وإن اختار الشبّان تجاذب أطراف الحديث وانتظار الثمرة لتسقط على رؤوسهم، فلا يستطيع الآباء إلزامهم بأداء أيّ عمل، علاوة على ذلك، إن كان تحالف الحكماء الهشّ هو ركن الإدارة غير الفعّال، فإن الأمور ستغدو أكثر صعوبة لأنهم قد انتشروا في جهات الأرض الأربع، لكنَّ المعركة الوشيكة، التي سيتعيّن عليك خوضها، هي مسألة مستعمرة الساباكي، لا بدَّ أنّك سمعت عن شركة شرق إفريقيا البريطانية الإمبراطورية (*IBEA*)، وقد تكون صادفتها خلال

عملك السابق في الهند، أظنّ أنّهم كانوا يعملون هناك تحت اسم شركة الهند البريطانية المحدودة للملاحة البحرية.

هؤلاء السادة والشركات التابعة لهم يطمعون بالسيطرة على مستعمرة الساباكي، ويعتقدون بإمكانية الاستثمار في زراعة الأرز، وهذا يحقق بالفعل ضرب عصفورين بحجر واحد، من جهة، سيكون لديك ما تشحنه، أي إنّك سوف تستعمل سكّة الحديد حال إتمام تركيبها، ومن جهة ثانية سيبدأ ضخّ رؤوس الأموال الأوروبية، الذي سوف يستقطب المزيد من المستثمرين من إنكلترا وأوروبا الكبرى، وحتى الأمريكيون لن يتردّدوا في الاستثمار حالما تحضر شركة *IBEA*، لكنّ العائق هو كيفية إخراجُ السُكّان المحليين من مستعمراتهم ليشاركوا في العمل المأجور، وهذه هي الطريقة الوحيدة لمدِّ سكّة الحديد، أعتقد أنّ عليك استعمال هذا الشعار مع السكان الأصليين: اخرجوا من الأرض، اعملوا في إنشاء السكّة.

أخيرًا، أقدّم لك بعض الاقتراحات بخصوص طريقة متابعة الوضع، هذه أفكار عشوائية لم أفكّر في تفاصيلها حقًّا، وقد تبدو غير مترابطة أو عديمة الجدوى تمامًا، لا تتردّد في تجاهل أيّ واحدة منها لا تصلح للاستعمال، لكنّها جميعًا تستحق التفكير العميق.

في البدء، يمكنك فرض الضرائب، اجعل كلّ منزل يؤدّي ضريبته، وافرض على جميع الذين يتأخرون عن الدفع الذهاب للعمل في إنشاء السكّة من دون مقابل، لا يستطيع أحد تسمية هذا الإجراء بالعبودية، أو العبودية البديلة لأنّ السكان يمتلكون خيار العمل المأجور.

الطريقة الأخرى هي تعيين رؤساء وتكليفهم بجمع الضرائب -متأمّلًا أنّهم لن يسرقوا كلّ النقود- وهكذا إن استاءت العامة، فإنَّ امتعاضها سوف يكون موجهًا نحو الرؤساء وليس نحوك، اقتراحي الآخر هو منع قتل الحيوانات البريّة، يصطاد **الوانيايكا** الفيلة ليبيعوا أنيابها للعرب، أو لشراء التذكارات من القبائل الأخرى ثم بيعها على الساحل.

إنَّ تقليل الوسائل التي يستطيعون من خلالها كسب قوتهم هو أسهل الضمانات على أنّهم سوف يكونون متاحين للعمل المأجور، في حال فشلِ جميع هذه الآليات في جعل **الوانيايكا** يعملون لصالحك، يمكنك تقويض قدرتهم على إنتاج الطعام.

على الرّغم من أنّنا لا نقول هذا علنًا، إلّا أنَّ هناك طرقًا لإبادة الحيوانات المنزلية، مثل طاعون الماشية، يمكن كذلك للبراغيث شلّ حركة السكان الأصليين بشكل جماعي لأنهم لا يرتدون الأحذية، وحين تفشل كلّ الطرق يبقى العنف خيارًا قابلًا للتطبيق، لا يوجد علاج لتعنّت السكّان أفضل من الضرب المبرح.

كما قلت من قبل، كلّ هذه ما هي إلّا أفكار عشوائية وقد يُبطلها بعض التمحيص، لكنها تستحق المشاركة.

أرجو لك كلّ الخير يا صديقي العزيز، وحظًّا موفّقًا في عملك الجديد، لا تتردّد في سؤالي إن كنت تحتاج إلى معلومات إضافية، التنبيه الوحيد الذي أتركه لك هو ضرورة توقّع إيجاد أطنان من المعلومات الملتوية قبل أن تنال أيّ شيء ذي قيمة من كلامي، أنا المواطن الذي يبدو على حافّة التحوّل إلى واحد من السُكّان

الأصليين، إن جاز التعبير، ولأستعمل تعبيرًا محليًا شائعًا، أرجو أن نلتقي أنا وأنت في هذه الحياة، في لندن أو في مكان تكليف آخر من الإمبراطورية، لأننا بشران ولسنا جبالًا، فالجبال لا تتحرك ولا تلتقي.

مع فائق الاحترام

جون آدمز

تعلّم ماكدونالد دروساً عديدةً من أحداث يوم الشغب، وأهمها أنَّ العنف الوحشي هو الطريقة الوحيدة الناجعة في التعامل مع السُكّان المحليين والهنود الواصلين حديثاً، فضلاً عن ضرورة الحرص على عدم تعاون المحليين والهنود معاً، وقد صنع ماكدونالد سياسة خاصّة دعاها: فرّق تسد. مخصِّصاً قسماً جديداً في سراديب السجن.

كان هناك الآن ثلاثة سجون، البيض في القسم الأعلى، السُمر في المنتصف، والسود في الأسفل، لقد قرّر الانتظار ودراسة تصرّفات العرب، إن كانوا معادين للوجود البريطاني فسوف يحشرهم مع الأفارقة في قسم السود، لكنهم إن تصرفوا بشكل حسن فسوف يُصنّفون على أنهم سمر ويوضعون مع الهنود.

ركّز ماكدونالد اهتمامه على بابو، لقد تعلّم من تدريبه في أكاديمية ساندهيرست[100] أنَّ بابو كان ينوي افتعال المشاكل، لذلك فقد طبّق المبدأ الذي تعلّمه منذ زمن طويل في المدرسة الحربية في إنكلترا، اجمع عن خصمك كلّ

---

100 ساندهيرست: (الأكاديمية العسكرية الملكية).

المعلومات الممكنة، وستقلّص حجم مشكلتك إلى النصف، درس ماكدونالد خياراته، كان أحدها ترحيل بابو إلى البنجاب، لكنَّ الرياح الموسمية لن تهبّ باتّجاه الغرب قبل أربعة أشهر، وهذا يعني أنّه سينال رحلة مجانية لا يستحقها، يجب إرغام الوضيعين من أمثاله على السير عائدين إلى أوطانهم، لكنّه إن انتظر حتى تُغيّر الريح الموسمية اتّجاهها فسوف تنضج المؤامرة التي كان يعتقد أنها تُحاك لإفشال إنشاء سكّة الحديد، ذلك طبعاً ما لم يقتلها في المهد.

فكّر ماكدونالد في احتجاز بابو في الحصن، سيكون من السهل إيجاد تهمة ملائمة له، ففي النهاية، لم تكن تسمية الحكومة الاستعمارية (الذراع الممتدة للقانون) قد اختُرعت عبثاً، لو أراد القبض على بابو سريعاً حقاً لأمر باعتقاله لسبب تافه مثل التبول في العلن، وقد تضمنت هذه الجنحة مجموعة كبيرة من التهم تحت ظلّ القانون الإنكليزي، من كشف الجسم بطريقة مخلّة بالآداب العامة إلى تهديد انتهاك السّكِينة العامة.

إلا أنَّ ماكدونالد كان واثقاً من قدرته على اقتصاص رطل اللحم الذي يريده من بابو إن استطاع الإمساك به وهو يتغوط، ففضلاً عن جميع التهم التي ينالها المرء جراء التبول في مكان عام فإنَّ التغوط يضيف تهمة تهديد صحة السكان بسبب سوء النظافة الشخصية والتخلّص غير الآمن من الفضلات، يمكن عندها احتجاز بابو في السجن كإجراء عزل صحي، أنت، أيها العامل المبتدئ، أنهِ ما تفعله وتعال معنا، تلذذ ماكدونالد بفكرة القبض على بابو بسروال مسدل إلى الكاحلين، يجرّه الشرطي على رؤوس أصابعِه من مؤخر بنطاله بطريقة تؤكّد شكوك وصول عضوه الذكري إلى حدود الاختناق، كان التغوط في مكان عام تهمة لا يمكن لأيّ قاضٍ المجادلة فيها، كما يبدو أنَّ الهنود يستمتعون بالنسيم على أجسادهم وهم

كما ولدتهم أمهاتهم.

إنَّ الاحتجاز من دون محاكمة خيارٌ قائم كذلك، إذ يسمح القانون الإنكليزي العام به، كلّ ما يحتاجه هو إثبات تشكيل المتهم تهديداً للمصالح البريطانية الوطنية، وإنشاء سكّة الحديد يقع ضمن هذه الفئة، لا يمكن الوصول إلى ثروات محمية شرق إفريقيا البريطانيّة من دون هذه السكّة، وكانت الحكومة البريطانية تنتظر استرجاع قيمة لاستثمارها، لكنَّ هذه الاستراتيجية كانت محفوفة بالمخاطر، يمكن تحويل بابو إلى شهيد ورمز للاحتجاجات المستقبلية، الأمر الذي قد يكون مشكلة كبيرة إن احتشدت جماعة مناصري بابو -ولم تكن لدى ماكدونالد أيّ طريقة لمعرفة عددهم- لتأييد قضيته، بدا أنَّ السكان المحليين يتواصلون مع الهنود بطرق لم يستطع فكّ شيفرتها، ولم يشأ أن يتكرّر موقفه الذي بدا فيه أخرق مرة ثانية، تلك كانت تجربة مرعبة، لم يرغب أن يضطر إلى إطلاق نار المدفع من جديد، فهو معدٌّ لدفع الاعتداءات الخارجية مثل جحافل البرتغاليين أو الألمان الذين يهدّدون أمن المستعمرة من أماكن قريبة مثل الموزمبيق وتنجانيقا وليس للعمال المبتدئين المتفوطين والمتعاونين المحليين معهم.

من الخطر نشوء تعاون بين السود والسمر، لقد رأى ذلك يحدث في جنوب إفريقيا، ولم يرغب في تكراره في شرق إفريقيا، قرّر ماكدونالد وضع بابو تحت المراقبة، وعندها بالتحديد تذكّر المكان الذي صادفه فيه في السابق، كان على متن السفينة التي تعرضت للتحطّم، وكان ماكدونالد يعرف تماماً مكان العثور على ناهودا، قبطان السفينة.

***

بقيت فاطمة طريحة الفراش، بالكاد ترى بابو عدة دقائق في كلّ يوم، لم تكن تعرف ما الذي يبقيه مشغولاً، لكنّها شكّت أنّه يشعر بمسؤوليته عن المصيبة التي حلّت بها، كانت تلقي باللّائمة عليه مباشرة في فقدانها القدرة على استعمال قدميها، لقد سمعت قبطان السفينة بأذنيها: ناهودا، رجل تقيٌّ من رجال الله، ألقى باللعنة على بابو وعائلته بأكملها، وبعد عدّة أيام فقط، فقدت القدرة على استعمال رجليها، لن تستطيع السير مجدداً، وزوجها الجديد، الهدف الأساسي لهذه اللعنة، كان بالكاد قادراً على البقاء في مكانه، استُبدل شعور المرارة بغضبها الأساسي، كانت نادمةً على ترك وطنها للالتحاق برجل كانت تعدّه الآن مجنوناً تماماً، وأخذت تجترُّ هذه الأفكار في ذهنها مراراً وتكراراً، لكنها دائماً ما عادت إلى البداية، لقد تزوجت رجلاً مجنوناً وعليها تحمّل العواقب، بدا والدها متردّداً حيال مرافقتها لزوجها إلى الأراضي الجديدة، لكنَّ أمها كانت تدفعها وتخبرها ألّا تفكّر بالبحر الهندي على أنّه حاجز، بل صلة بالأراضي الجديدة والفرص الجديدة، لقد شجّعتها على السفر. حين يكونون مستعدين، سوف يعودون، خاصّة إن وصلوا إلى مرحلة من الازدهار في إفريقيا.

تستطيع المرأة الانتماء إلى أيّ مكان، هكذا قالت والدتها، يمكن لها مدُّ جذورها في أيّ تربة خصبة، اكتفت فاطمة بالإيماء برأسها ولم تقل شيئاً، حتى وهي في سنّ السادسة عشرة الغض، كانت تعرف، كما يقول قومها، إنَّ الانصياع لأمر ما لم يكن قراراً، ولا يعني أنّ المرء مقيّد بالالتزام به.

في اليوم التالي للنجاة من حطام السفينة، كانت فاطمة في حالة معينة -عيناها مغلقتان بينما أذناها مشرعتان- حين سمعت أصواتاً وميّزت على الفور صوت ناهودا في الجوار، كان ضعيفاً، لكنّه بالتأكيد صوته وهو يستحضر

ما واجهوه في البحر، عرفت فاطمة على الفور أنّه كان يتحدث عن بابو.

"نعم، أتذكر الرجل، رأسه مملوء بالماء، لهذا تبرز جبهته بهذه الطريقة." قال ناهودا، سمعت فاطمة الرجل الآخر يضحك، "السُكّان هنا يسمّون رجالاً كهذا ***kichwa maji***، لا أعرف الكثير من السواحيلية، لكنّي أعرف معنى عبارة ***kichwa maji***، إنها تعني رأساً مملوءاً بالماء، هناك الكثير من هذا النوع هنا."

"لكنّه مثير للمشاكل، ثق بكلامي." تابع ناهودا "أظنّ أنَّ تحطّم سفينتنا انبثق من سوء سلوكه، كيف يمكن لمرءٍ السخرية من رجل يبتهل إلى ربّه ما لم يكن يعمل لصالح ***ibilisi***، الشيطان بحد ذاته؟" سمعت فاطمة الرجل الآخر يضحك مجدداً، لكنَّ ضحكه لم يستمر، "إن كان يبحث عن المتاعب فقد أتى إلى المكان المناسب." قال، "للسكان المحليين مقولة شائعة: إن كنت تريد القبض على شخص ما، فضع ذيلاً في طريقه، حالما يدوس عليه سينال من القطة أفضل ما تبرع فيه..."

أصبحت فاطمة شديدة الانتباه الآن، لم يعرف أحد من هؤلاء الأشخاص الذين في مرحلة النقاهة أنها قريبة بابو، لأنّه قضى مدة الرحلة البحرية بأكملها على ظهر السفينة، ولم يلحظ أحد إدراكها أنَّ بابو هو محور النقاش بين ناهودا والزائر، كان عليها تحذير بابو بشأن المؤامرة ضدّه، تستطيع محاسبته لاحقاً وفقاً لشروطها هي، لن تسمح لأيّ شخص بالانتقام منه، لقد ألقى ناهودا باللعنة على بابو، لكنَّ فاطمة هي من تعاني تبعاتها، ولن يستطيع الغريب بحيله ذات القطط أن ينال منها.

أبلغ الحارس المكلّف بتعقب بابو سيده ماكدونالد أنّه تقريباً لم يتحرك على الإطلاق، وقد سجّل بدقّة المرات القليلة التي خرج فيها بابو لاستنشاق

بعض الهواء أو مشى إلى الأحراج ليتبول، وقال إنّ بابو قد خرج مرتين لإفراغ غالون معدني قبل أن يعود إلى المعسكر من جديد، "بدا مستغرقاً في التفكير طوال الوقت." قال الحارس "كأنّ شيئاً ما يقلقه." ارتعش ماكدونالد، ذلك يعني على الأرجح أنّه يخطط للتمرّد عليه، لكنّه رأى انعدام تحركاته أمراً غريباً، توقّع أن يجوب بابو المكان بأسره ليصنع تحالفات جديدة، لا يمكن للمرء افتعال المشاكل في عزلة ذهنه الخاص، "هل تظنّ أنّه يشكُّ في مراقبتنا له؟" سأل ماكدونالد.

أجاب الحارس الذي كان يتوق لإنهاء مهمة المراقبة كاذباً "ربما." على الرغم من أنّه كان يعرف تماماً بعدم إظهار بابو لأيّ قلق يشير إلى ذلك، لم يتلفّت أو يبدُ مرتاباً، في واقع الأمر، بدا كأنّه يتمتم لنفسه، لكنَّ الحارس أراد إنهاء عزلته ليتمكّن من العودة إلى موقعه المعتاد تحت شجرة ***mnazi*** حيث يروي نيوندو قصصه، سوف يشيع قريباً أمر قضائه الأيام فوق الأشجار يراقب الناس الآخرين، وعندها سيسخر منه كلّ من يعرفه، سيقولون إنَّ أشياء غريبة بدأت بالحدوث منذ وصول ***azungu*** لقد حوّلوا بعضاً من بينهم إلى طيور تجثم فوق الأشجار وتأكل التين طوال اليوم.

شعر ماكدونالد بالارتباك، إن كان بابو قد اكتشف المراقبة، إذاً لا بدَّ أنَّه خصم أشدّ تعقيداً ممّا ظنّه في البداية، وهذا يمكن أن يعني أمراً واحداً: أنَّ بابو حصل في السابق على تدريب عسكري، لأنَّ غريزة إخفاء آثار المرء لا تأتي بشكل طبيعي، خاصة إن كان امتلاكه لذلك الطبع -اللين الذي وصفه ناهوِدا والذي شهده هو بنفسه عند الحصن- أمراً دقيقاً. وهكذا قرّر المماطلة لينال بعض الوقت للتفكير بخطوته القادمة، فقال للحارس من دون اقتناع:

"فلنراقبه ليوم آخر."

في اليوم الثالث، رصد الرجل بابو وهو يرافق فاطمة إلى السور لتقضي حاجتها، في البداية كانت قدماها تمشّطان الأرض قبل أن يرفعها بابو بشكل مريح ويضعها قرب الأجمة، انتظرت بضع لحظات، بينما تراجع بابو إلى مسافة تحترم خصوصيتها، ثم قرفصت بوضعية الركوع ورفعت ثوبها الساري بسلاسة كاشفة عن مؤخرة ملساء ذات لون أسمر، ألقت نظرة على فضلاتها، ثم غرفت بعض التراب براحتيها ودفنت غائطها تماماً مثل قطة، مشى بابو على غير هدى مبقياً نظره على الاتّجاه التقريبي للأجمات، رأى الجاسوس فاطمة تلوّح بيدها لبابو الذي عاد وساعدها على الرجوع إلى المخيم.

لم يستطع ماكدونالد إخفاء بهجته لهذا الاكتشاف الجديد، إن كان لبابو زوجة معاقة تبقيه مشغولاً ليل نهار، فهذا طالع حسن.

حتى مدربوه في ساندهيرست كانوا يمتلكون مصطلحاً لهذه الحالة، هدف سهل، وهذا يعني أنَّ خطته الأساسية لشنِّ هجوم سريع وحادٍّ على خصمه قد تحوّلت الآن إلى استراتيجية تدمير بعيدة المدى وطويلة الأجل، حرّضت صور تخيل بابو وهو يعتني بزوجته المريضة بعضَ الذكريات اللاذعة عن سالي وعادت إلى ذهنه ومضات عن ذلك الصباح في جنوب إفريقيا حين وجدها في السرير مع البستاني أسود البشرة، كان عازماً على تلقين بابو درساً، وقد شكَّ في أنَّ المشفى سيكون وجهة بابو التالية، فأعدَّ خطته على هذا الأساس.

ذهبت فاطمة لرؤية الطبيب كيسبوك خلال الأسابيع التالية، والذي بدوره قدّم لها دواءً سيئاً، منصاعاً لأوامر ماكدونالد، لم يكن الهدف شلَّ فاطمة بل تأخير شفائها، فقد قرر ماكدونالد أنها طالما بقيت مريضة فسوف

يكون بابو مستغرقاً تماماً في العناية بها، أخبر الطبيب كيسبوك فاطمة أنَّ عليها تعلّم العيش بحالتها هذه لأنَّ أعصاب ساقيها قد ماتت منذ الأسبوع الأول الذي تحطمت السفينة فيه، ولا يمكن إعادة إنعاشها.

وهكذا، اقتصرت الكلمات المتبادلة بين بابو وفاطمة في كلّ يوم على حالتها الصحيّة، كيف كانت تشعر، وهل تذكّرت تناول أدويتها، هل تشعر أنّها محتاجة لبعض التدليك؟ كانت فاطمة تجيب على هذه الأسئلة بنعم أو لا بسيطتين، وغدا منزلهما منزل الصمت.

كان هذا جزءاً من استراتيجية فاطمة لإبقاء بابو بعيداً عن الأذى، طالما أنّه معها، فلن يكون هناك حيّز كبير لنجاح خطط ناهودا والرجل الغامض الذي يخطط لإيذائه، أخبرت بابو أنّها ترى كوابيس في النهار والليل، ورجته ألّا يتركها وحيدة، أصبح بابو يقضي يومه في العناية بها، يطبخ لها، يقنعها أن تتناول الطعام، ينقلها من زاوية إلى أخرى، يحملها بحذر شديد كما لو كانت حمولة حساسة للغاية، حالما تنتهي من الطعام، كان يستعمل على جسدها الأعشاب التي قدّمها رجلا الطب السواحيليان، أحد المعالجين قال إنّه من الطبيعي التعرّض للتشنجات بعد القرفصة لأوقات طويلة من الزمن، لقد زوّداه بمراهم عشبية قالا إنها قادرة على تخفيف التشنجات.

كان بابو يستعمل المراهم على جسمها كلّ بضعة ساعات، يدهّنها بلطف ثم يصبح أعنف حتى تتنهد، "هل يؤلمك هذا؟" كان يسألها، بصيغة إفصاح أكثر من أن تكون صيغة سؤال، لكنّها لم تتجرأ أن تقول أكثر من أنّها على ما يرام، فيتابع دهن المراهم على رجليها، كان يعرف أين تتلاقى أوردتها الأرجوانية وأين تتجمع بشرتها مثل غمازة، وأين يصرُّ كاحلها عند تدويره.

راقب بابو فاطمة وهي تنام في سكينة، رجلاها المشوّهتان الهزيلتان

ممدّدتان بلا فائدة، كأنَّ صاحبتهما هربت ونسيتهما، اعترته نخزة من الذنب، كان عليه اصطحابها إلى الطبيب لكنَّ نقوده قد نفدت، إن لم يتحسن حالها خلال الأسبوعين القادمين فسيكون عليه البحث عن طريقة لجلب النقود من أجل علاجها، كان القلق يضنيه، وعلى الرغم من عدم تحدثه عن مخاوفه إلا أنّه كان يشكُّ بأنَّ لمرضها علاقة بلعنة ناهودا، فأخذ يتساءل عن شعور فاطمة حياله، بالكاد تحدّثت إليه منذ وصلا.

"هل ترغبين في تناول ***pilau***[101]؟ البائع القريب من المسجد يبيع ***pilau*** شهياً للغاية، إنه محضّر بصلصة جوز الهند." قال بابو محاولاً في ذلك اليوم.

هزّت فاطمة رأسها بالرفض.

"ماذا عن بعض الشاي؟ شاي ثقيل مع القرفة والقرنفل؟ إنها بهارات لذيذة ومدفئة."

"لا."

أصبحت فاطمة في هذه المرحلة تتقلّب وتتمتم خلال نومها من دون أن تفتح عينيها، وعلا صوت صفير من صدرها، أنصت بابو بحرص، بينما عاد ذهنه بسرعة إلى مكان وزمان آخرين، حين كان أصغر سناً والتقى للمرة الأولى بفتاة أخرى كسيحة وطريحة الفراش، بصوت يصدر من صدرها، كان في البنجاب وقد ذهب بعد المدرسة ليزور شقيقة والدته الخالة دارما، كانت قد عادت من عملها حين وصل بابو، وقد شدّه صوت متأوّه منخفض صادر عن منزل خَرِب، كان الصوت عويلاً خفيفاً كالذي تصدره الكلاب المتعضة الخائفة من ظلالها تحت البدر المكتمل. وصلت الخالة دارما سريعاً، وحالما

---

101 Pilau: طبق من الأرز المطهو بالكثير من البهارات.

صارا داخل المنزل، تسرّب ضوء مكتوم من نافذه صغيرة، فكشف نوره الواهن عن سرير في الزاوية، هناك كانت ترقد ابنة الخالة دارما الصغرى، رينا، أضاء النور بشحوب وجهها المصفرّ، وأصابعها مثنية داخل فمها الذي يسيل اللعاب منه، ساقاها المشوّهتان ممدودتان بلا حياة على السرير.

كسرت الخالة دارما قطعة من الحطب على ركبتها، التمعت قصبة ساقها التي تكشف عنها تنورتها الملفوفة، ثم بدأت تنفخ في الموقد البارد، اندفع شلّال من الفراشات مرفرفاً في الغرفة، واستقرّ بعض الرماد على الوشاح الملفوف على رأسها، تناثرت قطرات غزيرة من الكيروسين من مصباح مصنوع من الصفيح، متبوعة بشرارة عود ثقاب، حالما لامس عود الثقاب الكومة، تقافزت ألسنة اللهب مثل ثعابين تخرج من بيضة فقست للتوّ، عُلِّقت قدر مسخّمة قرب النار ليسخّن ما فيها، بينما غرفت الخالة دارما الطعام -خليط غير متجانس من البطاطس والخضار واللحم- منه، جلست منفرجة الساقين على كرسي منخفض، وتنّورتها مطوّية إلى الداخل، تغرف الطعام بحساب دقيق، بينما تطرق المغرفة بالقدر بإيقاع منتظم، تذوّق بابو الطعام، كان لاذعاً للغاية، عُرف عن الخالة دارما ولعُها بالبهارات القوية أكثر من اللازم، كانت والدة بابو تقول إنَّ الخالة دارما تصنع طعامها حارّاً إلى هذه الدرجة حتى لا يمسّه الأطفال، سعل بابو وطلب بعض الماء، تحرك الضوء البسيط المتسرّب من النافذة الضئيلة ليستقرّ عند أسفل السرير، مظلّلاً شكل جسد رينا النائمة، تدلّى المطاط الأسود المتقطّع من السرير مثل أحشاء الوحش، وردف رينا الرقيق يشكّل تحدباً صغيراً أسفل السرير، صدرها المسطح يعلو ويهبط، بينما تتردّد ترنيمة أغنيته الحزينة في أذنَي بابو.

حجبت دمعة زجاجية بصره مؤقّتاً، بينما لاحظ أنَّ فاطمة كانت

مستيقظة وتراقبه باهتمام شديد.

إنّه جوزة هند، فكرت فاطمة بينما راقبت بابو، صلب من الخارج، وليّن من الداخل، واتتها هذه الفكرة فجأة، بينما ابتسمت بعذوبة لبساطة الفكرة.

استمرّت بطلب الطعام والدواء بتكرار من بابو، وحرصت بهذا على أن يعود كلّ ليلة إليها بعد العمل، مع تقدّم إنشاء سكّة الحديد باتّجاه الأراضي الداخلية أصبحت رحلات بابو للرجوع ورؤية فاطمة تقلُّ وتتباعد، فقرّرت أن تستكمل فكرتها، كانت ترى أنَّ بابو قد نجا من أسوأ مخاوفها، لم يؤذه الرجال الذين كانوا يتآمرون ضدّه، ما تحتاجه الآن هو إنقاذ نفسها، بحثت عن طبيب تقليدي بارع، إن كانت مشكلتها نابعة من اللعنة، فهي تهدر وقتها ونقودها في الذهاب إلى طبيب أبيض البشرة، كانت ترغب في الذهاب إلى قارئ طالع، لكنَّ المرأة المحلّية التي استعانت بها اصطحبتها إلى مختصّ أعشاب سواحيلي كان يقرأ الطالع في راحة اليد، أمسك الرجل الذي يقطر وجهه مغرة[102] ويلتفع بجلود الحيوانات، برجليها ولواهما في الاتّجاهين.

"آخ!" صرخت فاطمة.

"أووه، إن كنتِ قادرة على الشعور بالألم فرجلك ليست ميتة." قال الرجل، "سوف تسيرين من جديد." أكّد لها عبر مترجم بينهما، "لكنَّ ذلك كلّه يعتمد على بضعة أمور."

جلست فاطمة مركّزة انتباهها "أيّ أمور؟"

"كيف تصفين علاقاتك مع الأشخاص الآخرين في مومباسا؟"

هزّت فاطمة كتفيها بلا مبالاة، لم تعرف أحداً هنا سوى زوجها.

---

102 مغرة: صباغ أحمر مصفرّ وبني، يستخرج من حجارة المغرة الطبيعية.

"هل أنت أو أيّ أحد من أسرتك في خصومة مع الآخرين؟" قال رجل الطبّ متابعاً.

هزّت فاطمة كتفيها من جديد.

"هل من خلافات حدثت مؤخراً مع رجال في السلطة؟"

"رجل حكومة أو رجل دين."

"لست أفهمك."

"الدواء المستعمل ضدّك قويّ للغاية، لا يمكن أن يأتي إلا عن طريق رجل ذي سلطة."

"تشاجر زوجي مع ناهودا." اعترفت فاطمة.

"هل أطلق لعنة عليك أو على أسرتك؟"

تضاءل صوت فاطمة حتى غدا همساً: "نعم."

"هل كنت حاضرة أم أخبرك الآخرون بذلك؟"

"كنت حاضرة."

"ماذا فعل الرجل بعد إطلاق اللعنة؟"

"نفخ في بوق."

"ماذا كان لون البوق، أتذكرين؟"

"أسود، كان لونه أسود."

"هل بكيت؟"

"نعم."

"لماذا بكيت؟"

"لأنّي كنت خائفة."

"لا تخافي." قال الرجل بقوة "ينتصر الشرّ حين نخاف، سوف أعطيك

بوقاً، أسود مثل بوق ناهودا ***Dawa ya moto ni moto***[103]، سوف تنفخين فيه لطرد الأرواح الشرّيرة التي ألقاها عليكِ، وسوف تُبقين البوق في مكان تفتخرين به في منزلك. انفخي فيه فقط حين تشعرين بوجود الأرواح الشريرة، غالباً ما تأتي هذه على شكل نساء."

ترددت فاطمة: "أنا امرأة، هل أنا روح شريرة؟"

"الرجل الذي تريدين كسر تعويذته يعتبرك روحاً شريرة، لكنّ اعتقاده لا يجعلك كذلك."

في ذلك اليوم بالذات استلمت فاطمة البوق ونفخت دخان الأعشاب التي منحها إياها المعالج التقليدي من البوق، بينما غلت باقي الأعشاب في الماء ثم استعملتها مثل المرهم، وخلال بضعة أسابيع استعادت كامل قدرتها على السير، انتظرتْ لتفاجئ بابو، لكنه أجّل رحلة عودته التالية إلى مومباسا مراراً، عوضاً عن ذلك، استمرَّ في إرسال النقود من أجل علاجها، غير مدرك أنّها لم تعد تحتاج إلى العلاج، استعملت فاطمة النقود لتبدأ عملها الخاصّ، فأسّست ***duka*** خاصّاً بها خطوة فخطوة.

7

حين بدأ العمل في سكّة الحديد جدّياً، انشغل ذهن ماكدونالد بتصاعد وتيرة هجمات الشبّان المحليين على مقطوراته، فضلاً عن فقدان اثنين من المهندسين بعد ملاحقتهما للمهاجمين، انتُزعت أجزاء السكّة التي ركّبها

---

103 Dawa ya moto ni moto: علاج النار هو النار (السواحيلية).

العمال واستعمل حدادو القصدير المحليون معدنها لتشكيل البلطات والمديات.

قُطّعت كابلات الاتصالات لصنع حليّ تزيينية، وعندها قرّر ضرورة عرض القوّة الهائلة للإدارة الاستعمارية، وهكذا زار ماكدونالد قرية من قرى **الجيرياما** مصحوباً بخمسة وعشرين شرطياً.

أخبره القرويون أنَّ الحكماء كانوا في **الكايا**، لكنّهم حذّروه من اقتحام ذلك المكان من دون دعوة، إلّا أنّه لم يكن ليكترث بتقاليد الوثنيين، وهكذا قرّر زيارة **الكايا** على أيّ حال، كان وجوده مع فريقه في المكان يُعتبر تدنيساً لأنَّ **الكايا** هو المسكن المقدّس لمجتمع ***Mijikenda***[104] الساحلي.

رحبّوا به بقرعة من شراب ***mnazi***، صبّ حكيم **الكايا** بعضاً منه في قرن وسكب بعض الشراب على الأرض، ارتشف رشفة ثم بصقها على صدره.

"هذه لأرواح أولئك الذين سبقونا." قال مفسّراً لا لأيّ أحد على التعيين، ثم ناول القرن لماكدونالد.

"أشكرك جزيلاً، إلا أنّي لا أستطيع احتساء الشراب قبل العمل، فقط بعده." قال عبر المترجم.

ضمَّ الحكيم ذراعه الممدودة بحيرة، "أرجو أنّك لا تقصد أنَّ صناعة شراب ***mnazi*** ليست عملاً." قال حكيم **الكايا** ضاحكاً، محاولاً التخفيف من أثر صدِّ ماكدونالد.

"ليس حسب بعض القصص التي سمعتها." قال ماكدونالد ببساطة، مستذكراً الملاحظات التي قرأها بخطّ سلفه عن كسل السكّان المحليين، "أسمع أنَّ بعضكم ينتظر الثمار لتسقط عن الأشجار."

---

104 Mijikenda: القرى التسع (السواحيلية).

"هذا صحيح بالتأكيد لأشخاص في مثل عمري، أشكُّ في أنّك قادر على تسلّق شجرة *mnazi* بنفسك." قال حكيم الكايا متحدّياً وهو يرتشف شرابه في الوقت نفسه.

"أشكُّ في ذلك." قال ماكدونالد وهو يُميل حافة قبعته ويمرّر سبابته على شاربه الذي كان يؤدّي رقصته ليعبّر عن تزايد انزعاج صاحبه، "لحسن الحظ، أنا لست هنا لتسلّق الأشجار، أو احتساء الشراب، في الواقع، قد تفكّر حكومتي في حظر هذا الشراب."

التزم حكيم الكايا الصمت، أدرك ماكدونالد خطأه وصمت هو أيضاً، لقد قال أكثر من اللازم.

"هذا الشراب هو طريقة حياتنا، وجدناه هنا لأنَّ آباءنا كانوا يحتسونه." قال الحكيم أخيراً بصوت مرتعش، لم يكن خائفاً، بل غاضباً، "ألهذا أحضرتَ هؤلاء الرجال معك، لاعتقال عجوز لأنه يحتسي الشراب؟"

"لا، لست هنا من أجل الشراب. ذلك أمر سيأتي لاحقاً، أنا هنا لأنَّ بعض الشبّان من هذه القرية يهاجمون رجالي الذين يعملون على تركيب سكّة الحديد ويسرقون المعدات المعهودة إليهم."

أظلم وجه الحكيم "هذه تهمة شديدة الخطورة." قال.

"أنا أطالب بتعويض من قومك." تابع ماكدونالد.

"ما تطلبه مني هو مهمة عسيرة، كيف يصبح المتضرّر هو المعتدي؟ لقد انتهك رجالك حدود أرضنا، والآن تأتي إلى الكايا، مسكن آلهتنا من دون دعوة، لا بدَّ أن تدفع غرامة من الماعز لتطهير هذا الرجس."

"لهذا أتيت إليك." أجاب ماكدونالد بخبث، اكتشفَ عبر قراءاته أنَّ حكيم الكايا كان الرجل الأعلى رتبة في النظام السياسي والديني للمجتمع.

"لماذا؟" تساءل الحكيم.

"لقد تغيّرت الأمور، وعلى قومك فهم ذلك، سوف تكون المسؤول الخاصّ بي هنا."

"المسؤول؟"

"نعم، المسؤول، أعيّنك لهذا المنصب منذ اليوم."

تردّد الحكيم "مسؤول ماذا؟"

"المسؤول صاحب السلطة الأعلى." قال ماكدونالد بسلاسة "سوف تخدم ملكة إنكلترا."

ابتسم الحكيم ابتسامة عريضة "سأتزوّج ملكة إنكلترا؟"

"من قال ذلك؟ الملكة هي حاكمة بلدي."

"الرجال في بلدك خاضعون لحكم امرأة؟"

"نعم." اعترف ماكدونالد بتجهّم.

"سمعتُ أنَّ بعض القبائل في بارا تحكمها النساء." قال الحكيم، "وسمعت أنَّه في إحدى القبائل تجلس القائدة على ظهر أحد الرجال عوضاً عن المقعد."

"نعم، تحكم النساء في الأراضي الداخلية، سمعتُ ذلك."

"ما الذي يؤول إليه هذا العالم؟" قال الحكيم متفكّراً.

لهذا أشعر أنك ستكون مسؤولاً جيداً..." قال ماكدونالد مصرّاً.

"لكلّ قرية هنا حكيمها الخاصّ." قال الرجل بينما تغضّن حاجباه وهو يفكّر.

"أنا فقط واحد من تسعة حكماء في مجتمعنا."

"سوف أجعل هؤلاء الحكماء مسؤولين أيضاً، لكنَّهم سيعودون إليك في

كلّ شيء، ستكون مسؤول المسؤولين."

"لا أفهم ما ترمي إليه."

"سوف أعمل معك، ستكون في خدمة ملكة إنكلترا، وسوف تتلقى أجراً نظير خدماتك."

أطرق الحكيم، كانت مسألة النقود مثيرة للاهتمام، لكنَّه لم يفهم موضوع المسؤول جيّداً، ظلَّ صامتاً لبرهة ثم عاود الكلام.

"أخبرتني منذ قليل أنّك هنا من أجل شراب *mnazi*، ثمَّ قلت إنَّ أوان ذلك سيأتي لاحقاً، ثم أخبرتني، وقد سمعتك بأذنَيَّ هاتين أنَّك هنا لتحصيل غرامة منّا لأنَّ رجالنا يسرقون من مقصوراتك، والآن تقول إنّك تعرض دفع نقود لي مقابل العمل لصالحك، هذه أمور كثيرة لتطلبها دفعة واحدة من أيّ إنسان!" قال ضاحكاً.

جاهد ماكدونالد ليحافظ على هدوئه "دعني أشرح لك موقفي." قال وهو ينظر إلى المترجم الشابّ "نعم، إنَّ المقصورات على امتداد السكّة الحديدية قد تعرّضت للهجوم وسرقة المعدات منها، ونعم إنّ اثنين من رجالي هم في عهدة قومك وأطالب بالإفراج عنهم فوراً، كما أنَّ بعض السُكّان الأصليين الذين يعملون لديَّ حمّالين قد فرّوا واختبؤوا في قراهم حاملين المعدات معهم، أنا أطالب بتعويض عن كلِّ ذلك، وسوف أقبله على صورة واحدة، أريد من شبّانكم أن يأتوا للعمل في تركيب سكّة الحديد، هل ذلك واضح؟"

"بل ليس واضحاً." أجاب حكيم الكايا، "إنه غامض مثل حلكة الليل."

"ما الغامض في كلامي؟" سأل ماكدونالد وهو يشعر بشيء من عدم الارتياح لأنّه لم يعرف مكان الخلل في هذا الحوار.

"كل شيء!"

"ماذا؟"

"يقول قومنا إنَّ على المرء ألّا يرمي كلماته مثل الهراوة، وأنت قذفت العديد من الكلمات، وبعضها مؤذٍ للغاية، وقد طرحتَ قضيتك وأطلقت حُكماً من دون أن تستمع إلى بقية الأطراف، لا يبدو هذا عادلاً، لدينا قول آخر: تحني العدالة القوس المشدود، لكنّي لا أظنّ أنَّ قوسك يمكن أن ينحني أمام أيّ مؤثر."

"أتمنّى لو كنت أستطيع فهم كلّ حكمكم اللطيفة." قال ماكدونالد بنفاد صبر عبر المترجم، "لكنّي أظنّ أنّك قد فهمت ما أرمي إليه، أريد خمسمئة من رجالكم بحلول هذا الوقت من الأسبوع القادم ليعملوا في سكّة الحديد، هذا هو العقاب الذي أفرضه لهجومهم على مقصوراتي واختطاف رجالي، سوف أعود لاحقاً."

8

دوّى صوت قرع الطبول في تلك الليلة، متردّداً ومحمّلاً بإحساس الحِداد عبر القرى التسع، كان رمزاً مستخدماً لاستدعاء جميع أفراد المجتمع إلى التجمّع في الكايا في اليوم التالي، لقد مضت أربعة مواسم منذ سُمع قرعٌ من هذا النوع، وذلك حين التقى أفراد المجتمع لتقديم الأضاحي ومناجاة الأسلاف في قضية احتباس الأمطار التي أدّت إلى مجاعة أهلكت أعداداً كبيرة من السكان، على الرغم من أنَّ الموسم المطير لهذا العام لم يبدأ بعد، إلا أنَّ الجماعات القاطنة قرب نهر الساباكي قد زرعت ما يكفي من المحاصيل لإطعام من ظلّوا في القرى. تساءل الأهالي عن ماهية الخطر

الجديد الذي يهدّد بقاء المجتمع إلى درجة تستحق استدعاء الجميع للقدوم إلى الكايا، وهكذا تدفّقت الحشود في الصباح التالي، الأطفال محزومون على ظهور أمهاتهم، العجائز المتحدّبون يسندون قاماتهم على العكازات، الشبّان يلهون طوال الطريق بينما ينتظرون الآخرين ليلحقوا بهم.

انضمَّ إلى حكيم الكايا، وانجييه، الذي كان يمثّل قبيلة جيرياما ثمانية حكماء آخرين يمثّلون قرى تشونيي ودوروما وكاوما وديغو وباجوني وكامبي ورابايي وجيبانا، معاً، قدّموا قرباناً للآلهة عند شروق الشمس، وكانوا الآن ينتظرون أن يهدأ الحشد ليتمكنوا من التكلّم، ملأت ضربات الطبول الهواء بحدّة عظيمة أنبأت بالضرورة الملحّة للاجتماع.

مع حلول الظهيرة، اجتمع عدة آلاف في المكان.

خاطبهم وانجييه بثوبه البرّاق المغزول من لحاء الشجر وقبّعته المصنوعة من فراء قرد الكولوبوس.

"*Habari zenu!*[105]" صرخ محيياً، ثم أضاف بامتعاض: "دائماً ما نقول إنّنا بخير، حتى عندما لا نكون بخير، دائماً ما نقول إنّنا بخير لأنَّ من تقاليدنا الابتسام في وجه المحن..."

تردّد صدى فقاعة من التأييد عبر الحشد.

"لقد اجتمعنا هنا اليوم لأننا نعرف أنَّ في الوحدة قوة، وذهنان أفضل من ذهن واحد، ومئة ذهن أفضل من عشرة، نحن هنا اليوم لأنَّ مستقبلنا الجمعي في خطر، لقد قُدّم إليَّ هذا التحدي أنا وحدي، وقلت إنّي سوف أشاركه مع شعبي، وأشاركه مع أسلافنا الذين سبقونا، نقف في هذا المكان الذي نستقي فيه الإلهام والإرشاد من أجدادنا، وليكونوا شاهدين على ما

---

105 Habari zenu: كيف حالكم (السواحيلية).

نفعله لأنّهم هم صلة الوصل بين ماضينا ومستقبلنا.

يبدو أنَّ ذلك المستقبل يتعرض للتهديد، لقد حدثت التفاصيل التي سوف أرويها لكم الآن مساء الأمس، لست أتحدّث عن اليوم الذي سبقه أو عن أمر حدث منذ بضعة أيام، بل الأمس، لذلك ذهني صافٍ تماماً، لقد أتى إليَّ زائر، إنه من ***Uingereza***[106] التي تحكمها امرأة، أظنُّ أنهم يسمونها الملكة، أتى الزائر هنا من دون دعوة، فأمرته أن يعود بحيوانات يقدّمها قرباناً ليطّهر الرجس الذي تركه هو ومن لفَّ لفيفه على أرضنا.

حين زارني في الأمس، رفض الجلوس أو احتساء الشراب الذي قدّمته له، في ثقافتنا، أنتم تعرفون من الذي لا يقبل الطعام أو الشراب من الآخرين!"

"Mchawi! Mchawi!" صرخ الحشد، بما يعني: السحرة.

"نحن لا نخشى دواء الرجل الأبيض." تابع وانجيبه بحيوية أكبر، "لأننا نعرف من يمتلك الدواء الأقوى..."

"Toboa!" زمجر الحشد، يرجونه، أخبرنا!

"لن أخبركم." قال وانجيبه مثيراً إياهم، "لكن حين ترون ***Bwana***[107] ***Mkubwa*** أخبروه أن دواءه يُطهى على النار، يحتاج إلى أن يغلي مرة واحدة بعد وسيصير جاهزاً للتقديم..."

تعالى الصفير والصراخ من الرجال والزغاريد من النساء حتى كادت تصمُّ الآذان.

"لكنَّ هذا ليس السبب الذي جعلنا نستدعيكم هنا، لقد ارتكب ***Bwana Mkubwa*** جريمة شنعاء في حقّ قومنا... لقد ألقى بتهم خطيرة علينا، ودعانا باللصوص."

---

106 Uingereza: إنكلترا (السواحيلية).

107 Bwana Mkubwa: السيد (السواحيلية).

تعالت همهمات الرفض وتواترت بحدّة.

"أجل، لقد قال ذلك وأنا سمعته بأذنَيَّ هاتين، يقول إنّنا نسرق من مقطوراته، وإنَّ الشبان القليلين الذين ذهبوا للعمل لديه لصوص أيضاً، وإننا نحتجز رجلين من رجاله بطريقة غير قانونيّة."

هزَّ الناس رؤوسهم مستنكرين.

"وليس هذا كلّ شيء، لقد فرض غرامة على مجتمعنا ويريد أن ندفع له، لا بالنقود ولا بالحبوب ولا بالحيوانات، بل بالبشر، لقد طلب خمسمئة شابٍّ قوي البنية للعمل لديه، إنَّ الشيء الذي يبنيه الرجل الأبيض على أرضنا هو الأفعى التي حذّرنا منها (مي كاتيليلي)، وهو يطلب منا خمسمئة رجل كمقبّلات يدفعها داخل بطن الوحش..."

أثار الخطاب المزيد من الهياج العنيف، أطلقت النساء لعنة على الرجال البيض عبر كشف أعضائهن التناسلية وتمزيق مآزرهن ثم الرقص عاريات، استلَّ الشبان سيوفهم من أغمادها ووضحوا الطريقة التي سيقضون بها على الرجل الأبيض، انتحب الرجال العجائز على الملأ بسبب ما اعتبروه تدخّلاً جائراً في طريقة عيشهم، في النهاية، طلب وانجيبيه منهم الهدوء. "لسنا هنا للنواح، لم نأتِ إلى آبائنا لنعبّر عن عجزنا، نحن هنا لنستقي القوّة منهم، لنحصل على الإلهام منهم حتى نكون المنتصرين، تماماً كما انتصر أسلافنا على ***Wareno***، تماماً كما انتصروا على ***Waarabu***[108]، سوف ننتصر نحن على ***Waingereza***[109]، وهكذا، على هذه الأراضي المقدّسة سوف نُقسم بأن ندافع عن أرضنا حتى آخر رجل وآخر امرأة، حتى آخر طفل، حتى آخر أنفاسنا."

تلقّى ماكدونالد تقارير عن الشعائر في الكايا، لكنّه لم يعرف كيف

---

108 Waarabu: العرب (السواحيلية).

109 Waingereza: الإنكليز (السواحيلية).

يتصرّف حيال الأمر، في البداية بعث بأربعين جندياً لتمشيط ثلاث قرى واعتقال جميع الرجال الموجودين فيها، ذهب رجال الشرطة إلى القرية الأولى، لكنَّ البحث لم يسفر إلا عن إيجاد النساء والأطفال، جميع العجائز والشبّان كانوا قد غادروا ولم تتبرع النساء بتقديم أيّ معلومات عن مكان وجودهم، غالبيتهنّ لم يكنّ يتحدثن الإنكليزية، وانتهت إشارات وتوضيحات الشرطة لإفهامهنّ أنهم يبحثون عن الرجال إلى عروض بذيئة وإمساك بأثداء النساء.

ذهب رجال الشرطة إلى القرية الثانية، لم تكن النتيجة مختلفة: جميع الرجال قد غادروا.

في القرية الثالثة، جذب شرطي صغير السنّ امرأة كانت تخبز ***mandazi***[110] على قارعة الطريق من ثديها، فصرخت المرأة باحتجاج ونفضت يده عنها، خلال هذا الصراع القصير، تطاير الزيت من المقلاة إلى النار المتأججة في العراء فتقافز منها جحيم مستعر إلى الهواء محرقاً الأكواخ القريبة، انتشرت النار بسرعة مدمّرة القرية بأكملها، وبما أنّه لم يكن هناك رجال يدافعون عن القرية فقد تابع رجال الشرطة مهمتهم مرتحلين إلى القرية التالية.

فزع ماكدونالد من التقارير التي أبلغه بها رجال شرطته، وزاد الطين بلّة تأكيد عدم اختطاف المهندسين المفقودين اللّذين تبين أنهما فرّا مع فتاتين محليّتين، الأمر الذي سيزيد من تأزّم العلاقات مع القرويين، أدرك أنَّ ما عليه فعله هو إيقاف التمرّد الآخذ في التشكّل لئلّا يتطوّر إلى حرب تامّة النضوج، كان عليه أن يهدّئ المجتمع بسلاسة، وهو تكتيك عسكري

110 Mandazi: نوع من الخبز المقلي.

يماثل المقولة المحلية *Kuuma na kupuliza*[111]، المبادلة بين الحارّ والبارد، كانت حرب المجتمع الروحية بحاجة إلى ردٍّ روحي، وهكذا بحث عن الواعظ الإنكليزي من مجتمع مهمة الكنيسة. لم يجد ماكدونالد صعوبة في تحديد مكان الكاهن تيرنبول في مومباسا، ببنطاله المخملي المضلّع الفضفاض الذي يحشره داخل جوارب غير مناسبة القياس، وياقته السميكة على عنقه، وقبّعتة ذات الحافة العريضة فوق الثوب الفضفاض، ومظلّته المحشورة تحت إبطه، بدا الكاهن تيرنبول مثل فزّاعة، كان في الميدان مع خادمه تسوما، وهو فتى مهزول فاتح البشرة يحمل مظلّته ومعداته.

في أيامه الأولى، لم يكن الكاهن قادراً على تكلّم السواحيلية أو أيّ لغة أخرى من اللغات المحلية، فعمل تسوما مترجماً له وترجم اسم تيرنبول قائلاً: "السحلية التي تتحول إلى ثور." فعلق هذا الاسم ولم يتغير إلى رجل الأبقار إلا عندما بدأ الكاهن تيرنبول بتلقيح أبقار زيبو[112] المحلية اصطناعياً لتنجب أبقاراً تنتج حليباً أفضل.

هذا الجمع بين مهمّته كمرشد زراعي والخدمات البيطرية التي كان يقدّمها هو الطريقة التي استعملها للتفاعل مع السُكّان المحليين، مُعرّفاً بالمسيحية في الوقت نفسه. تركّزت إحدى المناظرات المحلية على معرفة إن كان بنطال الكاهن قد تعرّض للمضغ من إحدى البقرات ليكتسب ملمسه المجعد، أم إنه صُنع من أحشاء أحد الحيوانات المجترة بما أنَّ حياته بدت متمحورة حول المواشي.

لم يبح ماكدونالد بكلّ شيء للكاهن تيرنبول، بل كذب قائلاً إنّه

---

111 Kuuma na kupuliza: لا بدَّ من استعمال الشدَّة واللين (السواحيلية).

112 أبقار زيبو: الماشية المحدّبة، نوع من الأبقار المستأنسة التي تتميز بحدبة دهنية على أكتافها.

يحتاج إلى مساعدته في التفاوض على حرّية المهندسين البريطانيين المفقودين، وافق الكاهن على مرافقته إلى الكايا، لم تكن لديه أيّ مشكلة في مساعدة مواطنيه.

لكنَّ الكاهن تيرنبول أدرك سريعاً أنّه لم يفهم المهمّة تماماً حين رأى نيوندو يجرُّ كبشين خلفه، أحدهما أسود، والآخر أبيض، قرب أطراف الغابة، تحدّث نيوندو عن هذا اللقاء لاحقاً لمتابعيه الكثر تحت شجرة ***mnazi*** بدقّة مذهلة، لكنَّ القليل منهم صدّقه فعلاً، لقد اتّهموه بتبهير رواياته -***chumvi kuongeza***[113] كما كانوا يسمونها- مشكّكين في أنّما يرويه يمكن أن يحدث فعلاً.

قال نيوندو إنَّ ماكدونالد -***Bwana Mkubwa***- كما يسميه- طلب منه ملاقاته عند أطراف الكايا. حضر نيوندو حسب الموعد مطيعاً للأوامر وهو يجرّ كبشين كما أمره.

بينما كان يرتشف كوب شايه المفضل، ويتغنّى بعبارته المتكررة: ***Ushaona bwana***[114]، شرح نيوندو أنَّ الكاهن تيرنبول بدا مرتبكًا حين رأى الكبشين.

"Ushaona bwana?" حكى نيوندو.

"ها أنا هناك مع الكبشين، الكبش الأسود على يميني والأبيض على يساري، أجرّهما بالحبال عن بعد معقول، وأنا سعيد لرؤية ***Bwana Mkubwa*** فأصرخ ملقياً عليه التحية بحماس، ثم يبدأ رجل الأبقار بالإشارة إلى الكبشين كما يشير المرء إلى لصّ ما." ارتشف نيوندو شايه وقال غامزاً: "كنت قلقاً بعض الشيء لأنني لم أعرف ماذا كان رجل الأبقار يقول

113 kuongeza chumvi: يضيف الملح (السواحيلية).

114 Ushaona bwana: كما ترون يا سادة (السواحيلية).

عن الكبشين، وأمِلت أنّه لم يكن يطلب أخذ أحدهما، فأنا بالتأكيد لا أثق بترك رجل الأبقار مع الكبش وحدهما في بقعة منعزلة من الغابة كهذه."

وكان هذا التعليق يشير إلى طريقة الكاهن في تخصيب الأبقار عبر إقحام ذراعه المغطاة بمادة البولي إيثيلين داخلها، زمجر نيوندو ضاحكاً وطلب المزيد من الشاي من البائع الموجود على جانب الطريق.

"وعلى الرغم من أنني لم أستطع فهم معظم كلماتهم، كان من الواضح أنَّ ***Bwana Mkubwa*** ورجل الأبقار كانا يخوضان جدالاً قوياً يتعلق بالكبشين."

كانت ملاحظات نيوندو في الواقع دقيقة، غضب الكاهن تيرنبول من ماكدونالد لأنه يأخذ الحيوانات إلى ما اعتبره طقس كُفر لاسترضاء الآلهة الوثنية، "إنَّ التضحية القصوى كانت ما قدّمه المسيح على الصليب من أجل كلّ خطايانا." قال محتجاً، ما حصل لاحقاً كان تفصيلاً رواه نيوندو باستمتاع زاده كوب شايه الطازج.

حين رأى ماكدونالد تصاعد غضب الكاهن تيرنبول إلى درجة تهدّد بالفوران، أجرى بعض التعديلات على قصته وقال إنَّ الكبشين كانا حقاً الفدية التي طلبها حكماء الكايا.

أخذ نيوندو جرعة كبيرة من شايه، تجشّأ، ثم رسم ابتسامة عريضة، ***"Ushaona bwana?"*** لا أفهم لغتهم، لكنّي كنت قادراً على رؤية عدم رضا رجل الأبقار بسبب وجود الكبشين، أو وجودي، أو وجودنا نحن الثلاثة، بدا غير راضٍ بالتحديد عن لونيهما أو شيء من هذا القبيل، بحلول ذلك الوقت كنتُ قد أبطأت من سرعة مشيي كثيراً، وبدأت بالبحث عن طريق للهروب في حال تعيّن عليّ الانسحاب على عجل، تعرفون، أنا لا أرغب في

التلطّخ بدماء الرّجلين الأبيضين المتنازعين، لكن قبل أن أستطيع القول ***kahawa thungu***، سمعت صوت ضربة مدوية."

"Kofi?" سأل رجل شاب يجلس عند ركبة نيوندو.

"نعم، ***Kofi***، صفعة قوية على الوجه."

"من صفع من؟"

"***Sikiza, sikiza***، اسمع، أنا من يروي القصة، لقد صفع رجل الأبقار وجه **Bwana Mkubwa**."

"حقا؟" قال مستمع آخر، "ظننت أنَّ ***Bwana Mkubwa*** يحمل مسدساً، والواعظ لا يحمل سوى الإنجيل..." "نعم، أخبرنا، ما الشيء الأقوى بين الاثنين، الإنجيل أم المسدس؟"

"اسمعوا، اسمعوا يا قومي." قال نيوندو راجياً "أنا أخبركم ما رأيته بعينيَّ هاتين..." وصل كوب آخر من الشاي فارتشف منه نيوندو، لكنَّه كان حارّاً للغاية فأحرق شفته، أطلق الشتائم، بينما ضحك الجميع، لعق شفتيه وهو يصرخ في وجه البائع: "لن تنجح خططك هذه في قصّ لساني." نفخ في كوبه وارتشف بحذر، ثم ابتسم وتابع:

"Ushaona bwana?" إنَّ ***Wazungu*** هم أناس مثيرون للاهتمام حقاً، يأتي هؤلاء البيض من بلادهم ويعبرون المحيط وهم أعزُّ الأصدقاء، لكن حالما يطؤون هذه الأرض يبدؤون بالشجار مثل الكلاب! ***Wenyewe kwa***[115] ***wenyewe*** وأحدهم في مواجهة الآخر، هل تستطيعون تخيّل ذلك؟ ***Wenyewe kwa wenyewe***.

"هل اكتفيت بالمراقبة من دون أن تفعل شيئاً؟" سأل مستمع يفوق

---

115 Wenyewe kwa wenyewe: من تلقاء أنفسهم (السواحيلية).

الباقين سناً.

"وبيبي، ألم تسمع ماذا تقول الحكمة، حين يتشاجر شقيقان، ابتعد عنهما وانشغل بعمل آخر." أجاب نيوندو، "كنت على وشك الفرار والنجاة بنفسي حين سمعت ***Bwana Mkubwa*** يناديني طالباً العون."

"هل فاقه الواعظ قوة؟"

سأل الرجل الأكبر.

"اسمع، اسمع يا صديقي الطيب، كان الواعظ الذي بدأ الشجار يفرُّ من موقع الجريمة فتمسّك ***Bwana Mkubwa*** بأذيال معطفه، لكنَّ رجل الأبقار نفض المعطف عنه، تاركاً ***Bwana Mkubwa*** بالمعطف بين يديه، ثم أمسك برجل الأبقار من مؤخر عنقه، لكنَّه خلع القميص أيضاً، فركض خلفه وأمسكه من بنطاله، لكنَّ رجل الأبقار كان مستعداً لنزعه كذلك والفرار كما ولدته أمه، وعند هذه اللحظة ناداني ***Bwana Mkubwa*** لأساعده في تثبيته."

"وهل ساعدته؟"

"استمع، يا صديقي الطيب، أنت تسأل الكثير من الأسئلة، استمع الآن: حين يأمرك ***Bwana Mkubwa*** فأنت على الأرجح سوف تطيع، وهكذا فعلت، أفلتُّ حبال الكبشين وانطلقت لتثبيت رجل الأبقار، كنت أخشى فقدان الكبشين، لكنهما لم يفرّا، لقد توقّفا عن الثغاء ليحدّقا في الرجلين اللّذين كانا يتصرفان مثلهما، ألبسنا رجل الأبقار ملابسه وجررناه معنا حتى كادت ملابسه تتمزق، وعندها قرّر رجل الأبقار تقويم سلوكه..."

كان الكثير من أفراد جمهور نيوندو نصف مصدّقين لقصته، لكنها في الواقع كانت حقيقية بأكملها، في البدء، قرّر الكاهن تيرنبول أنَّ أفضل طريقة

لإنقاذ سمعته كانت فصل نفسه عن أيّ علاقة بماكدونالد ومحاولة الفرار من المشهد بأكمله، من المستحيل أن يشارك قسيس إنجيل بطقس وثني، مهما كان السبب، لكن بينما جرّه ماكدونالد وخادمه نيوندو، أدرك الكاهن تيرنبول فجأة أنَّ هذه فرصة مرسلة من الربّ ليدافع عن إيمانه المسيحي، سوف يعظ هؤلاء الوثنيين ويتحدّى طرقهم المخالفة للربّ.

وهكذا قرّر مجاراة ماكدونالد والاستمرار في مهمته المشبوهة.

"أنا واحد من أتباع عيسى المسيح، وأنا هنا لأشهد على أنّه إلهي ومخلّصي."

أعلن الكاهن تيرنبول لحكماء الكايا عبر المترجم عند وصولهم.

"إذاً أنت في المكان الصحيح أيها الواعظ، أنت في مقر آلهتنا، الآلهة الحيّة حقاً." أجاب الحكيم.

"ما تتحدّث عنه هو أصنام، لا يوجد ربّ سواه." قال الكاهن تيرنبول مهاجماً.

ضحك حكيم الكايا بصوت بدا مثل طقطقة الخشب، حادّاً وجافّاً، ثم استدار ليواجه الكاهن تيرنبول للمرة الأولى: "لا تكن كالمغفل الذي تشاجر مع النهر حول اتّجاه تياره، ثم قفز فيه ليدحض أمراً بديهياً، فغرق."

التزم الكاهن تيرنبول الصمت، جرجر ماكدونالد قدميه وتنحنح.

"هل كنت تودُّ قول شيء يا صديقي؟" سأل حكيم الكايا ماكدونالد.

"على الإطلاق." أجاب ماكدونالد بصعوبة.

"حسناً إذاً، كيف لي أن أساعدك؟"

"نحن هنا للتكفير عن ذنوبنا وطلب الغفران منك." فسّر ماكدونالد بصوت واضح "لقد جلبنا لكم بعض الماعز."

"من الجيد أنك أتيت." قال الحكيم بصوت منخفض "مع ذلك فهناك مشكلة صغيرة: لقد تعدّيت على أراضينا المقدسة، لم يُسمح من قبل لأيّ أجنبي بدخول الكايا، وقد فعلت ذلك مرتين."

"أعي ذلك تماماً." قال ماكدونالد.

نظر إليه الكاهن تيرنبول متسائلاً.

لم يستطع ماكدونالد الجزم إن كان الواعظ منزعجاً من التلميح إلى أنّه قَبِلَ موضوع قدسية الغابة.

"حسناً، حسناً." قال الحكيم بصوت منخفض.

"سوف أقبل أضحيتك، وبما أنَّ قومنا يقولون إنّ علينا ألّا نتكلم مع أيّ رجل جائع، فسوف نقدّم لك شيئاً لتتناوله."

أخذ اثنان من الحكماء الكبشين وقاداهما بعيداً، ذُبح الكبش الأبيض وجمعت دماؤه في قرعة، نُظّفت بعض الأمعاء ثم أضيفت كرات من الروث إلى المزيج وحُرّك حتى أصبح معجوناً ناعماً.

أخذ أحد حكماء الكايا منشّة ذباب وغمسها في القرعة، ثم رشَّ محتوياتها في المساحة الفارغة حولهم، وهو يرنّم أغنية، انضمّ إليه فيها حكماء آخرون خرجوا من زوايا مختلفة من الأجمات المقدسة، كان مجموعهم تسعة، كلّ واحد منهم يمثّل إحدى القرى وقد نُصّب حديثاً لينضمّ إلى جماعة حكماء الكايا.

كانوا يرتدون ملابس من لحاء الأشجار وقبعات من جلود قردة الكولوبوس، صدرت أصوات خشخشة عن أرجلهم، بينما كانوا يمشون على إيقاع قرع الطبول الرخيم الذي يعلو أنشودتهم.

فُردت جثة الكبش، قوائمه مفتوحة على وسعها، وجلده مثبّت على

الأرض بأوتاد خشبية، أُزيل تشابك الأمعاء الدقيقة من وسط متاهة الفضلات الإسفنجية ومُددت، عُقد الجلد أسطوانياً حول شجرة تين ليكون رقية حامية من الخطوب، ثم أُشعلت نار أسفل الشجرة ووضع اللحم فوقها ليتحمّر ببطء.

رميت الأعشاب والشجيرات الشعائرية في النار واستُعملت منشّات الذباب لتوجيه الدخان نحو أعلى شجرة التين، قاد الحكماء التسعة الشبّان المجتمعين، جميعهم عراة كالحيوانات، ليقسموا على حماية أرضهم ويطلبوا من أسلافهم إهلاكهم إن تردّدوا في أداء التزاماتهم.

جلس ماكدونالد متحجراً وحدّق أمامه مباشرة، أمّا الكاهن تيرنبول الذي شلّه هذا الأداء العلني لعبادة الأصنام فقد تحرّك عدة خطوات إلى الخلف ونزل على ركبتيه، ظنّ المجتمعون في البداية أنّه كان يسعل بسبب استنشاق الدخان، لكنّه في الواقع كان يصلّي بكلمات لم يفهمها أحد.

ذلك كان اليوم الذي قرر فيه نيوندو، الذي استُئجر ليقرع طبوله بعد الظهيرة ويقود الكبشين إلى الكايا، تبديل ولائه وأعلن عن انتقاله للعمل لصالح حكماء الكايا والمجتمع، سوف يستعمل طبله لاحقاً لاستنفار أفراد المجتمع، بقيت الدوافع وراء فعله هذا، كما طبيعته، مجالاً للنقاش المفتوح على الرغم من أنَّ بعضهم قد تهامسوا حول اكتسابه هذه الشجاعة بسبب حركة مجابهة العمال الهنود لماكدونالد عند حصن يسوع، فضلاً عن مواجهة الكايا التي انتصر فيها الحكماء.

ملأ الكرب ماكدونالد وهو يفكّر في الخطوة التالية التي عليه اتّخاذها، لقد فشل في محاولة استقطاب الحكماء المحليين ليكونوا مسؤولين تحت إمرته، وقد أذلّه هؤلاء الحكماء ذاتهم ليجرّ أكباشاً ويأتي بها إلى الكايا،

لكنّهم ظلّوا مصرّين أنَّ الشبان المحليين لن يعملوا في سكّة الحديد حتى وإن منحهم أجوراً، يعود ذلك إلى أنَّ الحكماء رأوا في إنشاء السكّة استكمالاً لتجارة الرقّ، إذ إنَّ السكّة لم تكن تمرُّ من الطرق نفسها التي استخدمها تُجّار العبيد فحسب، بل إنَّ شكلها كان يشابه الأفعى أيضاً، تماماً كما تنبّأ العرّاف المحلي مي كاتيليلي الذي كان يتحدّر مباشرة من سلالة العرّاف البارع كاجوما وا كاجوما، الذي أخبر منذ زمن عن اعتداء رجال بشعر ناعم ووجوه متطاولة سيطوفون الأرض ويستعبدون الرجال مثل الماشية، وهي نبوءة رأى الكثيرون تحققها عند وصول تجار العبيد العرب، حذّر مي كاتيليلي من أفعى فضية ستسعى عبر الأرض مبتلعة المحاصيل والبشر والحيوانات لتملأ بطنها الكبير.

أصبحت الكايا المركز الرئيس للمقاومة المحلية، والآن، غدت تلك الكايا عينها التي اعتقد ماكدونالد في الأساس أنّه يستطيع استعمالها بمساعدة الحكماء لحشد المجتمع نحو تحقيق أهداف تخدم مصلحته الشخصية، غدت الآن قوة ترتدُّ عليه وعلى المصالح البريطانية.

ارتعش ماكدونالد للفكرة التي كان لا بدّ له من تنفيذها، لقد فعلها من قبل في الهند، لكنَّ نتائجها كانت مجهولة في حال نفذها هنا في شرق إفريقيا، إن أعطت خطته نتائج عكسية فقد يكون هو على السفينة التالية العائدة إلى إنكلترا.

ما يحتاجه السكان المحليون برأيه كان ما سماه مدربوه في ساندهيرست: صدمة حادّة وسريعة.

عاد ماكدونالد إلى الكايا تحت جنح الظلام بصحبة خمسة عشر شرطياً، بدت أشجار المنغروف والنخيل متّحدة، بينما غطّت الأشواك والنباتات

الشوكية والأوراق الجافّة الأرض، وزاد من الشعور المخيف في المكان أصوات الجداجد ورفرفة الطيور على الأشجار الهائلة.

تزايدت العتمة داخل الغابة، فبدأ رجال الشرطة بالتبرّم والتهديد بالعودة من حيث أتوا، لكنَّ معظمهم تجمّد عند فكرة عجزهم عن تذكّر الطريق الذي أتوا منه، كلما توغلوا في مسيرهم تعالت أصوات تذمّرهم أكثر، لكنهم تابعوا، تقرّحت أقدامهم وتجرّحت أيديهم التي اضطروا أن يبعدوا الأشواك عن طريقهم بها، وحده ماكدونالد كان يحمل مسدساً، بينما حمل الباقون عصياً ولفّات من الأسلاك ومعدات ثقيلة.

في النهاية، وصل العساكر البريطانيون إلى فرجة واسعة في الغابة حيث اجتمع عدة مئات من الشبّان، عارين تماماً، أجسادهم ملطخة بالطين، كما كانت على رؤوسهم أيضاً كتل من الطين نزعوها لاحقاً ورموها في النار المشتعلة، اجتمع دستة من الحكماء، تماماً في الوسط، منحنين فوق قدر تغلي.

أمّن رجال الشرطة محيط الكايا بسرعة شديدة وأحاطوه بالديناميت، ثم انسحبوا إلى مسافة آمنة وانتظروا أن يتصرّف ماكدونالد، حين تصرّف، أنار لمعان من البرق الغابة المظلمة، أعقبه قصف من الرعد، سوف يخبر أولئك الذين نجوا من تلك الليلة أولادهم وأولاد أولادهم أنّهم لم يسمعوا في حياتهم انفجاراً أقوى من هذا، بينما سيقول آخرون إنّهم لم يتصوروا قدوم يوم يمتلك فيه البشر قوة إحداث الرعد والبرق اللذين سيقتلعان الأشجار من الأرض حرفياً ويرميان بها في الهواء.

أما نيوندو الذي شهد الأمر من إحدى زوايا الكايا فقد روّعة الدمار إلى درجة جعلته يفقد صوته، وهكذا لم يعد هناك من يتعجب من قوة *mzungu* الهائلة، أو حتى يجادل حول ما إذا كان المدفع أم الديناميت ما

يسبب دماراً أكبر أو يمتلك دوياً أعلى، أما الأوضح فقد كان صمتَ المجتمع المطبق، لقد تحطّمت روحهم القتالية مؤقتاً.

9

كان هناك اضطراب كبير في اليوم الذي وطئت فيه قدما بابو بلدة ناكورو للمرة الأولى، غطّت عباءة من الظلمة وجه السماء الزرقاء تماماً في الوقت الذي كانت فيه شمس الصباح تطلُّ عبر الغيوم، تماماً في الوقت الذي كانت فيه الكلاب البريّة ترفع أرجلها لتتبول وتطرد عن أجسادها حرَّ الليل، تماماً في الوقت الذي كان فيه ***wazee***[116] في القرى ينشرون جلود الثيران لتشميسها، أو يطلونها بزبدة الشيا لفرد تجاعيدها، لاحظ بابو التغيّر المفاجئ في السماء، ظنّ في البداية أنّها غيمة ماطرة ستنقضي سريعاً، لكنَّ الحرَّ الخانق لم يُشِر إلى أيّ مطر، حدثت العديد من الأمور الغريبة مؤخراً جعلت معارفه القديمة تبدو عديمة الجدوى في التعامل مع الظروف الحالية، كان قد مشى من الصحاري التي تخترق فيها الشمس جسم الإنسان من رأسه حتى عقبيه، إلى الغابات المطيرة التي يحتاج المرء فيها إلى إنارة المشاعل ليستطيع رؤية طريقه، كلّ هذا في غضون أيام، لقد قضى هو وعمّال السكّة الآخرون على الطريق -إن كان يمكن تسمية الارتحال عبر الأجمات والوديان والأنهار والجبال طريقاً- ما يقارب ثلاثة أعوام، لم يحتفظ بتقويم لحساب الأيام، لكنّه كان يمتلك وريقات الرواتب التي كانت تأتي كلّ شهر،

---

116 wazee: كبار السن (السواحيلية).

أربعٌ وثلاثون وريقة، كلّ واحدة منها بحجم راحة اليد، والتي يحتاج تفسير الخربشة المنقوشة عليها إلى قارئ كفّ ليفكّ طلاسمها، كان بالكاد قادراً على تحديد اتجاهَي شروق الشمس وغروبها، حتى عندما ينحني مصلّياً، كان يعتمد على القَدَر في اختيار الوجهة الصحيحة.

نُظّم الرجال في جماعات تضم كلّ واحدة منها أربعة وعشرين رجلاً وتشتمل على حِرفيين وتقنيين ومهندسين وعمال مبتدئين وحمّالين أفارقة وهنود تحت إشراف مأمور بريطاني، كان تقسيم العمل عنصرياً صارماً، الحمّالون والعمال المبتدئون كانوا أفارقة، الهنود يؤدّون الأعمال التقنية، والبريطانيون يشرفون عليهم جميعاً، كان المشرف على بابو هو المراقب باترسون، رجل يتلعثم في كلامه وله رجلان مزعزعتان، لكنَّ ماكدونالد هو من تولّى رواتب العاملين، في كلّ مساء، كان باترسون بمشيته الشاذّة يتأكّد من عدد الياردات التي غطّاها كلّ عامل، بينما يسجّل ماكدونالد هذه التفاصيل في دفتره الأسود الصغير، فيحسب عدد الياردات التي لم تُغطَّ ويطرحها من التكليف الإجمالي لكلّ عامل، وهكذا يحتسب عدد الروبيات التي ستقتطع من راتبه، يُضرب الرقم الناتج في ثلاثة ليكون أعلى بكثير من الأجور اليومية المقابلة في أماكن أخرى. اشتكى العاملون في البدء من أنَّ هذه سرقة في وضح النهار، الأمر الذي كان صحيحاً في حالة بابو لأنَّ ماكدونالد كان يقتطع سرّاً نسبة من رواتب بابو بطرق لا يستطيع اكتشافها، وهذا هو انتقامه بسبب المتاعب التي عرّضه لها، وطريقته في الوقت ذاته ليضمن انضباط بابو وابتعاده عن الشغب، فالرجل الجائع، كما يرى ماكدونالد، سيكون منشغلاً تماماً بالبقاء على قيد الحياة، ولن يجد وقتاً لتنظيم الآخرين وتحريض الفتنة بين العمال.

بما أنَّ حساب العمّال كان مبنياً على عدد الياردات، فقد عملوا بكلّ جهدهم لتغطية المسافة المعينة لهم، وبالكاد كانوا يتوقّفون لالتقاط أنفاسهم أو حتى إطلاق الريح، كان بابو يعرف كلّ تفصيل دقيق من الدرب كظهر يده المشعرة، يعرف البقعة التي انكسر فيها غصن جافّ من شجرة موكيندوري وسقط منها العمال متعاقبين فوق بعضهم، بينما كان يضحك من حماقتهم، ويستطيع تحديد المكان الذي وقف فيه رجل على صخرة في نهر أُثي[117] ثم انهار، بينما اختفت ساقاه في نهر من الدماء وصراخه المتألّم يخرج في فقاعات فقط، في الوقت نفسه الذي أخذ فيه منخرا التمساح يتوسّعان بشدة في تنفسه، كان بابو يعرف المنحدر الذي كسر فيه عبد الله راكب الحمار ساقه، والمكان الذي وجد فيه مساعده أحمد قطعة حطب جافّة حفرها النمل، والتي دبّت فيها الحياة عندما حملها على ظهره وتبيّن أنها ثعبان ضخم، لم تفصله أكثر من عدة بوصات عن إصابة رأس أحمد، لكنّه حين رماه ارتطم بالحامل الثلاثي المنصوب، بينما أطلق باترسون عليه النيران -أربع طلقات لم تصب أيّ واحدة منها الثعبان، بل احتكّت كلّها بالحامل- تاركة آثاراً يستشعرها أحمد كلّ يوم، بينما يجهّز معدّاته، فتذكّره بهروبه العظيم، وبالخطر المحدق.

يستطيع بابو تحديد شجرة مونشوكي التي تسلّقها أحد العمال ليهرب من ثور جاموس بعد أن هاجمه بمنجله، راقب بابو ثور الجاموس وهو يبلّل ذيله ثم يرشّ به بوله على شجرة المونشوكي، آملاً أن يُسقط الانزعاجُ العاملَ عن الغصن المنخفض، كلّ ذلك لم يوقف الرجال عن جني رواتبهم بعرق جبينهم، كانت هناك ياردات لتغطيتها، وكان هناك باترسون برجليه المقوّستين

---

117 أُثي: نهر يمرّ قريباً من مدينة نيروبي، كينيا.

ليتحقّق من المسافات، ولن تكون ضربة مطرقة على إبهام عامل قادرة على منعه من الطَرق من جديد، وحين يؤدّي الانزلاق في جرف ما إلى ليِّ كاحل أحد العمال فإنّه سيستمرّ في المشي، ربما بحيوية أقلّ وحذر أكبر بكثير، لكن بالإصرار ذاته.

أمّا خيامهم بلونها الأخضر الدغلي فقد تهتّكت، وأصبحت كورقة نخيل ممزّقة، بعد أن كانت تؤمّن لهم ظلاً منعشاً أصبحت تحميهم من الريح أكثر ممّا تقيهم حرَّ الشمس، اهترأت أحذية العمال السوداء وصار معظمهم حفاة الأقدام، كانت التشققات في أعقابهم عميقة بما يكفي لدسّ قطعة نقود روبية فيها، إلا أنَّ إيقاع تحطيم الرجال للصخور مضى من دون مقاطعة، مثله مثل حفيف المناجل وهي تقضم النباتات مع كلّ أرجحة.

خلال وقت قصير، يُشقُّ طريقٌ بامتداد مئة قدم استوطنتها الأشواك والنباتات الشوكية منذ خلق الربّ هذا العالم، ويتبع هذه الفرجة رجال آخرون عن قرب يجرّون ***makarai*** مملوءة بالحجارة المسحوقة، التي ستُفرد فوق المساحة حيث ستمدّد سكّة الحديد.

يتبعهم النجّارون بمناشيرهم وأخشابهم، أقلام الرصاص محشورة خلف آذانهم، يرسمون علامات حيث سيقطعون الخشب، ويبدأ المنشار في دندنة أغنيته الثابتة، تختلف حدّة الصوت من رجل إلى آخر، إذ كان المنشار في يد الرجل قليل الصبر يصرُّ ويتأوه، وكثيراً ما قد ينكسر ثم يُؤتَى ببديل له، مصحوباً في الغالب بصفعة من باترسون -لأنَّ الصفعة كانت أسرع من قدرتِه على نطق الكلمات- فضلاً عن خصم من حساب النجّار.

أمّا الحرفيون المهرة والصبورون فكانوا ينتهون إلى نتائج مختلفة تماماً في مناجاتهم لقطعة الخشب، في البدء كانوا يشتمّونها ليقيّموا مدى نضجها،

ثم يطرقون على طول خطوطها الطبيعية للتأكّد من خلوّها من العيوب، ثم يبلّلون بسباباتهم أماكن العلامات التي رسموها بالأقلام لتتشرّب برادة الخشب بالرطوبة عوضاً عن أن تصرَّ بجفافها، تستمر وتيرة أصوات مناشيرهم بنغمة ثابتة إلى أن يصلوا إلى وسط القطعة، عندها تصبح نغمة الأداة أعمق، تكتم المسافة التي قطعها المنشار والمسافة التي لا يزال عليه قطعها شيئاً من صوته، أما الوصول إلى نهاية العملية فقد كان يحمل نغمة مختلفة تضمّ في طياتها راحة انفصال القطعة السيّئة عن الخشب المفيد، واحتفال النجّار بالاكتمال الناجح لمهمته.

كانت هناك أصوات مميزة تأتي خلال ساعات معينة من النهار، العويل المكتوم للسكاكين أو المناجل في الرتل، الطرق على القدور لإعلان حلول موعد الغداء حين يعبر العمال السود والبيض والسمر سكّة القطار إلى مطابخهم الخاصة، وتماماً كالقضبان التي بقيت منفصلة -على الرغم من مصالحها المشتركة- التزم العمّال بمطابخهم المنفصلة أثناء الغداء والعشاء.

حالما يأكلون حتى الشبع، كان بعضهم يستلقي على العشب ببطون منتفخة مثل العناكب التي تحمل بيوضها، ويبدؤون في عدِّ نجوم النهار، بعضهم يتبع ببصره عصفوراً دورياً أثناء طيرانه ويتعجّب من مرونته الرياضية قبل أن تنضمَّ إليه طيور أخرى، يحاول كلٌّ منها التفوق على الآخر، بعضها يتشقلب، وبعضها يبقى ساكناً، حتى يتساءل العامل الذي يكاد يغفو إن كانت عيناه تخدعانه، يتساءل إن كانت الغيوم قد توقّفت عن السير لتتفرّج على الطيور، أم إنَّ الطيور هي التي توقّفت عن الطيران لتشاهد الغيوم تدور وتتقلب قبل أن تنطلق مسرعة في مختلف الاتجاهات.

استلقى بعض العمال بأعين مغلقة يستمعون إلى الآلام البليدة في

أوصالهم ووكزات التشنّج أسفل ظهورهم، محاولين تحديد اللحظة التي يُحتمل أنّهم تعرضوا للإصابة فيها، لكنَّ عقولهم لا تمنحهم نتيجةً دقيقةً، يقطع صفير قصير وحادّ أحلام يقظتهم إذ ينفخ باترسون صافرته ليعلن عن انتهاء استراحة الغداء، فيستأنف الرجال أعمالهم المرهِقة وتتابع الأدوات حوارها من جديد بلغتها الخاصّة.

أنصت بابو إلى هذه الأصوات، بينما كان يعمل، فالضجيج الوحيد الذي يصدر عن أدواته هو القعقعة التي يُصدرها حامله الثلاثي، بينما كان ينصب التلسكوب، كان يقف بعد ذلك جانباً، بينما يسجّل أحمد القياسات ويضبط إحداثيات المسح، ويزرع الاثنان بعد ذلك علامات التحديد تماماً في المواضع التي ستُمدّ فوقها سكّة الحديد، ثم يحدّدان المسافة بين جانبَي السكّة لتُزال جميع العقبات من طريقها، يُثبَّت قضيب معدني في الأرض بعد ذلك، ويسكب حوله مزيج من الإسمنت والرمل بكلّ حذر وسلاسة لجعل القاعدة صلبة، يسمّى هذا القضيب أيضاً قضيب تحديد، حين كان أحمد يرى امرأة تعجبه كان يقول لبابو:

"*Yala, my bhai*[118]، **أنا يريد أن يضع قضيب تحديد هناك.**"[119]

كان أحمد يقول إنه يرغب في ترك صفّ من النساء خلفه يمتدّ من الساحل إلى بحيرة فيكتوريا، "وأترك في كلّ محطة طفلاً بأذنين كبيرتين." كان يضيف بابتسامة عريضة، وهذه هي طريقته في استخراج ردّة فعل من بابو الذي كانت ميوله السلبية تجاه النساء المحلّيات تستثير فضول وازدراء أحمد في الوقتِ نفسه، فقد كان يسخر من (الإمام بابو) بسبب تصرّفاته الورعة،

---

118 Yala, my bhai: هيا يا أخي (البنغالية).

119 أنا يريد أن يضع قضيب تحديد هناك: يعجز أحمد عن تكلم الإنكليزية بشكل صحيح. (المترجمة)

ويطري على صمته الذي يشبه المياه الساكنة التي تتدفّق في عمقها، لم يُعر بابو اهتماماً كبيراً لحوارات أحمد الذاتية، لقد مهّد السبيل ماشياً أمام أولئك الذين يعبّدونها حين يكون العشب لا يزال يلتمع بالندى الفضي وتلال روث الحيوانات البريّة لا تزال دافئة ويتصاعد البخار منها.

إنَّ النساء الوحيدات اللواتي صادفهنَّ العمال كنَّ أولئك اللواتي أتين بالحطب لبيعه لباترسون من أجل حاجات الطبخ أو تشغيل المحرك البخاري، في الأوقات التي لم يكن فيها باترسون في موقعه، كان العمّال الهنود يغرون الفتيات المحلّيات، ويذهب بعضهم بهنَّ وراء الأجمات، وبعد أشهر طويلة، تعود إحدى الفتيات بطفل محزوم على ظهرها.

"هل رأيته؟" تسأل الفتاة، التي هي طفلة في الواقع، أول هندي تصادفه.

"رأيتُ من؟"

"والد طفلي." تجيب الفتاة/ الطفلة، "أعرفُ أنّه يعمل هنا."

"حقاً؟ وما اسمه؟"

"باتل." كانت تقول، وعيناها تطفحان بالأمل.

"هناك مئتا رجل هنا يُدعَون باتل، لا تقولي إنّك..."

"أنا لست امرأة فاسدة." تبدأ الفتاة بالبكاء.

"لا بدَّ أنّك حظيت بوقت ممتع، نعم، مئتا باتل."

تعود الفتاة وطفلها من حيث أتيا وهي تشعر بالإهانة، وتذهب فرص جعل باتل يتحمّل مسؤولياته أدراج الرياح، إن كان باترسون موجوداً عند قدوم فتاة كهذه، فسوف يجمع كلّ العمّال ويطلب منها التعرّف على الرجل.

يستجوبهنّ باترسون عبر المترجم ، فتمرّ الفتيات بالحوار:

"هل كان هندياً أم إفريقياً؟"

"كان رجلاً أبيض."

"ما درجة بياضه؟ أتعنين بريطانياً أم هندياً؟"

"نعم، كان كذلك."

"أيٌّ من الاثنين؟ بريطاني أم هندي؟"

"هندي بريطاني."

"تعنين أنّه كان جهداً مشتركاً؟ الاثنان في الوقت نفسه؟ بريطاني وهندي؟"

"بريطانيا، الهند، الأمر سيان بالنسبة لي." تستعصم الفتاة، "كلّهم يمتلكون أنوفاً طويلة وآذاناً كبيرة."

يتلعثم باترسون لأنَّ طبيعة المحادثة غير العملية ستفرض عليه تنظيم استعراض تعرّف يضمّ الهنود فحسب، لم يكن ليضيّع وقته بالأفارقة، إذ إنّهم نادراً جداً ما كانوا يتورّطون مع الفتيات، شأنهم شأن البريطانيّين، لقد قال إنَّ الرجال البريطانيين عاجزون عن فضّ عذرية الفتيات المحلّيات القذرات، "ذلك ينافي أسلوب الح-الحياة الب-البري-طانية."

لكنَّ الهنود بدوا جميعاً متشابهين لهؤلاء الفتيات.

لم يكنَّ قادرات حتى على التمييز بين البيض والسمر، "كلّهم يمتلكون أنوفاً طويلة وآذاناً كبيرة." كانت عبارتهم الوحيدة.

لم يقع الاختيار على أحمد أبداً، على الرّغم من أنّه أقسم لبابو بأنّه مسؤول عن فضّ بكارة بعض الفتيات اللواتي عدن بأطفال خلفهن، لكن على أيّ حال، يضيف، قد يكون مخطئاً لأنَّ كلّ الأفارقة يبدون متشابهين بالنسبة له.

"يُفضح أمر اللص بعد أربعين يوماً." قال بابو مذكّراً، "على الأقلّ أنا أفتخر

بعرض أدلّة ورقية." كان يقول، بينما يعرض دستة من وريقات إيصالات الدفع التي تُبيّن أنّه أحد الرعايا البريطانيين من مستعمرة البنجاب موظّف بمهنة مسّاح لقاء أربع وعشرين روبية في كلّ شهر ولمدة ثلاث سنوات، كان يُرسل نصف أجوره لفاطمة التي لا تزال في مومباسا على بعد خمسمئة ميل، وربعها إلى والديه في البنجاب، أما الربع الباقي فكان يعتاش منه.

يستحيل توقّع الأمور التي تنتظر هؤلاء العمال في الطريق وهم يتقدّمون ببطء، لكنَّ أحجية بابو في ذلك اليوم من عام 1900 أتت من فوقه وليس من الأرض أمامه، كان يعرف أنَّ انقطاعه عن العمل سيجعله يخسر عزيمته، ما يجعله عُرضة لخسارة بضعة روبيات وفقاً لخطة مسير باترسون المتقلقل، لكنَّ الفضول تغلّب عليه. لطالما كان فتى فضولياً، وكانت عيناه الرماديتان الدكناوان لا تزالان ممتلئتين بالتعجب، في عمر الثانية والعشرين، قد يكون بابو أهلاً لاستعمال عبارة ذلك الرجل الحكيم القاطن وراء البحار، مثل جميع الرحّالة العظماء، لقد رأيت أكثر ممّا أتذكّر، وأتذكّر أكثر ممّا رأيت.

فتّش أمتعته وأخرج حقيبةً سوداء من البوليثين من العربة التي يجرّها حمار مربوط في مكان قريب، ونفض عنها حبّات رمال تشبه الفلفل الأسود تراكمت على مدى سنوات من الارتحال، نظر عبر الورق الأكمد، لكنه لم يستطع رؤية أيّ شيء، ولا حتى أبسط أثر لوجود الشمس في السماء.

"***Bhai***، هذه هي الظلمة في عزّ الظهر." تمتم من دون أن يوجّه الكلام لأحد بعينه.

سأله أحمد الذي كان يعدُّ أدوات المسح من دون أن ينظر إليه: "يا معلمي، ماذا تقول؟"

مشى بابو بخطوات واسعة إلى حيث كان أحمد يجلس القرفصاء، أمال التيلسكوب من مشبكه فوق الحامل الثلاثي، وصوّبه نحو السماء مباشرة، ثم حدّق من خلاله.

بحلول هذا الوقت كان أحمد قد تبع تحديقه، وسمعه بابو يطلق تعجبات مكتومة وهو يحاول استيعاب المشهد الدائر في السماء، أطبقت الظلمة الحالكة، واستسلمت الشمس للعتمة من دون مقاومة، لم تحاول حتى أن تجاهد لتشعّ بضع دقائق إضافية، لم يتدرّج الضوء بخفوته ليوحي بانسحابه، مجرد دفقة مفاجئة، وببساطة، اختفى النور.

هذا الغموض هو الذي ساق بابو إلى سواحل شرق إفريقيا، لقد قرأ في المدرسة عن المستكشفين الأوروبيين الذين قضوا عقوداً من الزمان يرتحلون على امتداد مجاري أنهار هائلة من دون أيّ موارد، وعن الجبال التي كانت تلفظ الحمم الحارّة مثل نار جهنم بالرغم من أنّها مغطاة بالثلوج، وعن الغابات التي لا تقدر الشمس على اختراقها، فُتن بأوجه المخاطرة هناك، ولم تخيّب إفريقيا آماله، ها هو الآن في أرض من المستنقعات ليس فوقها سوى بعض الأشجار المتفرّقة، لكنَّ العتمة اختطفت الشمس في الظهيرة.

بعد برهة، لاحظ بابو حركة ما، صَفَت السماء بعض الشيء إلا أنَّ الشمس لم تظهر بعد، رأى الأشكال المظلّلة التي بدت مثل سرب من البط الطائر، لكنَّ أعناقها كانت ممتدة مثل الأفاعي، وفي الوقت نفسه كانت لها أرجل طويلة سابغة، هل كان لهذه الأفاعي الطائرة أرجل؟ تساءل إن كانت هذه دجاجات مفرطة النمو، أو صقوراً عملاقة، أو ماذا كانت حقاً.

"***Achibhai***[120]" تمتم، "***Bhai***، هل ترى ذلك؟" التفت إلى أحمد.

---

120 Achi bhai: أخي العزيز (الهندية).

لكنَّ أحمد كان قد بدأ بالجري بأقصى سرعته، شأنه شأن بقيّة العمّال الذين لاحظوا المشهد في السماء، وجميعهم كانوا يصرخون ملء حناجرهم:

Alhamdulillah! Siku ya kiama imefika!"

"!Alhamdulillah! Alhamdulillah! Siku ya kiama [121]

تركت الأجسام الطائرة في السماء المظلمة فُرجةً تدفَّق منها عمود من الضوء، معمياً أيّ شخص ينظر إلى الأعلى، صفّقت الأجنحة المجتمعة وتعالت هسهسة المخلوقات المحلّقة لتصبح هديراً، بينما بدأت تهبط مفسحة المجال أمام قرص الشمس الكامل للظهور مجدداً، منيراً وذاهباً بالأبصار، لم يعرف العمّال إن كان عليهم إغلاق أعينهم أمام الوهج؟ أم المجاهدة للتفرج على الخيمة المنحسرة؟ هبطت الأشكال الطائرة مصطدمة بالمسطّح المائي القريب، فأصدر صوت هبوطها في الماء واحدةً من أعلى الصدمات التي سبق أن سُمعت في هذا الجزء من العالم، بحلول هذا الوقت، كان جميع العمّال قد هجروا أعمالهم وفرّوا هاربين، غير متيقنين تماماً من وجهة فرارهم أو الشيء الذي يهربون منه، رفست البغال مرابطها وانطلقت نحو الحرّية، ثم انحرف أحد محركات الجرّ عن مساره، أطلق باترسون النار في الهواء مذعوراً، الأشخاص الوحيدون الذين بقوا هم ثلاثة رجال سُحقت أرجلهم تحت المعدن الثقيل الذي أفلته رفاقهم الهاربون، لكن حتى هؤلاء تدبروا طريقة للزحف ميلاً كاملاً نحو نقطة التجمع وهم يتفرّجون على مشهد لا مثيل له.

رفرفت الكائنات الغريبة من دون جلبة وهي تخفق بأجنحتها المشرعة لتحافظ على توازنها بسلاسة مذهلة ومن دون أن تصطدم ببعضها، ثم انزلقت على سطح البحيرة، أرجلها المكفّفة بالكاد تشقُّ طبقة رقيقة للغاية

---

121 Alham-dulillah! Siku ya kiama imefika! Alhamdulillah! Alhamdulillah! Siku ya kia-ma!: الحمد لله! لقد حلَّ يوم القيامة! الحمد لله! الحمد لله! يوم القيامة!

من المياه التي التمعت ألوانها القزحية كسطح مرآة تواجه الشمس، غطست الطيور وهي تلوي أعناقها بزوايا عجيبة لتقشط الطحالب قبل أن تُكرر عروضها الجوية ثم تتناول الطعام مجدداً.

توجّهت تلك التي أكلت حتى الامتلاء منها إلى رأس النبع الذي يصبُّ في البحيرة، حالما تصطدم مياه الينبوع بقعر الصخرة أسفله، كان ذلك يُسفر عن دفقة ثابتة من البخار تُغرق البقعة كاملة بغلاف من الضباب، وطوال حدوث هذه التفاصيل استمرَّ هديل وصراخ وهسهسة طيور الفلامينغو الوردية بالتعالي والخفوت بتناغم أوركسترا فيلهارمونية.

لعقود مقبلة، سيستمرّ بابو في رواية هذه القصة ليشرح سبب قراره الاستقرار في ناكورو.

لقد تبع حدس الطيور العجيبة، كما سيخبر الأصدقاء وأفراد العائلة، سيكرّر هذه القصة مراراً إلى درجة أنَّ راجان في طفولته حين يرجوه ليحكي له قصة سيرفق طلبه بتنبيه:

لكن ليس قصة الفلامينغو يا بابا..."

النسخة الأخرى من قصة أحداث ذلك اليوم، والتي كان بابو يرويها بالتكرار نفسه، تضمّنت الأذى الذي أصيبت به رجله اليمنى خلال الجلبة حين فرّ العمال إلى برّ الأمان، وكيف عرج من دون توقف لأنّه هو أيضاً كان يخشى أنَّ نهاية العالم قد حلّت، مع انحسار الاضطراب خلع بابو حذاءه الأيمن وتفحّص رجله، كانت هناك أربع قطرات من الدماء على جوربه، أمسكِ أحمد برجله وعصرها، فندت عنها أربع قطرات أخرى سقطت على سطح الأرض السوداء وظلّت لبرهة قبل أن تتلاشى إلى العدم.

على نعل الحذاء تبقّت قطعة من الأشواك أزالها أحمد باحتراف

مستعملاً شوكة أخرى.

"*Bhai* عليك أن تصير إسكافياً."

"يا معلمي، رغباتك أوامر لي، إن كنت تريد أنا إسكافي، أصير إسكافي."

كان أحمد رجلاً ضئيلاً، بالكاد يبلغ الخامسة والعشرين، مع ذلك فشعره آخذ بالانحسار، وهو أيضاً من البنجاب لكنّه يُصِرُّ على تكلّم الإنكليزية، كان قد سافر إلى بومباي في مهمة في السابق، ومن هناك استُقطب للعمل في قطار إكسبريس الجنوني؛ لينضمّ إلى الرجال ذوي العقول النيّرة والإرادة الحرّة، الذين تخلّوا عن حيواتهم وتبعوا حبَّ الترحال، ثم اكتشفوا متأخرين أنّهم قد توغّلوا بعيداً ولم يعد بإمكانهم العودة، وأحد أسباب هذا هو انعدام الوسائل التي تمكّنهم من اقتفاء آثار قدومهم.

جلس بابو على جذع شجرة مقطوعة حديثاً وفكّر بجوربه المشبع بالدماء، تخلّى جسمه عن ثماني قطرات من الدم، يقول قومه إنَّ الدم الفاسد لا يبقى في الجسم حتى نهاية اليوم، لا بدّ أن يُراق.

بدا أحمد كأنه يقرأ أفكاره حين سار إليه وقال: "أنا لست متطر... متطر-رر، يا معلمي..."

"أتعني متطيّراً؟"

"نعم، ذاك! ذاك الأمر المتطر! أتعرف، *Bhai*، أنت رجل محظوظ أيّها الرئيس، أنت يذهب إلى مدرسة، أنت يذهب إلى مدرسة ليتعلم كلام مثل رجل أبيض، القصة هي أن أحد يحاول يسحب أنت من هذه رحلة، أحد أو شيء يقول لك: انزل من قطار إكسبريس مجنون."

"Bhai" قال بابو، مخفضاً صوته، "هل تقترح على رئيسك أن يفرّ؟"

"هذا آخر شيء يخطر لعقل أنا صغير أيها الرئيس."

مشى أحمد وعرج بابو الميل اللازم للوصول إلى مخيمهم، اختفى حمارهم خلال الاضطراب، لكنَّ التيلسكوب كان لا يزال منصوباً حيث ثبّت أحمد الحامل الثلاثي.

"لنذهب." قال بابو حين سمعا صوت صافرة باترسون تأمر جماعته بالعودة إلى القاعدة، رأى أنَّ أحمد كان يكتم ضحكاته: "ما الأمر؟" سأله بانزعاج طفيف.

أشار أحمد إلى مؤخرة بابو حيث تركت العصارة الطازجة من جذع الشجرة مخططاً دائرياً على بنطاله الرثّ، "أحد ما أو شيء ما يضع علامة ناكورو على الرئيس، أحدهم يريد إخبار أنت أمراً ما..."

"انزع ذلك." قال بابو مشيراً إلى التيليسكوب، بينما حاول مسح العصارة عن بنطاله.

حدّق أحمد عبر التيليسكوب "هذا ماذا يكون يا معلمي؟"

"ما هو؟" قال بابو بينما بدأ انزعاجه يتصاعد.

"تعال شاهد بنفسك يا معلمي."

النسخة التي كان بابو يحكيها لما جرى لاحقاً هي أنّه نظر عبر التيليسكوب، متفحّصاً السهول، فرأى مجموعة من الرجال البيض في قبّعات مكسيكية منتشرين في الأرجاء مثل سرب فراشات على الخلفية البنية للسافانا، كانوا يضعون مخططات للأرض وقد أدرك ذلك على الفور لأنهم كانوا ينصبون ألواحاً لرسم الحدود.

كان ذلك صحيحاً، لكنَّ الجزء الذي عدّله في الروايات المستقبلية عن أحداث ذلك اليوم ذي الظلمة أنّه أيضاً رأى من عدسة تلسكوبه ست نساء شابّات، كنَّ قادمات نحوه لبيع الحطب، حيث رأى أحمال الحطب

فوق ظهورهنّ كما كانت تفعل أخريات عند كلّ محطة أخرى على طول الدرب، مشت النساء المحلّيات عاريات تماماً عدا مزقة تغطي فروجهن، أما الرجال فكانوا يرتدون قطعة من القماش المنسوج على أكتافهم لتؤدّي مهمة قميص وبنطال في الوقت نفسه، ركّز العدسة وقرّب المشهد على امرأة جميلة الوجه وراقب مؤخرتها الفاتنة تتحرّك دائرياً مثل أسطوانة تدور في مشغل الغراموفون.

"**هيا يا معلمي، سوف أزرع أنا قضيب تحديد اليوم.**" صرخ أحمد، "**اليوم يحدث ما يحدث، من يقول غد يكون كاذب.**"

لم يُجب بابو، لكنَّ ذلك كالعادة لم يخمد حماسة أحمد، ذهب أحمد ليلتقي بالنساء الشابّات اللواتي كنَّ حقاً مجرد فتيات ذوات سيقان نحيلة بدت مثل العيدان الخشبية، بالكاد متماسكة بما يكفي لتحمل أوزانهن، ناهيك عن وزن الحطب.

عرف بابو أنَّ الفتيات كنَّ مستمتعات بمداعبات أحمد، لكنهنَّ توترن حين قال لهنَّ شيئاً ما مشيراً نحوه، غضّت كلّ الفتيات أبصارهن نحو الأرض، رفع أحمد ذقن أجمل الفتيات التي لاحظها بابو عبر التيليسكوب، مشت الفتاة بتردّد نحو بابو وهي تجرجر قدميها مثل حيوان يساق إلى المسلخ.

كانت الشمس تهبط في الغرب، وغدت أشعتها ألطف، ضربت أشعة الشمس وجه الفتاة مباشرة، فرفعت يدها لتظلّل عينيها، خطا بابو جانبياً وحجب الشمس عنها برأسه، نظرت الفتاة إلى الأعلى، كانت أقصر منه وفي عينيها حِدَّة ثاقبة جعلته يكاد يرغب في حماية نفسه من نظرتها، لم يعرف ماذا أخبر أحمد الفتاة، وبما أنها كانت في منال يده، فكر أنّه من المفترض به عمل شيء ما.

مسح على جبينها فحوّلت بصرها عنه، لمس ثدييها، الأيسر في البداية ثم الأيمن، تنهدت وأغلقت عينيها، ثم مشت كأنها تقوده خلفها، فتبعها بوداعة، رمت حِمل الحطب وجلست إلى جانبه، كانا في سبخة تترامى فيها أصوات طيور الفلامينغو إلى أسماعهما من بعيد، أراد سؤالها إن كانت قد سمعت عن وصول الطيور، لكنّه قرر ألّا يفعل، فالحواجز اللغوية بينهما هائلة الحجم ومن الأفضل أن يباشر بما يمكن التعبير عنه باللمس، تحدّث معها بمزيج من البنجابية والإنكليزية والسواحيلية الركيكة، كانت الفتاة تتكلم لغة ***Maa***[122] المحلية التي لا يفهمها بابو، أغلقت عينيها ولم تحاول مقاومة لمسته التي كانت تتحسس جسدها أكثر فأكثر.

استلقيا أخيراً جنباً إلى جنب، قالت الفتاة شيئاً ما ثم بدأت بالبكاء، نظرت إليه وعيناها تلتمسان، بينما كانت تئنّ: ***"Mubea Mubea,"*** استدارت وبقيت مستلقية ***"Mubea Mubea,."***

أسقط بابو سرواله حتى كاحليه، وتابع تحسّسها، باحثاً عن النفق المعتم الذي أمل أنّه سيفضي إلى شيء من الضوء، جعلته الإثارة يتورّم حين رأى عريها الكامل، سرت في جسده رعشة تصاعدت إلى دفعة كان بالكاد قادراً على احتوائها، شعر بالراحة عندما حرّر هذا التكاثف القوي الذي كان يتصاعد داخله، لكنّ عقدة من الغضب والإحباط بدأت تلتف في معدته، وفقد كلّ طاقته بعد ذلك، بينما ارتحل ذهنه عائداً إلى البحر، سمع صوت ناهودا يلقي بلعناته في البحر بسيل جارف من الغضب: "**لتكن نساؤك عقيمات، لتجفّ بذورك، لينتصر الأعداء عليك.**"

---

122 Maa: لغة الماساي.

تساءل إن كان للعنة ناهودا علاقة بفشله في الارتقاء لمواكبة المناسبة، لكنّه تذكّر فشله المشابه في ليلته الأولى مع فاطمة بعد زفافهما المتعجّل وقبل الرحلة البحرية إلى شرق إفريقيا.

لاحقاً، عندما حاول أحمد الاستفسار عن الطريقة التي سارت بها الأمور مع الفتاة المحلية، تملّص بابو من الإجابة قائلاً إنَّ تعرية فتاة من الماساي كانت شبيهة بسلخ جلد الماعز، "كلّ شيء مخيّط مع بعضه."

ضحك أحمد بحماسة وقال: "***Bhai***، أرجو أنّك وجدت المكان الصحيح!" لكنّه تيقظ بعدها: "هل قالت ***mubea***؟"

"نعم، قالت ذلك." أجاب بابو بحيرة، انبعثت قهقهة أحمد من جديد، لكنها الآن أتت بحدّة مختلفة.

وقف بابو مأسوراً بالسؤال الذي سأله أحمد، فتح فمه ليتكلم، إلّا أنّه عَدَل عن ذلك، بعد مرور ستة أشهر على هذه الحادثة، سوف يتمنّى لو أنّه قال شيئاً.

10

قد يبدو ضرباً من المغالاة أن يتصوّر المرء إمكانية ترتّب تبعات بالغة الخطورة على انتهاك مثل هذا، لكنَّ ذلك الزمان كان مختلفاً، وفيه كانت أهمية الشرف تعلو كلّ أمر آخر.

في ذلك اليوم المشهود لزيارة مريم، وبينما كان بابو مستلقياً على الأرض ينشج مثل كلب عجوز، تذكّر تلك المضاجعة الخرقاء مع الفتاة التي جلبها إليه أحمد.

عاد بابو بذاكرته إلى المستنقع حيث كانت الشمس تسفع جبهة الفتاة، كان مستلقياً فوقها، ينقل وزنه من جهة إلى أخرى حتى حماها من أشعة الشمس المباشرة، تشكّلت مجموعة من القطرات حول أنف الفتاة، فمسحها بلعقة واحدة من لسانه، قبّل شفتيها برقة، لكنّه شعر بجفاف لسانه وبدت الفتاة غير مكترثة بحركته داخلها.

Mubea, mubea! تذكّر تذمّر الفتاة، وهو يتجنّب نظرتها مجدداً بينما تبكي.

"لا بد أنّك شعرت بنفسك تولد من جديد." قال أحمد حين عاد بابو إليه، "بعد كلّ هذه السنوات من التبتّل."

صادق بابو على كلامه بكلّ الحماسة التي استطاع استجماعها: "شيء من هذا القبيل..."

ستُثبت الأيام أنَّ استنتاج أحمد المتعلّق بكون تجربة بابو الجنسية هي أمر يشبه الولادة من جديد هو استنتاج تنبّؤي بصورة صاعقة، بعد مرور عدّة أشهر وانتشار خبر حمل الفتاة ستولد فضيحة تكاد تفسد مشروع السكّة بأكمله، وتوقظ من جديد حقد ماكدونالد على بابو.

كان اسم الفتاة سنية وهي ابنة زعيم الماساي الوارث، لونانا، وتعتبر بين السكان المحليين من الأسرة الحاكمة، لأنّ الزعامة التقليدية كانت أمراً وراثياً تتناقله الأجيال من الأب إلى الابن، ولزيادة الطين بلّة، لم تكن سنية مخطوبة لتتزوج ليمبا، ابن زعيم وارث شديد القوة في قرية مجاورة فحسب، بل كانت كذلك الابنة المفضلة للزعيم لونانا.

حسناً قد لا يعني هذا الأمر الكثير، لكنّ ذِكر الزعيم لونانا وصل إلى كتب التاريخ، على الرغم من أنَّ معظم مناقبه قد فُسّرت بالإجمال خطأً.

وهكذا كتب الكابتن جون آدمز عن بعثته عبر أرض الماساي ومواجهته الأولى مع الزعيم لونانا:

تقرير ظرفي: أرض الماساي.
اتّفاقية عام 1896.
مفوّض محمية شرق إفريقيا البريطانية.

حين يُكتب تاريخ قطار إكسبريس الجنوني في النهاية لا بدَّ من تخصيص حصة معقولة منه للتقييم المبدئي لمنحدرات لايكيبيا، كما ينبغي لخبرتنا هناك أن تلهم تغييرًا في السياسات المتبعة نحو اعتناق مبادئ مثل فرّق/ تسد، وطرائق أخرى للحرب غير التقليدية والتي نتجت عنها عوائد هائلة في أرض الماساي.

إنَّ أفراد قبيلة الماساي هم قومٌ أشدّاء ومخضرمو حرب، يعتاشون على الحليب والدماء التي تُجنى من أبقار الزيبو طويلة القرون التي يمتلكونها، في البدء، يتميز شبانهم المسمون *(morans)* بالقدرة على قتل الأسود بأيديهم العارية، ويشتهرون بكثرة معاشرتهم للنساء، كلّ ما يحتاجه المرء هو غرز رمح خارج أحد الأكواخ وسيفهم الرجل الذي يقطن فيه على الفور أنَّ زوجته منشغلة مع شخص آخر، فيتابع طريقه، ربما ليغرز رمحًا أمام كوخ رجل آخر.

بما أنَّ التركيبة الاجتماعية الثقافية للماساي تبدو مؤهّلة لاستفسار فكري أعمق، فسوف تقتصر ملاحظاتي على المسح

الأساسي لخط سكّة الحديد، والذي أجريته في المدّة بين الأول من يونيو 1895 والثاني من ديسمبر 1895، أكّدت لنا استطلاعاتنا الجوية التي أجريناها باستخدام القوارب الطائرة التي تعمل من بحيرة كافيروندو أنَّ أقصر طريق من ساحل مومباسا عبر هضبة نايبكا كان عبر الوادي المتصدع، ما لم نعرفه هو أنَّ قبيلة الماساي الشرسة تسيطر على المنطقة بأكملها، لم نكن نعرف كذلك بغضهم الشديد للأجانب.

تخدم الأرض المحيطة بالمنحدر مصالح السكان المحليين، إذ تمكّنهم من رؤية عمّال سكّة الحديد وقتلهم بأسهم مسممة محكمة التصويب، أو بحجارة دقيقة الأهداف، كما يمكن طعنهم بالرماح في كمائن بارعة، بعد خسارتي لأربعة رجال، انتابني القلق حيال إمكانية الالتزام بالتقديرات المفترضة للانتهاء من تركيب السكّة حسب الجدول الزمني، فابتدعتُ حيلًا أخرى لدخول منحدرات لايكيبيا.

بدأتُ بسياسة فرّق/ تسد على شقيقين تربطهما قرابة الدم بعدما أكّد الجواسيس أنَّ الزعيم لونانا في عداوة مع شقيقه ساداكا، أبلغنا جواسيسنا أنَّ المجتمع البدوي كان يحيا على تربية المواشي، وينتقل إلى مراعٍ جديدة وفقًا لإيقاع الطبيعة، كنا نفكّر بإمعانٍ في طريقة لاستغلال الصدع بين الأخوين، لكنَّ للربّ طرائقه الإعجازية، بينما كنا نُعمل تفكيرنا في الأمر، علمتُ أنَّ مدرسة الطبّ الاستوائيّ كانت بصدد افتتاح مركز ميداني في المستعمرة.

ولم يكن من الممكن اكتشاف داء الحمى القلاعية في أوروبا في وقت أفضل من هذا، مُنح جواسيسنا حبيبات تحتوي على الفيروس لينثروها في حقول مختارة، وبعد وقت قصير، بدأت قطعان الماساي تتساقط مثل الذباب بفعل الفيروس أو ناغانا كما سمّى مجتمع الماساي هذا المرض، ولأنَّ الحيوانات لم تكن قادرة على السير للبحث عن المراعي وانتشر المرض في لثاتها لدرجة جعلتها تعجز عن تناول الطعام فقد تضورت بالآلاف.

مع حلول هذه الكارثة بمصدر أرزاقهم، بدأ المجتمع بلوم الزعيم لونانا لأنه لم يأمر أطباء القبيلة بإعداد ترياق يحارب عقار الرجل الأبيض، استعملنا هذه الفرصة لندعم ساداكا ضدّ أخيه عبر إرسال موظفي الإرشاد الزراعي الذين رشّوا مراعي ساداكا بترياق مضاد للحمى القلاعية، فنفّذ ساداكا المنبعث بقوة انقلابًا ضدّ القصر، إن صح التعبير، وخلع شقيقه من الزعامة، ورفعتُ من مكانته عبر تسميته بالزعيم الأعلى للماساي.

إنَّ اتفاقية أراضي الماساي لعام 1896 هي إشادة مستمرّة بتلك الدبلوماسية الفطنة التي أدّت إلى تسليم ملايين الفدانات من الأراضي الغنية الخصبة للاحتلال والاستغلال البريطاني، وقد نصَّ عقد الإيجار على أنَّ مدة هذه الاتفاقية هي 100 سنة، أطول بكثير ممّا ستبقى فيه السكّة موجودة حسب ظنّي.

ما حذفه الكابتن جون آدمز من تقريره هو أنَّ مجموعة محاربي الزعيم

لوناناء المحفزين بالدواء القوي للعرّاف كيوني -وهو العرّاف الذي حذّر من الفراشات البيضاء المحتلّة قبل وصول البريطانيين بزمن طويل- أوقفوا استطلاعات تركيب السكّة لعام كامل، بينما كانوا يحمون أرضهم.

لكنَّ ذلك حدث قبل وصول ماكدونالد إلى المشهد وتوجيهه لإنشاء السكّة من الساحل إلى الأراضي الداخلية، كان العمّال يبعدون حوالي ستين ميلاً عن محطة ناكورو وعلى مشارف بلدة كافيروندو الواقعة على شاطئ البحيرة، حيث يفترض أن تتموضع محطة القطار الأخيرة، في ذلك الوقت شاعت الأنباء عن ابنة الزعيم لوناناء ووصلت إلى ماكدونالد إخباريات تفيد باقتراب المتاعب.

أخذ السُكّان المحليون بالتذمّر، قائلين إنَّ الأجانب أتَوا ليدمروا أخلاقهم، تماماً كما تنبأ بعض العرافين، وقد قدّم العديد من زعماء المستعمرة عشرات الشكاوى إلى مكتب ماكدونالد يشتكون فيها من التصرفات اللعوبة لعمّال تركيب السكّة، وهي رذيلة بدت كأنها تتمتع بدعم رسمي خفي، أمّا الدليل على أنَّ الأجانب كانوا متورّطين في نشر الرذيلة فهو: ***mubea*** **-واعظ، رجل من رجال الربّ-** الذي كان يتبنّى الأطفال المولودين نتيجة هذه العلاقات بين الفتيات المحلّيات والرجال الأجانب، لهذا كانت سنية تبكي، فهي لم تُرد تسليم طفلها إلى ***mubea*** كما وردت معلومات عن أنَّ فتيات في قرى أخرى يفعلن.

كان الرجل المعروف باسم ***mubea*** بالطبع هو الكاهن تيرنبول، وحملة التبنّي الخاصة به، التي تحولت في سنوات لاحقة إلى منظمة إنسانية مكرّسة للأطفال الأيتام، لاقت تشجيعاً كبيراً من ماكدونالد لسببين: كانت قناةً لإنفاق مبالغ طائلة من النقود التي منحها ماكدونالد للكاهن كتعبير عن

امتنانه لاستعداد الأخير للتدخل عند الحاجة للتفاوض مع المجتمعات المحلية، والسبب الآخر هو أنّه على الرغم من عدم اهتمامه بالحفاظ على التقاليد المحليّة، إلا أنَّ ماكدونالد قد خشي أنَّ وجود الأطفال ذوي العرق المختلط قد يشجع على اندماج الأعراق، بينما كان شغله الشاغل هو الإبقاء على سياسات الفصل العنصري، إنَّ معاملة الأطفال متعدّدي الأعراق كمجموعة معزولة وخاصّة كانت طريقته في تعزيز وصمة العار، وبالتالي إحباط إمكانية انتشار تمازج الأجناس.

لكنَّ ما فاقم مشكلة حمل سنية من مجرد مسألة قرار شخصي إلى إذلال شعبي كان تجدد الاهتمام بتحذير العرّاف من أنَّ الفراشات البيضاء ستجفّف كلّ النباتات وتدفع قرى بأكملها نحو سكرات التضوّر جوعاً، وهي رؤية جرى تفسيرها بعبارات روحانية، استنتج حكماء المجتمع أنَّ الأجانب الذين يتعدّون على أرضهم سوف يقودون إلى انحلال مجتمعهم أخلاقياً، ومن ثَمّ دماره بالكامل، لقد سمعوا أنَّ الغزاة قد تركوا خلفهم خطّاً طويلاً من الأطفال الصُفر في القرى التي مروا عبرها، بعد أن زرعوا ثعباناً معدنياً غامضاً في الأرض، وقد تنبّأ كيوني أنّه من دون الممارسات التراثية التي يراقبها المجتمع منذ الأزل، سيهلك المجتمع بطرفة عين، وعلى الرغم من أنَّ التقاليد الاجتماعية كانت تحتقر النساء اللواتي يحملن قبل الزواج، لكنَّ أولئك اللواتي حملن بأطفال الرجال الأجانب اكتسبن وصمة خاصّة، لم يكن أيّ رجل ليتزوجهن، حتى كزوجة ثانية أو ثالثة، لذلك فقد كانت أنباء حمل سنية تُرى على أنها اعتداء خطير على المجتمع. انتظم شبّان الماساي سريعاً ليقاوموا، فدمّروا أحد المخيمات واقتلعوا جميع قضبان السكّة الممتدة من ناكورو إلى منحدرات لايكيبيا.

11

جلس ماكدونالد تحت إفريز منزله في المخيم ينقّب فكره، كان الأمر أكبر منه، وعجز عن معرفة طريقة لتخطّي العقبة التي تعترض طريق مشروع سكّة حديده، تذكّر محنته عند الساحل حين كان ملزماً باستعمال جميع الحيل التي يعرفها لإقناع السُكّان المحليّين بالعمل لصالحه، هزَّ رأسه غير مصدّق لذكرى ذلك اليوم الذي اضطر فيه لملاطفة السُكّان المحلّيين عبر تقديم كبشين للتضحية بهما في طقس وثني، ذلك كان قبل أن ينفد صبره وينفجر بفعل عنيف عندما أمر باستخدام الديناميت لتدمير الكايا، سُجّلت تلك الواقعة في المعتقدات المحلّية على أنّها اليوم الذي مشت فيه حبات التين وتجمّدت الطيور وسط السماء، بالمقابل، تذكّرَه بعضهم على أنّه يوم الهزّة الأرضية، لأنَّ الانفجار القوي قلب الأشجار ملقياً بالضوء على المكتنف المعتم الذي حفظ قوّة وغموض الآلهة القدماء لعدة أجيال.

بناءً على خبرته العسكرية، كان ماكدونالد يعرف أنَّ تدمير أحد أمكنة العبادة يعتبر عملاً إرهابياً -وهو أمر محظور في طرائق الحرب التقليدية- لكنَّ كلَّ تفاصيل السكان المحليين لم تكن تمتُّ للأمور التقليدية العادية بصلة، وقد أسفر التدمير على أيّ حال عن نتائج متوقّعة من المعارك التقليدية، أذعن السُكّان المحلّيون، وبهذا تقدّم العمل في السكّة الحديدية، ببطء لكن بثبات، كان كلّ ذلك الآن يرزح تحت احتمال تهديد عظيم لأنَّ رؤيته لمستقبل المستعمرة، مجدداً، كان يتعارض مع تاريخ السُكّان المحليين، والذي يحدّد شكل حاضرهم، إن أُعيق إنشاء سكّة الحديد بسبب مقاومة الماساي، فسيؤول كل ما جاهد لتحقيقه خلال السنوات القليلة المنصرمة

إلى خزي كبير، سوف يذكره العالم على أنّه الكابتن الذي سيّر القطار في البريّة.

نهض ماكدونالد وركل الطاولة بغضب، ساكباً شاي القرفة من فوقها ومحطماً الأواني الخزفية على الأرض، استقطب صوت التحطّم أحد الخدم من الخارج فحضر والتقط القطع المحطّمة بصمت ثم عاد إلى المطبخ، لم يسأل حتى إن حدث شيء ما أو إن كان ماكدونالد يريد كوباً طازجاً من الشاي، إذ إنّه كان معتاداً على نوبات غضب سيده.

انتظر ماكدونالد إلى أن غاب الخادم عن الأنظار قبل أن يخلع حذاءه ويتفحص قدمه، تركت الركلة لطخات حمراء على أصابع قدمه التي أصبحت تماثل وجهه، تفحّص ماكدونالد رِجله أكثر، فلاحظ كيف نعّم ارتداءُ الحذاء لأوقات طويلة خشونةَ أطراف أصابعه، أجفله الألم عندما جلس وبدأ بتلمّس قدمه المرفوعة على كرسي منخفض، فبدأ بصبِّ اللعنات بصوت خافت، كان لا يزال يلقي بالشتائم حين وصل الكاهن تيرنبول.

غالباً ما زار الرجلان بعضهما من دون مواعيد مسبقة، لكن في هذا اليوم بالذات كان ماكدونالد قد أرسل في طلب الكاهن تيرنبول لأنّه أراد شخصاً متعاطفاً يستمع إليه ويساعده في المهمة التي تواجهه.

"لم يتبقَّ إلا ستون ميلاً لننتهي، إلا أننا نواجه هذا الأمر."

أومأ ماكدونالد باتّجاه المدى المفتوح وهو ينظر إلى الغرب حيث كانت الشمس تهبط، بدا من بعيد ظلُّ صبّارة منفردة يرفع جذعُها تحيَّةً بثلاثة أصابع.

"كما يقول المحليون." أجاب الكاهن تيرنبول بهدوء وهو ينظر مثله إلى الشمس الغاربة، "الأمر يشابه تناول البقرة بأكملها، ثم العجز عن الاستمرار عند الوصول إلى الذيل."

"يا صديقي!" قال ماكدونالد بانزعاج طفيف، "بما أنك تفهم هؤلاء الأشخاص إلى هذه الدرجة فلِمَ لا تطلب منهم أن يَدَعوا السكّة وشأنها؟"

ابتسم الكاهن تيرنبول "وهم سيطلبون منك ترك أرضهم وشأنها..."

"من الواضح تماماً إلى أيّ جانب تنحاز." قال ماكدونالد متّهماً وهو ينهض، إحدى رجليه لا تزال في حذائها، بينما الأخرى حافية، ما جعله يعرج قليلاً.

"يسرني أنّك تعرف." جابهه الكاهن تيرنبول بحماسة، الأمر الذي أخطأه ماكدونالد على أنه سخرية "وأفترض..." تابع تيرنبول بالنبرة ذاتها، "بما أنّك تعتقد أنّ هذه هي حرب روحانية فلا بدَّ من مواجهتها بترسانتنا الروحانية الكاملة."

"لا داعي للسخرية." استحضر ماكدونالد من جديد أحداث الساحل، حين جرَّ الكاهن تيرنبول إلى مقام الكايا المقدّس حيث قدَّم الكبشين "لقد فرغت من الاسترضاء، هذه المرة أنا أخطّط لسحق هؤلاء الهمجيّين إلى فتات."

"وكيف تخطّط لفعل ذلك يا صديقي الطيب؟"

"أليس هذا السبب الذي استدعيتك من أجله؟"

"أنت هو الجندي، أنا واعظ، لا أستطيع تقديم شيء عدا صلواتي..."

في تلك اللحظة عاد الخادم مع أكواب طازجة من الشاي، القرفة لماكدونالد و***tangawizi***[123] للكاهن تيرنبول، لقد قدّم الشاي للكاهن تيرنبول مرات عديدة جعلته يتذكّر شايه المفضل، ابتسم الخادم برقة "***Hujambo***[124] أيّها الكاهن، ***Karibu chai***[125]."

---

123 Tangawizi: الزنجبيل (السواحيلية).

124 Hujambo: مرحباً (السواحيلية).

125 Karibu chai: تفضّل الشاي (السواحيلية).

ردَّ الكاهن التحية وسأل الخادم عن أحوال عائلته مخاطباً الرجل باسمه، فردَّ حميدي قائلاً إنّه بخير، لكنه بقي ثابتاً في مكانه، احدودب كتفه الأيسر بطريقة خرقاء باتّجاه الكاهن.

كان ماكدونالد على وشك صرف الخادم عندما تكلّم مباشرة إلى الكاهن. "البقرة- البقرة أنجبت عجلاً." قال حميدي.

"تلك أخبار رائعة." أجاب تيرنبول بحماسة "هل تدرُّ ما يكفي من الحليب؟"

"ليس فعلاً، بالكاد كمية كافية لطفلنا والعجل."

"لا تقل لي إنّك نلت بركة مضاعفة، طفلاً وعجلاً!"

"نعم أيّها الكاهن، لقد أُنعم علينا مرتين."

"هل تقول إنَّ الأبقار هنا تنجب أطفالاً عوضاً عن العجول؟" قال ماكدونالد باحتقار.

بدأ حميدي يشرح كيف أنجبت زوجته في الأسبوع نفسه الذي وُلد فيه العجل، لكنَّ الكاهن تيرنبول قاطعه: "لا تأبه به." قال وهو يلوّح بيده نحو ماكدونالد.

"هل أصبح من الممكن فطم العجل؟" سأل حميدي، "ليس بعد." أجاب الكاهن، لكنك تستطيع توفير الكثير من الحليب إن حلبت البقرة عوضاً عن أن تترك العجل يرضع من ثديها مباشرة، امزج الحليب بالماء الدافئ."

"أشكرك على النصيحة، وعلى النطاف الجيدة." تابع حميدي، "العجل قوي جداً."

"ذلك من دواعي سروري يا حميدي، هل سمّيتم العجل؟"

في تلك اللحظة هبَّ ماكدونالد واقفاً على قدميه وهو يجفل من الألم

قبل أن يعرج إلى حافة الفناء، نظر مشرفاً على منحدرات لايكيبيا التي كانت تفصل سكّة الحديد عن وجهتها الأخيرة، تكاثفت الغيوم المحمّلة بالأمطار في الأفق، راقب السماء باهتمام شديد وهي تحتوي الغيوم من مختلف التدرجات اللونية، بدت الغيوم كأنها جزائر في المحيط تمتلك ثباتاً يعلم أنّه لن ينجو من رياح الليل.

"أرى أنّك تُبدي إعجابك بلوحة الربّ."

قال الكاهن تيرنبول مجفلاً ماكدونالد عن أحلام يقظته.

"أليست رائعة؟"

"عجائب قدرة الربّ."

عرج ماكدونالد عائداً إلى كرسيه: "هل انتهيت من منح نصائح عن حلب الحيوانات؟" قال متذمراً، "أم كان ذلك عن التبرع بالنطاف؟ لِمَ لا تعلّم هؤلاء الناس كيف يحلبون الفيل والكركدن؟ هناك الكثير منها في الأرجاء."

جلس الكاهن تيرنبول إلى جواره، لكنّه بقي صامتاً، ثم قال بعد لحظة: "هذا قطيعي وأنا راعيه."

"دعك من هذا." ردَّ ماكدونالد بنفاد صبر، "لديَّ أمور أكثر إلحاحاً من مناقشة أحوال قطيعك وطرقك في رعايته، أريد تفجير هؤلاء الهمج إلى العدم." أشار ماكدونالد نحو المنحدرات.

"وتحتاج إلى الصلوات لتتمكّن من فعل ذلك؟"

"أكثر من ذلك، أحتاج إلى اختراق أرضهم، تقييم قوّتهم البشرية ومساحة المكان وتركيبة التضاريس، أشياء من هذا القبيل."

"أَخبرتك، أنا لست رجلاً عسكرياً، لماذا لا تحاول استرضاءهم؟ لقد نجحت هذه الطريقة عند الساحل، بغضّ النظر عن أنّك وضعت إيماني

المسيحي على المحكّ."

"هذا ما تعظ به عن المسيح، لقد بذل حياته من أجل الآخرين."

"أنت بحاجة إلى الصلوات، حقاً."

صمت الرجلان وقد غرق كلٌّ منهما في أفكاره الخاصة، ثم نهض الكاهن تيرنبول، "أظنُّ أنَّ لديَّ فكرة، فكرة جنونية، لكنّك تستطيع صياغتها أفضل."

لم يقل ماكدونالد شيئاً لكنّه نظر إلى الكاهن نظرة يملؤها الشك. حين انتهى تيرنبول من شرح الخطوط العريضة لاقتراحه، قفز ماكدونالد على ساقيه وعلت وجهه ابتسامة عريضة، ثم اندفع نحو الكاهن تيرنبول، ناسياً للحظةٍ أمرَ رجله المتأذية، على الرغم من أنَّ نيّة ماكدونالد كانت حضن الكاهن تيرنبول، إلا أنَّ الأخير فقد توازنه وسقطا معاً، حين نهضا كان الاثنان يضحكان بشدّة وينفضان الغبار عن ملابسهما في الوقت نفسه.

"ليس بهذه السرعة." قال الكاهن تيرنبول محذّراً، "هذا مجرد اقتراح."

"يا صديقي، هذا ضرب من العبقرية." ردّ ماكدونالد. "عبقرية عسكرية صرفة، هل قرأت كلّ ذلك في الكتاب المقدّس؟"

"كل ما أنا عليه، وسوف أكونه، هو بفضل نعمة الربّ، كلماته تحفظني."

"أعتقد أنَّ على جميع الجنود قراءة الكتاب المقدس."

ابتسم الكاهن تيرنبول، "يمكنك قول ذلك، وإن لم تكن فكّرتَ بالأمر بعد، يمكنك البدء بضمّ ذلك الهندي الذي سبّب لك العديد من المتاعب على مدى السنوات، ذلك مكان جيد له."

قضى ماكدونالد اليوم التالي وهو يضع قائمة بأسماء التقنيين الذين سيدرجهم في مهمته، حسب نصيحة الكاهن تيرنبول، لقد ضمّت تلك القائمة جميع من دخلت أسماؤهم إلى دفاتره السوداء على مدى الأعوام الثلاثة

المنصرمة، وتصدّر بابو القائمة.

أما باقي القائمة فقد تضمنت أسماءً مثل كيران، الذي قاد ما سُمي بحركة كاراي، مجموعة من العمّال الذين يحتجّون كلّ يوم اثنين على حصص الطعام الضئيلة عبر القيام بأعمال شغب تتضمن رمي أطباقهم المصنوعة من الصفيح في الهواء، زاعمين أنهم يتبرعون بصفيحها لتكبير أحجام قدور الطبخ حتى يُعدَّ فيها طعام يكفي لإشباعهم، تضمّنت القائمة رسول، الذي قاد مجموعة من التقنيين للاحتجاج على العمل غير المأجور عقب انتهاء ساعات الدوام الرسمي. بعد إتمام الساعات المطلوبة، كان يقود إلى اجتماع جلوس حيث يطوي العمالُ أذرعَهم وأرجَلهم ويصرّحون بامتناعهم عن العمل.

بالطبع وصل إلى القائمة اسم وزير، الذي ساعد على تحرير بعض السُكّان المحليين الذين اعتُقلوا بتهمة تخريب خطوط التلغراف، لم يُعرف دافعه لهذا العمل تماماً، على الرغم من الإمساك به بعد عدة أسابيع مع شقيقة واحد من المتهمين، وهكذا، عرف ماكدونالد أنَّ عليه التعاطي مع الموضوع بحذر شديد، لأنّه كان يتعامل مع رجال خطيرين للغاية، فاستدعى هؤلاء العمال وخاطبهم جميعاً، لقد فكّر في التحدث معهم فردياً، لكنّه أدرك أنَّ ذلك سيستغرق وقتاً لا يملكه، كان يحتاج إلى التخلص من الموضوع في الحال.

"أودّ إعلامكم في البداية عن بالغ سروري لأنّ مشرفيكم قد رشحوكم للحصول على ترقية." بدأ ماكدونالد.

أحدث هذا التصريح نوبة من الضحك بين العمال المجتمعين، وبدا الارتعاش واضحاً في صوت ماكدونالد حين تكلّم من جديد، وشاربه يؤدّي رقصته الخطيرة، "استمعوا، استمعوا، أيّها- أيّها السادة... لقد أخبرتكم بما يعتقده مشرفوكم، لقد طُلب منّي التفكير في الموضوع، وقد وضعت شرطاً

قبل متابعة التفكير في ترقيتكم."

وقف العمال بانتباه شديد، فلم يكن كسب القليل من المال الإضافي ليضرّهم.

"لديَّ اعتقاد بأنَّ على العمال إظهار الكفاءة في مختلف ميادين الحياة، من الجانب الرياضي إلى الجانب الروحاني، لا يكفي أن تكونوا تقنيين بارعين، على المرء التميّز في أمور أخرى كذلك." بحلول هذا الوقت كان قد حاز على انتباه العمّال الكامل، وحتى شاربه الراقص كان قد استقرَّ نوعاً ما.

"المهمة التي أطلبها منكم بسيطة للغاية: أريد منكم المشاركة في استعراض ثقافي، يتركّز بالتحديد على العبادات التقليدية في مجتمعاتكم."

تعالت أصوات الرفض من التقنيين، لكنَّ ماكدونالد تابع حديثه بلا مبالاة: "ثقوا بي، ليس الأمر بهذا التعقيد."

هذه كانت لحظة النجاح أو الفشل، هكذا قال لنفسه، ولأنّه جندي مخضرم، عرف كيف يموّه أهمّ نقطة في الحديث، ويمرّرها كما لو كانت آخر همّه، "أنصتوا أيّها الرجال الطيبون، أنصتوا بانتباه، المهمة التي أوكلها إليكم بسيطة للغاية، لكن دعوني في البدء أشرح دوافعي، كما يدرك بعضٌ منكم، هناك قدر من سوء التفاهم بيننا وبين السُكّان المحليين." كاد يرغب في قصّ لسانه حين نطق كلمة بيننا للدلالة على أنَّ العمال كانوا جماعة واحدة، بينما هو يُقسّمهم في واقع الأمر ضمن حدود الخطوط العرقية، "نريد إفهامهم أنَّ حياتنا لا تقتصر على العمل واللّهو فحسب، هم يعتقدون أننا نلهو فقط بسبب أولئك الذين يعبثون مع فتياتهم، نحن أيضاً نصلّي في الأماكن التي أتينا منها ولدينا ثقافة."

"لم أعد أفهم." قال بابو "ما الذي تريده منّا بالتحديد؟"

"لم أفهم أنا أيضاً." انضمّ رسول.

"ولا أنا." قال تقني آخر.

"أريدكم أن تنظّموا حجّاً إلى منحدرات لايكيبيا." كشف ماكدونالد، وكأنّه كان متعجلاً لإزاحة هذه الكلمات عن صدره.

حلّت لحظة من الصمت، تعالت بعدها أصوات الرجال كلهم في الوقت نفسه.

"استمعوا أيّها الرجال الطيبون." طلب ماكدونالد: "استمعوا..."

حين هدأت الاعتراضات، شرح لهم أكثر: "لا تسيؤوا فهمي، هذا ليس عملاً تبشيرياً، إنه استعراض ثقافي، لرفع الوعي حول موروثاتكم الثقافية والدينية، لا يحتاج أيّ أحد منكم إلى التمتّع بفطنة روحانية أو إبداعية لأداء هذه المهمة، كلّ ما عليكم فعله هو ارتداء ملابس مناسبة للدور، ثم الذهاب إلى منحدرات لايكيبيا."

"ماذا تظنّ؟ أنّنا حمقى؟" سأل بابو قبل أن يتابع بصوت ثابت: "جميعنا نعلم أنَّ إنشاء السكّة معلّق بسبب اعتداءات الماساي، فما هذا الهراء؟"

ابتسم ماكدونالد بتشنج، بينما بدت واحدة من اللطخات الحمراء على وجهه كأنها تتوسّع، تحرّك بانزعاج بسبب ألم قدمه وواجه بابو:

"ما يعجبني فيك هو - هو..." بحث عن الكلمة في ذهنه، "تفكيرك التقدمي، أنت محقّ في السؤال عن سبب فعلنا لهذا الأمر، في البداية، كما قلت لكم، تهدف هذه المهمة إلى تعزيز تفاهم أفضل مع المجتمع، سوف ينظرون إلينا بصورة مختلفة، عبر عرض إيماننا، سيفهمون أننا نحترم إيمانهم وطريقة عيشهم..."

"لكن هل تحترمها فعلاً، أم إنَّ هذا مجرد عرض؟"

"ماذا بعد ذلك يحدث؟" سأل تقني اسمه عمران بإصرار.

"لستُ ساحراً!" ردَّ ماكدونالد بقوة "وهنا يتوقف عملي، لا يمكن لي التنبّؤ بما سيحلّ بكلّ واحد منكم، المهم هو تحقيق هدفنا، أي اختراق أرض الماساي على صورة حجيج."

"هل يفترض بنا إقناعهم بتحويل ديانتهم؟" سأل تقنيّ اسمه أسد وقد كان رجلاً قصيراً ملتحياً يضع عمامة على رأسه.

"لا حاجة لجعل أحدهم يعتنق أيّ شيء." قال ماكدونالد وهو يتصنّع ضحكة قصيرة "ما نحتاجه هو المعلومات."

"معلومات؟" ردّد التقنيون معاً.

"نعم، نحتاج إلى المعلومات، نسيت إخباركم أنَّ عليكم ملاحظة أكبر قدر ممكن من الأمور، أحصوا عدد الأشخاص الذين تصادفونهم، المسافات الواقعة بين قرية وأخرى، وأشياء من هذا القبيل... سوف تستخدمون أدوات مسح خاصة مموهة على صورة أغراض خاصة بالعبادة."

أثار هذا الكشف موجة أخرى من الاحتجاجات، قال تقني يسمى وارا إنّ هذه تبدو مهمة جمع معلومات استخباراتية، وهذا ليس جزءاً من عملهم، جادل بابو بأنّه على الرغم من كون الاثني عشر تقنياً هنوداً إلّا أنّهم يؤمنون بديانات مختلفة، ويمكن تفسير فعل خداع مثل هذا على أنه وثنية، طلب رسول تأميناً -مبلغاً يُدفع إلى عوائلهم في حال وفاتهم- قبل المضي في الأمر، وتساءل تقني آخر اسمه كاماني عن السبب الذي يمنع الكاهن تيرنبول الذي كان خبيراً في العمل التبشيري من الانضمام إلى هذه البعثة، بدأ الذعر بالتصاعد داخل ماكدونالد من جديد، تنفّس بصعوبة بينما حاول المحافظة على هدوئه، أخذ بعض الأنفاس العميقة ثم شرح أنَّ المعلومات التي سوف

يجمعونها كانت فقط لتسهيل أيّ بعثة مستقبلية.

"انتبهوا إلى أيّ شيء تجدونه غريباً." قال، "مثل مجموعة من الأشخاص متكوّمين معاً من دون أن يفعلوا شيئاً."

استمرّ العمال في طرح مخاوفهم المتعلقة بالإصابة بالأذى أثناء البعثة، فقد تعرّضت عدّة مقصورات للهجوم أثناء مسيرها في المنحدرات.

لدهشة ماكدونالد، كان بابو هو من تكلّم لإنقاذه، راجياً زملاءه التقنيين أن يخوضوا التحدّي من دون المزيد من التأخير: "لقد واجهنا الحيوانات البريّة بجميع أنواعها في السنوات القليلة الماضية، فلماذا نخشى بشراً مثلنا؟"

قوبلت حجته بالصمت، إذ لم يرغب أحد من التقنيين أن يُوصَم بالجُبن، ثم جادل رسول أنَّ المشكلة لم تكن ظهورهم بمظهر الجبناء، بل هي استغلال المشغّلين للعمّال، تدخّل ماكدونالد عند هذه اللحظة مؤكّداً حصولهم على تعويضات مجزية عند عودتهم من البعثة.

"ماذا يحدث لأولئك هم لا يعودون؟" ألحّ رسول.

وأفرز هذا السؤال المزيد من التذمّر، مذكّراً ماكدونالد بالعصيان الذي حدث عند حصن يسوع قبل عدّة سنوات، سرت رعشة باردة أسفل عموده الفقري، عليه أن يتصرّف بسرعة ويُخمد الفتنة في مهدها، تنحنح واعترف أنّه كان يفكر بتقديم نوع من التأمينات لهم، لكنّه ينتظر تزويده بميزانية مخصّصة من لندن.

قال رسول إنّه سيتعين على التقنيين الانتظار حتى تصبح الميزانية متاحة لتأمين وضعهم.

"أرجو أن تتفهّموا الأمر."

ردَّ ماكدونالد بحنق واضح.

"ولماذا لم تختر سوى الهنود لأداء هذه المهمة؟" سأل تقني اسمه رحيم.

شرح ماكدونالد بهدوء من جديد أنَّ السكان المحليين معتادون على الكاهن تيرنبول، ما يحتاجون التعرّف عليه أكثر هو الهنود.

"**لا مال يوجد، لا عمل يوجد.**" أصرَّ رسول.

وعد ماكدونالد بصياغة عقود تضمن لكلّ واحد منهم عشرين روبية -ما يقارب أجور شهر كامل- لأقرب أقرباء العامل.

"فلتجعلها مئتين." صرخ رسول، "**لا مال يوجد، لا عمل يوجد.**"

لوّح ماكدونالد مهدئاً الجميع: "لا ترفعوا أصواتكم، سوف أجعلها خمسين بشرط أن تعودوا لي بمعلومات مفيدة." مشبعاً بالروح الإيجابية التي أظهرها بابو، قرّر ماكدونالد ترشيحه ليقود المهمة، "أمر أخير." طلب منهم، "أريد منكم التعامل مع هذا الأمر بسريّة مطلقة."

في الليلة السابقة لموعد المهمة، حلم بابو أنّه تحوّل إلى طير دجاج حبشي، كان جلده مكسوّاً بريش أسود كثيف، لكنَّ عنقه كان عارياً لأنَّ محاربي الماساي استعملوا الريش الذي عليه ليصنعوا حجراً لشحذ السكاكين، واستُبدل تاجٌ برأسه، كان بابو الدجاجة الحبشية يتناول العلف حين واتته فكرة مفاجئة: هل هو ذكر أم أنثى؟ نظر بين ساقيه، لكنّه لم يرَ أيّ أعضاء تناسلية، مطَّ عنقه ليتفقَّد نفسه من الخلف لكنّه لم يجد شيئاً هناك كذلك.

زقزق برعب خشية أن يكون محاربو الماساي قد بتروا أعضاءه الدجاجيّة، اجتذبت صرخته المتألمة دجاجات حبشية أخرى من الغابة، أتت بالعشرات، لكنَّ بابو وجد أنَّ صرخاتها تصدر بأصوات جشّة وتختلف عن صرخته، وأدرك سريعاً أنَّ الدجاجات المختلفة من بقاع شتى في الغابة

تتحدث لغات مختلفة، كان يرى الدجاجات الأخرى تزعق بحماسة، وكأنّ هناك شيئاً غريباً فيه، كانوا يهمسون في آذان بعضهم، ثم يمدّون أعناقهم ليشيروا إليه، قرّر بابو الدجاجة الحبشية أن يومئ للآخرين مستفسراً، فوجّه منقاره نحو ذيله، ثم استلقى على الرمال ورفع مؤخّرته وبدأ بحفّها.

استثار هذا التصرف زعيقاً متكرراً من الدجاجات الأخرى، بينما بصق بعضها بتقزّز واضح، أدرك بابو أنها تظنّ بالتأكيد أنّه يريد التغوّط، فأكّد لهم بلغة الدجاج التي اكتسبها أنه -***Ti kumea ngumiaga, ni itina-ngumemagia!***- لم يكن يتغوّط بل يمطّ عضلاته الخلفية فحسب.

بدا هذا التفسير كأنّه يستثير المزيد من غضب الدجاج، رقص بعضها حوله ودفع بمخالبه أولئك الذين يقفون في الطريق، لم يفهم سبب هذا الهياج إلى أن تقدّم نحوه طيرُ دجاج حبشي عجوز وهمس له بلغة قريبة من تلك التي اكتسبها: "إنهم غاضبون منك لأنك تعرض جسمك بصورة غير لائقة، بعضهم يريد انتزاع رأسك لأخذ التاج الذهبي، من الأفضل أن تفرَّ وتنجو بحياتك."

فكّر بابو أن يعلن براءته ويشرح لهم أنَّ الأمر برمّته كان مجرّد سوء تفاهم، وأنّه أراد ببساطة معرفة جنسه، ولم تكن صرخاته بنيّة إهانتهم، لكنّه عوضاً عن ذلك استدار نحو طير الدجاج الهرم وشكره، ثم قفز وغاص في الهواء، وعاد إلى الأسفل متحطّماً، تكسّر عدد من أرياشه، حاول مجدداً لكنّه توقف، إذ لحق به طير دجاج عدائي وانتزع المزيد من الريش من حول عنقه، انتشر الألم عبر جسمه صاعقاً وأرعبته رؤية دمائه الدجاجية، كانت تبدو مثل الدماء البشرية إلا أنَّ رائحتها اجتذبت المزيد من الدجاج على أثره.

قفز محاولاً النجاة بحياته، بينما راودته فكرة جديدة، نقّب الأرض

ورى كلّ ما يستطيع من التراب خلفه، سمع زعيق الدجاج الذي أعماه التراب، كرّر الحيلة بعد كلّ قفزة فتضاءل عدد الدجاج الذي يطارده.

كان يعرف أنّه لن يطول به الوقت حتى ينهار من الإرهاق، فقرّر تسلّق شجرة خوخ إفريقي قريبة والاختباء فوقها، إذ إنَّ أوراقها الكثيفة ستعمل على إخفائه كما ينبغي، استعمل منقاره ليتمسّك بأحد الأغصان وأرجله القصيرة ليرفع نفسه، في منتصف الطريق، توقّف ليلتقط أنفاسه ويبحث عن بعض الماء ليشربه، فوجد القليل متجمعاً على ورقة كبيرة الحجم تحتجز داخلها عدداً من ديدان الأرض والذباب، كيف له أن يصفّي الماء ويتخلّص من الشوائب؟ كان على وشك إمالة الورقة والشرب من زاويتها حين رأى انعكاس صورته في الماء، لقد كان الآن دجاجة حبشية وهذه الديدان والذباب ستصنع وجبة دجاجية ممتازة.

.وجد أنَّ خنق الذبابات كان سهلاً، يلتقف واحدة في كلّ مرة ويحبس أنفاسه للحظة أو لحظتين فتضعف الذبابة ويسهل عليه ابتلاعها، أما الديدان فقد كانت تسبب بعض المشاكل، فهي تؤدّي رقصاتها وتجدل نفسها فلا يعود قادراً على تمييز رؤوسها من أذيالها، لكنّه وجد الحلّ بإمساكها رأساً على عقب، وسحب كلّ دودة منفردةً، ثم وضعها تحت مخلبه، كانت الديدان تذوي سريعاً بعيداً عن رطوبة الماء، وهكذا كان يبتلعها بسهولة، شرِب الماء البارد بعد وجبته ليساعده على ابتلاعها، "ليست وجبتي الدجاجية الأولى بهذا السوء." فكّر بصوت مرتفع.

"أستطيع العيش بهذه الطريقة."

ومع هذه الملاحظة السعيدة غاب بابو الدجاجة الحبشية في نوم عميق للغاية، لم يعرف كم نام من الوقت حين انزلق وبدأ بالسقوط إلى

الأرض، كان يصرخ بأعلى صوته قبل أن يدرك أنَّ صرخاته لن تفعل شيئاً سوى اجتذاب الدجاجات ذاتها التي طردته من بينها، لأنّه كشف جسمه بشكل غير لائق، تذكّر في اللحظات الأخيرة أن يفرد جناحيه لينقذ نفسه من السقوط، أوقفت الأجنحة سقوطه بطريقة سحريّة وعكست اتّجاه حركته، أصبح الآن معلّقاً في الهواء، يطير أعلى فأعلى.

بعد وقت قصير، كان يتجه نحو حصن يسوع، بالكاد استطاع تمييزه من الأعلى، الشيء الوحيد الذي عرفه هو العلم البريطاني البارز بلونيه الأحمر والأزرق، كان هناك حشد كبير من الرجال، أطلق العديدُ منهم النار نحوه، لكنه استطاع الطيران أعلى، رمى الحمّالون الأفارقة الحجارة عليه بحماس، بعضهم رموه بالأسهم وهم يصرخون ***Kanga wewe! Ndege mweupe tutakukaanga!*** أي إنّهم سيصنعون **يخنة شهية من الطائر الأبيض.**

قذف التقنيون بيض البشرة عتادهم عليه كذلك بحدة مساوية "الطائر الأسود المشؤوم." أخذوا يردّدون، أُطلقت بعض الأعيرة النارية التي جعلت بابو الدجاجة الحبشية يلتفّ في الهواء، بدأ الحمّالون الأفارقة بالضحك، كانوا يعتقدون أنَّ ***kanga*** لا يستأهل وابل الرصاص هذا.

منح هذا الجدال بابو الدجاجة الحبشية ما يكفي من الوقت للطيران بعيداً، فتغيّر في الوقت نفسه مثار الجدل بين العمال فجأة: هل كان ***kanga***[126] طيراً أسود أم أبيض؟ ومن يمتلك الحقّ في قتله وأكله على أيّ حال؟

انتفض بابو من كابوسه فزعاً، كان عطشاً ويتصبب عرقاً، وتوجهت أفكاره مباشرة نحو جِلده، أخذ يتفحّص ذراعيه بعناية، باحثاً عن الأجنحة التي كانت له في الحلم، ثم لمس فمَه ليفتّش عن المنقار، ولمس أعضاءه

---

126 Kanga: الدجاجة الحبشية (السواحيلية).

التناسلية، كلّ شيء كان في مكانه الصحيح، لم يتطوّر إلى خنثى، غمره الارتياح وكان على وشك العودة إلى النوم، لكنّه تذكّر أنَّ رحلة حجّهم ستكون في اليوم التالي، كان قلقاً بسبب الحلم الذي فاجأته حيويّته، بالكاد كان قادراً على تذكّر أيّ حلم أتاه بهذا الوضوح مؤخراً.

تحولت أفكاره سريعاً إلى زوجته فاطمة، المهجورة في مومباسا منذ زمن طويل، وبّخ بابو نفسه لتركها كلّ هذا الوقت، ماذا سيحدث إن مات فجأة في مهمة المنحدرات؟ على الرغم من أنَّ الرحلة سُميت حجاً إلّا أنّ بابو كان يعرف أنها مهمة تجسّس، والسبب الذي جعل ماكدونالد يجمع الرجال الذين اختارهم -وجميعهم مثيرو شغب معروفون- هو أنَّ موتهم سيخلّصه من متاعبهم، هل سيلتزم ماكدونالد بوعده ويوصل إلى فاطمة مبلغ التأمين المتواضع؟ هل سيحمل أحد زملائه من العمال ثيابه المدماة دليلاً على موته؟ كان يعرف عائلات عانت هذا القدر نفسه، هكذا كانت الحال مع مانتشورا راسم المخططات الذي افترسه أسد.

جمع رفاقه العمال أشلاء قميصه ***kitenge***[127] وأرسلوها إلى عائلة مانتشورا مع زميل آخر ذاهب إلى الهند، بعد انقضاء عامين على موت الرجل.

ارتعش بابو من فكرة تسليم أشلائه -أو أيّ دلالة عن حياته- إلى فاطمة لتعني مغادرته هذا العالم، كان يفضّل طريقة شخصية أكثر، فالموت والحزن في نهاية الأمر شؤون خاصة، حتى وإن كان المرء قد عانى موتاً علنياً وهو يؤدّي تكليفاً مريباً من رئيسه في العمل، هندي في خدمة المملكة، في قلب إفريقيا.

عرف بابو أنَّ عليه فعل شيء ما، لكنّه لم يستطع تحديده، أراد مواكبة

---

127 Kitenge: المزقة (السواحيلية).

مخاوفه من دون أن يبدو جباناً، كما كانت هناك مسألة الحفاظ على أمر مهمّتهم طيَّ الكتمان، ربما يستطيع إخبار صديقٍ ما وإيداعه أمنيته الأخيرة، قلّب الأسماء في ذهنه باحثاً عن زملاء العمل الذين يعتبرهم أصدقاءه، فأدرك مذعوراً أنَّ قلّة قليلة منهم ينطبق عليها هذا الوصف، معظمهم كانوا زملاء وليسوا أصدقاء، كان هناك عدد قليل من الأصدقاء وهم لم ينجوا من طاحونة سكّة الحديد، بعض هذه الصداقات مزّقها النقل إلى محطة أخرى، أو سوء فهم متعلّق بالاختلافات الثقافية، لأنه على الرغم من أنَّ الأعراق المختلفة تناولت الطعام ونامت منفصلة عن بعضها، إلا أنَّ العمّال كانوا يتخالطون اجتماعياً خلال نهايات الأسبوع، نظّم بعضهم ألعاباً عبر تشكيل فرق من مختلف الأعراق، وكانت لعبة الكريكيت أكثرها شعبية، بعض العمال الآخرين اختاروا رياضات أكثر خطورة، وأشهرهم هو أبو نواسي، رجل قصير وضئيل، يمتلك أنفاً على شكل حذاء، أمسك أبو نواسي وحده -من دون مساعدة- بأنثى جاموس وساقها بحبل إلى المخيم، لم يعرف أحد كيف استطاع إخضاعها، لكنها بدأت باستعادة قوّتها حين عاد أبو نواسي بدلْوٍ وزيت الحلب، كان مقتنعاً بأنَّ أنثى الجاموس هذه تنتمي إلى عائلة الأبقار وبهذا يمكن إقناعها بإدرار بعض الحليب، لم يكد أبو نواسي يلمس ضرع أنثى الجاموس حتى عاجلته برفسة هائلة القوة بقائمتيها الخلفيتين فأرسلته -مع دلْوِه الفارغ- محلّقاً في الهواء، تفلّتت أنثى الحيوان هاربة وعادت إلى البريّة، بينما عاش أبو نواسي بوصمة العار أنّه الرجل الأحمق الذي حاول حلبِ أنثى الجاموس، زعم بعضهم أنَّ أنفه قد تشوّه أكثر بسبب الرفسة، بينما قال آخرون إنه فقد بضعة إنشات من طوله المتواضع أساساً بعد أن انضغطت عظامه بسبب السقطة القاسية.

فكّر بابو أنّ أفضل رجل يفضي إليه الأمر هو كريم، لكن كريم نُقل إلى محطة أخرى، خياره التالي المعقول كان مساعده أحمد، كان قلق بابو الأساسي ينبع من ميل أحمد إلى الثرثرة، واعتبار كلّ شيء نوعاً من المزاح، أمّا قلقه الثاني فهو أنّ أحمد لم يكن متحفّظاً بطبيعته، ففي طقوس اغتسالهم في نهاية الأسبوع، لم يكن أحمد يشعر بأي نوع من تأنيب الضمير حين ينزع ملابسه بالكامل ويغسلها ثم يستلقي عارياً تحت الشمس بانتظار جفافها، إن علّق أيّ أحد على عضوه الذكري يجيبه بابتهاج: **"ما ترى أنت هو ما تحصل عليه، وربما أكثر بكثير..."**

لكنّ بابو خَلُصَ إلى أنّه بغضّ النظر عن كلّ هذه الأمور، فمن الأفضل أن يترك أمنيته الأخيرة في عهدة شخص ثرثار من أن يأخذها معه إلى القبر.

"رأيتُ حلماً مزعجاً للغاية." قال بابو برفق لأحمد حين التقيا عند الإفطار.

"حلمت بأنّي تحوّلت إلى دجاجة حبشية، وكنت أطير فوق حصن يسوع."

انفجر أحمد ضاحكاً "هيا يا معلمي! لا تجعلني أضحك، لقد صار أنت ذلك المتط...رر؟"

"المتطيّر؟"

"نعم ذاك المتط.....رر."

"ليس حقاً." قال بابو بجدية "أشعر بالفضول حيال معناه."

"يا معلمي، لا تكن بهذه الجديّة، إنه مجرد حلم، حلم، حلم، حلم..."

"نعم، لقد كان مجرد حلم، لكن ألا تخبرنا الأحلام شيئاً عن حيواتنا؟"

"ماذا تعتقد حلم أنت يخبرك عن أنت؟"

"لا أعرف، أتمنّى لو عرفت." بعد لحظة تابع بابو قائلاً: "بدا الأمر كما لو أنني مجبر على اختيار انتمائي، إن كنت أسود أم أبيض، وأنا لست أياً منهما... كما أنَّ هناك مسألة جنسي، أنا رجل، لكنَّ ذلك لم يكن واضحاً في الحلم."

"استرخ أنت معلمي، استرخ، لقد كان مجرد حلم، لكن أخبرني: أنت يشكّ برجولة أنت، لا؟"

"اسمع، أريد أن أطلب منك معروفاً، إن حصل لي أيّ شيء في هذه المهمة إلى المنحدرات، أريدك أن تسافر إلى مومباسا وتنقل الأخبار إلى زوجتي فاطمة بالتدريج وبكل هدوء."

"انتظر أنت، انتظر، يا معلمي ***bhai***." قاطعه أحمد: "هل أنت تودع أنا أمنية أنت أخيرة أم ماذا؟"

"أخبرك بما أريده فحسب."

"طلبات أنت أوامر أنا يا معلمي، لكنك لا تتوقع أنت يموت..."

"قد يقرّر محاربو الماساي قتلنا في اللحظة التي يروننا فيها."

"لماذا يقتلون أنتم؟"

"لا تهتم لهذا الأمر." رفض الإجابة عن سؤاله، وقد أدرك أنّه أفصح عن معلومات أكثر من اللازم حول رحلته إلى المنحدرات، "أفهم ما تقوله يا صديقي، لكنّي لا أدرك السبب الذي جعلني أكون في حصن يسوع في الحلم، تعيش فاطمة بالقرب منه ولم أرها منذ زمن طويل، و..." تردّد بابو، "أنت تعلمِ مشكلة ساقَيها، هي لا تستطيع السير."

"حسناً يا معلمي ***bhai***، طلبات أنت أوامر أنا، إن صعقت بالبرق أو أصبت بسهم مسموم، سأذهب رحلة لرؤية فاطمة أنت وأخبرها أمنية أنت أخيرة..."

"ليست أمنيتي الأخيرة، مجرد رغبة."

"لا تقلق يا معلمي، أمنيات أنت سواء كنت ميتاً أم حياً هي أوامر أنا."

Gutire utathekagwo[128]، حتى أكثر الأمور خطراً قد تكون مثاراً للمرح، وهكذا كانت الحال في الصباح حين اجتمعت دستة العمال للانطلاق في رحلتهم المحفوفة بالمخاطر -والتي خشي بعضهم أنها ستكون رحلتهم الأخيرة وهم على قيد الحياة- ووجدوا أنفسهم جماعة كوميدية متنافرة الألوان، أولاً في ما يتعلّق بملبسهم وتحت ضغط إصرار ماكدونالد، فقد أُمر العمّال بارتداء ملابس ترتبط بديانات مجتمعاتهم، وبما أنَّ أحداً منهم لم يكن متديناً حقاً فإنَّ طلبهم للملابس شعائرية قوبل بالكثير من الشكّ، فمن الطبيعي أن يتعامل القادة الدينيون الذين طُلب منهم إعارة ملابسهم بحذر شديد مع أولئك الذين نادراً ما يرتادون معابدهم، وعوضاً عن ذلك اختار معظمهم التبرع بملابس ضاقت عليهم، أو صارت ممزّقة أكثر من أن تستر عريهم، وزاد الأمر سوءاً أنَّ أحداً من العمال لم يكن ذا مقاس يماثل مقاس المتبرعين؛ انحشر بعضهم داخل الملابس، بينما ارتدى آخرون ملابس فضفاضة للغاية، فبدوا كأنهم مجموعة من الدمى المتحركة، ولإكمال هذا المشهد السخيف، وبناءً على طلب ماكدونالد من جديد، فقد حملوا جميعاً آلات موسيقية لم يعرف معظمهم العزف عليها.

"عليكم أن تعزفوا شيئاً للسُكّان المحليين، هذا هو الأمر الوحيد الذي سيفهمونه." أصرَّ ماكدونالد، حين احتجَّ العمال أنَّ قلّةً منهم يمتلكون أيَّ موهبة موسيقية، أجابهم ماكدونالد بسلاسة: "بحقّ السماء، أنتم تعزفون للسُكّان المحليين، وليس لملكة إنكلترا، ليس لديهم أدنى فكرة عمّا يجب

---

128 Gutire utathekagwo: الشعور الغريزي (السواحيلية).

أن يتوقعوه بأيّ حال."

وهكذا فقد عزفوا، أو حاولوا العزف، الأمر الذي استقطب العمال الآخرين على الفور، تخيّلوا دستة من الرجال في ملابس غير مناسبة القياس، وجوههم شاحبة من الخوف ومن ريبة الخوض نحو مكان يشكّون أنهم لن يعودوا منه، أيديهم تقبض بصورة خرقاء على آلات موسيقية لم يرها معظمهم أو يلمسها في حياته، أعينهم تشعُّ بالدهشة لهذه الأوركسترا الفيلهارمونية التي استطاعوا تكوينها بطريقة ما. عند رؤية الحجيج ضحك العمال مطوّلاً وبشدّة قبل أن ينضمّوا إلى الفرقة، متجاهلين أولئك الذين حاولوا طردهم، وتطلّب الأمر تدخّل ماكدونالد لجعل الرجال الآخرين يعودون إلى العمل ويتركوا الموكب يبدأ، وهو الأمر الذي أثار المزيد من الفضول، ظنَّ بعض العمال أنَّ هذه طريقة جديدة ابتدعها ماكدونالد للعقاب، وتساءلوا بصمت عن السبب الذي جعله يتأخّر في التفكير بها حتى الآن.

قاد بابو الزمرة، كان يرتدي ملابس راهب **سادهو**[129] ويحمل سبحة خاصة ذات ألف خرزة، استغرق في العدّ، كلّ خرزة عاشرة كانت أكبر حجماً وتمثّل ألف خطوة، ما يعني أنَّ أصابعه كانت تسير بالتزامن مع الحركات الرشيقة لرجليه اللتين تنتعلان زوجاً من الصنادل، بينما تتراقص ملابسه الطويلة الفضفاضة مع الريح، كانت مهمة بابو هي التأكّد من تسجيل المسافات الدقيقة التي يقطعونها، موّهت التجهيزات الخاصة لتسجيل الارتفاع على هيئة ساعات يد يرتديها تقنيّون آخرون، حدّق بابو إلى الأمام بنظرةٍ متحجّرة، وهو يتصارع مع فكرة تدور في ذهنه كالزوبعة منذ إعلان ماكدونالد أنّه سوف يقود المهمة التجسسية، تجاهل تذمّر العمال الآخرين

---

129 سادهو: رجل دين.

الذين كانوا يشتكون أنَّ ملابسهم تعرقل مسيرهم، وحثّهم على متابعة السير لأنَّ تلك هي الطريقة الوحيدة التي تمنحهم فرصة عبور المنحدرات والعودة منها قبل حلول الليل، بعد عدّة دقائق من اختفاء مخيمهم عن الأنظار وبروز منحدرات لايكيبيا أمامهم، أمر بابو كتيبته بالتوقف فجأة، هبط إلى الأرض واستلقى مادّاً ذراعيه وساقيه على وسعهما وهو يحاول التقاط أنفاسه، قرفص بعض العمال، بينما استلقى آخرون ليلينوا أطرافهم.

بعد عدّة دقائق، نهض بابو وألقى بنظرة على المجموعة، "أيّها الرفاق، لقد وصلنا إلى نهاية رحلتنا..." اجتاحت الحشد موجة من التساؤلات، لم يكن العمّال واثقين ممّا يعنيه، لكنَّ الارتياح علا وجوههم لأنهم لن يسيروا إلى المنحدرات.

"جميعنا نعرف أننا قد خُدعنا." أعلن بابو، مثيراً زوبعة من الإيماءات والهمهمات المؤيّدة، "رجلنا المجنون، ماكدونالد، يريدنا موتى، لقد اختار جميع مثيري الشغب ودفعهم نحو هذه الحفرة حيث يخاطرون بموتهم الفوري..." تزايدت الردود المتحمسة، "لقد سمعتم جميعاً ما قاله، رجلنا المجنون، لقد أغرانا بترقيات، وحين صرنا مهتمين بالموضوع تحدث عن الحج لعرض أدياننا، والآن تغيّرت النغمة لتصبح تجسّساً، وهو يعتقد أننا أطفال غير قادرين على سبر أكاذيبه..." وافق العمال بالإجمال.

"هل يمكنكم تصوّر ذلك؟" قال رسول متعجباً.

"لكننا لن نمنحه بهجة النجاح في مأربه." تابع بابو، فردَّ عليه العُمّال المبتهجون بالمزيد من صرخات التهليل، رفع بابو يديه لتهدئتهم: "فلنبق هادئين؛ لئلا ننذر عدونا حيال أفكارنا عنه، خطتنا هي: لن نتجاوز هذه النقطة، سوف نلتزم مكاننا ونخطّط لعودتنا، يعتقد رجلنا المجنون أنه داهية

عسكرية، لكنّه مخطئ، سوف نلقّنه درساً من كتاب لم يقرأه في المدرسة."

"قوة الرفاق." صرخ رسول، "لنجعل ذلك التافه يبلل سرواله."

"لنلقّنه درساً يعجز عن نسيانه لوقت طويل." قال وزير.

غمامة من الغبار، عمود من الضوء، ضربات على الأرض، جرجرة أقدام فوق التراب، الضوء المنحسر يلتمع، ثم... أشباح بيضاء، رفع ماكدونالد منظاره ومسح عينيه، غير قادر على تصديق ما يراه، كان قد قضى اليوم بأكمله يحدّق عبر منظاره باتّجاه المنحدرات، ولم يشاهد أيّ نوع من المشاكل، والآن انفرج نور الشمس الغاربة والغبار عن هذه الأشباح، لم يستطع تمييز ما إذا كانت بشراً أو وحوشاً.

مع اقتراب الشخوص البائسة، أدرك أنَّ الأشباح البيضاء كانت مزق ملابس، لكنه لم يكن قادراً بعد على معرفة إن كانت الأشكال القادمة من بعيد لها حوافر حيوانية أم أقدام بشرية، مع كلّ خطوة تقدّمها هؤلاء الوحوش أو البشر كانت الرؤية تزداد وضوحاً، نعم، لقد كانوا رجالاً، لكن لماذا هم بهذه الضخامة؟ مع اقترابهم لاحظ أنهم محتشدون في ثلاث مجموعات، كلّ مجموعة تتساعد في رفع حمولة ما.

مع وصول العمال إلى المخيّم، كان الظلام قد حلّ، رفع ماكدونالد منظاره وأسرع لملاقاتهم غير قادر على احتواء فضوله، أوصل العمالُ حمولاتهم الحسّاسة، وبدأ بعضهم بالعويل بصورة هستيريّة، بينما مزّق الآخرون ملابسهم الفضفاضة وأخذوا يجرون في دوائر مثل الكلاب المجنونة، تطلّب الأمر بعض الوقت ليستطيع ماكدونالد تهدئة الجميع ليخبروه بما حدث، بدأ الجميع بالتكلم في الوقت نفسه، بينما تنهّد الرجال الثلاثة المصابون متألمين، تفلّت رسول الذي ادّعى أنَّ رجله قد كسرت بالنحيب كلّما لمسه

أحدهم، وكان أسد يعاني من ضربة مقلاع في ساقه اليمنى، أما وزير فقد ادّعى أنّه أصيب في ظهره.

لم يقدّم أيٌّ منهم تفاصيل حول حوادثهم، سوى قولهم إنّهم تعرّضوا لكمين، شرح بابو أنّهم بالكاد استطاعوا النجاة بحياتهم من قبضة (غابة البشر) التي كان الجميع فيها "مسلحاً بعتاد كامل." لكنَّ أكثر ما أخاف ماكدونالد هو الأسلحة التي قال العمال إنهم شاهدوها، بدا الأمر كما لو أنَّ مجتمع الماساي قد حشد وسلّح الآلاف من الشبان لحماية أرضهم.

"أيّ نوع من الأسلحة؟" سأل ماكدونالد بإصرار.

"سهام مسمّمة وأقواس وهراوات." قال أسد "كتلك التي استعملوها لإصابة ظهر وزير."

تأوّه وزير من حيث كان يستلقي على الأرض مدّعياً الألم وهو يمسك ظهره، أمر ماكدونالد بإرسال الجرحى إلى العيادة الطبيّة لمعالجتهم، بينما انتشر تغضّن عميق على سائر وجهه.

أثناء نقل الجرحى، لاحظ ماكدونالد أنَّ أحداً من العمال لم يفقد آلته الموسيقية، "ما الذي كان يحدث بحقّ الجحيم؟" هزَّ كتفيه باستهجان، "يعجُّ هذا المكان بالأشياء الغريبة..." وتجلّى له ببطء أنَّ محاربة هذه المعركة ستكون أمراً عقيماً، في حين هُزم الزعيم لونانا على يد شقيقه ساداكا، أصبح للغضب من عمال السكّة الذين يستغلّون الفتيات المحليات شعبية كبيرة بين سُكّان أرض الماساي، وإن كان المجتمع يحشد قواته لشنّ حرب على المقصورات أو حتى مهاجمة معسكره، فستكون فرصُهُ في التغلّب عليهم معدومةً عملياً، لأنّهم، وفقاً لمعلومات بابو الاستخباراتية، كانوا يفوقون رجاله عدداً بنسبة كبيرة.

***

تحدّث أحد الحكماء عن حصافة الثقة بالقصة لا راويها، لكنّنا ندعو هنا للشكّ في الاثنين، وهو اقتراح صعب، خاصة أنَّ أشباه نيوندو في هذا العالم لم يكونوا موجودين للموازنة بين ما حدث حقاً وبين ما سُجّل على أنّه تاريخ البشرية.

وبما أنَّ الدبَّ الإنكليزي يمتلك الموهبة المميّزة في تحويل أكثر المواقف إذلالاً إلى حقبة تاريخية، فمن السهل المراهنة بثقة على أنَّ الحقيقة تقبع في مكان آخر مختلف تماماً عن الذي يفترض أن تكون فيه.

وتعلن العبارة المكتوبة على جدار المتحف البريطاني والتي تقطر حروفها بالعنجهية البرونزية في ذلك المكان المقدّس، حيث يفترض أن توجد الحقيقة المطلقة: **من الطبيعي جداً أن ينشئ بلدٌ ما سكّة حديد، إلّا أنَّ خطّ القطار هذا في واقع الأمر قد أنشأ بلداً.**

وقد كان ذلك صحيحاً على الأرجح، لكنَّ ما تخفيه العبارة على أيّ حال هو العقبات التي كادت تُخرج بناء السكّة عن مساره، والرجال الذين كادوا يوقفون هذا الإنشاء، وهذه هي القصص التي لا تصل أبداً إلى المتاحف، مثل قصة نيوندو الذي أنصت في البدء لنداء البريطانيين، لكنّه غيّر ولاءه بعد تدمير الكايا، ثم هناك بابو الذي بقي في مرمى ماكدونالد، كان بابو قد أُعجب بماكدونالد حين التقى به للمرة الأولى، لكنَّ تلك المرة كانت نهاية الموضوع، ظلّت حياتاهما منفصلتان مثل قضبان السكّة، وتنامى شكُّ أحدهما بالآخر على مدى سنوات من الصمت، يخطط أحدهما لتدمير الآخر حتى وإن لم تكن له منفعة من ذلك.

قبل بدء مهمة المنحدرات، كان ماكدونالد قد حوّل انتباهه عن بابو،

مقتنعاً بأنَّ العناية بزوجة كسيحة أمر كفيل بإلهائه، لكنَّ بابو استمر بتسبيب المشاكل له، المدهش في الموضوع أن بابو لم يكن مدركاً لذلك قط.

في إحدى الأمسيات، على سبيل المثال، حين كان العمال عائدين إلى مخيمهم، اكتشفوا أنَّ أحد الأسُود تسلّل إلى قسم المرضى وحمل معه رجلاً كان يتعافى هناك، ولم يتردد بابو في التكلم عن هذه المسألة فتوجّه على الفور إلى حجرة باترسون.

"لم نترك موطِننا لنتحوّل إلى وجبات للحيوانات البريّة." قال بهدوء "أتينا هنا لنعمل، أنت موظِفنا وتدين لنا بواجب العناية، ما الذي تفعله لتضمن سلامتنا؟"

استدار بابو فوجد أنَّ دستة من العمال انضموا إليه، "نعم، أخبرنا؟" قالوا بصوت واحد "ما الذي تفعله حيال هذا الأمر؟!"

اتصل باترسون المرتعش بماكدونالد لا سلكياً وأخبره أنّه يحتاج إلى مساعدته الفورية، "من الجيد أنّك حضرت، نريد إيصال هذه المشكلة إلى مكاتب أعلى المناصب."

"من يسيطر على الأسود؟"

"أنت بالتأكيد." قال بابو بنبرته اللطيفة، "لهذا لا تعيش تحت خيمة من القماش المشمّع مثلنا، أو في العراء مثل العمّال الأفارقة، عبر تأمين أكثر التسهيلات أمناً للعمال البيض، فأنت تحميهم بطريقةٍ واعيةٍ ضدَّ هجمات كهذه، بينما نُترك نحن لنواجه جميع الظروف، أي إنّك تسيطر على تحديد الأشخاص الذين يمكن للأسود النيل منهم."

بحلول هذا الوقت كان قد احتشد في المكان عشرات من العمال وأخذوا بتشجيع بابو: "نعم أخبرهم! أخبرهم يا رجل! لا أمان، لا عمل..."

"لقد سمعتَ بنفسك." قال بابو لماكدونالد "يطالبُ العمال بطمأنةٍ حيال سلامتهم، أو أنّهم سيتوقفون عن العمل."

ولمنع هذا الاجتماع من التحوّل إلى احتجاج كامل النضوج، أكّد ماكدونالد أنَّ فريقه سيؤمّن الحماية لجميع العمّال، الأمر الذي نفّذه عبر نشر جنود مسلّحين لإبقاء الحيوانات البريّة بعيداً، حُمل بابو في ذلك اليوم عالياً على أكتاف العمّال المبتهجين.

لكنَّ الأمور بلغت أوجها بسبب مهمة بابو إلى المنحدرات حين قوبلت بادرة وثوق ماكدونالد ببابو لقيادة الحملة بالمؤامرات والخدع، إذ ائتمر بابو مع باقي الفريق لتضليل ماكدونالد حتى يعتقد أنَّ السكان المحليين كانوا يخطّطون لشنٍّ انتقام هائل ضدّه وتخريب مشروع سكّة الحديد.

وبهذه العقلية قرر ماكدونالد المنزعج اللجوء إلى استرضاء السُكان المحليين وتجنّب القتال بجلّه عبر تنظيم صفٍّ مشبوهين، بحيث تستطيع الابنة الحامل للزعيم لونانا انتقاء الرجل المسؤول عن حملها.

قَدَّم (عرض الجنس) هذا كما سمّاه العمال في مزاحهم، فرصةً أخرى لماكدونالد كي ينتقم من بابو، كان في البدء متضارب الأفكار حيال إدراج بابو في صفّ المشبوهين، فالرجل لا ينسجم مع هذا النمط من الأشخاص، لأنه متزوّج وبالكاد تورّط في السابق في أيّ نوع من أنواع الطيش الجنسي الذي كانت تصل إلى مكتب ماكدونالد شكاوٍ عنه، كما أكّد جميع الجواسيس الذين أمرهم ماكدونالد بمراقبة بابو أنّه كان عاملاً مثالياً، نادراً ما كان يختلط اجتماعياً، كما كرّس كلّ طاقاته لعمله.

لم يشرح ماكدونالد للمشرف باترسون دوافعه لاقتطاع أجزاء من رواتب بابو، وقد توقع باترسون أن يواجهه بابو بشأن أجوره، لكنَّه لم يفعل،

بدا راضياً باحتمال كلّ شيء، وجد باترسون ذلك محرجاً، كان يعلم في داخله أنه يسرق من رجل نزيه.

لم يعرف ماكدونالد أنّه حين يكون مسافراً في رحلاته، كان باترسون يمنح بابو أجراً عادلاً، بل ويزيده بضع روبيات ليعيد له ما قد سُرق منه، لكنّه دوماً ما يتراجع عن أفعاله هذه حين يعود الرجل.

أما بابو فهو ببساطة لم يلاحظ هذه التقلبات في أجره، وكان مشغولاً تماماً بعمله.

في بعض الأحيان، حملَ الجواسيسُ المكلّفون بمتابعته أخبارَ رؤيته يتوقّف عند تلة صنعها أحد الخلدان وهو يحفر الأرض، يمسك حفنة من ترابها الناعم، ثم يتركه يتسرّب ببطء خلال أصابعه، في أوقات أخرى كان يقف مفتوناً بمجموعة من الحصى متعددة الألوان فيتفحّصها قبالة أشعة الشمس مثل صائغ يتحقّق من قيراطات قطعة من الذهب، ثم يخبّئ أجملها في جيوبه ويرسلها إلى فاطمة التي كانت تحتفظ بها جميعاً في وعاء زجاجي اشتراه لها من تاجر عربي.

لكنَّ كلّ ذلك تغيَّر مع مهمة المنحدرات، فقد بدأ ماكدونالد يشكُّ في أنَّ بابو لم يكن يخبره الحقيقة بأسرها، وكما حفر مدربوه العسكريون في ذهنه في ساندهيرست، فإنَّ السلامة خير من الندامة، ولا بدَّ من إدراج بابو في صفّ المشتبهين.

نقّب ماكدونالد عبر سجلات العمال ليستثني أولئك الذي كانوا في مخيم ناكورو في الفترة الزمنية التي يمكن أن تكون الفتاة قد حبلت فيها، على الرغم من أنَّ أحداً لم يكن قادراً على تحديد المرحلة التي هي فيها الآن من الحمل، لكن ليكون على يقين فقد عمل ضمن مجال زمني من ثلاثة

أشهر، ثم دقّق في الأسماء ليستخرج منها أولئك الذين يصطحبون نساءهم معهم، وقد رُجِّحَ أن يكون العازبون هم من يطاردون النساء المحلّيات.

استثنى من القائمة بعض كبار السنّ والرجال الورعين ومَن كانت سمعتهم السيئة المنتشرة على الملأ لا تتضمّن النساء، في نهاية الأمر، خرج بقائمة تتضمن اثنين وخمسين شاباً وقد أُمروا جميعاً بالانضمام إلى صفّ المشبوهين في أواخر بعد الظهيرة.

كان ماكدونالد راضياً بالتحديد عن إدراج بابو في الصفّ لسبب مختلف: أحد الدروس التي لا تفنى من ساندهيرست هو دفع عدوك إلى الأسفل وإبقاؤه هناك، على الرغم من أنَّ ماكدونالد قد شعر ببعض الندم لحمله الضغينة كلّ هذا الوقت -ناهيك عن دوره في تأخير شفاء فاطمة عن طريق دواء الطبيب كيسبوك المزيف- إلا أنَّ بابو لم يساعد نفسه واستمرّ في التصرف بشكل مريب طيلة مدة كارثة المنحدرات.

***

جرت طقوس صفِّ المشتبهين في العراء، وقف الرجال الاثنان والخمسون عارين حتى خصورهم تحت الشمس، بينما جلست مجموعة من الحكماء تحت شجرة خوخ إفريقي ضخمة، وبينهم كان الكاهن تيرنبول الذي تولّى مهمة الترجمة، والزعيم لونانا الذي جلس في صمت رصين مرتدياً خوذة لبّ أهداه إياها ماكدونالد في ذلك الصباح، كما أخبره أنّه قد عُيّن برتبة الزعِيم الأعلى، فردَّ الزعيم لونانا على كلامه بأنّه على الرغم من عدم معرفته لمعنى هذا اللقب إلا أنّه لا يكترث به، لكنّه أخذ القبعة وجرّبها، ثم تركها على رأسه لأنها حمته من أشعة الشمس، في تلك المرحلة، أعلم الزعيم لونانا

ماكدونالد أنّه قد عيّن أحد حكماء الماساي ليتصرّف بالنيابة عنه في هذه الخصومة.

"أنا المدّعي، ولا يمكن لي أن أكون حيادياً، دوري هنا هو المراقبة فحسب." قال هذا قبل أن ينزلق في صمته.

ركّز المجتمعون على مراقبة سنية فقط، وكانت حدبة بطنها الصغيرة واضحة وهي تمشي بتردّد أمام صفّ من الرجال عراة الصدور، لقد طُلب منها التوقّف أمام الرجل المسؤول عن حملها، كانت هناك وقفات درامية تتوقف فيها لتطيل النظر إلى أحد الوجوه عن قرب، وكان الرجل الخاضع للتفحّص يتوقّف عملياً عن التنفس ثم يتنهد بارتياح وهي تبتعد عنه.

حين اكتشفت سنية حملها، فرّت إلى خالتها المفضّلة التي تقطن في قرية وبتيتيه المجاورة، كانت تأمل أن تجد ملاذاً آمناً هناك إلى أن تضع طفلها، لكن بما أنّها كانت الابنة المفضلة عند والدها، فقد علمت خالتها أنَّ المسألة ليست إلا مسألة وقت قبل أن تُستدعى للعودة إلى المنزل، على أيّ حال، ومنذ فشله أمام أخيه، كان الزعيم لونانا يقضي معظم أوقاته أمام كوخه يتفكّر، ونادراً ما كان يطلب من زوجاته جلب الوجبات له، ونادراً ما يتناول الطعام ما لم تأته به سنية.

"لا تستطيعين التخلّي عن والدك في ساعة الضيق." وبّختها خالتها، "سوف أعيدك إلى البيت، وسوف نربّي، أياً كان، هذا الذي تحملينه في بطنك."

عادت سنية وخالتها تحت جنح الظلام، وبقيت معرفة أمر الحمل محصورة بالاثنتين لمدّة، حين باحت الخالة بالأنباء لوالدة سنية، ظلّت صامتة لبعض الوقت قبل أن تتنهد قائلة: "سيقتله هذا الأمر، يعتقد أنّه فشل حين استلب شقيقه السلطة منه، والآن سيشنق نفسه بعار فشله في حماية ابنته."

في داخلها، كانت سنية تحترق بالعار، ما كانت تعتبره فعلاً شخصياً للغاية صار الآن يُعرض على الملأ، لقد شهدتْ في إحدى المرّات محاكمة فتاة أخرى حملت قبل الزواج، استُدعيت الفتاة والشاب المسؤول عن الحمل ليمثلا أمام مجموعة من الحكماء وطلب منهما إعادة سرد ما حدث، كلّ تفصيل صغير، من الطريقة التي نزع فيها تنورتها التحتية، إلى الأسلوب الذي أزال به ***muthuru***[130] الخاصّة بها.

عرفت سنية أنّها لن تبوح بمعلومات معيّنة، كان يكفيها اضطرارها للمرور بصف المشتبهين هذا مثل اللصوص، لم يهتمّ أحد بمعرفة ما تشعر هي به حيال هذا الأمر بأسره، إن كانت النيّة هي كشف المجرم الذي سرق براءتها، فيمكنهم ببساطة سؤالها عن اسمه، لكنّهم افترضوا أنّها لم تعرف اسمه، كانت خدِرة بثِقل هذه المحنة، وتساءلت لوهلة إن كان عليها اختيار عدّة رجال من الصفّ، ما يعني عدم تأكّدها من هوية الرجل، سيضعها ذلك في موقف حرج للغاية، لكنها لم تعد تكترث، على أيّ حال، سيزيد تصرّف من هذا القبيل إذلال والديها، في ذلك المكان وفي تلك اللحظة، قرّرت سنية إتمام الأمر على طريقتها الخاصة، سوف تختار الرجل ذا الوجه الألطف.

مشت سنية إلى حيث كان بابو واقفاً، حدّقت فيه وتصرّفت كما لو أنها على وشك التحرك من أمامه، لكنّها لم تفعل ذلك، كانت تتذكر أنها رأته من قبل، لكنها لم تعرف أين، على أيّ حال، يبدو جميع الهنود متشابهين، على الرّغم من أنَّ بابو كان يمتلك ألطف وجه.

تجمّد بابو، بينما التقت أعينهما، الفتاة التي رآها للمرة الأولى عبر عدسةَ بعيدة البؤرة، ولاحقاً استلقت تحته في ذلك اليوم الذي حلّت فيه

---

130 Muthuru: تنورة تقليدية تُصنع من الجلد.

العتمة في الظهيرة، حين أصبح القمر والشمس واحداً، في اليوم الذي وصلت فيه طيور الفلامينغو إلى ناكورو، كانت تقف أمامه تماماً.

نظرت إليه وانحنت، انطلقت همهمات متحمّسة ضمن المجموعة، بينما اندفع رجلان قويّا البنية نحوه، أمسك كلٌّ منهما بإحدى ذراعيه ثم جرّاه بعيداً.

12

أتت أخبار اعتقال بابو لتسبّبه في حمل سنية كصدمة للكثيرين، وتحوّلت مزحة أحمد عن إمكانية تعرّض بابو لصعقة برق أثناء مهمة الحج إلى تنبؤ صادم بشكل مذهل في استعراض الجنس، من كان ليصدّق هذا؟ قهقه العديد من الرجال وهم سعيدون للنجاة ممّا كانوا يخافون سرّاً أن يحيق بهم، نجا أحمد كذلك من دون أذى، لكنّه كان متعاطفاً مع بابو، تساءل إن كان بابو وقع في هذا المأزق بسبب تلك الحادثة الوحيدة التي قوّد فيها الفتاة له عند المستنقع في اليوم الذي هبطت فيه طيور الفلامينغو إلى البحيرة، أراد التكفير عن ذنبه، أن يفعل شيئاً يشعره بالرضا، فقرّر أن يحافظ على اتفاقه مع بابو، إن حصل لي أيّ شيء في هذه المهمة إلى المنحدرات، رجاه بابو، **أريدك أن تسافر إلى مومباسا وتنقل الأخبار إلى زوجتي فاطمة بالتدريج وبكلّ هدوء...** وهكذا، في اليوم الثالث بعد اعتقال بابو، استقلّ أحمد قطار البضائع الذاهب إلى مومباسا ليفتّش عن فاطمة.

كان أحمد يرتدي لباسه الرسمي الخاكي، وهذه هي الطريقة الوحيدة ليسمح له سائق القطار بالركوب فيه، لقد كذب على باترسون وأخبره أنه

يحتاج إلى إرسال برقية عائلية عاجلة إلى الهند، ويحتاج إلى الذهاب إلى مكتب البريد في مومباسا، وقد اكتشف أمراً مريحاً ومرعباً في الوقت نفسه، وهو أنَّ أخبار بابو قد سبقته هنا، حتى وإن كانت محرّفة بعض الشيء، لأنَّ كلَّ رجل حيّاه في مومباسا سأله إن كانت قصة العامل المبتدئ الذي اعتُقل لسلب عذرية كلّ فتيات إحدى القرى قصة حقيقية.

قوبل اعتقال بابو بابتهاج وارتياح من الهمّ بين أوساط الرجال الذين نجوا من صفّ المشتبهين، والذين اعترف بعضهم بمضاجعة فتاة محلّية أو اثنتين وبخشيتهم من وقوع الاختيار عليهم في الصف، لكن بينما دنا أحمد من البقعة التي قيل له إنَّ فاطمة تدير ***duka*** فيها، تزايد قلقه حول الطريقة التي يُحتمل أن تدور بها هذه المحادثة، قد يكون إيصال أخبار الموت جليلاً، لكنَّ نقل أخبار ولادة وشيكة، وفي أعقاب خيانة زوجية، كان يحمل تلميحاً بالفضيحة، وقد يفرغ المرء غضبه على الرسول، أو ربما يكون عليه تنظيف الفوضى التي تنتج عن عدم احتمال الزوجة لهذه الأنباء.

عبر المعلومات التي حصل عليها من كريم، كان أحمد قد فهم أنَّ فاطمة ترقد في السرير بعد أن فقدت قدرتها على السير خلال رحلتهم الطويلة في طريقهم من الهند، لقد توقّع أن يجدها ترتاح في منزلها عابسة بعض الشيء، ربما مستاءة أيضاً، لكنّه عوضاً عن ذلك وجد امرأة جميلة مبتهجة تقف على ساقيها منغمسة في عملها، كانت تدير متجراً صغيراً يطلّ على سوق سمك مومباسا، وهو حفنة من الدور التي تشكّل طريقاً نصف دائريٍ يقود الرجال والنساء والأطفال إلى ***duka*** فاطمة، لم تكن مساحة المكان أكبر من حجم خزانة، إذاً كيف كانت فاطمة تجد مكاناً للوقوف فيه وتستطيع في الوقت نفسه حشر أكياس الحبوب وزيت الطهي والسكر

والملح والبهارات والسجائر والمناديل والسمسم والمانجا وجوز الهند والجوافة ومعجون الأسنان والخبز و***andazi***[131] والمحامري و***kaimati***[132] وكلّ ما يخطر في البال فيه؟ إنه لإنجاز عظيم. على النضد استقرّ صندوق زجاجي صغير يحتوي على الحلويات والتوفي وحلوى ***tamutamu***، أمّا واجهة الدكّان الأساسية فقد علّقت عليها قطعة من الشاش عقدت عليها المناديل ولفّات التبغ، اتكأت أكياس الحبوب على الهيكل الخارجي كأنها تثبّته وتمسكه عن الطيران، المساحة الوحيدة الشاغرة من البضائع داخل أو خارج المحل هي الفتحة الصغيرة التي أطلّ منها وجه فاطمة الجميل لتحية الزبائن أو التعامل بسلاسة مع سلعة طلبها أحد الزبائن أو استلام روبيات ثمن البضائع، بدا جذع فاطمة وكأنه ينمو من بين هذا المتاع، لون بشرتها الأصفر الشاحب يندمج مع ألوان وخامات منتجاتها، راقب أحمد الزبائن وهم يأتون ويرحلون، أتى صبي صغير طالباً القليل من الملح، فقدّرته فاطمة باستخدام ملعقة ثم لفّته في قطعة من الورق معاتبة الصبي لأنه يحمل اللفة بشكل أخرق، أتت امرأة تلتف برداء ***khanga***[133] تطلب قطعة من الصابون، فقصّتها لها فاطمة بكلّ حرفية مستعملة خيطاً رفيعاً، وامرأة أخرى تطلب الطحين لأنّ طبق ***Sima***[134] الذي تطهوه كان رخواً، وقد وعدتها بإحضار النقود عند انتهاء وجبتها.

الرجال أيضاً كانوا يأتون إلى المحلّ، بعضهم يطلب ***kawaida***[135] ببساطة، فتلفّ لهم فاطمة بطاعةٍ لفافات من سجائرهم المفضّلة، حين كان

---

131 andazi: نوع من الخبز المقلي يشبه الدونات.

132 kaimati: كرات من العجين الذي يقلى ثم يغمس في شراب السكّر.

133 Khanga: لباس تقليدي من قماش ملون تلفه النساء حول أجسادهن.

134 Sima: اسم آخر لثريد الأوغالي.

135 Kawaida: المعتاد (السواحيلية).

يأتي صبي صغير ليطلب ***kawaida***، كانت فاطمة تلفّ له عوداً من التوفي أو تعطيه قطعة معجنات دونات.

ذُهل أحمد عند مشاهدته لكلّ هذه التفاصيل، لم تكن هذه المرأة كسيحة، بل كانت جزءاً من مجتمع مزدهر -في الواقع- ركيزة أساسية في هذا المجتمع، لم تكن تلك المشلولة المنسية التي تخيّلها أن تكون، تنحنح أحمد ونظر إلى الجسد الصغير متسائلاً إن كان قد أُرشد إلى الدكان الخاطئ:

"Shikamoo ndugu, nikuuzie nini?" [136]

كان أحمد يفهم التحية السواحيلية تماماً، لكنّه أجابها بالبنجابية بتردّد: "أنا زائر لك."

التمعت لمحة من الشكّ على وجه فاطمة، بينما ميّزت ملابس عمّال سكّة الحديد الرسمية الخاكية التي يرتديها، لكنها أجابته بابتهاج "زائر يصل من دون أن يقرع الباب؟"

"دقة دقة." ترنم أحمد، وهو يدفع براجمه في الهواء.

ابتسمت فاطمة ابتسامة عريضة.

استرخى أحمد "أحمل لك أنباءً من بعيد."

"من الأفضل أن تكون أخباراً جيدة في هذا الوقت المبكّر من الصباح."

صمت أحمد.

"هل ترغب في شرب شيء ما؟"

"لا أشعر بالعطش." كذب أحمد.

"لا بدّ أن يعثر الضيف الذي يصل غير ظمآن على آخرين متعطشين لسماعَ الأخبار، أليس كذلك؟"

---

136 Shikamoo ndugu, nikuuzie nini?: أهلًا يا أخي، ماذا تحتاج أن أبيعك؟ (السواحيلية).

"يمكنكِ قول ذلك."

"إن كانت الأنباء عن بابو فلا بدَّ أنها سيئة." قالت فاطمة بصوت ثابت.

"نعم، هي كذلك."

"إنها أخبار سيئة؟"

"لا، ليس حقاً، قلت نعم لأؤكد أنها تتعلق ببابو، لم أكن واثقاً أنّي في المكان الصحيح."

"إذاً أنت تجلب لي أخباراً حسنة؟"

"أممم، أممم..."

"ماذا يعني ذلك؟"

"لست واثقاً حقاً من كيفية التعامل مع الأمر."

"لماذا...؟"

"أختي فاطمة، أحتاج إلى بعض مسحوق التخمير." قاطعهما زبون جديد.

استعاد صوت فاطمة ابتهاجه، بينما أتمّت عملية البيع، ثم أتى زبون آخر ليطلب طلباً آخر، أمّا الزبون الثالث فقد كان رجلاً حدّق في زي أحمد الرسمي ثم سأله "هل صحيح ما نسمعه؟"

"وماذا سمعت؟" سأل أحمد بحذر.

"عن ذلك العامل المبتدئ الذي يضاجع الفتيات على طول الدرب، صانعاً سكّة قطار من النساء."

"لا، لا أعرف ما الذي تتحدث عنه." تلعثم أحمد.

"بالتأكيد تعرف." قال الرجل متحدّياً "حتى إنّنا سمعنا عن اعتقال الرجل وإخصائه، هل كان هذا ليحلَّ به من دون سبب؟"

"رشيدي." قالت فاطمة "لقد قطع ضيفي رحلة طويلة."

"آه، أنا آسف يا أختي فاطمة، لقد اعتقدت..."

"لا تكترث بما تعتقده يا رشيدي، هذا هو قريبي عبدول وقد سافر طوال الليل ليحضر لرؤيتي."

"أقدّم اعتذاري يا أختي فاطمة."

حين غادر رشيدي، ملأ وجه فاطمة الفرجة الصغيرة من جديد "يا قريبي عبدول." قالت مبتسمة "من الأفضل أن ننهي هذه القصّة العائلية قبل أن يهبط علينا سُكّان القرية جميعهم، ما قصة العمّال المبتدئين والفتيات المحليات؟"

توتر أحمد "لقد كان هنالك واحد فقط."

"واحد من ماذا؟"

"عامل واحد."

"وكم فتاة؟"

"فتاة واحدة فحسب."

"من فعل ماذا؟"

أطرق أحمد "حامل، لقد أصبحت حاملاً."

"حاملاً بطفل ذلك العامل؟"

"تستطيعين قول ذلك."

"هل كان بابو متورّطاً بأيّ شكل؟"

ساد الصمت ثم: "نعم."

"هل بابو هو العامل المشار إليه في القصّة؟"

صمت.

"هل أُلقيَ القبض عليه؟"

وقفة.

"نعم."

"هل هذا هو السبب الذي أتى بك إلى هنا؟"

صمت آخر.

تراجعت فاطمة إلى داخل الدكان، لم يعد أحمد قادراً على رؤية وجهها، بل مجرّد لفّات من التبغ المطحون التي تحفّ بها الريح، بينما تخفق المناديل.

أتت زبونة في هذه اللحظة "***Dada***[137] فاطمة؟" نادت.

ظلّت فاطمة صامتة لوهلة، بينما جمعت شتات نفسها قبل أن تجيب، تبادلت المرأتان التحيات، بينما أطلّت فاطمة من الفرجة وقد تجمعت بعض الدموع الزجاجية في زوايا عينيها.

"ماما سليمان، أقدّم لك قريبي عبدول." قالت لتخلق نوعاً من الإلهاء.

لكنَّ ماما سليمان كانت فطنة بما فيه الكفاية لتلاحظ الحزن في عينيها.

"أرجو أنَّ قريبك لم يأتِ بأخبار سيئة من الوطن." قالت.

"كلا، لم يفعل." أجابت فاطمة.

"لم يمت أحدهم...؟"

"كلا على الإطلاق!"

استرخت ماما سليمان وقالت:

"Watu wa Mombasa ni watu wa raha, hatutaki matata."[138]

---

137 Dada: أخت (السواحيلية).

138 Watu wa Mombasa ni watu wa raha, hatutaki matata: أناس مومباسا هم أناس سعادة، نحن لا نريد المتاعب (السواحيلية).

ما يعني أنَّ سكان مومباسا لا يريدون سوى السعادة، قبل أن تطلب *kawaida*، وهو طبق من بيض طائر السمّان والبصل والثوم، فطورها المعتاد، ونتيجته كانت واضحة للعيان، وجه أملس وذراعان مستديرتان ومؤخرة بارزة ومكوّرة، يمكن لطفل صغير الركوب عليها من دون أن يسقط.

لم تكن الساعة قد تجاوزت العاشرة صباحاً، والشمس لطيفة، لم تتكلم فاطمة مباشرةً إلى أحمد منذ أنبأها بالأخبار، والعينان الدامعتان كانتا الردّ الوحيد حتى الآن، خطت فاطمة خارج المتجر، كانت شخصية بارزة بسبب جهودها الذاتية، أمسكت بأكياس الحبوب وقذفتها داخل الدكّان من دون جهد واضح، وسحبت اللوح المعدني الذي يسند النافذة المفتوحة من الداخل، تهالكت البضائع الخارجية لتستقرّ على القماش الشبكي مثل طيّ المظلة، أغلقت المزلاج وخطت إلى الخارج مجدداً "لنذهب." قالت لأحمد الذي سار خلفها من دون يقين، لم يعرف ماذا يقول، وخشي أن يفاقم الضرر الذي أحدثه أكثر، لم يسألها عن المكان الذي يذهبان إليه، عوضاً عن ذلك، دارت في ذهنه مئات الأفكار، من دون أن يكون قادراً على استرضاء المرأة المذهلة التي تمشي إلى جانبه، بينما دارت في رأسه صورة المرأة المقعدة.

على الطريق، صادفا بعض زبائن فاطمة الذين سألوها عن سبب إغلاقها للدكان في هذا الوقت المبكّر، ومتى كانت تتوقع أن تعود، قالت إنّها ترافق قريبها عبدول وسوف تعود إلى الدكان بلمح البصر.

بعد عشر دقائق من السير، قادت فاطمة أحمد إلى تكتّل من الأكواخ المجيّرة بلون أبيض مرجاني، ودخلت إلى منزلها، لاحظ على الفور الإناء الزجاجيَ المملوء بالحجارة الملونة التي شاهد بابو يجمعها خلال السنة الأولى من إنشاء سكّة الحديد، بالكاد كان هناك أيّ شيء آخر في المنزل يوحي بأنّه

بيت بابو، كلّ الأشياء الأخرى كانت تخص فاطمة: ***uteo***[139] متعددة الألوان تتدلى على الجدار، أصداف القواقع قرب النافذة، بوق أسود ذو حلقة معلّق في إحدى الزوايا، مرآة كبيرة.

أُعجب أحمد بالحصى التي كان لها ملمس الياقوت، بينما جالت فاطمة في المنزل بصمت، تفتح أو تغلق النوافذ، لم يكن أحمد منتبهاً لها حقاً وهي تفعل ذلك، لكنّه حين التفت: وجد فاطمة تقف خلفه، عارية كالحيوانات، تتسرّب أشعة الضوء المتسربة من بين فراغات القش في السقف على أجزاء مختلفة من جسمها كأنها إلهة شمس، كانت تشعّ ألقاً.

13

مجدداً، أثبتت كلمات أحمد أنها تنبُّؤيّة، رؤيته لنفسه يزرع قضبان التحديد داخل النساء في خطّ يمتد من مومباسا إلى ناكورو صارت حقيقية بصورة مؤثرة، لكنَّ مضاجعته لفاطمة حملت نكهة مختلفة، كانت لا تزال عذراء، الأمر الذي عزّز إثارته وتعجبه، كيف يمكن أن تكون زوجة بابو عذراء ويعاني المشاكل الآن للتورّط مع ابنة زعيم؟ كيف يُعقل أنَّ زوجته لم تُمسَّ كلّ هذه السنوات؟

لم يجرؤ أحمد على سؤالها، على الأقلّ، ليس بعد، كلّ ما قالته فاطمة بين شهقاتها وتأوّهاتها أنها تريده أن يملأها ويجعلها مكتملة، الأمر الذي أدّاه أحمد بشعاره المعتاد: طلبات أنت هي أوامر أنا.

---

139 Uteo: طبق من القش المغزول يدوياً.

لم تطلب فاطمة أيَّ معلومات إضافية عن بابو، تعليقها الوحيد عندما علمت بخيانته كان تحسّراً بسيطاً: "لقد حفظت نفسي من أجله طوال حياتي، وهذا ما أتلقّاه في المقابل؟" ثم ضحكت وقالت بالبنجابية: "أظنّ أنّه لطالما كان ينجذب إلى الوجوه البريّة للأشياء، ربما أنا أليفة أكثر ممّا يعجب ذوقه."

في ذلك اليوم والليلة، وعلى امتداد عدة أيام لاحقة، بقي أحمد وفاطمة في السرير، كانت متعطّشة لاكتساب الخبرة، وهو صبور ومعطاء في ممارسة الحب، في اليوم الثاني، أعلن لها أنّه مستعد للفرار معها والعيش في سعادة إلى الأبد، فذكّرته أنَّ لديها متجراً لتديره ولديه سكّة حديد ليبنيها، حين تنتهي أعمالهما، سيفكران في المستقبل، قالت فاطمة بعد أن عرفت العقاب الذي سيحلّ ببابو على الأرجح بسبب تجاوزاته.

كانت عودة قطار البضائع إلى ناكورو مقرّرة في اليوم الخامس لرحلة تستمرّ طوال الليل، حين عاد أحمد إلى ناكورو وجد أنَّ قصّة بابو قد اتّخذت منحى جديداً مثيراً للاهتمام.

14

تطوّر أمر مغادرة راجان للجاكاراندا إلى مستوى أسطوري حين انتشرت الأنباء عن امرأة غامضة كانت مسؤولة عن اختفائه، وكان غاثينجي واحداً من الأشخاص القلائل الذين كان بإمكانهم أن يشهدوا على لقاء تلك المرأة.

"دعوني أخبركم، ***undo kwo undo***، لم تسبق لي رؤية امرأة بهذا

الجمال، أشكُّ أنَّ أحداً منكم قد رأى مثلها." أخبر غاثينجي روّاد المكان الذين تحلّقوا يستمعون إليه بانتباه شديد، وصف وجهها أنّه أكثر بريقاً من انعكاس الشمس على سطح مرآة، خداها أنعم وأكثر استدارة -على الرغم من أنه لم يلمسهما في الواقع- من حبة طماطم تنمو في بلدة إغانجو، بينما صدرها كان ممتلئاً إلى درجة تجعل من المؤلم تخيّل ما يمكن لأيّ رجل فعله بنفائس كهذه.

"كيف كان صوتها؟" سأل رجل فضولي، تردد غاثينجي، "أوو، ألم تتحدث إليك؟" أصرَّ الرجل.

"آآآه، ماذا تقول؟" ردَّ غاثينجي، "دعني أخبرك، حين حيّتني حلّق قلبي ***paragasha***[140]." شرح للجميع أنَّ صوتها يشبه غناء العندليب وثرثرة طائر الحبّاك وهديل اليمامة كلها مجموعة مع بعضها.

اعترف معظم أفراد الفرقة بأنَّ غاثينجي على الأرجح قدْ خدم مائدة مريم في الجاكاراندا، بالرغم من أنَّ بعضهم شكّكوا بصمت في وصف الجزّار المفصّل لمريم، آخذين بعين الاعتبار أنَّ لقاءاتهما كانت عابرة، مع ذلك فما من شكّ أنَّ مريم كانت امرأة فاتنة، حتى أولئك الذيم لم يروها كانوا واثقين من التقييم.

بعد الاتّفاق على أنَّ المرأة الغامضة كانت مغنماً ممتازاً، انتقل التركيز على السبب الذي جعلها تفرُّ من المكان، وإن كانت هي أم راجان من يقود الآخر في هذا الفرار، ***"Mubira niugarurukanagwo."*** قال غاثينجي ما يعني أنّه حتى في لعبة كرة القدم، قد يفوز المستضعفون في بعض الأحيان على الرّغم من أنَّ جميع الظروف ترجّح خسارتهم، ربّما كانت المرأة الغامضة

---

140 paragasha: مثل غبار الطلع (الهندية).

هي من قاد راجان خارج البلدة، أومأ معظم الموسيقيّين موافقين، مقرّين بصمت أنّه بعد بحث راجان عن الفتاة عينها لتسعة أشهر متواصلة، كان من المرجَّح أنّها تقابله بالمثل، المشكلة الوحيدة في هذا التحليل تتمثّل في عودة الفتاة إلى راجان بإرادتها، فمن غير المنطقي أن يفرَّ هو من البلدة، أو ربما يكون الأمر منطقياً، مثلما جادل بعض روّاد المكان، خاصة إن كان راجان قد كشف هوية المرأة الغامضة وقرّر أنّه من الأفضل لهما الرحيل عن البلدة قبل انفضاح هويتها أمام الجميع، بعضهم قال إنّها على الأرجح ابنة غير شرعية لماكدونالد، وقد هربت فجأة حين أدركت أنَّ مالك الجاكاراندا كان رجلاً لا ينبغي لها لقاؤه.

"تعرفون ما آلت إليه الأمور هذه الأيام." قال رجل عجوز، "لقد جلب الرجل الأبيض العديد من الأمور الغريبة إلى منازلنا، بنات بلا آباء..." مع ذلك فقد زعم بعضهم أنَّ الفتاة الغريبة قد اكتشفت أنها من أقارب راجان بطريقة ما، ولهذا فرّت بعيداً لتتجنّب الفضيحة، أما السبب الذي جعل راجان يقرّر أنّه من المناسب له الفرار معها، فهو أمر لم يمتلك له أحد جواباً شافياً.

حين تصل هذه التكهنات كلّها إلى نهاية مسدودة، يتوجّه الانتباه إلى إيرا، فيتّهمه بعض أعضاء الفرقة. "هل أخبرتنا بالحقيقة كاملة؟" سألوه مطالبين بإجابة، وكان إيرا يشرح لهم بكلّ الصدق الذي يستطيع حشده، أنّه قد عاد في الأمسية الماضية ليجد المنزل فارغاً، وكان متفاجئاً مثل أيّ أحد آخر حِين عرف أنَّ راجان والفتاة قد غادرا، لم يعرف أحدٌ منهم أمر زيارة راجان ومريم إلى منزل بابو وفاطمة، ولم يتوقع أحد ذهاب طيرَي الحب إلى منزل الجدّين، كان ذلك آخر أمر قد يخطر لهم.

ولذلك لم يسأل أحد بابو أو فاطمة ليرى إن كان الأمر قد انتهى براجان وضيفته في منزلهما.

وعندما عجز الجميع عن إيجاد تفسير مقنع لتصرّف الثنائي المفقود، ضغط روّاد المكان على غاثينجي لاستدرار المزيد من المعلومات، لكنّه لم يمتلك أيّ أفكار إضافية.

حين حلَّ الظلام، تبدّل المزاج العامّ في الجاكاراندا، استولى على المكان شيء من نفاد الصبر حين بدأت الفرقة باستحضار مخزونها وعزف نسخ تنحصر في الموسيقا من بعض أغانيهم المحبوبة، رنّت الأصوات بخواء من دون غناء راجان المشحون بالطاقة، كانت هذه السفينة تنجرف على غير هدى من دون القبطان، وطفت الموسيقا هائمةً قبل أن تتلاشى، أكّد عجيج الجمهور أنَّ عدداً قليلاً منهم كانوا منتبهين للفرقة، إن كان أحد منتبهاً أصلاً.

قطع صفير مفاجئ أو صرخات باسم راجان هذا الضجيج الشبيه بصوت خليّة النحل، لكنَّ أصحابها كانوا نحلات كسولة لم تلبث أن انغمست في كسلها، طارت قارورة جعة فارغة نحو المسرح، ثم تشظّت بهدوء، فحرّض هذا الفعل المقلدين، وأخذت القوارير تتطاير، أصابت إحداها مصباحاً زجاجياً أساسياً فغرقت المؤسسة في الظلمة، أما آخر قارورة فلم تكن مفتوحة، وسبّبت عند اصطدامها بالأرض صوت انفجار قوي.


منزل الضوء

15

{الله نور السماوات والأرض ۚ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۖ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}

القرآن الكريم - سورة النور - الآية 35

ظلّت هذه الكلمات محاطة بإطار ذهبي، معروضة فوق رفّ الموقد في منزل بابو في ناكورو، وهذه هي الكلمات التي قفزت إلى شفاهه، بينما استلقى في السرير في أمسية اليوم الذي زارتهم فيه مريم، مغلقاً عينيه أمام التوهّج القاسي للمصباح الكهربائي الوحيد المعلّق فوق رأسه، ذكّره هذا الفعل بالمرّة التي أغلق عينيه فيها بشكل مشابه -منذ أكثر من ستين عاماً- في مواجهة الشمس الحارقة بعد اعتقاله بسبب حمل سنية، بينما تقلّب في السرير، كان صوت صفير بوق فاطمة يهدّئه، لكنَّ قطعة أخرى من الذاكرة أخذت تنفرد بتثاقل خارجة من سرداب ذهنه.

كان يوماً مشرقاً وقد عاد في وساوسه إلى مخيم الزعيم، يلفُّ قميصه حول خصره، وفي يده منجل يقضم العشب مع كل تلويحة، وهو اليوم الثاني من اعتقاله لتعدّيه على ابنة الزعيم لونانا، لقد أُمر أن يبقى محجوزاً حتى ولادة طفل سنية.

"الرحم هو قلب الظلام." قال الزعيم لونانا متحدثاً للمرة الأولى عن الموضوع، "سيأتي اليوم الذي تظهر فيه الحقيقة، لن نتسرع في إطلاق الأحكام

حتى تصير الحقيقة هي الدليل على كلّ شيء." فأنقذ بهذا الكلام بابو من العدالة الفورية التي كان يقترحها ماكدونالد وآخرون، "تحني العدالة القوس المشدود." أضاف الزعيم لونانا، مركّزاً على فضيلة التحقق من الوقائع قبل تنفيذ العقوبات.

قضى الزعيم يومه في الفناء وهو لا يزال يرتدي خوذة اللّبّ، ويحدّق إلى الأمام بجمودٍ محتسياً شراباً مخمراً محلياً.

كان الكاهن تيرنبول يأتي إلى الباحة بشكل اعتيادي، وهو يهمهم عبارته الجديدة: "ما يحدث في الظلام يخرج دائماً إلى النور."

"أنت عملياً سجين حرب."

قال ماكدونالد لبابو في واحد من لقاءاتهما النادرة في الفناء، "يسعدني أنّي لم أتخلص منك في السابق كما خطّطت أيّها العامل المبتدئ، الآن سوف تُشوى هنا وتتحوّل إلى قربان متفحّم."

كان من المناسب لماكدونالد أن يفكّر في بابو على أنه سجين حرب، فقد انتشرت الإشاعات عن حرب تدور في أوروبا، ولم تكن الأمور واضحة بالنسبة لمصير المستعمرات البريطانية في الخارج، أنهى الألمان أو كما يعرفون هنا باسم ***Wajerumani*** وصْلَ نقاط سكّة الحديد من الأرض التي عمّدوها باسم ساليسبيري على طول الطريق حتى تنجنيقا، وقد شرد جواسيسهم داخل محمية شرق إفريقيا البريطانية عدة مرات، كذلك فعل البرتغاليون أو ***Wareno*** كما يسمّونهم هنا من الموزمبيق القريبة، لكنَّ ما أقلقِ ماكدونالد حقاً كان ولادة سنية المرتقبة بشدة، بدا الأمر كما لو أنَّ ولادة المستعمرة الجديدة كانت متوقفة على عملية ولادة سالمة.

سار بابو عبر كلّ شيء بخطوات واسعة، لم يندم على فعله في أرض

المستنقعات في اليوم الذي هبطت فيه طيور الفلامينغو إلى ناكورو، لم يستطع مهما بذل جهده أن يضمر أيّ مشاعر حقد تجاه سنية، عشيقته التي بدا مستقبلها مرتبطاً بشكل معقد بمستقبله هو، لكنَّ ما ندم عليه كان المحادثة التي أجراها مع أحمد.

الحقيقة هي أنَّ سنية لا يمكن لها إنجاب طفل، أيّ طفل، أسود أو أبيض أو أسمر من صلبه هو، إلا إن كان تخصيب النساء مثل زرع محصول البطاطس، حين كان الفلاحون يبتهجون بإيجاد ***waru wa maitika*** وهو **المحصول الرمزي الذي ينبت من البذور المتساقطة بالخطأ أثناء الحصاد.**

في ذلك اليوم في مخيّم الزعيم لونانا، حين كان بابو يقصُّ العشب بمنجله، ابتسم لمجموعة صغيرة من النساء أتين لاستراق بعض النظرات إلى ثور القرية، كما لقّبه السُكّان، وراقبهنَّ يقهقهن ويقارنَّ الملاحظات.

"لا يبدو عضوه الذكري كبيراً إلى هذه الدرجة." قالت إحدى النساء الشابّات.

"ليس لديكِ أدنى فكرة." أجابت أخرى، "عضو ذلك الرجل كبير كعضو حمار، لذلك يسدل قميصه عليه ليخفي قيمته الحقيقية."

لم يرَ بابو سنية منذ حادثة صف المشتبهين، وكان يتساءل عن مكان وجودها، ويفكّر في مختلف أنواع العقوبات التي تنتظره، أحدها أن يُطلب منه تزوّجها.

كيف سيتواصلان؟ بالطريقة نفسها التي تواصلا بها في أرض المستنقعات، باللمس والإيماءات؟ ومن سيختار من بين الاثنتين إن كان له الخيار، سنية أم فاطمة؟ هو لم يختر فاطمة، ولم يعرفها، لكنَّ المجتمع كان ينتظر منهما العيش معاً واحتمال بعضهما، وأن يحبّ أحدهما الآخر، ويربيا

أطفالاً معاً.

ألا تمتلك الخطبة منذ الولادة توقعاتٍ طموحةً أكثر من اللازم؟ كيف يمكن لغريبين أن يتوافقا بعد أيام من زواجهما ثم يعيشا سعيدين إلى الأبد؟ هناك راحة في معرفة أنّه اختار سنية عبر عدسة التلسكوب قبل أن يأتي بها أحمد إليه.

حتى بعد أن عرّضته لإذلالٍ علنيّ، لم يكن هنالك شكّ في قلبه أنّه قادر على تعلم حبّها والعناية بها، أما بالنسبة لأمر الطفل الذي ينمو في أحشائها، بذرة رجل آخر، كيف يمكنه التعامل مع ذلك؟ شعر بثقل مفاجئ حول عنقه وخنقته الكراهية، كان ذلك أكبر من أن يتحمّله شخص واحد.

فكّر كثيراً في لعنة ناهودا التي ألقاها عليه وعلى سلالته، هل سيطال ذلك الغضب نسله الموجود في هذا النزاع؟ توقّف بابو فجأة عن قصّ العشب وتمهّل ليفكّر بالوقائع، بما أنَّ الطفل الموجود في هذه القضية ليس من لحمه ودمه، إذاً لا بدّ من إعفائه من اللعنة التي ستحلُّ بنسله... جزّ العشب بحيوية جديدة.

يمكن أن يكون والد الطفل هندياً آخر، وبهذا قد تُشابِه ملامح الطفل ملامحه، كما كانت هنالك احتمالية أن يكون والده من عرقٍ آخر، فكّر بين ضربات منجله بالاحتمالات الجينية المختلفة ونتائجها المرجّحة، إن ضاجع رجل إفريقي سنية فسيكون الطفل أسود، ومن الصعب الزعم أنه هندي، لكنه رأى في السابق أشخاصاً دُكْن البشرة في البنجاب ولم يشكك أحد في جذورهم.

الطفل الناتج عن والدين أحدهما أبيض والآخر أسود يبدو في بعض الحالات أصفر البشرة، إن كان هناك رجل عربي متورّط في الموضوع فإن

النتيجة ستكون مشابهة لما ينتج عن والِدين، أحدُهما بنجابي والآخر إفريقي، وهكذا استنتج بابو أنَّ أيّ طفل يستقي ملامحه من الوالدين يمكن بسهولة أن يبدو طفله.

قد يأتي بعض النفع من هذه الفوضى، لن يشكّك أحد في قدرته على الإنجاب، لكنَّ جزءاً منه كان لا يزال نافراً من فكرة استيعاب كذبة لتناسب كذبته، نعم، إنَّ أحداً لن يشكك في قدرته على نقل الحياة إلى كائن آخر، بالرغم من أنّه يشكُّ في هذه القدرة هو نفسه، وسيكون تطور مجرى الأمور كله علنياً للغاية ممّا سيؤدّي على الأرجح إلى المزيد من العروض لإنجاب الأطفال في المستقبل، ارتعش لهذا الاحتمال، لا يمكن أن ينتج أيّ خير عن هذه المهزلة، ومن الأفضل إنهاؤها بأسرع ما يمكن.

ربما عليه التحدث إلى الزعيم لونانا ليرتّب فحصاً طبياً يُثبت أنّه بالكاد قادر على الحفاظ على انتصاب عضوه، لكن من المجنون الذي قد يُقدّم اقتراحاً كهذا، خاصّة لرجل آخر؟ كان بابو قد سمع أنَّ بعض الطوائف المسيحية تجري اختبارات كهذه لتحدّد ما إذا كان الرجال يصلحون للتدريب ليصبحوا قساوسة، كان الاختبار للتأكّد من أنهم لا ينضمون إلى الكنيسة للفرار من أحكام المجتمع على مشاكل اختلالهم الوظيفي الشخصي، يتضمّن الاختبار رمي امرأة تقطر جاذبية جنسية في غرفة مملوءة بالرجال ثم مراقبة تجاوبهم، الرجال الذين لم يكن لهم صوت، أي لا تثيرهم النساء جنسياً، كما يُسمَّون في المصطلحات الدينية، كانوا يُرفضون على هذا الأساس، بالرغم من أنَّ نداء واجبهم كان يتطلب بقاءهم عازبين طوال حياتهم، لم يعرف بابو إن كان ذلك صحيحاً، لكنّه لم يبدُ صائباً، ففي النهاية، لماذا يُرفض الرجال لأنهم لا يمتلكون شيئاً ما، وهم لا يحتاجون هذا الشيء لتأدية عهودهم الدينية؟

هذه هي الأفكار التي كانت تطوف في رأس بابو حين وصل الكاهن تيرنبول إلى زنزانته بعد اعتقاله، لم يثق بابو بالكاهن تيرنبول على الإطلاق، كان هناك شيء حياله لم يستطع تحديده، لكنَّ رجل الربّ بدا غير مستقرٍّ في بعض الأحيان، كان ليستعمل صفة مراوغ لو أنّه يتعامل مع رجل دنيوي.

"ينتابني الفضول حيال أمر واحد أيّها العامل المبتدئ... أنا-أنا أعني، ما اسمك؟" استهلّ الكاهن تيرنبول.

أخبره بابو باسمه، لكنَّ الكاهن تيرنبول بدا كأنه لم يسمعه.

"نعم، آآه-أمم، أيها العامل المبتدئ، ينتابني الفضول حيال أمر واحد، هل فعلتها أم أنّهم يلفّقون لك التهمة؟ أعني، أنني بصفتي رجل كنيسة، فالحقيقة أمر أساسي لي، هل كان لك، كما يسمّون الأمر في القانون، اتصال جنسي بالصبية؟"

"لم يكن الأمر بهذه البشاعة."

"ما الذي لم يكن بهذه البشاعة؟"

"لا تصف الأمر بهذه المصطلحات البشعة."

"ما البشع؟"

"المصطلح الذي استعملتَه، اتصال جنسي، هو بشع."

"إنه بالفعل كذلك، والأبشع صدوره عن بقرة عجوز مثلي، الآن، هناك أسباب لاستفساري، وسوف أفصح عن مصالحي الآن وهنا، أنا ألعب دورين في الوقت نفسه، رجل كنيسة وحامل رسائل، لا أعرف مدى إلمامك بما يسِمى ختان الإناث، أو ما يسمونه هنا ببساطة القصّ، هل كانت الفتاة مقصوصة؟"

"عليكَ اكتشاف ذلك." أجاب بابو، "بمكنك سؤال الأب، ظننت

أنتكما صديقان."

"لن تساعدك هذه الوقاحة أيّها العامل المبتدئ، يقول الإنجيل: قبل السقوط تشامخ الروح... اسمع، في هذا الجزء من العالم، إن تسبّب أحدهم في حمل إحدى الفتيات فهو ملزم بتزوّجها، سمعت أنَّ العمّال المبتدئين يتركون خلفهم صفاً طويلاً من الأطفال حيثما حلّوا، لكننا هنا نتعامل مع ابنة الزعيم، لذلك لا يمكن لك تزوّجها، لأنَّ ذلك يعتبر علامة تشريف، وهو ما لا يحقّ لك بعد عملك المشين، هل تفهم ذلك؟"

"إذاً كيف تنوي مساعدتي؟"

"يقول الإنجيل إنَّ الحقيقة وحدها ستحرّرك، أخبرني بما تعرفه وسوف أقرّر كيف أشارك المعلومات التي ستساعدك على أفضل وجه، أمّا في وضعك الحالي، فالربّ وحده من يستطيع مساعدتك، سوف تحتاج إلى مساعدات هائلة الحجم لتُخرج نفسك من هذه الفوضى التي أنت فيها، لكنّك رجل محظوظ لأنّي إلى جانبك، أريد أن أساعدك، كما كنت أقول... أين كنّا؟ القصّ... دعني أشرح الأمر لك، لقد كلفتني كنيسة إنكلترا التي أعمل لصالحها بجمع البيانات حول الأثر الاجتماعي لختان الإناث، سوف أقيّم ما إذا كان رادعاً مناسباً لممارسة الجنس قبل الزواج، والحمل غير المرغوب فيه، وأمور على هذه الشاكلة، دعني أَصُغ لك الأمر بهذه الطريقة، لديَّ خلفية طبية، وما فهمته عن الموضوع هو أنَّ القصّ إجراء مروّع -عقاب يطبّق على النساء- ولهذا يجب إيقافه. يسلب هذا الإجراء متعة التناسل، ويعقّد عملية الإنجاب، إذاً، ماذا تعرف عنه؟"

"عن ماذا؟"

"هل كانت مقصوصة؟"

ظلَّ بابو صامتاً، تنهّد ثم قال: "لا أعرف، لم أنظر."

"ليس أمراً تراه بل تختبره، ربما عليّ الشرح أكثر، ممّا نعرفه -أي أنا وآخرون ضالعون في الأنثروبولوجيا الإفريقية- يفترض بالقصّ أن يكبح الرغبات الجنسية عند الفتيات والنساء الشابات عبر إزالة بعض الأجزاء التي تثير الشهوة، فإن كان هذا الإجراء لا ينجح حقاً في تحقيق هذا المطلب بالتحديد، فهذا يمنحنا فرصة لإعادة النظر في هذا الطقس بمجمله، الفكرة التي لدينا هي أنّه بعد قصّ العضو، تُكبح الرغبة الجنسية، ولا أظنّ أنَّ هذا الجزء ينمو من جديد، على أيّ حال، تُخاط بعد ذلك قطعة وقاية حول المنطقة وتجعل... ماذا كانت الكلمة... الإيلاج مستحيلاً، هل هذا ما حدث؟"

"أيها النذل اللعين." هدر بابو ومشى بتشامخ إلى الحقول ليقصّ الأعشاب.

ظلَّ الكاهن تيرنبول يزور الفناء لكنه لم يتجرّأ على زيارة بابو مجدّداً إلا بعد انقضاء أربعة أسابيع.

"يا عاملي المبتدئ العزيز." بدأ حديثه، "هذه محاولتي الأخيرة، كما يقال، لمساعدتك، استمع جيداً إلى ما سأقوله لك، ليس عليك أن تجيب، كما قال المسيح للأحجار في البريّة، حتى وإن لم تجب، فهي على الأقل سمعت رسالته. هذا ما لديّ لأقوله: يبدو أنَّ قضيّتك تتعقّد أكثر من المتوقع، تنقسم الآراء حول ما يجب أن يحلَّ بك بعد ولادة الطفل، من جهة، يعتقد بعضهم بضرورة خضوعك للقانون البريطاني لأنّك أجنبي ولا يشملك قانون الماساي العرفي. إنَّ فكرة تأجيل عقوبتك إلى حين ولادة الطفل أصبحت تستنفد صبر الماساي، لم يسبق أن حدث هذا الأمر، يعتقد الشبان أنَّ الزعيم لونانا قد بدأ يصاب بالخرف ويفكّرون في الانقلاب على أوامره، إنهم يصرّون على

ضرورة إخضاع الجاني للعقوبة الفورية، لكنَّ وقف التنفيذ هذا يخلق توتّرات كبيرة، وبعضهم يرغب في إنهاء هذه الدراما، إنَّ الشبّان الشبقين الذين يتسبّبون في حمل الفتيات بين الماساي يُوضعون في خلايا مملوءة بالنّحل ويُرمون أسفل المنحدر، في بعض الأوقات تُشعَل النار في هذا القفير ليحترق متوهّجاً، بينما يتدحرج الشاب أسفل الجرف، أنت تدرك وجود منحدرات قريبة من المكان، لذلك فإنَّ دفع أحدهم أسفلها ليس أمراً صعباً، وفقاً لما فهمته فقد يكون هذا مصيرك قريباً جداً، ربما في الغد، لا تقل إنّي لم أحذرك."

تجمَّد بابو، كان عازماً على إثبات براءته، أو قضاء حكمه منتظراً إلى أن يسير نحو الحرية فتلك أفضل طريقة لتبرئة اسمه، لكنهم إن اختاروا التخلص منه ليحفظوا ماء وجوههم، فلديه التزام بالحفاظ على حياته، لم يعرف السبب الذي جعل الكاهن تيرنبول يتطوّع بتقديم المعلومات حول ما كان ينتظره، ولم يحاول التأكّد إن كانت هذه المعلومات صحيحة، لكنّه كما كان يعرف جيداً، فإن الرجال الموتى لا يستطيعون إخبار القصص، وفي بعض الأحيان من الأفضل الفرار والعيش للقتال يوماً آخر.

خلال سنوات الشقاء على سكّة الحديد، لم يفكر بابو أبداً في مغادرة عمله، لقد رأى رجالاً ينسحبون ويلوّحون مودّعين ليبدؤوا حياة جديدة، وكلّ ممتلكاتهم لا تعدو الملابس التي على أجسادهم، أصبح بعض هؤلاء فلّاحين يؤمّنون الخضار من قطع الأرض الصغيرة التي استصلحوها بينما كانوا يعملون في إنشاء السكّة. حاول أحد المزارعين المتحمّسين تدجين حيوان كركدن من أجل حليبه، لكن كما يقول المحلّيون، لقّنه الكركدن كتاباً لم يقرأه في المدرسة، وهناك من أصبحوا تجارَ أخشابٍ ونقلٍ يتعاقدون

مع أيّ شخص يحتاج إلى هذه الخدمات، وطبعاً كان هناك ***dukawallahs***[141] الذين كانوا يوفّرون البضائع العامّة.

تخيّل بابو لنفسه مستقبلاً مختلفاً، رغب في بناء السكّة حتى النهاية والوقوف إلى جانب آخر عربة بابتسامة عريضة على وجهه، جنباً إلى جنب مع التقنيين الآخرين بتضامن وانتصار، أراد بالتحديد رؤية المحطة الأخيرة التي قرّر الحاكم الاستعماري تشارلز إريكسون منذ البداية تسميتها مرفأ إليزابيث تيمناً بأميرة إنكلترا، كان الإنشاء سيستمرّ لستة أشهر أخرى، وهو الوقت المتبقّي تقريباً في عقد بابو، وسيتضمّن إتمام عقده بطاقتين مدفوعتين للعودة إلى البنجاب، لكنّه ظلّ يأمل في تمديد عقده كجزء من طاقم صيانة السكّة، أصبح كلّ ذلك الآن معرّضاً للخطر بسبب ما يخطّط له، إذ إنّه عزم على الفرار والنجاة بحياته.

أخذ بابو يتفكّر في خيارات هربه المتعددة، يمكنه أن يحاول رشوة الحارس، لكنّه لا يحمل أيَّ نقود، وما من ضمانة بأنَّ الرجل لن يشي به ويحرّض ماكدونالد على تشديد الحراسة، ربما عليه مصادقة الحارس، وهكذا عندما يسترخي وتتراجع دفاعاته يفرّ بابو نحو الحرية، لكنَّ ذلك سوف يستغرق زمناً طويلاً، وإن كان تيرنبول مصيباً فلا بدَّ من الفرار الآن.

أُزيلت أصفاده كي ينام، وأخذ الحارس موقِعَه قرب النار التي أشعلها ليبقي الحيوانات البريّة بعيدة، ظنَّ بابو أنّه يرى رأس الحارس ينحني في غفلات النوم، وبدأ يشعر بالقلق على سلامته، مشى نحوه ليحذّره بشأن النارِ لكنّه أدرك سريعاً أنّ هذه فرصته، فليترك الكلب النائم راقداً.

مشى باستراق نحو طرف السياج، وثنى قضبان الأسلاك الشائكة

---

141 Dukawallahs: أصحاب المتاجر.

ليصنع فجوة بينها، فرفص داخل الحفرة، لكنَّ شعبة من الأسلاك علقت بثيابه، بينما حاول تخليص نفسه، بدا الحارس كأنه سوف يستيقظ، تجمّد بابو، حدّق الحارس حوله ثم غطَّ في النوم من جديد.

تملّص بابو بلطف من الشعبة العالقة بملابسه، وظلّ مقرفصاً لعدة أمتار وهو يبتعد عن السياج قبل أن يفرَّ نحو الظلام والحرية.

كان يعرف أنّ عليه البقاء بعيداً عن سكّة الحديد أو أيٍّ من مستعمرات البيض الأخرى التي تتناثر في كلّ مكان، ويحمل العديد منها أسماء مقاطعات إنكليزية يفترض أنّ المالكين الجدد قد أتوا منها: ديفون، أنجليا، ردهيل، سري، برووك، شفيلد، جميعها تحمل في اسمها كلمة عزبة للإشارة إلى نية مالكيها البقاء في هذا المكان للأبد، كانت العزب كيانات قانونية يُراد لها البقاء بعد فناء مالكيها بكثير، ماذا كانت تسمّى هذه الأماكن قبل وصول البيض؟ سأل بابو نفسه للمرة الألف، وكيف كان السُكّان المحليون يشعرون حيال هذه الأسماء الجديدة؟ كان بابو متفاجئاً على الدوام من كثافة البيض السكانية التي تعاظمت في الأراضي الداخلية، وبدت كبلاد أخرى بعيدة عن سكّة الحديد التي غيّرت معالم التضاريس كلَّ عدّة أميال.

امتدت هنا التلال المعشبة حيث تثغو خراف المورينو أو تتناطح، بينما تسير الحمقاء منها خلف قادة قطعانها، ومعاطفها البيضاء بارزة على خلفية من الخضرة الممتدّة إلى ما لا نهاية، وهناك تنتشر شجيرات القهوة على أبعاد محسوبة، مقلّمة بأشكال كرويّة فتبدو كأنها جميعاً تمتلك تسريحة شعر البوب الأنيقة، بالهبوط أكثر حيث تنخفض درجة الحرارة، كانت تقع عزب الشاي، قطع من الأخضر المرتب المحاط برقع من حمرة التراب حيث تفصل الدروب كلّ قسم عن الآخر.

خطر لبابو وحي مفاجئ، لقد رأى مشاريع كهذه في البنجاب، ما يعلّق الموضوع هنا كان إيجاد طريقة لشحن ما تنتجه الأرض، وهنا يأتي دوره ودور الآخرين، لقد كانوا في هذا المكان لتركيب سكّة الحديد لنقل المحاصيل إلى الساحل.

كانت تلك لحظة تغيّر جذري في حياة بابو، لحظة خلقت، من دون علمه، روابط مع العرّافين المحليين مثل مي كاتيليلي وكيوني، الذين رأوا القطار وحشاً تتطلب معدته إطعاماً طائفياً إلى الأبد، وينذرون بدقّة عن سنوات الاستعمار القادمة.

في مسيره عبر الشجيرات، عاهد بابو نفسه بصمت أن يفعل شيئاً، لم يكن يعرف ما هو هذا الشيء بالتحديد، إلا أنّه أدرك ضرورة فعل أمر ما لمواجهة هيمنة البيض التي أخذت تتجذر أمام عينيه.

وفي تلك اللحظة أيضاً، أدرك أنَّ البيض والسود لم يُدرجوا في ما سُمّي استعراض الجنس.

في عقلية ماكدونالد، خُصص كلّ نوع من الجرائم لعرق مختلف من الأشخاص، والآسيويّون وحدهم من يقدرون على ارتكاب الجرائم العاطفية، من النوع الذي انغمس هو فيه، عادت أفكاره إلى الكاهن تيرنبول وتساءل عن مصلحته في الموضوع، على الرغم من أنَّ الرجل أفصح عن أسباب اهتمامه على الصعيدين العلمي والروحاني، فإنَّ بابو شكَّ في أن كلامه يخبّئ خلفه نية أكثر شراً بكثير، من يعرف، ربما كان هو والد طفل سنية، ضحك مع نفسه لهذه الفكرة.

مشى بابو ببطء حتى لا يبدو متلهفاً لمغادرة هذه الأرض، أو متعجّلاً للوصول إلى وجهته التالية، لم يكن يعرف إلى أين يمضي، كلّ ما يحتاجه

الآن هو ترك مسافة معقولة بينه وبين عمّال سكّة الحديد، وعلى الأخصّ المشرفون البيض الذين يُحتمل أن يشوا به إلى ماكدونالد، لذلك كان يسير عكس اتّجاه خطّ السكّة.

على طول الطريق، جمع ما يكفي من الفاكهة البريّة ليأكل ويوفّر للعشاء، ثم نام إلى جانب أحد الجداول بعد أن استحمّ وشرب حتى الارتواء، وفي الصباح كان ينطلق ليكرّر العملية، مع نهاية اليوم الثالث التقى بموجيبهاي، وهو مزارع هندي كان قد قفز من القطار السائر، كما كان كلّ من هجروا العمل يسمون فرارهم، كان موجيبهاي يرتدي عمامة ويمتلك شارباً مجعد الأطراف جعله يبدو مثل سمكة سلور، رحّب ببابو بحرارة، لكنّه توتر عندما عرف قصته الكاملة، وعبّر عن خوفه من أن يُقاطع ماكدونالد محصوله إن عرف أنّه يؤوي خارجاً عن القانون.

"**من الواضح أن هذا سوق أكبر من أن أخسر أنا من دون سبب قوي، أليس كذلك؟**" سأل موجيبهاي، "**ليس الأمر أنّي أطرد صديق أنا الطيب وكلّ شيء، لكن ذلك لن يبدو جيد وكل شيء، أنت تعرف هذه أشياء يا صديقي.**"

"نعم، أعرف." قال بابو بمسحة من السخرية، لكن لم يبدُ أنَّ موجيبهاي لاحظها.

"**أنت تعرف، نحن هنود أتينا هنا لإيجاد نقود وكلّ شيء.**" أضاف موجيبهاي، "**ولو أنّي وجدت نقود في بحر هندي، لكنت عدت أدراج أنا متوجه إلى هند، وهكذا فقدوم إلى هذا مكان من دون جني شيء نوع من حماقة...**"

طلب بابو اللجوء في المزرعة التالية، كان تشيتان مزارعاً هندياً آخر

يزرع اللوبياء، تطوّع بابو لمساعدته بجهده اليدوي مقابل البقاء في ضيافته، لكنّه لم يخبره بأيّ أمر يتعلق بظروف عمله، إلا أنَّ تشيتان كان قلقاً بشأن ما سيقوله بقية اليانيين عن استضافته لرجل مسلم.

وهكذا ابتهج بابو حين وجد المزارع التالي رجلاً مسلماً، ومن البنجاب أيضاً اسمه نذير وقد استضاف بابو، تعجّب بابو من طرق الطبيعة، لقد تحوّلت البذور التي عصرها نذير من حبة طماطم متعفّنة في الأرض الخصبة ثم حماها بمهاد من الأعشاب الجافة، إلى محصول وافر.

تقرّحت يدا ورجلا بابو سريعاً، على الرغم من أنّه لم يحصل على أيّ مقابل لقاء مجهوده، سوى فنجانٍ من عصيدة الذرة البيضاء كلّ صباح وطبقاً من السبانخ مع خبز الروتي للغداء والعشاء، وفي الأيّام الجيدة، كان نذير يأتي بالسمن والعدس من السوق الذي يبيع فيه الطماطم، كان بابو ينوي انتظار نضوج الطماطم، لكنَّ إقامته بُترت.

"يا صديقي... أتدري، لم أدرك أنّك مسلم سنّي وليس شيعياً مثلي." قال له نذير، "أتعلم، قد نكون بعيدين عن الوطن، لكنَّ قيمنا لم تتغير، السنّة والشيعة مثل الماء والزيت: لا يتخالطان..."

ثارت ثائرة بابو، قد يكون **اليانيون**[142] **والباتليون**[143] والهندوس والمسلمون قد غادروا الهند، لكنَّ الهند لم تغادرهم، لقد حملوا معهم الأنظمة الطبقية والتحيزات من قراهم، فكأنهم لم يسافروا، في لحظة اليأس تلك تقاطعت طرق بابو وكريم، صديقه القديم من السفينة المنكوبة التي أتوا بِها من الهند.

بالكاد التقيا منذ تحطّم المركب، وقد فقدا تواصلهما عبر سنوات إنشاء

---

142 اليانيون: يدينون باليانية أو الجاينية وهي ديانة هندية قديمة.

143 الباتليون: فرع من الهندوس.

سكّة الحديد لأنهما كُلّفا بأعمال في أقسام مختلفة، في حين أُرسل بابو ليسبق الجميع لمسح ووضع خرائط طرق القطار الممكنة، كان كريم من ضمن الذين عُينوا لصيانة وإصلاح عربات الترام التي كانت تُستعمل لاختبار السكك فور تركيبها.

كان وزن كريم قد ازداد بعض الشيء وقد بدا مبتهجاً، حين شرح له بابو بهدوء ورطته، ضحك كريم بصوت مرتفع ولوقت طويل إلى درجة أنّ عينيه امتلأتا بالدموع، حين هدأ قليلاً قال وهو على وشك الدخول في نوبة أخرى من الضحك، "يا صديقي العزيز، أنت سيّد الحطام، في البداية كنتَ عالقاً في البحر، والآن أنت عالق على اليابسة."

"على الأقل لا يمكن أن أغرق على اليابسة." قهقه بابو للنّكتة التي قالها هو، "أنا فقط لا أستطيع إنقاذ نفسي، قوى الطبيعة خارجة عن سيطرتي تماماً."

" أنت محقّ تماماً." قال كريم مشاكساً، "من الصعب السيطرة على نداء الطبيعة، خاصة ذلك النوع المقيّد بزمام منزلق."

"أستطيع السيطرة على زمامي المنزلق بكل تأكيد." أجاب بابو بنبرة دفاعية.

"نعم يا صديقي العزيز، ذلك واضح تماماً." قال كريم بابتسامة، "لكن اسمع، لقد وصلتَ إليّ في وقت حرج، أنا على وشك هجر السفينة، أو القطار في حالتنا هذه، لكنّي لست واثقاً أين سأذهب، كل ما أعرفه هو أنّ عليّ الرحيل، إن كنت تريد مرافقتي..."

شكره بابو على هذا العرض، لكنّه شرح له ضرورة اختبائه في هذه الفترة حتى تهدأ الأمور، لكنهما تواعدا على البحث عن بعضهما.

قرر بابو أن يسبت لموسم كامل، كان سكنه القادم كهفاً يسمّيه المحليون ***ngurunga ya itugi*** لأنّ الأحجار الصلبة مزروعة في مدخله مثل ساريات الأعلام، لقد ترك البنجاب تقنياً شاباً قبل أربعة أعوام والآن تحوّل إلى رجل كهف، هذا ما يفعله البريطانيون بك، فكّر بمرارة.

لسبب ما، ابتهج بابو حين عرف أنَّ الينبوع المنبثق من ذلك الكهف كان يغذّي ينابيع أخرى على طول انحدار التلة، تصبُّ جميعها في البحيرة الهائلة التي استوطنتها طيور الفلامينغو قبل تسعة أشهر، وفرح أكثر حين مرَّ بجذع الشجرة المقطوعة حيث جلس ليزيل الشوكة من قدمه، ما وجده جذّاباً ومفرحاً في الوقت نفسه هو أنَّ الدرنة النباتية ذات الحافات الحادّة والتي ثَقَبَت قدمه وأسالت منها ثماني قطرات من الدماء كانت قد نمت لتصبح أجمة كبيرة.

كانت هذه أجمة القنّب الأولى في المستعمرة، أسقط المستعمرون المتعمقون في الوادي المتصدّع بذورها عرضاً، حيث فشل محصول بأكمله بسبب قسوة المناخ، وهذه البذرة البريّة التي سقطت في الدغل وجدت لنفسها ظروفاً يسيرة ونمت من دون أيّ تدخل بشري، تنتصب النبتة الآن بارتفاع مترٍ كاملٍ، بأوراقها السيفية العريضة البارزة في جميع الاتّجاهات، بدت النبتة كنجمة مقلوبة وكانت محاطةً بفروع منبثقة، عرف بابو من ممارسته الحديثة لزراعة الخضار والطماطم أنها تحمل بذور النبتة.

بينما سجد بابو على ركبتيه يزرع بعض البذور مستعيناً بالمدية الكبيرة التي جلبها من آخر نقطة كان فيها، فكّر بالعدد الهائل من المهامّ التي لا يمكن للمرء تنفيذها، إلا إن كان على ركبتيه، رجل يجتهد في الصلاة، لصٌ يفتح قفلاً عنوة، رجل يمارس الجنس، في جميع تلك الحالات كان هناك نوع

من توقّع مكافأة، ثمرة ما لجهودهم.

أثناء عمله، فكّر بابو متكاسلاً بأحمد، وتساءل إن كان قد أبلغ فاطمة بما حاق به، لكنَّ ذهنه كان ينشغل سريعاً بالعمل الذي بين يديه، لم يعبأ بأنَّ هذه الأجمة لن تحمل أيّ ثمار مرئية، بل كان مسحوراً بعظمتها وحجمها فحسب.

نظّف رقعة صغيرة من الأرض وقطع فروع القنّب بحذر، ثم نقلها إلى تلك الرقعة، زرع الفروع بفواصل قاسها بخطواته لأنه لم يمتلك معدّات أخرى، عاد بابو إلى النبتة الأم بعد عدة أيام فوجد المزيد من الفروع، قصّها ونقلها إلى رقعة أخرى من الأرض التي استصلحها، كانت غريزته تخبره بأن هذه الأجمة ستعود عليه بشيء ذي قيمة، لكنّه لم يعرف ماذا أو كيف.

استمرّ بهذا العمل طوال الشهر التالي، ينهض كلّ صباح من كهفه ليرعى نبتته الغامضة، يسقي شتلاته في الصباح قبل أن يذهب إلى الغابة لجمع مؤن الطعام.

مع إتمامه لشهرين من العيش إلى جانب البحيرة -وأربعة أشهر منذ فراره- كان قد زرع فداناً كاملاً من القنّب.

أنجبت سنية ابنة الزعيم لونانا مع نهاية الشهر الثالث من اختفاء بابو، وولدت فتاة بعينين شديدتي الزرقة وضحكات عريضة، كأنها تسخر من الظروف الكئيبة لمولدها، سُميت هذه الطفلة رحيمة سليم، وأُخذت كنيتها من اسم بابو.

لو أنها لم تخرج من فرج امرأة سوداء لاعتقد المرء أنّها طفلة بيضاء، وكأن أمّها كانت مجرد وعاء للإخصاب والإنجاب، تماماً كما تحمل عربات القطار بضائع لم يكن لها أيّ شأن في صنعها.

ألقى الزعيم لونانا نظرة واحدة على الطفلة، ثم أعلن أنّهم قبضوا على الرجل الخطأ، لقد ثبت أنَّ العامل المبتدئ لم يكن الشخص الذي كسر ساق عنزته، وعليهم البدء بالبحث في مكان آخر.

حين عرف أحمد بأمر الطفلة ذات العينين الزرقاوين، أدرك أنَّ هذه فرصته لإيصال بعض الأخبار الحسنة إلى بابو، إنما كان للقدر طرقه في عرقلة خططه، على الرغم من أنَّ أحمد كذب حين طلب من باترسون إذناً للذهاب إلى مومباسا لإرسال برقية عاجلة إلى الوطن، إلا أنَّ كلماته عادت لتطارده حين وصلت برقية من مومباسا على متن القطار في ذلك اليوم بالذات، كانت من فاطمة، وقالت الكتل السوداء من الحبر: **أيها القريب عبدول، أهلاً بك إلى العائلة، أنا بانتظار طفل.**


منزل الظلام

Hadithi Hadithi! Paukwa? هذا التماس للتأكّد من أنَّ القارئ لا يزال موجودًا معنا، ولئلا تكونوا قد مللتم من جرّكم عبر منعطفات التاريخ في محاولة لفكِّ تشابكات الغموض الذي لا ينجلي تماماً، هناك قصة البوق الموجود فوق رفِّ المدفأة في منزل بابو في ناكورو، والذي يتذكّره بابو حين يرتعش مستعيداً الماضي.

هناك قصة الخِطبة، تلك التي تتضمن راجان، على الرغم من أنّه لم يكن يعلم بوجودها، هناك أيضاً قصة العروس العذراء، والآن، القصّة الأهمّ عن الرسول المبعوث بأنباء عن طفل غير شرعي لرجل ما، لكنّه يعود بأخبار علاقته المحرّمة التي نتج عنها طفل.

إذاً دعونا نُنهِ هذا الانتظار الذي يشبه المرأة الحامل، ونكشف عن الحقيقة المقتضبة التي سيتملّص بابو من بعضها بقية حياته.

تماماً كما وقعت مهمّة إتمام زواجه على أحمد وليس عليه، فإنَّ أحمد سيكون كذلك الرجل الأول ليعرف كيف حصلت فاطمة على ملكية البوق الذي يهدّئ روح البحر، والذي كان مرتبطاً بالسؤالين المتعلّقين بعذريتها وبالشفاء الإعجازي لساقيها.

حين كان بابو وفاطمة على متن (إم. في. سلاما) في رحلتهما الأولى إلى محمية شرق إفريقيا البريطانية، بدأت السفينة بالدوران في يومها السابع في البحر، ظلّت تلفّ إلى أنْ شَعَر الجميع بالدوار، وخشيت فاطمة أنّها لن تنجو من هذه الرحلة. في حرارة اللحظة، حين غطست السفينة وشربت الماء حتى الامتلاء وهي تتحرّك ببطء إلى الأمام والخلف، وكأنها تعاني الحازوقة بسبب

كلّ هذا الشرب، وألقى بابو بالإهانات على ناهودا -الذي ردَّ عليه باللّعنات- من دون أن يعرف أنَّ زوجته الصبيّة كانت حاضرة وتستمع، ظلّت فاطمة الخائفة التي تشعر بالبرد والوحدة تبكي تتمّة الرحلة، ورجلاها المحشورتان خدرتان بسبب مياه المحيط الهندي الدافئة والمالحة.

حين علمت فاطمة أنَّ بابو لجأ إلى فتاة محلية ليريح نفسه، بينما كانت تنتظر عودته لتفاجئه بالأخبار الجيدة المتعلقة بقدرتها على السير من جديد، قرّرت أن تردَّ له الصاع صاعين، العين بالعين، رجل مقابل امرأة، طفل لقاء طفل، تطلّب وصول أنباء حملها بطفل أحمد إليه ثلاثة شهور كاملة، وفي ذلك الوقت كانت ملحمة طفل بابو قد اتخذت منعطفاً مفاجئاً جديداً.

لقد حصل بابو على براءته، لكنه لم يعرف ذلك، فقرّر أحمد، الرجل الذي كان على وشك نقل الأنباء إليه، إلغاء رحلته بعد اكتشافه أخبار حمل فاطمة، كيف ينظر رجل في وجه آخر ليقول له:

"يا صديقي، حين أرسلتني لأرى زوجتك، فعلت فعلتي كأنَّ الأمر لا يخصُّ أحداً، وهي الآن حامل بطفلي، أو سمّه طفلنا أنا وأنت، لكنّك خرجت من ورطة ابنة الزعيم، إذ يبدو أنكَّ قضيت وطرك من دون أن تترك بذرتك."

انتظر أحمد عدّة أسابيع إلى أن استجمع ما يكفي من الشجاعة لمواجهة بابو، بحلول ذلك الوقت، كان يطمح إلى شيء آخر في حوزة بابو من شأنه أن يعزّز علاقاته مع العائلة لمدّة طويلة.

تصادف اختفاء راجان ومريم مع بدء موسم التفكّك الاجتماعي، ظهرت إشاعات عن حدوث أمور غريبة في مختلف بقاع البلاد، ولم يعد المرء يعرف ماذا يصدّق وماذا يستبعد، اكتسب غاثينجي الجزّار اسماً جديداً، أصبح اسمه غاثينجي المشيع لأنّ تحيته للزبائن صارت تبدأ بعبارة: "هل سمعت ما يشاع...؟"

كانت هناك شائعات حول كلّ شيء تقريباً، وقيل إنَّ بعض الأمور الفظيعة قد حدثت للهنود في ريويرو، وهي بلدة تبعد حوالي ثلاث ساعات شرق ناكورو، كما كانت هناك شائعة عن الرجل الأبيض الذي طلى نفسه بالأسود، إذلالٌ رُوي أنّه حدث تحت إشراف رجال عراة يرقصون تحت مشعل متّقد ووجوههم تقطر مغرّةً وطبشوراً، بينما يحملون بين أيديهم ديكة تصيح كلما نُغزت.

وجود الديك يفسّر كلّ شيء، إنه شعار أحد الأحزاب السياسية الرئيسة، لكنَّ ما حثَّ غاثينجي وقاطِني ناكورو الآخرين على الانغماس في الشائعات باهتمام شديد كان تلك الشائعة التي تدور حول راجان واختفائه من الجاكاراندا.

روى غاثينجي حادثة ريويرو كالآتي:

أتى القائد الجديد، الرجل الكبير، بزيارة مفاجئة في ما يسمى بجولة: الالتقاء بالناس. وهذا كان يعني التوقّف في المراكز التجارية حيث تؤدّي النساء المسنّات رقصات تثير الغبار، يحفرنَ بأعقابهنّ مدغماتٍ خطواتهنَّ الكاملة ويهززن أردافهن التي كانت تفاصيل أبعادها معزّزة بتنانير من القنّب.

في لحظات الإثارة، كان (الرجل الكبير) يترك سيارته ويشارك في الرقصة السريعة، وهو يتمايل مثل منشّة الذباب، أو يمسّد لحيته ليُظهر تقديره للجهود المبذولة، كان يخاطب الجمهور لعدّة دقائق، عادة ما يكون ذلك من فتحة سقف سيارته الليموزين، وهو يحثّ الناس على استقبال ودعم ***serikali ya Mwafrika*** أي **حكومة الرجل الأسود**، ثم يغادر بسيارته إلى وجهته التالية.

وفقاً لرواية غاثينجي، جرت الأمور بسلاسة في عدّة محطات على طريق الرجل الكبير وقافلته، تألّفت وحدة حراسته من الجنود، ورجال شرطة عاديّين يرتدون خوذات لبّ، ويحملون قنابل غازٍ مسيلٍ للدّموع، وأسلحة أخرى مثل العصي أو ***manogore*** كما كان يسميها غاثينجي لأنها كانت قادرة على تهدئة العضلات المشدودة في حال استعمالها بشكل مناسب، فضلاً عن الهراوات الثقيلة التي سمّاها المحليون ***mathiukure*** لأنها تستطيع فلق جمجمة بشرية بضربة واحدة، كما أنها مفيدة عند الحاجة لتحطيم أبواب مقفلة.

إنَّ سبب مرافقة وحدة حراسة مدجّجة بالأسلحة للرّجل الكبير كان أمراً مفهوماً تماماً، فعلى الرغم من جهل غاثينجي لهذه المعلومة، إلا أنَّ ***serikali ya Mwafrika*** كان لها أعداء كثر.

لقد تذوقت جمهوريات توغو وداهومي التي أصبحت تُعرف الآن باسم بنين طعم فاكهة الانقلاب المرّ، وعاد سادتهم الفرنسيّون إلى القيادة قائلين إنّهم أدركوا خطأهم في مغادرة القارّة أبكر من اللازم، كما انتشرت شائعات عن متاعب قادمة في غانا كذلك، لأنَّ البريطانيين لم يكونوا راضينَ عما يفعله **كوامي نكروما**[144] فهو ينبح، كما قالوا، مثل كلب مجنون

144 كوامي نكروما: (1909-1972) سياسي غاني ثوري، وأول رئيس وزراء ورئيس لدولة غانا.

عن الوحدة الإفريقية، بعد أن قضوا عقوداً في تقسيم القارة، لكنّ تحليل غاثينجي لسبب حاجة الرجل الكبير إلى وحدة حراسة بهذا الحجم كان أبسط من ذلك، لقد رُمي بالبيض المتعفّن في بعض التجمّعات الشعبية، لذلك لم يكن ليخاطر بتكرار هذا الأمر.

وقد سمع غاثينجي كذلك أنَّ الحراسة الأمنية المشدّدة هي تأكيد لما يشكُّ به العديد من الأشخاص وأنكره الرجل الكبير مراراً: إنّه هو القائد الروحي والسياسي للجماعة المسماة ***Kiama Kia Rukungu*** -حزب الغبار- والتي كانت تجتاح المزارع على طول الوادي المتصدّع، وتضايق المزارعين البيض.

وهكذا قرّر العديد من التجّار الهنود المتأرجحين حيال القائد الأسود الجديد، قرّروا أنّه لا داعي للتزلف المصطنع لرجل لا يثقون به تماماً، والذي كانت تصرفاته حيال الأجانب مثيرة للشكوك، فاختاروا إبقاء متاجرهم مفتوحة في انتظار الزبائن عوضاً عن حضور جولة الالتقاء بالناس التي يقيمها.

"تعرفون كيف هؤلاء الهنود." قال غاثينجي، "سمعت إشاعة مفادها أنَّ كلَّ واحد منهم يخبّئ أمواله تحت فراشه، لذلك لا يستطيعون المغامرة بالخروج وترك كنوزهم من دون رعاية."

لكنَّ الهنود لم يكونوا وحدهم الذين اختاروا تجاهل جولة الرجل الكبير، على الرغم من عدم معرفة غاثينجي لذلك، فقد فوّت السكان المحليون الآخرون في ريويرو الاحتفال أيضاً، وهكذا لم تجد حاشية الرجل الكبير عند وصولها سوى رجل مسنّ وبدين، يرتدي قميصاً وسروالاً قصيراً وضيّقاً بلون خاكي، ويبيع الموز على حافّة الطريق، كان يستعمل منشّة ذباب ليبعد

الحشرات، بينما تقضم ماعزه القشور المرمية عند قدميه، انجذب الرجل الكبير مباشرة لهذا البائع الذي بدا أنّه يقاربه في السن، لكن حين ثغت الماعز وأسقطت واحدة منها تلّة من البراز، ظنَّ الرجل الكبير أنَّ السكّان المحليين رتّبوا مهزلة للسخرية منه، خاصّة حين بدأت الماعز بالتغوط. بلمحة عين، حمل أفراد الحراسة الرجل ذا السروال القصير الخاكي ***juu juu***، وحين أعادوه إلى الأرض بدا البائع مثقباً، كان أنفه يسيل، وعيناه دامعتان، حتى أذناه كانتا متعرقتين، وظهرت على بنطاله بقعة صغيرة من البلل، لقد أنقذته ماعزِهُ التي أخذت تعضُّ الرجال ذوي الملابس الموحدة.

لكنَّ إشاعة غاثينجي لم تكشف القصة الكاملة، فسريعاً ما نسي أمر الرجل العجوز وأخذ يتحدث عن المصير المريع الذي حلَّ بالهنود في ريويرو بعد أن انتشر الجنود ليعرفوا سبب وجود ماعز أكثر من البشر للقاء الرجل الكبير.

لقد طُلب منهم معرفة الأمر الذي شغل التجّار عن حضور حدثٍ وطنيّ تُدشَّن فيه حكومة الرجل الأسود ويلتقي قائدها بالناس، بما أنَّ التجّار الهنود كانوا يشغلون جميع المحالّ في المنطقة، فقد كانوا هم الضحايا الرئيسين، جلس بعضهم يرتشفون الشاي ويضبطون دفاتر حساباتهم، لذلك ذُهل العديد منهم حينَ تقدُّمِ الجنود.

في إحدى اللحظات كان صاحب المتجر يستعدّ لتحية زبون مقترب بابتسامة أنيقة جاهزة للارتسام على وجهه، وفي اللحظة التالية تتجمّد هذه الابتسامة حين يعلن الجندي عن مهمّته بأداته الوحيدة للتواصل، وهي ضربة عصاً تهبط على الكتف. لم يكن هذا النوع من الضربات قوياً كفاية لتحطيم العظام، لكنّه يحمل من البطش ما يوصل الرسالة بإمكانية تحطيم

بعضها في حال عدم تعاون الطرف الآخر على الفور.

إحدى القواعد المعروفة ضمنياً في الأعمال الحربية -وبعض التجار الهنود استطاعوا تمييز هذا الهجوم على أنّه عمل حربي- هي أنَّ الشرير كما الضحية ليسا مستعدّين لإخبار الحقيقة كاملة بعد انتهاء الحدث، دافعُ الشريرِ هو الإيهامُ بأنّ درجة الأذى والخسارة أقلُّ ممّا تجعله الذاكرة يزداد مع كلّ استعادة للأحداث، أما دافع الضحية فهو تمويه المدى الكامل لما حدث من انتقاص لإنسانيتها على يد وحشية الآخرين، وهكذا مسحت النساء اللواتي كنَّ على الأرض منفرجات السيقان ومشرعات الأذرع، مسحن آثار الدماء الموجودة على أرضيات المتاجر بصمت، بينما كانت دموعهن وحدها قادرة على غسل كلّ الدماء، وأنكر التجّار الذين فقدوا مدّخرات حياتهم الموجودة تحت الفراش أنّها كانت أكثر من مجرد غلّة هذا اليوم فحسب. على أيّ حال، سوّيت الحسابات، في ضربة واحدة فُقدت مدّخرات العمر كلّه، وترك الألم ندبات ستبقى مدى الحياة.

إنَّ الهجوم على التجّار لم يدم أكثر من خمس عشرة دقيقة، لكنَّ الجنود مدرّبون على تناول وجباتهم في أقلّ من دقيقة واحدة، وقد تردّد صدى ضربتهم في ريويرو على امتداد أصقاع الأرض، مهموساً من أذن إلى أخرى إلى أن وصل محلّ جزارة غاثينجي في ناكورو -على بعد حوالي مئتَي ميل- من دون أن تفقد هذه الحكاية زخمها. ما ابتلي به الهنود في ريويرو سوف يمثّل تحذيراً قوياً للآخرين، إنَّ حكومة الرجل الأسود القادمة جديّة تماماً، وإنَّ تجاهل المرء لها سيكون على حساب سلامته الشخصية.

هناك قصة أخرى كان غاثينجي يحكيها بتكرار، بينما دحضها روّاد المكان الآخرون قائلين إنّها مجرد ثرثرة، تحدثت عن أحد الرجال البيض الذي

طلى نفسه بالأسود لينقذ حياته، يقال إنَّ الرجل الأبيض كان يجوب مزرعته على ظهر حصانه حين التقى بعض أتباع الطائفة السريّة المسماة ***Kiama Kia Rukungu***، في تلك الأمسية بينما جال أفراد الطائفة القرى وهم يقرعون طبولهم ويغنّون ويرقصون، ذابت الأصبغة البيضاء التي طلوا بها وجوههم ما جعلهم يبدون رماديّي اللون.

حين قابلوا الرجل الأبيض على ظهر حصانه طلبوا منه الترجّل.

"انزل عن ظهره، وحدها الطيور من تقبع على هذا الارتفاع." هكذا قال قائد الطائفة كما يُروى.

لكنَّ الرجل العجوز كان يعاني مشاكل في السمع، وحين قذفوا ديكاً في وجهه فسقط إلى الأرض وبدأ يؤدّي رقصة غريبة، فهِمَ الرجل أنّه سوف يكون في مأزق كبير ما لم يتعاون ويقلّد فعل الديك، وهكذا ترجّل عن فرسه ورقص رقصة الديك، واعتقد رجال ***Kiama Kia Rukungu*** أنّه يحاول جعل نفسه رجلاً أسود، تماماً مثلما جعلوا وجوههم بيضاء باستعمال الأصبغة.

"غاثينجي، أخبرنا شائعة أخرى." حثّه أحد الزبائن الشكّاكين حين انتهى القصّاب من رواية هذه القصة.

"دعوني أخبركم ***undo kwo undo.***" أصرَّ غاثينجي، "أقسم أنّي أخبركم بالحقيقة..."

في إحدى الأمسيات، واجهت أحاديث غاثينجي التي ينتقل فيها من موضوع إلى آخر وقفة مباغتة، وصل الكثيرون للحصول على جرعتهم المعتادة من الجعة واللحم المشوي، فضلاً عن الرفقة، أي تقصير الليالي، كما يسمون هذه الجلسات، كان هذا الالتقاء مع الرجال الآخرين مفيداً، وقد تهامس الكثيرون، لكن بما أنَّ الموسيقا قد توقّفت، انتقل اهتمام الناس من

المسرح المرتفع إلى الزاوية التي يستقرّ فيها التلفاز الأبيض والأسود في ظلام نسبيّ، يجتذب ضوؤُه الومض عيون وأسنان المجتمعين.

"صصصصه..." فحَّ أحدهم حين ملأت صورة الرجل الكبير شاشة التلفاز، كان نمط لحيته يجعله يبدو مثل ذكر الماعز، كما أنَّ صوته كان كذلك مثله.

"Wale wanaoleta nyoko nyoko walikuwa wapi ile miaka tuliyokaliwa mabegani na beberu? Kumanyoko!"

لم تُعرض ترجمة لكلماته على الشاشة، على الرغم من أنَّ الحشد هدر ضاحكاً، ربما دغدغته الكلمات المسجوعة مثل ***nyoko nyoko*** التي تعني المتاعب، أو ***bebeeru*** التي تعني ذكر الماعز، لكنها في هذا السياق اسم احتقاري يعني المستعمر، أو ربما تكون الشتيمة التي قالها هي ما استحثّ الضحكات التي كادت تعصف بسقف الجاكاراندا، لم يستمع المجتمعون لتتمة البيان، حتى بعد أن أمر عددٌ من السادة الآخرين بالتزام الهدوء.

ثغا الرجل الكبير لدقيقتين كاملتين قبل أن ينهي خطابه بشتيمته المفضلة، ***kumanyoko***[145]، مع نهاية البثّ انفجر رواد الجاكاراندا بالحديث، إذ أخذ الجميع يتكلمون في الوقت نفسه.

18

في عدد اليوم التالي من صحيفة دايلي نيوز نُشر وصف تفصيلي لخطاب الرجل الكبير:

---

145 Kumanyoko: فرج والدتك (السواحيلية).

والد الأمّة، أو الرجل الكبير كما يُعرف، قد أصدر إيعازات بضرورة تسوية أوضاع جميع الأجانب القاطنين في كينيا والذين تخطّوا الثامنة عشرة بحلول الأول من يناير 1963، ليستطيعوا مواصلة إقامتهم، ومن المفهوم أنَّ هذا القرار لا يشمل البريطانيّين المقيمين في البلاد والذين أتى معظمهم ليشغلوا مناصب إداريين استعماريين مع بداية هذا القرن.

لقد وصل في هذه المدّة ما يقارب 30,000 هندي ليملؤوا شواغر عمّال متعاقدين وليبنوا سكّة الحديد الممتدة لخمسمئة ميل، والتي تبدأ من مدينة مومباسا الساحلية، وتنتهي في مرفأ إليزابيث، وتضم ثاني أكبر بحيرة مياهٍ عذبة في العالم، مسماة على اسم ملكة إنكلترا، من هذا العدد الإجمالي توفي 5,000 هندي، التهمت أسود التسافو بعضهم، بينما مات آخرون إثر عدوى بعض الأمراض الاستوائية مثل الملاريا والتسي تسي، لكنَّ الكثيرين منهم ظلّوا على قيد الحياة ليروُوا هذه الأحداث، وقد بقي حوالي 6,000 عاملٍ بعد اكتمال المشروع لبناء المستعمرة الجديدة، واتخذوا مناصب إداريين وموظفين ورجال شرطة، لكنَّ غالبيتهم يمتلكون أعمالهم الخاصّة، ويُتوقع أن يؤدّي سحب رؤوس أموالهم الخاصة إلى إبطاء الاقتصاد، أو تعطيله كاملًا.

كما من المحتمل أن يضع تطوّر الأحداث هذا عددًا من الأمور في موضع حرج، لقد مُنح العديد من العمّال المهاجرين أوراقًا تعرّفهم بصفة رعايا بريطانيين وليس مواطنين، لأنَّ

بلادهم كانت في الأصل تحت الهيمنة البريطانية حتى عام 1947، حين نالت الهند استقلالها، يمكن لهذه العائلات الاختيار بين تعزيز روابطها البريطانية عبر الهجرة إلى بريطانيا، أو العودة إلى الهند، أو الحصول على الجنسية الكينية، وقد يكون خيار الاستقرار في بريطانيا ضبابيًا، لأنَّ الرعاية البريطانية لا تعني بالضرورة الحصول على الجنسية تلقائيًا.

إنَّ حملة منع هنود محمية شرق إفريقيا البريطانية من الهجرة إلى بريطانيا أصبحت تلقى اهتمامًا من حزب المحافظين، وقد بدأ هذا مع تحذير أحد كبار أعضاء البرلمان أنَّ السماح لآلاف الهنود بالوصول إلى بريطانيا سيكون الفاتحة لجريان (أنهار من الدماء).

لكنَّ بقاءهم في كينيا إشكاليٌّ بالقدر نفسه، لقد كانت الهند حتى عام 1947 مستعمرةً بريطانيةً، ويرى الكينيون الهنود جزءًا من العناصر الاستعمارية، كما أنهم استمتعوا بسلطة لا يستهان بها خلال السبعين عامًا التي سيطرت فيها بريطانيا على شرق إفريقيا، فقد عُيّنوا برتب إداريين ومدراء وتقنيين، أما بالنسبة للتراتبية المستعملة خلال الحكم الاستعماري فقد احتلّ فيها الهنود المرتبة الثانية بعد البيض، وكان العرب في المرتبة الثالثة، والأفارقة في أسفل الهرم، وهو ترتيب على وشك التغيّر كليًا مع بدء استخدام قاعدة أكثرية السود حيث سيكونون في قمة السلم الاجتماعي، وسوف يتّضح لاحقًا أمر المكان الذي سيُخصّص للهنود في نظام العالم الجديد، لكنَّ التعقيد الحقيقي هو قضية الجماعات والعائلات التي تنتمي إلى

بلدان تعرّضت للتفكك بعد مغادرتهم لها، مثل البنجاب الذي كان منطقة ذاتيّةَ الحكم، لكنّه الآن دُمج في الهند الكبرى وباكستان، لقد لاقى البنجابيون تشجيعًا للهجرة إلى محمية شرق إفريقيا البريطانية كما كانت تسمى كينيا في ذلك الوقت، للعمل في مناصب تقنية لإنشاء سكّة الحديد، تحدُّ هذه الحالةُ الخيارات المتاحة أمام البنجابيين، لأنّهم ببساطة لا يمتلكون بلدًا ليعودوا إليه، وخياراتهم هي إمّا البقاء في كينيا أو الهجرة إلى بريطانيا، وإن أغلقت بريطانيا أبوابها في وجوههم فعليهم إذًا الاكتفاء بالبقاء في كينيا، حيث يبدو مستقبلهم للوقت الحالي صعبًا وغير واضحِ المعالمِ إلى حدٍّ ما.

عقب حادثة من العنف غير المسوّغ الذي حلَّ بهنود بلدة ريويرو بعد أن تجاهلوا إغلاق متاجرهم والخروج لتحيّة حاشية الرجل الكبير أصبحت الثقة بحصولهم على حماية القانون الكاملة أمرًا مستبعدًا، ويأتي هذا التطور سريعًا بعد عدد من الهجمات الفردية على مزارع للرجال البيض في أماكن متفرقة من البلاد على يد أفراد العصابة التي تسمّي نفسها ***Kiama Kia Rukungu*** أو حزب الغبار، وهي جماعة سياسية ودينية مزعومة تعهّدت بجعل المستوطنين البيض يرون الغبار، وتعهدت بغزوهم والاستيلاء على مزارعهم، لقد روّعت هذه الهجمات العديد من أصحاب المزارع الذين بدؤوا منذ ذلك الوقت في الانتقال إلى المستعمرات الإفريقية الجنوبية مثل رودسيا وجنوب إفريقي.

وفي أحد التجمعات العامة تحدّث الرجل الكبير بالسواحيلية
مخاطبًا الناس، ونفى أيّ صلة له بأتباع ***Kiama Kia Rukungu***،
كما أنّه شدّد على التزامه بحماية الممتلكات الخاصة في مواجهة ما
أسماه (أعداء التطور).

كما هو متوقع، لم يقرأ الكثير من الأشخاص جريدة ديلي نيوز، ولهذا كان عليهم الاقتناع بالأخبار المنقولة عن ثلاثة أشخاص أو أربعة أو خمسة، وهكذا لم يعرف أحد ما هي المعايير المطلوبة لتدقيق البيانات، أو حتى المكان الذي ستجرى فيه. مع نهاية الأسبوع، استُخدم عدد من القاعات الاجتماعية من أجل هذا الغرض فضلاً عن الحقل الخاصّ بجمعية كينيا للمزارعين، والذي أصبح في نهاية الأمر استاد قطاع ناكورو.

جرت بعض اللقاءات بصورة أفضل من غيرها، مثل مقابلة أحد الإسكافيين الهنود، الذي وصل إلى المكتب الحكومي مع أبنائه وأبنائهم وكلّ الفراش والأغطية الموجودة في منزله، أراد من السلطة أن ترى بنفسها أنّه لم يحتفظ بأيّ أموال تحت فراشه كما كان يُنسب إلى أصحاب الأعمال الآسيويين، وأخبر موظفي الغربلة أنّه ملزم بإطعام عائلته إلى درجة منعته من توفير أيّ قرش ليخفيه تحت الفراش.

"أعرف أنَّ بعض قومي يحبون إبقاء رِجلٍ هنا وأخرى هناك، مثل الضباع، لكنّي لم أرسل أيّ واحد من أبنائي إلى بريطانيا، جميعنا هنا وليس لنا بلد آخر، سوف نزدهر أو نموت على هذه الأرض." قال الرجل، وبدا أنَّ شهادته أثّرت في موظفي الهجرة الثلاثة لأنهم جميعاً أومؤوا موافقين ووضعوا الأختام على جميع وثائقه ووثائق عائلته من دون النظر إلى ورقة واحدة منها.

لكنَّ بعض الأشخاص الآخرين لم يكونوا محظوظين إلى هذه الدرجة، مثل أحد كبار الموظفين الذي أرسل موظفاً إفريقياً أدنى منه رتبة ليقف في الطابور عوضاً عنه، لأنّه كان غارقاً في العمل في مكتبه.

"يا صديقي، لن نقبل إهانات من هذا النوع بعد الآن، لماذا تظنّ عملك أكثر أهمية من عملنا؟" سأل موظف قصير القامة.

"ولتزيد الطين بلة، أرسلت واحداً منا مثل صبي صغير ليقف في الطابور عوضاً عنك، *Kwani*[146] ألا تعرف أنَّ الأوضاع قد تغيّرت؟" تابع موظفٌ آخر فارع الطول.

أما الموظّف الثالث فقد ظلَّ صامتاً، كلّ ما فعله هو مدُّ يده والتحقق من وثائق الرجل.

قدّم الموظف الهندي ملفاً وهو يشرح، "هذه توصية من مديري، السيد أندرسون وهذه من..."

"هل تعتقد أنّك في مقابلة توظيف؟" قاطعه الموظف القصير، "من قال لك إنّنا نحتاج لتوصيات من رجال بيض؟ ألا تعرف أنَّ الإفريقي قادر كذلك على منحك توصية؟ أم تظن أنَّ الأفارقة لا يعرفون الكتابة بالإنكليزية؟ أووو، تظنُّ أنَّ مستواك أعلى من هذا، أليس كذلك، يمكنني رؤية ذلك في النظرة التي تعلو وجهك."

أرخى الموظف الذي أصبح يتعرّق بإفراط الآن ربطة عنقه وأجاب: "أظنّ أنَّ هناك سوء تفاهم..."

"ما من سوء تفاهم." صاح موظف الهجرة، "كلّ ما في الأمر هو أنَّ عليك فتح عينيك والرؤية بوضوح، هذه هي كينيا الجديدة يا صديقي، نحن

---

146 Kwani: كأنك (السواحيلية).

مَن في السلطة الآن، لذلك اذهب واجلب التوصيات من كينيّين سود، وإن لم تستطع إيجاد أحد يساعدك في هذا الأمر، تعال واسألني بهدوء، فقد أكون في مزاج مناسب لمساعدتك."

أما موظف الهجرة الثاني فقد كان أقلَّ كرماً، إذ قال للموظف الهندي: "اذهب واجلب كلّ عشيرتك هنا، حتى القطة التي تموء والبقرة التي تخور، لكن أتعلم، عند التفكير في الأمر، أنتم قوم تعبدون الأبقار، أليس كذلك؟ في تلك الحالة، لا تجلب لنا إلهك، بل مجرد القليل من حليب إلهك البقرة، ولأنّه من الضروري أن يكون الحليب مغلياً، فلا تنس إحضار شيء لتبريده فيه."

تركت هذه الطريقة الملتوية في الحديث عدداً كبيراً من الهنود في حالة ارتباك تام، واستغرقهم الأمر مدّة من الزمن ليفهموا أنَّ موظفي الهجرة كانوا يطلبون الرشاوى.

مع مرور الأيام وانتشار الأخبار عن أنَّ المرء يستطيع تأمين الوثائق الصحيحة من دون بذل أي جهد يُذكر -شرط أن يكون مقدار الرشوة مناسباً- دسَّ العديد من رجال الأعمال الهنود مغلفات محشوة بالنقود بين وثائقهم قبل تقديمها، فحصلت أوراقهم على أختام الموافقة من دون التدقيق فيها.

لم يكن الجميع قادراً على تقديم الرشاوى، ولهذا بقيت الطوابير طويلة، وغدت العائلات أكثر يأساً مع اقتراب الأجل الزمني النهائي للتسجيل، فضّلت بعض العائلات فصل أبنائها وإرسالهم إلى الأقارب في بريطانيا أو كندا أو الولايات المتّحدة، وعاد الكثيرون إلى الهند، كان من الأفضل للمرء الوجود في مكان ما بدل الانتظار حتى يُطرَد من البلاد.

في هذا الموسم المضطرب، وصلت عائلة كريم إلى منزل بابو في ظهيرة أحد أيام السبت، صحب كريم زوجته أبديا وحفيدتهما ليلى، التي بدا أنَّ أنوثتها قد تفتّحت بين ليلة وضحاها، واكتسب جسدها الضئيل وزناً في جميع الأماكن الصحيحة، بينما عزّز شعرها الأدكن الذي يصل طوله حتى كتفيها جمال وجهها.

استقبلتهم فاطمة بحذر، كانت تخشى أنّ العائلة قد سمعت أنباء غزليات راجان في ناكورو وقد حضرت لإلغاء خطبة راجان وليلى، لم يعرف الاثنان في واقع الأمر أنهما كانا مخطوبين، وذلك لأنَّ بابو أمل بإقامة حفل لائق لهما، وهو أمر بات الآن مستبعداً مع خروج راجان والبلاد بأكملها عن السيطرة، لم تسامح فاطمة بابو أبداً على إخفائه هذا السرّ عن راجان، وكان غضبها يبقبق في المطبخ وهي تنتظر غليان الماء في إبريق الشاي، أخذت تعدّل ثوبها الساري الذي ظلَّ يتفلّت بسبب تنفّسها المتوتر وغير المنتظم، في لحظة الغضب تلك وهي تذرع المطبخ جيئةً وذهاباً وتفكّر في المحادثة المذلّة التي على وشك أن تخوضها، فكّرت برمي المياه المغليّة على بطن بابو العاري في ملاذه في الطابق العلوي، يجب أن يقدّم هو التفسيرات لهم، فكرتْ بمرارة، وكانت مستغرقة بهذه الفكرة لدرجة أنها لم تشعر باقتراب أبديا.

"هذا وقت عسير." قالت أبديا برقّة، وهي تلاحظ تعابير الغمّ على وجه فاطمة.

أومأت فاطمة بجديّة.

"لكنها ليست نهاية العالم." أضافت أبديا.

تنهدت فاطمة "إنها نهاية علاقة رائعة."

"أشخاص رائعون." قالت أبديا.

"إذاً لستم غاضبين؟" سألت فاطمة بحيرة.

"غاضبون من أيّ شيء؟ ما الذي يُغضب في المساعدة؟"

"أنت محقّة... لطالما كنتِ محقة في هذه الأمور."

"ويقول الكتاب المقدّس إنَّ كلَّ ما له بداية يجب أن يصل إلى نهاية."

"لكنّي لم أعتقد أنَّ النهاية ستحلُّ بهذه السرعة."

"كما يقول المسيحيون، علينا الاستعداد لأنّه لا أحد يعرف اليوم أو الساعة."

"كنتم... مستعدين؟"

"لا أستطيع القول إنّي كنت مستعدة، لا شيء في الحياة يستطيع إعدادنا لأمر كهذا، لكنّي لم أتفاجأ."

"حقاً؟"

"نعم."

"لماذا؟"

"هكذا فحسب."

"لا أفهمك."

"أعني أنّي لم أرفع سقف توقعاتي على الإطلاق." قالت أبديا.

"عفوا؟"

"أعني أنني استعديت للأسوأ ورجوت حدوث الأفضل."

"تعنين أنَّ الأمر كان بهذا السوء؟"

"أعني أنَّ الأمر مختلف بالنسبة لكم..."

"كيف ذلك؟"

"لأنَّ بابو مختلف."

بابو... إنه... لم يعد يتحكّم بالأمور."

"مع ذلك فهو مختلف، ليس كبقية ***wahindi***."

"أستميحك عذراً؟"

"سوف ينجو من الأمر."

"لماذا؟ ما الذي تتحدثين عنه؟"

"في الواقع، هذا هو السبب الذي جعل زوجي يفكّر في القدوم بنا إلى منزلكم لرؤيته، قد يكون قادراً على تقديم العون لنا."

"هل تسمعين ما أقوله؟ لقد انتهى أمر بابو، لا يستطيع حتى التكلّم، لقد سحقه هذا الأمر."

"في هذه المرحلة نحن يائسون تماماً، ومستعدّون لتجريب أيّ حلّ، أتعنين أنّه لا يستطيع حتى تمييز صديقه القديم؟"

"أبديا، الحديث معك أصعب من فكّ طلاسم مخطوطة هندية، لماذا لا تفهمين تفسيراً بهذه البساطة؟"

"لأنَّ المرء لا يستطيع النهوض والمغادرة فحسب."

"أتفهّم الأمر، وأنا آسفة حقاً."

"كيف تستطيعين تفهّم الأمر؟ ليس لديك ما تقلقين بشأنه، ستنجين أنت وبابو من هذه المصيبة."

"ما الذي يجعلك تعتقدين ذلك؟"

"أنا على يقين من ذلك."

"لماذا؟"

في هذه المرحلة، ملأ جسد كريم باب المطبخ.

"أعتذر يا سيداتي، لم أستطع إيجاد الرجل العجوز على الشرفة، هل

يقضي قيلولته في مكان آخر؟"

"نعم، وصار له أسبوعان على هذه الحال، لا يفرّق بين الليل والنهار، أعتقد أنّه في الحالة التي يسميها الأطباء: الخمول."

فزع كريم: "ما الذي تتحدثين عنه؟"

توترت فاطمة، كيف لها إطلاعهما على هذه الفضيحة العائلية؟

"لقد حدث الأمر أسرع من قدرتنا على الاستيعاب." تنهّدتْ "في لحظة كان بابو حيوياً وبصحة جيدة، وفي اللحظة التالية صار يصارع ليبقى على قيد الحياة."

"هل كان وحده؟" سألت أبديا.

"نعم -لا- أعني أنّه كان وحيداً حين سقط، لكننا كنّا في المنزل."

"كان عليكِ إعلامنا، لنحضر ونقدّم ***pole***[147] لقد تحطّمت آمالنا." قال كريم وقد أخذ صوته يتقطع، "لم أعرف أنَّ الأمور ستؤول إلى هنا، كان بابو رجاءنا الأخير..."

"ما حدث قد حدث." ثارت فاطمة، "وتوقّف عن النواح في مطبخي، ألا تعرف أنَّ بكاء الرجال الناضجين هو فأل سيئ؟"

"كيف تجرؤين على قول ذلك، ألا تشعرين بألمنا؟" قالت أبديا بسخط واضح.

"بلى، بلى يا عزيزتي." قالت فاطمة بصوت يشبه الفحيح، "لكن ما الذي أستطيع فعله؟"

"إن كنت ستفعلين أيّ شيء." قال كريم وهو يعود إلى اتّزانه، "فأرجو أن تجدي لنا شخصاً يستطيع إيقاف هذا الأمر، إن لم يكن بابو فمن؟"

---

147 Pole: المواساة (السواحيلية).

"إيقاف ماذا؟ ليس هناك ما يمكن إيقافه."

"أتمنى لو حضرنا في السابق." قال كريم "نعرف أنَّ بابو كان سيهبُّ إلى إنقاذنا."

"لكن كيف تعرف ذلك؟" سألت فاطمة وهي تشعر بالارتباك بسبب إصراره على أنَّ بابو كان قادراً بطريقة ما على إنقاذ خطبة راجان وليلى، "ذلك الصبي العاصي."

"اعذريني، ***memsahib***[148]، هل تحوّل بابو الآن إلى صبي لأنَّ صحته ليست على ما يرام؟" انبرى كريم.

ترنّحت فاطمة لهذا الاكتشاف، لقد فهمت الآن بارتياح كبير أنَّ أسرة كريم كانت هنا لتطلب مساعدة بابو في إيقاف ترحيلهم المحتمل، وليس لإلقاء المحاضرات عليهم بسبب فشلهم في صون خطبة ابنتهم لراجان.

خطت فاطمة بهدوء نحو كريم، "أنت محق، أنت محقّ." قالت وهي تتراجع عن زلتها، "ربما كان بابو يقدر على مساعدتكم." لاحقاً في تلك الليلة وبعد أن مضى وقت طويل على مغادرة عائلة كريم، كانت فاطمة يقظة في السرير تتساءل عن السبب الذي جعلهم يعتقدون أنَّ بابو قادر على إيقاف ترحيلهم: "هناك كمٌّ هائل من الأمور التي لا أفهمها حول هذا الرجل."

هزّت كتفيها باستنكار واستدارت لتنام على جانبها، بينما سمعت صوت أنفاس بابو يعلو ويهبط في إيقاع اهتزاز أرجوحة.

لقد قضيا سنوات من زواجهما في مساحتين منفصلتين من السرير، والحدِّ الفاصل بينهما كان طفل فاطمة، إلى أن انتقل بابو في النهاية إلى غرفة أخرى.

---

148 Memsahib: لقب تنادى به السيدة المتزوجة التي تنتمي إلى الطبقة الراقية في الهند.

نادراً ما كان يعود قبل منتصف الليل، وحتى إن عاد فقد كان يسير على رؤوس أصابعه نحو غرفته من دون أن ينطق بكلمة.

أين كان يختفي لتلك الأوقات الطويلة؟ غالباً ما تساءلت فاطمة، وكانت تتسلّل إلى ذهنها فكرة شرسة، ذلك التافه، كانت تقول لنفسها وهي تشعر بوخزة من الحسد، إنه يذهب إلى امرأة أخرى، لكنّها لم تفهم كيف يمكن لعبثه أن يمنحه سطوة سياسية كالتي تعتقد عائلة كريم أنّه يتمتّع بها.

بعد يوم واحد من ظهور الرجل الكبير الذي لا يُنسى على التلفاز، حضرت مجموعة من أتباع ***Kiama Kia Rukungu*** إلى الجاكاراندا، كانوا حوالي مئة رجل، معظمهم من الشبّان، وبينهم عدد من الكهول، يبرز الريش من رؤوسهم، ووجوهُهم تقطر طبشوراً أبيض، كانوا جميعاً يرتدون تنانير من القنّب مزينة بألوان زاهية، حمل قائدهم مشعلاً رمت شعلته ظلالاً غريبة على المجتمعين، في البدء، ظنّهم الزبائن المجتمعون أعضاء الفرقة الجديدة التي ستحلّ مكان فرقة راجان بعد أن توقفت عن العزف.

ولوقت قصير، انضمّ روّاد المكان إلى الرقصة السريعة الملتزمة بدقّة مع التناغم الإيقاعي لأنغام ***karing'a ring'a*** وقرع الطبول العميق، لكنَّ الجميع عادوا متعثرين إلى كراسيّهم حين أعلن حامل المشعل أنّه هنا لمقابلة مالك الجاكاراندا، لقد أرادوا إيصال رسالتهم إليه شخصياً، الرسالة التي كانوا يبلغونها لأصحاب المزارع الآخرين من ذوي البشرة البيضاء في هذه الأرض: ***Mzungu aende ulaya, Mwafrika apateuhuru***، **على الرجل الأبيض العودة إلى أوروبا ليحصل الرجل الأسود على حريته.**

لقد ظنَّ العديد أنَّ هذه مزحة، حتى وهم يشيرون إلى القسم البعيد من المزرعة حيث لا يزال يعيش ماكدونالد وحيداً -في دورة أخرى من

العزلة- ثم عادوا إلى مشروباتهم، "من الأفضل لكم الاحتراس، الكلب العجوز يحتفظ بالسلاح." قال أحدهم بين ضربات الطبول، "إن كان هناك أيّ *mkoloni*[149] على الإطلاق، فإنه هو." مشت الجماعة مبتعدة يرافقها إيقاع *karing'a ring'a*.

كان ماكدونالد الذي يبلغ الثانية والتسعين تقريباً لا يزال في صحة ممتازة، ويقضي معظم شؤونه بالاستعانة بأقلّ قدر ممكن من المساعدة، كان خادمه النهاري قد حضر وغادر، أما هو فأخذ يتسكّع على شرفة الطابق العلوي من منزله الخشبي المؤلف من طابق واحد، ويدخّن غليونه، سمع أصوات الراقصين المقتربين من مزرعته وشعر بمزيج من الفضول والغضب، لقد سمع قصصاً عن أصحاب مزارع بيض البشرة تعرضوا للإذلال على يد المزارعين الذين يعملون لديهم، لذلك لم يفاجئه تعرضه للاستهداف، ما فاجأه حقاً هو الهدوء الذي شعر به، لكنّه كان كذلك غاضباً لأنَّ هؤلاء تجرّؤوا على تجاوز حدود أرضه، نفث في غليونه ليسيطر على الغضب وهو يقف في ظلّ الأضواء الكاشفة التي انصبّ نورها على مجموعة الرجال في الأسفل، لاحظ أنّه فضلاً عن الطبشور الأبيض والأرياش المنبثقة من رؤوسهم، كان بعض الرجال يرتدون أقنعة حيوانات ذكّرته بإنكلترا في موسم (عيد جميع القدّيسين) كان أحد الرجال يرتدي خَطم خنزير، وآخر يضع قرون كركدن، خطر لماكدونالد أنَّ حركات بعض الراقصين بدت مألوفة بشكل مخيف، كاد يقسم أنّه رأى هذا الأداء في الماضي، أو ربما يكون بعض هؤلاء الراقصين من عمّاله. استمرّت نبضات الطبول بحماسة، بينما أخذ بعض الراقصين بعرض إيماءات بذيئة موجّهة نحوه، أشار آخرون إلى أنَّ عليه النزول من

149 mkoloni: المستعمر (السواحيلية).

شرفته ليدوسوه بأقدامهم، لم يكترث ماكدونالد بالتهديدات على الإطلاق، كان مسترخياً بما فيه الكفاية ليسمح لذهنه بالذهاب إلى زمان ومكان آخرين.

تلاشى قرع الطبول غير المتناغم في ذهن ماكدونالد مفسحاً المجال أمام جلجلة إيقاعية في ذلك الصباح الضبابي حين انطلق القطار في رحلته الأولى من مرفأ إليزابيث إلى مومباسا، وجمال ناكورو الساحر الذي أذهله وأجفله، وأجبره على العودة إليه حين استُبدلت قطعةٌ من الأرض بلقب فروسيته المطلوب وذلك بحُجّةٍ ملكيّة.

ولأنّه جندي، شعر ماكدونالد بشيء من الخداع، لأنَّ الأرض التي تملّكها فاز بها من دون إطلاق رصاصة واحدة، ولا مجد في ذلك، لكنَّ الأمر الذي أحبطه أكثر على أيّ حال، كان رفض سالي له وللأرض التي بنى عليها منزلاً على شرفها.

شاهد ماكدونالد البلدات تنبثق على خطى محطات القطار، كلّ البلدات اتّبعت مساراً مشابهاً، كان التجار الهنود يبنون متاجر مؤقتة لبيع المرطبات، وهذا يشجّع تجاراً آخرين على المناداة على سلعهم قرب تلك المتاجر، وبعد وقت قصير يجد المرء سوقاً كاملاً يحيط بالمكان، غامر التجّار الهنود بالخوض في القرى الإفريقية ليجلبوا شوالات من خضار ***sukuma***[150] والبطاطس لصنع البهاجي[151] وحشائش ***dhania***[152] والباذنجان التي كانوا يبيعونها بشكل رئيس للمستوطنين البيض، عاجلاً بعد ذلك، ظهرت أسواق مختلفة بأيّام محدّدة وفي بلدات مختلفة، كلٌّ منها يختصُّ ببضاعة معينة، كانت المواشي تؤمَّن من بلدة كاجيادو كلَّ إثنين، وتُشترى الجلود المدبوغة وتُجلب إلى نهر

150 Sukuma: خضار ورقية.

151 البهاجي: طبق هندي من الخضر والبطاطس.

152 Dhania: الكزبرة (الهندية).

أتي كلّ ثلاثاء، أمّا الحبوب فيمكن إيجادها في كيامبو كلّ أربعاء، وتُباع رزم القطن في مرفأ إليزابيث كلّ جمعة.

إنَّ حضور تجّار من مختلف أصقاع المستعمرة أدّى إلى ظهور مرافق إقامة متواضعة، وأتت معها خدمات الدعم، ناقلون لحمل البضائع والبشر، تجّار بسيطون يبيعون ياردات من الأقمشة وفراشي أسنان ***mukima***، ومشاعل وصنادل مصنوعة من إطارات السيارات، كما ظهرت أنواع مختلفة من المطاعم لتزوّد مجموعات العمال المتزايدة بالطعام، وكلّ تلك ظلّت منظّمة ضمن حدودها العرقية.

كان المستوطنون البيض هم من يقودون هذا اللواء، وقد حوّلوا في تشبّثهم بآثار تميّز بشرتهم البيضاء العديد من منازل المزارع إلى ملاعب لممارسة رياضة الجولف، وسمحوا بعضويتها لأولئك الذين ينتمون إليهم فقط، وهكذا تباهت كلّ بلدة تطوّرت من محطات القطار بنادٍ كهذا حيث يتخالط البيض اجتماعياً ويهمسون لأقرانهم بمخاوفهم، ممّا قد يحمله لهم المستقبل، وسريعاً، أسّس العديد منهم اتّفاقات تبادلية بحيث يحقُّ للعضو في أحد نوادي الجولف ارتياد منشآت أخرى في مختلف أصقاع المستعمرة من دون تكلفة إضافية، ويمكن بهذا الحُلم جعل كينيا بلد الرجل الأبيض أن يستمر ليوم إضافي حتى مع وجود بحرٍ شاسع من المقاومة.

إنَّ الجماعة الوحيدة التي تحدّت هذا التصنيف العرقي كانت فتيات الشفق[153] ومعظمهنَّ من الأفارقة، كنَّ يهاجرن من بلدة إلى أخرى مثل الطيور، باحثات عن الغنائم الثمينة، وكانت لديهنَّ القدرة على اشتمام رائحة المحصول الموشك على الإزهار من بعيد، فيذهبن إلى المزارعين المغمورين

---

153 فتيات الشفق: العاهرات.

بالنقود ويخلصونهم من نقودهم التي جنوها بالكد والتعب بلمح البصر، في الواقع، كان بعضهم يعترفون لاحقاً أنَّ فتيات المدينة هؤلاء كنَّ قادرات على السرقة باستعمال أهدابهن، كلُّ ما عليهنَّ فعله هو النظر إليك وستفقد كلّ أموالك.

في بعض الأحيان، كانت تدور مشاهد درامية حادّة حين يلتقي الرجال بالنساء اللواتي سرقن منهم في بلدات أخرى، التقى ناقل هندي يعمل في مرفأ إليزابيث بامرأة بينما كانت تسلّي رجلاً آخر في بلدة أخرى، وادّعى أنّها أكلت شاحنته، لم يطلب الهندي استعادة نقوده، لكنه سأل الرجل الذي كان برفقتها سؤالاً غير اعتيادي، طلب من الرجل إخباره إن كان يسمع صوت هدير محرّك وهو يضاجعها، أراد الرجل طبعاً حماية شرف امرأته، وكان على وشك الاندفاع نحو الشجار، لكنّه توقّف لبرهة، حائراً لقصة الشاحنات التي تهدر داخل امرأته، وظنَّ أنَّ الهندي يعني إطلاقها للريح، لكنّه استبعد قلّة التهذيب هذه، ولذلك انتظر شرحاً منه، وقد قدّمه الهندي سريعاً.

قال إنّه قبل تعرّفه على هذه المرأة، كان يدير عملاً مربحاً في نقل البضائع من النقطة [أ] إلى النقطة [ب]، لكنّه بعد التقائه بها أصبح مشوّشاً بكمٍّ غامر من ***mapenzi moto moto***[154]، وقال إنّه نادراً ما كان يستمتع بشيء من ***mapenzi moto moto*** في المنزل، فكلّ ما تفعله زوجته هو التذمّر الذي لا ينقطع، وهكذا وبتحريض من امرأة الشفق، غادر المنزل واستقرَّ معها في مسكن محلي، وفي هذا الوقت، ترك مساعده -مساعد السائق كما كان يسميه- يدير الأعمال، بسبب قلّة خبرة مساعد السائق على الطرقات والتي تعود إلى قيادته السيئة، استمرّت الشاحنة في التعطل، قال الهندي إنّه

154 mapenzi moto moto: عواطف حارّة كالنيران (السواحيلية).

ميكانيكي كفءٌ، وإنّه كان يعمل على صيانة آليته لعدة سنوات، لكن بما أنّه كان منشغلاً بخدمة ***memsahib*** في السرير، فقد أخذ يُملي على مساعده اسم القطعة التي يظنّ أنّها معطلة ويزوّده بالنقود لتغييرها، لكنَّ المساعد لم يشترِ قطعاً ذات نوعية جيدة، لأنّه رأى هذا الأمر فرصة للاحتفاظ ببعض النقود لنفسه، بدأت الشاحنة بالتداعي مجدداً، وكانت بحاجة إلى المزيد من الإصلاح.

بعد وقت قصير، لم يتبقَّ مال كافٍ لصيانة الشاحنة بالشكل الملائم، فكلّ المدخرات أُنفقت لتسهيل ***mapenzi moto moto***، وهكذا استمرّت الأعطال، لم يغادر الرجل سرير امرأة الشفق حتى أخبروه أنَّ الشاحنة تعطلت تماماً، وحتى في تلك المرحلة فقد أقنعته المرأة أنّ بيعها أفضل بكثير من الاستمرار في هدر النقود على صيانتها أو تكبّد نفقات ركنها في انتظار إصلاحها، وهكذا تركَ السرير ليبيع الشاحنة، ثمَّ عاد بسرعة ليتمتّع بعائداتها مع المرأة.

"أتفهَم الآن لماذا أسألك إن كنت تسمع هدير محرّك حين تضاجعها؟ هذه المرأة أكلت شاحنتي." صاح الرجل وغادر قبل أن يستطيع الرجل الجديد الردّ عليه.

بعد فشل ماكدونالد في مهمّة ترويض البراري الإفريقية وانهيار حلم شبكة أنابيب الحليب التي ستؤمّن الحليب للجميع لشربه أو حتى الاستحمام به إن أحبّوا، تحوّل الرجل إلى أضحوكة بين أفراد علية البيض، وبعد تحوّل منزل المزرعة إلى نادٍ حصري لبيض البشرة، كان المستوطنون الآخرون يسخرون من سذاجة ماكدونالد وهم يحتسون جرعات البراندي والنبيذ في كؤوس مستدقّة، كيف يمكن لرجل أن يترك أرضه ليروّض أرض

رجل آخر؟ أليس التأقلم مع الطبيعة والتماشي مع تيارها عملاً أكثر منطقية ويتطلب جهداً أقلّ بكثير؟ سأل المستوطنون البيض أنفسهم، لكنَّ الكثيرين منهم اعترفوا بأنّهم فرّوا من إنكلترا هرباً من طقسها الفظيع، ولم يكن لديهم أيّ مشاكل عاطفية تتعلق باشتياق وطنهم، كانوا سعداء بخوض تجارب جديدة في الحياة وفعل ما لا يجرؤون على التفكير به في إنكلترا، مثل مضاجعة زوجة رجل آخر، أو تبادل الزوجات، أو الإبقاء على دستة من الخدم، نعم، لقد ألغيت العبودية في أوروبا، لكن ليس في ملاكاتها، ويستطيع السيد خوض علاقات جنسية مع خدمه وجلب أطفال صفر إلى هذا العالم من دون أن يكترث أحد لهذا الأمر لأنَّ الشمس سوف تصبغ جلودهم إلى درجة لون مقبولة اجتماعياً، طالما أنّهم يمتلكون بشرة بيضاء في أرض السود، فإنَّ الإنكليز سيجدون دوماً ما يأكلونه ويشربونه، وهذه هي البقعة التي صارت تُعرف في ما بعد باسم (مستوطنة الوادي السعيد).

لقد دخل فجورهم سجلّات التاريخ، لأنّه الأمر الوحيد الذي جلبوه إلى هذا العالم، فضلاً عن الأطفال غير الشرعيّين طبعاً، بالرّغم من أنَّ هؤلاء لم يكونوا كثيري العدد بالمقارنة مع كمية الأفعال الجنسية التي استطاعوا خوضها في الأيام الطائشة للإمبراطورية. شعر ماكدونالد بالخزي حين علم ببعض الأفعال القذرة التي حدثت في ملكيته، صَدَمَته الطريقةُ التي يقود بها مواطنوه سمعة المكان نحو الانحطاط الشديد إلى درجة أنّه صمت تماماً، لكنَّ أفراد مستعمرة الوادي السعيد ذوي الفكر الداعر لم يعيشوا حياتهم فحسب، بل حشروا أنوفهم في حيوات الآخرين، فقد تهامسوا أنَّ عدم اكتراث ماكدونالد بالنساء لم يكن أمراً بريئاً تماماً، فلم يجرّب الرجل تربية الحيوانات من أجل حليبها فقط، إذ لا بدَّ أنّه كان يستمتع بلمس

ضروع الأبقار، ومواقعة الحيوانات في نهاية الأمر هي رغبة جنسية قديمة قِدَم البشرية.

تجاهل ماكدونالد نميمتهم واستغرق في أعماله الزراعية، سوف يزرع القمح ويطعم الأمّة، وسوف يعرّف المستعمرة على معجنات الكعك والخبز والحلويات. لقد نجح محصوله بشكل لافت حتى عام 1939، حين عطّلت الحرب في أوروبا وصول المبيدات الحشرية التي طلب استيرادها والتي كانت قادرة على إنقاذ محصوله من السوس الفتّاك، وتلك هي نقطة التحوّل بالنسبة إلى ماكدونالد، فقد اكتفى من محاولة ترويض الأرض وشعبها؛ فمشى مبتعداً بكلّ بساطة، تاركاً معدّات الزراعة والمحصول المصاب من دون مساس.

في ذلك الوقت، وجّه ماكدونالد جميع طاقاته نحو الحفاظ على الموارد، قرّر ترك الأرض على سجيتها، فبنى معتزلاً بعيداً عن مساكن البشر ليراقب الحيوانات البريّة، تعلّم عاداتها ولاحظ مساكنها، وخلال وقت قصير، أصبح جميع الزوار المهمين إلى المستعمرة يبحثون عنه ليقود جولاتهم لاختبار الطبيعة في أبهى صورها.

والشيء الوحيد الذي كان على ماكدونالد إبعاده عن الحيوانات البريّة هو الصياد المحلي المخالف الذي كان يفتش عنها ليأكلها، لكنّ منصبه في رئاسة مجلس إدارة جمعية المزارعين المقتصرة على البيض كان يسمح له بتجاوز التشريع القاضي بتحريم الصيد المخالف.

لقد وُثّقت أرض ماكدونالد التي اتّسع امتدادها عام 1923 ليشمل البحيرة وينبوع المياه الحارّة باسمه بختم أحمر لامع، وأعلنت الأحرف البارزة أنَّ جلالتها قد منحته إيجار مئة عام لهذه الأرض الممتدة مساحة ألف فدّان، وقد عنى تعديل مساحة الأرض أنّ ماكدونالد أصبح الآن متعدّياً

على مستعمرة بابو الأساسية قرب البحيرة، ويعني هذا الإيجار طويل الأمد أنَّ سيطرته على الأرض تفوق مدّة حياته. كثيراً ما تألّم ماكدونالد على مدار السنوات وهو يفكّر بما سيحلّ بالأرض بعد رحيله، لم يكن له وريثٌ ولا زوجة ليجد من يخلُفه، لقد أغلق خروجُ سالي من حياته فجوةً معينةً في قلبه لم تعد تحتاج إلى الملء من جديد، في حين يشعر الآخرون بفراغ يحتاج إلى إعادة ملئه باستمرار، لم تكن هذه حال ماكدونالد، عاهد نفسه بأنّه سوف يكون على ما يرام، وحده تماماً، رجلاً وحيداً.

في لحظات تأمّل نادرة، كان ماكدونالد يفكّر بعدد العائلات التي هُجّرت كي يستوطن هو، وقد استعمل سلطته عام 1923 لصياغة سياسة مُنحت الاسم المتغطرس، ورقة ديفونشاير البيضاء التي تحظر على الهنود امتلاك الأراضي في المستعمرة تحت ذريعة أنَّ أولوية تملّك الأراضي لا بدَّ أن تكون للأفارقة.

في ذلك الوقت، احتلَّ أصحاب المزارع جميع الأراضي الصالحة للزراعة، مصرّين أنّهم كانوا يعتنون بها من أجل الأفارقة، وحالما يكونون مستعدّين لاستلام الأرض فسوف تُمنح لهم مجدداً.

لطالما استمع ماكدونالد إلى الخدم الأفارقة وهم يتحدّثون عن انتقالهم المتوقّع نحو سنِّ النضوج حين يمنحهم آباؤهم حصصاً من الأرض ليبنوا عليها منازلهم الخاصّة بهم قبل أن يتزوجوا، مع ذلك، وعلى الرّغم من كلّ الأرض التي تحت وصايته، فماكدونالد لن يتّخذ زوجةً أخرى أبداً.

إنَّ العجز عن الزواج يعني أنَّ المرء سيموت من دون أن يكون له ولد، وهو قدر خشيه خدَمُه، لأنَّ الرجال الذين يموتون من دون إنجاب، تُطلَى أردافهم بالرماد عند دفنهم في إشارة إلى أنهم لم يجلبوا إلى هذا العالم سوى

كومة عقيمة من السخام، لكن في الغالب، شعر ماكدونالد بالرضا عن نفسه وعن ظروفه، لقد ترك المنزل حين كان في السابعة عشرة من دون أن يمتلك أكثر من الملابس التي يرتديها وفرصاً شحيحة أمامه، كلّ ما ينتظره في إنكلترا كان التدرّب على مهنة صناعة الأقفال ليرث عمل والده، لكنّه تخيّل حياةً أخرى لنفسه، لقد اختار الجيش، وبعد ثلاثة وعشرين عاماً من خدمة وطنه بدأ حياةً جديدةً في المستعمرة وأصبح صاحب مزرعةٍ رائداً، وقد نجح.

حتى في عزلته، أتى إليه رجال آخرون وحيدون وطلبوا الإذن للتخييم في مزرعته، كان من الممكن اصطياد سمك السلمون المرقّط في البحيرة، كما أنَّ أخذَ حمامٍ بخارٍ في الينبوع الحارّ قادرٌ على شفاء الأمراض وعلاج الجلد المتشقّق، هذه كانت البذرة التي نمت لتصبح مشروعاً مزدهراً يجمع بين السياحة والرياضة.

حضر إلى المكان سيّاحٌ أكثر ثراءً بقصد الخروج في بعثات صيد، وقد سكنوا في معسكرات من الخيام حيث يستطيعون اصطياد **الكودو**[155] للعشاء، واقتفاء آثار**الإمبالة**[156] للغداء، وإرداء حيوانات الكركدن للحصول على تذكارات يصطحبونها إلى الوطن.

كان هذا المنتجع الوحيد من نوعه في المستعمرة بأسرها حيث يستطيع الإنسان والحياة البريّة العيش على تواصل بهذا القرب.

كان ماكدونالد يشكُّ في أنَّه لو عاد إلى إنكلترا فسينتهي به الأمر في بيتِ رعاية كئيب، حيث سيقضي أياماً شديدة البرودة وهو يحدّق في

---

155 الكودو: أحد أنواع ظباء الغابات، ويتميز بوجود خطوط بيضاء على جانبي جسمه البني المائل إلى الحمرة.

156 الإمبالة: نوع من الغزلان المنتشرة في السافانا والغابات الإفريقية الكثيفة.

جدارٍ خاوٍ ويشعر بالشفقة على نفسه، رجل عجوز نكِدٌ يطاردُه شبح زوجته الخائنة، ربما لم يستطع السيطرة على امرأة واحدة هزيلة، لكنّه كان الآمر على آلاف الرجال في المستعمرة، وهو سيّد كونه في هذا المكان، وكان، لجميع المقاصد والأغراض، كوناً ملائماً تماماً، بمزايا طبيعية وأخرى من صنع الإنسان. بحيرة منعشة وينبوع حار، وحيوانات وخدم ليسود عليها، وقد أهّلته ملكية الأرض ليكون باروناً في المستعمرة، فلا يملك السيطرة على أراض بهذا الامتداد في إنكلترا سوى أصحاب الألقاب، وقد أُورث معظمها من جيل إلى آخر، بينما لم يرث هو عن والده سوى خطّ الشعر المنحسر وسرعة الغضب.

إنَّ ذروة حياة ماكدونالد في المستعمرة كانت حين تلقّى إخطاراً من الحكومة الاستعمارية يبلغه باختيار منزله الريفي لاستضافة زوج مهم من لندن، كان ذلك العام هو 1952 والمستعمرة في قبضة عصيان مسلّح يطالب بإجلاء الرجال البيض من البلاد، الأمر الذي يُجمع المؤرّخون على أنّه طلائع نشوء حركة ***Kiama Kia Rukungu***، لعب ماكدونالد بخلفيته العسكرية دوراً أساسياً في تنظيم دوريات حراسة للحيّ، الأمر الذي ساند اعتماده الآخر في منصب رئيس مجلس إدارة (جمعية المزارعين)، لقد سما إلى مرتبة تقدير اجتماعيّ هامٍ من دون لقب الفروسية الذي كان يطمع فيه للغاية، ولذلك فقد كانت مفاجأةً قاسيةً من القدرِ حين تبيّن أنَّ الزوج الذي قُررت زيارته إلى منزله الريفي كان عضوين شابّين من العائلة الملكية وهما الأميرة إليزابيث التي بالكاد تبلغ الخامسة والعشرين من عمرها، وزوجها الشابّ.

رافق ماكدونالد هذين الزوجين بنفسه في الأرجاء، كان يغطس داخل الغابة حين يشعر أنَّ الاثنين على وشك تبادل القبل، لكنّه يتدخّل حين

يصبحان قريبين أكثر من اللازم من الحيوانات الخطرة، جال ماكدونالد ذلك المكان بكلِّ يُسرٍ، يجعل نفسه مفيداً عند الحاجة إليه، ويختفي في الظلال حين يشعر أنَّه يعترض الطريق، كان فخوراً بأن يكون ذا نفع لبلاده، وأكثر فخراً أنّه بقي، وأعدَّ البراري الإفريقية لتلائم ضيفيه الملكيين.

حين شارفت زيارة الزوج على الانتهاء -كانا سيغادران بعد ليلتين- دعت الأميرة ماكدونالد ليشاركهما مائدة العشاء، "ما الذي أستطيع تقديمه لك؟" سألته برقّة، "لقد كنت مضيفاً استثنائياً لنا."

ردَّ ماكدونالد أنّه سعيد بتقديم الخدمات، خاصة للعائلة الملكية.

"فليكن ردّك في الصباح." حثّته الأميرة، "فكّر بالأمر."

لم يستطع ماكدونالد النوم في تلك الليلة، كان يفكّر كيف حاول من دون جدوى قبل خمسين عاماً تقريباً، أن يحصل على لقبٍ من الملكة، وها هي ابنتها، تنام تحت سقفه، تلحُّ عليه ليخبرها بأمنيته، تقلّب ماكدونالد في سريره طوال الليل، يتساءل إن كان يجدر به التصريح باعترافه المتأخّر المتعلّق بسعيه لنيل لقب الفروسية الذي جعله يستمر قدماً، كان شبه واثق أنَّ الصبية ستخبر عائلتها عن الرجل الإنكليزي الذي يستحقُّ التقدير لما قدّمه من إسهامات للإمبراطورية.

لكنَّ الضيفين استيقظا في الصباح الباكر ليسمعا أخباراً مُفزعة قادمة من إنكلترا، لقد توفّي والد الفتاة في نومه، أصبحت الأميرة الآن الملكة.

مرة أخرى، تآمر القدر ليحرم ماكدونالد من إرثه الشرعي، ولأنه مضيف لبق، انحنى أمام الملكة الجديدة وسألها: "بماذا أستطيع خدمة جلالتك؟"

لئلا يكون ماكدونالد قد تُرك خالي الوفاض، فإنّ أخبار استضافته لزوجين ملكيين خلال انتقال السلطة الدرامي ذاك سوف تؤمّن له تقاطراً ثابتاً من الضيوف المهمّين القادمين إلى باب منزله برغبة النوم حيث نامت تلك الصبية أميرةً واستيقظت ملكةً.

بين الرسوم التي كان يتقاضاها ماكدونالد من الضيوف وخدمات الحراسة التي كان يقدّمها العمال الأفارقة نظيرَ مقابلٍ زهيدٍ للغاية فقد عاش ماكدونالد حياة رخاء من دون أن يبدو عليه ذلك، حين يكون في مزاج جيد، كان يقدم بعض التبرعات للمدرسة المحلية أو الكنيسة، وحتى إلى الجمعيات الخيرية التي أنشأها حماة البيئة، لكنّه أبقى معظم النقود لنفسه، غير واثق كيف سينفقها أو ما الذي سيحلُّ بأرضه الشاسعة بعد موته، ربما برماد مذرور على مؤخرته.

أمّا وحي ماكدونالد فقد هبط عليه عام 1953، في العام اللاحق لزيارة الملكة الجديدة، ومثل العديد من أوجه حياته -التي غالباً ما يتآمر فيها القدر ليوجهه- بدأ الأمر كنداءٍ واجب، كانت المستعمرة في جوٍّ من الاضطراب، وتخضع معظم بقاعها لقوانين الطوارئ، وهذا يعني أنَّ على جميع السكان الأصليين ارتداء بطاقات تعريفية حول أعناقهم تحمل أسماءهم والقبيلة التي ينتمون إليها، كما يحصل أفراد قبيلة كيكويو على أذون خاصّة لأنَّ السلطات الاستعمارية قد حدّدت أنَّ هذه القبيلة تساند التمرّد.

تعني قوانين الطوارئ كذلك أنَّ الشرطة الاستعمارية، المؤلفة بشكل أساسي من البنجابيين والسيخ والضّباط الإنكليز، قد أُمرت بقتل أيّ شخص محلّي يقف في طريقها، اقتيد عشرات آلاف المحليين من قراهم وزُجّوا في معسكرات اعتقال لفرزهم، كان والد إيرا صديق راجان واحداً

منهم، رجل فُصل عن عائلته بالقوة وأُجبر على الأشغال الشاقة لسنوات فقط لأنهم شكّوا في مساعدته لأولئك الذين يقاتلون في الغابات، أمّا الدليل على تورطه المزعوم فقد انبثق من اسمه وولائه الاجتماعي الواضح.

لقد صودرت حيواناتهم وهُدّمت قراهم، بين ليلة وضحاها حوّلت الطائرات المقاتلة كلّ القرى المحاذية للغابات أو تلك التي ترتفع بشكل ضئيل فوق سلاسل التلال إلى فتاتٍ لتصادق على قوّة الرجل الأبيض، لم يتألّم الكاهن تيرنبول لأمرٍ مثلما تألّم لهذا، لقد دُمرت بلاد الربّ، وزُعزعت الأوجه الثقافية التي بنى قسّيسيته حولها، لقد فُصِل الرجال عن زوجاتهم وانتُزعت الأمهات من بين أطفالهنّ، لم يشعر ماكدونالد وتيرنبول ببعد كهذا بينهما في أيّ وقت سابق.

زوّد ماكدونالد الشرطة الاستعمارية بالدعم العسكري والاستراتيجي، بينما ذهب الكاهن تيرنبول لمواساة النساء اللواتي صرن أرامل حديثاً، والأطفال الذين صاروا أيتاماً، وهو واحد من قلّة من الرجال الإنكليز الذين دخلوا وغادروا أرض الكيكويو خلال سنوات الصراع هذه من دون أن يتعرّضوا للتهديد أو الأذى، كان لا يزال يرتدي ملابس الفزاعة المكتملة بمظلّة، ويدعو المحليين للتوبة عن خطاياهم والرجوع إلى الربّ.

بعد إتمام إنشاء سكّة الحديد، كرّس الكاهن تيرنبول كلّ وقته لنشر الإنجيل، فأخذ يؤسّس الإرساليات التبشيرية في مختلف البلدات على امتداد العقود التالية، لقد عدَّ نفسه بذرةَ خردلٍ مثالية وجدت التغذية المناسبة لها في أكثر الظروف ملائمة، فأسّس الكنائس في مختلف أصقاع المستعمرة، متّبعاً خط سكّة الحديد حرفياً، لطالما شعر بفخرٍ خاصّ لأنّه كان موجوداً ليشاهد سكّة الحديد تتّخذ شكلها، وتساعد البلاد بدورها على صياغة شكلها، لكنّه

دائماً ما عاد إلى ناكورو، التي كان يعتبرها موطنه، ويرجع إليها دورياً ليلتقي ماكدونالد -الذي كان يعدّه عائلته- ليستذكرا ماضيهما المشترك.

على الرغم من أنَّ الكنيسة الأم اعتبرته متقاعداً، إلا أنَّ تيرنبول أصرَّ على الاستمرار في الوعظ حتى يستقرَّ في قبره، لأنَّ إيمانه أهمّ من كلّ شيء، في عمره المتقدّم الذي يقارب الثانية والتسعين -قال المحليّون إنَّ وجهه أصبح ببياض صفحات الورق- لم يعد يسافر إلا في ما ندر، وحتى إن فعل، فقد كان يذهب فقط في رحلات قريبة تضمن عودته إلى القاعدة مع حلول الليل.

لكنَّ كلّ ذلك تغيّر حين بدأت جماعة ***Kiama Kia Rukungu*** حملتها لطرد أصحاب المزارع البيض من الوادي المتصدّع، شعر تيرنبول بضرورة العمل على تعزيز السلام بين المجتمعات، لأنّه كان موجوداً هنا منذ تأسيس المستعمرة، لقد عرف شخصياً كلّ الجماعات الضالعة في العملية السياسيّة تقريباً، وآمن بضرورة إتاحة المجال أمام صوت الربّ ليسود، حتى في سنّه المتقدّمة، حافظ تيرنبول على ابتهاجه أثناء تأدية عمله، وهو يعظ النساء والأطفال في القرى لأنَّ جميع الرجال قد فرّوا إلى الغابات للقتال، أو اعتُقلوا في معسكرات مختلفة على يد السلطات الاستعمارية، في بعض الأحيان، كان يُستدعى إلى السجن لتقديم الطقوس الأخيرة للسجناء الموشكين على التدلّي من حبل المشنقة، أينما حلّ تيرنبول كان يُذكّر بوجود الربّ في كلّ المعتقدات البشرية لأنّه لا يوجد سوى ربّ واحد، وجميعنا قد خذلناه.

لكنَّ ما دفع تيرنبول حقّاً لزيارة القرى المحيطة بناكورو كان ما سمعه عن تعرّض الوعّاظ المحليّين للترّهيب حتى يخضعوا لما يُطلب منهم، كلّهم تقريباً قد استلموا رسائل مكتوبة باليد من مقاتلي الغابات تحذّرهم من أنّهم سوف يُعاقَبون بتهمة الخيانة إن استمروا في العمل لصالح الرجل

الأبيض، تلقّى أحد الواعظين رسالة تقول إنّه كُشِف على حقيقته فهو ضبع يدّعي قيادة القطيع نحو المراعي، بينما يريد في الواقع جعلهم وليمة له.

بعد ظهيرة أحد الأيام، بينما كان تيرنبول يلقي بِعِظَةٍ على جمهور غالبه من النساء والأطفال في مخيم مفتوح، تلقّى رسالة بخطّ اليد جلبها له صبية صغار قالوا إنّهم وجدوها عند شجرة قرب الكنيسة، كانت مكتوبة بلغة الكيكيو وموقّعة: قائد ***Kiama Kia Rukungu***.

> لقد أتيتَ إلى بلادنا وأخبرتنا أن نغلق أعيننا لنصلّي، حين فتحنا أعيننا، كانت أرضنا قد سُرقت منّا، لقد استُبدلت البندقية بالإنجيل الذي في يدك، أَشفِق على نفسك وغادر من بيننا، لأنَّ قتل رجلٍ في سنّك هو كالسخرية من الربّ، لا تغرنا لفعل ذلك...

تابع تيرنبول من دون تأثّر. كان متعاطفاً في داخله مع باعث الأفارقة لتحرير بلادهم، لأنه كان يمتلك أقارب في أيرلندا قضوا حياتهم بأسرها في مقاومة الحكم الإنكليزي والمطالبة باستعادة أرضهم.

استلم تيرنبول تحذيراً ثانياً بعد أسبوع، لكنّه هذه المرّة كان يحمل تهديداً أكثر شؤمًا:

> نعرف ما تفعله تحت جنح الظلام، سوف نأتي للنّيل منك...

لم تكن هذه الرسالة موقّعة، ولم يفكّر تيرنبول بها كثيراً، جعّدها ببساطة ورماها في النار وهو غارق في تأملات فلسفية، إن الذين ينوون

القتل لا يتحدثون عن نياتهم، بل ينفّذونها على الفور، إن كانوا يريدون قتلي فسيجدونني.

في ذلك اليوم ألقى تيرنبول عظةً أمام مجموعة تتألّف من سبع نساء شابات وصبيّين، واستفاض في الحديث عن المتاعب الشاقّة التي لاقاها المسيح في البريّة والتي استمرت لأربعين يوماً وليلة، لكنّها بشّرت بخلاصه وحياته الأزلية، لبلوغ ذروة العظة، سأل تيرنبول كما يفعل دائماً، إن كان هناك في هذا الجمع من يرغب بإيداع حياته بين يدَي المسيح، نهضت إحدى النساء الشابّات، تبعتها أخرى، وثالثة... حتى وقفت النساء السبع كلهنّ.

غمرته السعادة، واحتضن كلّ واحدة من هؤلاء النساء بكلّ محبة ليعبّر عن تلقّيهنَّ في مناولة المسيح، كما قال لهن. طال كلّ احتضان أكثر من سابقه، ثم بدأت النساء المجتمعات بترديد أغنية شاركهنَّ تيرنبول فيها بكلّ حبور:

"Mwathani wakwa njakaniria tawa
Nyumitwo thutha ni nduma nene
Mbere ciiruru ihana mahiga
Kuria thu ciakwa injetereire."

"أيها الربّ أنِر طريقي
إذ إنَّ عتمة مُطبقة تلاحقني
أمامي ظلال أدكن من الصخور
حيث يترصّدني من الأعداء الكثير..."

رسم تيرنبول على وجهه ابتسامةً عريضةً وهو يتابع تلقّي المعتنقات الجديدات، حتى عندما شردت أفكاره نحو رحلة القطار الأولى والكذبة بأنَّ

ناكورو هي نينوى الخاصة به حيث أوجد كنيسته، احتضن المعتنقة التالية بذهن شارد، تلهيه ذكرياته، ظلَّ الاثنان في عناقهما بينما استمرّ الغناء لمدة أطول ثمَّ توقف بغتة، تقهقر تيرنبول إلى الأرض، وبينما أخذت الدماء تنزُّ من صدره، ناحت المؤمنات وهنّ يجرين هرباً، بينما لوّح مهاجمه، وهو رجلٌ كان متنكراً على هيئة امرأة، بسلاحه وأخذ يهتف:

"*Mzungu arudi kwao, Mwafrika apate uhuru.*"

كانت قبعة تيرنبول ذات الحافات العريضة لا تزال على رأسه، مائلةً بطريقةٍ ما وكأنها تحاول حمايته من أشعة الشمس، وبنطاله لا يزال محشوراً داخل جواربه، حتى في هذه الحالة، ظلَّ الكاهن يبدو ممتلئاً بالحياة، عيناه تحدقّان باهتمام شديد في السماء الزرقاء، لولا ذبابة واحدة تطنّ فوق الدم الجاف على صدره لظنّه المرء نائماً.

حين تلقّى ماكدونالد النبأ، تصاعد ارتعاش شاربه -الذي ظلَّ هادئاً لسنوات طويلة مثل بركان هاجع- بعنف شديد جعله يخشى أنه سيفقد صوابه، قضى ماكدونالد ذلك اليوم وهو يفكّر في أفضل الطرق للانتقام لموت الكاهن تيرنبول، عُثر في جيبه على رسالة توجّه أصابع الاتهام نحو جماعة *Kiama Kia Rukungu:*

أتيتم إلينا بسلاح وإنجيل، وصارت فاتورتكم باهظة القيمة،
الآن تحصدون ما زرعتم...

قبل عدّة سنوات، امتنع ماكدونالد عن المشاركة في الحرب ضدّ المتمردين لأنه كان لا يزال مرتاعاً من تجربته في مومباسا، وكان قد تقاعد

رسمياً على أيّ حال، وتقع مسؤولية حماية المواطنين على المستعمرة، إلا أنّ الموضوع الآن صار يمسّه شخصياً، لقد فقد صديقاً عزيزاً ولا يصحُّ أن يكتفي بالجلوس والحزن، لقد وضع بنفسه أسس المستعمرة الجديدة، كلّ مَعلم من تفاصيل الحياة فيها مقسّم مثل مقطورات القطار.

كان الفصل العنصري مطبّقاً في تقرير مكان سكن المرء، ومقدار النقود التي يمكنه كسبها، ونوع العمل الذي سيكسب منه هذه النقود. لقد بدأ بعض أصحاب المزارع البيض بالسماح للعمال السود أن يبقوا في مزارعهم على أمل أنّهم قد يكونون قادرين على إقناع إخوتهم السود بترك المكان وشأنه حين يُغيرون عليه، إلا أنّهم مُنعوا من إبقاء حيواناتهم في هذه المزارع خشية أن يجلبوا الأمراض إلى هذه الجنة البيضاء.

أمّا قوانين منزل ماكدونالد فقد كانت أكثر حزماً، لم يكن يُسمح لأيّ أحد بقضاء الليل هناك، كلُّ عماله المنزليين يُنهون أعمالهم ويغادرون، فقد كان يشعر براحة أكبر للعيش مع الحيوانات البريّة، القلّة التي سُمح لها بالبقاء تألّفت من الناقلين الذين يجلبون الضيوف من محطة القطار، ومدبّر المنزل الذي يحرص على توافر البياضات الكتّانية واستمرار تدفّق المياه في الصنابير.

في ذلك اليوم فكّر ماكدونالد في المشروع الاستعماري بأسره وأدرك فجأة أنّ الإمبراطورية البريطانية التي أكّدوا له وللمستوطنين الآخرين أنها ستدوم طوال الحياة، الإمبراطورية التي لا تغرب الشمس عنها، كانت تغرق في العتمة ببطء، لم يكن المشروع الاستعماري مستداماً، لقد جلب القطارُ الجنودَ والبعثات التبشيريّة وحمل معه لفافات القطن وشوالات الحبوب، قضى الجنود والبعثات التبشيرية أيامهم يقنعون السُكّان المحليين بالعمل الشاق عبر التهديد بالعنف والتأميل بالغفران.

لكنَّ تلك كانت خيارات غير معقولة لأناس لا يمتلكون ما يأكلونه، لقد سلب البريطانيون أرض الشعب التي كان ماكدونالد يحتفظ بألف فدّان منها، ما كان في السابق موارد عامّة مثل المياه النقية والأسماك أصبح الآن في أراضٍ خاصة، يُهدد أصحابُها من يتجاوز حدودَها بالتعذيب، علاوة على ذلك، فقد أنشأ ماكدونالد فندقه على هيئة مزرعة خاصّة للحيوانات البريّة، بينما كان الصيد ممنوعاً، وهكذا فإنَّ المجتمعات التي ظلّت تعتمد على الأرض لقرون في الحصول على طعامها وكسائها لم تعد قادرة على امتلاك الأرض أو الاستفادة من خيراتها أو حتى الدوس عليها، حتى حركة المحليّين كانت مقيدة بإذن، ***kipande***، يُصدّره الرجال البيض، ويحدّد الأمكنة التي يستطيعون الذهاب إليها والعمل فيها، لم يكن لدى أكثرية الشعب ما يخسره سوى أغلاله.

"أرى الظلمة في كلّ مكان." تمتم ماكدونالد لنفسه في يوم التأمّل ذاك، ما الذي تمحورت حياته حوله؟ ما الذي حققه بعد تسعين عاماً على هذا الكوكب؟ ومجدداً بدأ بابو التقني الهندي بالتسرب داخلاً وعيه وخارجاً منه، تذكّر ماكدونالد أنَّ الكاهن تيرنبول هو من أخذ الطفلة التي شكَّ الجميع في أنها ابنة الهندي قبل ستين عاماً، حين توجّه ماكدونالد نحو النافذة ونظر إلى الأفق، كان كلّ ما رآه هو ذلك الصباح الضبابي الذي وصل فيه للمرة الأولى إلى ناكورو والمحادثة التي أجراها مع الكاهن تيرنبول، سأله الكاهن إن كان لون الطفلة غير الشرعية أو عقيدتها يهمّان حقاً؟ ثم صرّح: "أنا الآن والد هذه الطفلة، سوف أربّيها كما لو كانت من صلبي." تعلّق ماكدونالد بالطفلة، بينما شاهدها تكبر لتصبح صبية، ثمَّ تعجّب من تطورها بينما نضجت لتصبح امرأة.

مع تردد كلمات الكاهن في ذهنه، عرف ماكدونالد الطريقة الأنسب لتكريم ذكرى صديقه الراحل، وهي ترسيخ علاقات عرقية أفضل وتشجيع

التسامح، وهذه هي اللحظة التي أدرك فيها ماذا سيحلُّ بالأرض التي جعلته ملكة إنكلترا وصياً عليها عوضاً عن لقب الفروسية الذي لم ينله أبداً، سوف يبني فوقها باستعمال النقود التي جمعها على مدى السنوات مدرسةً تحمل اسم صديقه، وستكون الشروط القليلة التي سيفرضها هي السريّة التامة حول اسم المتبرّع، فضلاً عن تعليم مزيج من المبادئ المسيحية التي عاش الكاهن تيرنبول من أجلها، مع تركيز بسيط على الروح الرياضية واللياقة البدنية وهي فرع من فروع الانضباط العسكري الذي صاغ شكل حياة ماكدونالد.

اكتمل إنشاء المدرسة المسماة (سي.إم.إس ناكورو)، على اسم الجماعة الدينية التي تكفّلت برحلة الكاهن تيرنبول إلى شرق إفريقيا، بعد موت الواعظ بأشهر قليلة، وسريعاً ما صنعت لنفسها شهرة بأنها مؤسّسة متعددة الأعراق وغير دينية، وقبل مضي وقت طويل، صار لها فروع تابعة في أرجاء المستعمرة، ومنها فرع (ندوندوري)، لقد لفتت سمعتها انتباه بابو وألهمت قراره بإرسال راجان إليها ليكون معلّماً متطوعاً، أمّا دافعه الآخر فقد كان الحرص على أن يقضي بعض الوقت مع عائلة كريم حتى يتعرّف على ليلى التي كانت مخطوبة له.

19

كان سقوط المنزل الذي بناه ماكدونالد مبهراً مثل بنائه، إذ إنّه لم يُدمَّر دون قدر من الدراما، أو من دون تفريخ أساطير جديدة تُضاف إلى تلك المتداولة على مدى العقود.

قاطع الكثير من القرويّين الذين يسمعون النبأ للمرة الأولى المتكلّم الذي كان يحكيه وطالبوه: "هل تستطيع تكرار ما قلته للتو؟" وعند تكرار الخبر كانوا يتدخلون: "*Atia atia?*[157] إذاً فالإشاعة صحيحة..." رفض الغالبية تصديق الأخبار وفضّلوا السير إلى الجاكارندا لرؤية الأطلال بأنفسهم، أو طلبوا من المسافرين في اتّجاهه أن ينحرفوا عن طريقهم قليلاً لتأكيد صحة القصة.

كان الركّاب المترجلون من القطار يتوقّفون على سلالمه قبل أن يلتفتوا إلى الركّاب الآخرين ليسألوا: "ألم نصل إلى ناكورو؟" ليجيبه أحدهم بأنّه ظنَّ أيضاً أنهم قد بلغوا وجهتهم، على الرغم من أنَّ البلدة بدت مختلفة كثيراً عمّا يذكره، ربما تقع البلدة أبعد قليلاً؟ قد يفكّر، وهكذا يبقى المسافرون على متن القطار مقتنعين أنّهم لم يصلوا بعد، لكنّهم يصرخون على سائق القطار ليوقفه من جديد حالمَا يغادر المحطة، لقد احتاجوا إلى بعض الوقت ليدركوا السبب الذي جعل ناكورو تبدو مختلفةً إلى هذه الدرجة، لقد مُحي الصرح الذي كان يميّز البلدة لأجيال كثيرة عن وجه الأرض، وكما كان سكّان ناكورو يحبون أن يضيفوا: "هكذا بكلّ بساطة، ذاب مثل حبيبات السكّر في كوب من الشاي."

لكن كيف حدث ذلك؟ تساءل الكثيرون، بينما انتشرت أنباء دمار الجاكاراندا مثل النار في الهشيم، كيف يمكن لمكان منح الحياة لناكورو أن يفقد حياته؟ وكيف ستحافظ ناكورو على وجودها إن كان كلّ ما تمتلكه مستقٍى من الجاكاراندا؟

كان الدخان لا يزال ينبعث من أطلال المؤسّسة في الصباح التالي، بينما

---

157 Atia aria: مهلًا، مهلًا (السواحيلية).

وصل السكّان من مختلف أرجاء ناكورو والقرى المجاورة ليشهدوا بأنفسهم ما حلَّ بمعلم بلدتهم الأبرز، ظلّت قاعدة البناء ثابتةً، إلّا أنَّ السقف دُمّر تماماً، وتقوّست العوارض التي كانت تحمله وغدت الدعامات دكناء ومسخمة وهشّة، وقف الناس في مجموعات، يتهامسون ويتساءلون عن مُفتعل هذا الحريق، وحُبكت قصص متنوعة التفاصيل عمّا جرى، بحلول هذا الوقت، كان من المؤكّد تورّط ماكدونالد بطريقة ما بمناوشات قادت إلى إحراق المنزل، تهامس السكّان أنَّ أتباع حركة ***Kiama Kia Rukungu*** حضروا إلى بابه وهدّدوه بتحويله إلى رماد، لكنَّ دور ماكدونالد الدقيق في الحادثة ظلَّ مجهولاً.

نفى المتدينون هذه الحبكة، وزعموا أنَّ التدمير حدث إثر كارثة طبيعية، لقد قالوا إنَّ الربَّ أطلق هزة أرضية زعزعت البناء حتى أساساته، ثم أرسل صعقة من البرق لتضرم النار في الأطلال، وعدم موت أيّ شخص في هذه الحادثة هو الدليل على أنّها تحذير للعالم وأنَّ النار في المرة القادمة ستكون أشدَّ تدميراً ما لم يتوبوا ويلجؤوا إليه، وهكذا، بينما أخذت القصص التي تتكهن بما قد جرى حقاً تدور وتدور، كما هي العادة في ناكورو، صارت أسطورة ماكدونالد تتضخم أكثر فأكثر.

لطالما كان له غموضٌ من نوع ما، تهامس الرجال المسنّون وهم يستذكرون سنوات عزلة ماكدونالد في ذلك المنزل المحترق عينه، ولئلّا يشعر بأنه مُهمَل، تحدث غاثينجي القصّاب عن العصابة المغيرة التي أتت إلى المؤسسة في وقت سابق، لكنَّ الزبائن عملوا على طردها، إلّا أنَّ عدداً قليلاً للغاية من الذين كانوا حاضرين وقتئذٍ في الجاكاراندا أدلوا بدلوهم في هذا النقاش، معظمهم كان مُحرجاً للغاية لأنه لم يحرّك ساكناً، ولأنه علاوة على

ذلك قد دلَّ المهاجمين على مكان سكن ماكدونالد، ربما هم أيضاً قد خُدعوا في تقديرِ مدى بطولة ماكدونالد الشهيرة، فلم يأخذوا التهديد الموجّه ضدّه على محمل الجدّ.

إذاً فلننهِ التكهنات في هذه اللحظة ونؤرّخ الأحداث كما حصلت فعلياً، صحيح أنَّ ماكدونالد وجد نفسه في مواجهة الشبّان الراقصين الذين اجتاحوا مزرعته والذين أوحت تفاصيل أشكالهم بأنهم أعضاء في جماعة ***Kiama Kia Rukungu***، إلّا أنَّ المظاهر قد تكون خادعة، وماكدونالد عاش بما فيه الكفاية ليعرف ذلك.

كان منوّماً مغناطيسياً بطريقة ما بقارع طبلٍ بدا شبيهاً إلى درجة مقلقة بقارع عرفه منذ سنوات طويلة للغاية في مومباسا، لكنّه لم يستطع تذكّر اسمه حقاً، كان هناك شيء مألوف في طريقة ميلان رأسه، وحتى الطريقة التي ضرب بها طبْلَهَ بيديه.

حاول ماكدونالد طرد هذه الفكرة من رأسه، لكنّه لم يقدر، في سن الثانية والتسعين المتقدّمة، كان يتمتّع بصحّة ممتازة، إلا أنَّ ذهنه كان يخلط في بعض الأحيان بين ذكريات الماضي والحاضر، وهكذا صار أيّ استكشاف للحاضر تذكّراً مرهقاً للماضي في الوقت نفسه، بدأت سلسلة أفكاره وانتهت مع مقطورات القطار والسكّة اللّذين حضر لجعلهما واقعاً.

من شرفته المرتفعة، امتلك ماكدونالد أفضلية مراقبة المغيرين تحت الضوء المتوهّج للمصابيح الأمنيَّة من برج مراقبته، كان على أفراد العصبة حمايةِ أعينهم من الضوء القوي وهم ينظرون باتجاهه، ولذلك لاقوا صعوبة كبيرة في رؤيته، بينما هبط ماكدونالد على السلالم ببطء محسوب ومتعمّد، وسلاحه على أهبة الاستعداد، لم يرفع عينيه عن قارع الطبل الذي تحرّك نحو

بئر السلّم، سدّد ماكدونالد فوهة سلاحه نحو الرجل، لكنَّ الطبّال ظلَّ يهتز ويتحرّك على إيقاع نبضات طبله وكأنَّ للسلاح جاذبية ما، على الفور، أحاط بقية أفراد العصابة بماكدونالد، ووجد نفسه في وسط ما شعر أنّه احتفال ثقافي، ها هو ذا، رجل أبيض عجوز، مترهّل، سلاحُه موجّهٌ نحو هدف متحرّك لرجل مهزول يمسك طبله بين ساقيه.

تحوّل المكان إلى حلبة قتال حيث يوشك مقاتلان على نطح بعضهما، يحثهما الراقصون الذين بدا أنّهم يتلذّذون بكلّ لحظة. لم تُرهِب رؤية السلاح أياً من الراقصين الذين انتقلوا إلى أغنية جديدة وهم يعرضون سيوفهم اللامعة التي استلّوها من أغمادها.

Kataa kata!

Kata mwanangu kata!

Kataa kata!

Kata mwanangu kata!

لقد سمع ماكدونالد هذه الأغنية في السابق، وأعاده سماعها الآن إلى مومباسا، إلى اليوم الذي دُشّن فيه البدء في تركيب سكّة الحديد، كان بمقدوره رؤية نيوندو -نعم، هذا هو اسم الطبّال الذي استأجره لذلك اليوم- يضربُ طبله بكلّ قوته، جاذباً العمال ليخرجوا من أكواخهم، كان ذلك يوم ماكدونالد المهم، ولمباركة هذا اليوم الميمون، وصلته برقية من لندن تؤكد أنَّ تشارلز إريكسون، الحاكم الاستعماري، سوف يصل إلى البلدة.

بدا المحليّون كأنهم يركضون نحو الموسيقا، لأنَّ صوت الطبل كان أحد الرموز المهمة للجيرياما، وقد استعملوه لعدة أجيال بهدف استنفار المجتمع، كانوا يلتقون تحت شجرة ***mvinje*** التي فاقت جميع من في القرية عمراً، ولأنَّ

البريطانيّين لم يستطيعوا نطق اسمها، فقد سمّوها شجرة الصنوبر الصافر بسبب الموسيقا التي تصدر عن حفيف أوراقها، أما الاسم الذي استعمله المحلّيون فهو مشتقّ من كلمة ***nifiche*** التي تعني الملجأ، لأنَّ الشجرة حمت المجتمع بكلّ إخلاص من جميع العوامل، إن قابلتَ رجال الجيرياما وحناجرهم رطبة بنبيذ النخيل فسوف يقلّدون لك صوت الصفير الذي تصدره أوراق شجرة ***mvinje*** ثم يهمسون بما سمعوه عن قدرات الشجرة في طفولتهم، إن استمرَّ تقديم نبيذ النخيل ولم يُقاطع أحد ارتشافه على مهل، فسوف ينغمس الرجال في الحديث عن السحر المرتبط بشجرة ***mvinje*** ويزعمون أنّهم شهدوها بأعينهم تهبط عدّة أمتار نحو الأرض -كما تفعل الدجاجة لتحمي فراخها- ثم تعود إلى ارتفاعها الطبيعي بعد انتهاء الخطر الذي كان يتهددهم.

لكنَّ شجرة ***mvinje*** لم توفّر الحماية للناس فقط، كان العجائز يبوحون بالأسرار وأصواتهم أكثر ثباتاً بعد احتساء الشراب لأنهم يشربون ليتذكروا لا لينسوا، يضحكون ثم يشرحون الطريقة التي ترعى بها أشجار ***mvinje*** المرضى حتى تتحسن صحتهم، فالذين يعانون من الجذام لا يحتاجون أكثر من لمس لحائها ليبرؤوا، وليس على الأطفال المصابين بالدودة الشصية إلّا مضغ أوراقها وستتخلّص أمعاؤهم منها حتى آخر دودة، ثم يخفض ***wazee*** أصواتهم أكثر ثم يقولون إنَّ النساء اللواتي يشردن عن أزواجهنَّ كنَّ يأتين إلى الشجرة تحت جنح الليل وينتظرن حتى تسقط ثمارها، فإن أكلن ثمرتها المُرّة فستهبط ثمرتهنَّ الجامحة من أرحامهن ***Dawa ya moto ni moto!*** يقولَ الرجال العجائز وهم يضربون أكفهم ببعضها، **علاج النار هو النار.**

تحت الشجرة كان نيوندو وقارعو الطبول الآخرون، بجذوعهم العارية،

يضربون طبولهم التي يقبضون عليها بين سيقانهم، وفي الوسط تجمعت دستة من الراقصات اللواتي أخذن يدرن أوراكهنَّ بمرونة كبيرة تجعل المرء يعتقد أنَّ أجسادهنَّ مجردة من العظام، شكّلت هؤلاء الراقصات دائرة حول واحدة منهنَّ وازنت قرعةً فوق رأسها، بينما تابعت هزَّ خصرها إلى هذا الجانب وإلى ذاك، كلّ الراقصات كنَّ عاريات الصدور، إلا من حليٍّ تتدلى من أعناقهن، وحلمات أثدائهنَّ المستديرة منتصبة، كنَّ يرتدين شرائط ضئيلة من القماش حول خصورهن، وقد بدا أنَّ الهدف منها هو تعزيز إغراء حنايا أجسادهنَّ عوضاً عن سترها، تَسارع إيقاع الطبل وضربت الراقصات الأرض بأقدامهن وتخدّرت مؤخراتهنَّ الكبيرة بالرقص إلى أن تساقطت مزق القماش أو غابت في شقوق أجسادهن، ثمَّ توقفت الطبول فجأة.

اعتلى ماكدونالد المنصّة وقدّم كلمة قصيرة، شابَ صوته شيءٌ من الرعشة لم يقدر على التخلّص منها منذ إطلاق نار المدفع، واهتزَّ شاربه من طرفيه، كان قلقاً حيال تقلّبات السكّان المحليين، ولهذا أشرك راقصاتهم في هذا الاحتفال بهدف حملهم على الطمأنينة.

"السيدات والسادة." بدأ خطابه "هذه مناسبة خاصّة، نشهد فيها احتفالاً رائداً بسكّة حديد شرق إفريقيا، ولتدشين بدء هذا المشروع الهامّ، سافر الحاكم الاستعماري (السير تشارلز إريكسون) رحلة طويلة من نيروبي ليُشرِف على العملية، من دون المزيد من الكلمات، رحبوا معي بالحاكم."

سُمع بعض التصفيق المتقطّع الصادر عن عدد قليل من الأشخاص الذين يفهمون اللغة، وبدت الأصوات غير المتناسقة شبيهة بصوت تساقط فضلات حمار، هلل المحليّون بعد تلقّي الإشارة.

كان تشارلز إريكسون رجلاً ضئيلاً ونحيلاً، وتحدّث كذلك باقتضاب

وبصوت مدهش في قوّته لرجل بهذا الحجم، لقد قال إنَّ المباشرة بإنشاء سكّة الحديد كانت حدثاً تاريخياً سينقل محمية شرق إفريقيا البريطانية إلى مجتمع تزدهر فيه المسيحية والتجارة والحضارة.

"إن سمحتم لي." قال إريكسون، "سوف أعيد ترتيب هرمية هذه الأهداف لتكون التجارة في رأس الهرم، ثم الحضارة، وتليها المسيحية، قوة ثلاثية إن صحَّ القول، سوف نحقّق أهدافنا باستخدام سكّة الحديد التي ستنطلق من هذه البقعة التي نجتمع فيها اليوم."

بدأت دورة من التصفيق المتردّد الذي انتقلت عدواه من جماعة معسكر العلم البريطاني نحو الجمع المحتشد تحت شجرة ***mvinje***.

"هناك أشخاص بيننا عمّدوا هذا المشروع باسم قطار إكسبريس الجنوني، ولا تتعلق هذه التسمية بالتشكيك في عقلانية مهندسيه، بل هي مستوحاة من شجاعة الحالمين بتحقيقه، أستطيع القول إنّنا سوف نحوّل هذه الأرض البريّة إلى بساتين عامرة بالفاكهة، وأود أن أحيي شجاعة خمسمئة صاحب مزرعةٍ تركوا راحة إنكلترا ليكونوا طلائع التغيير في البراري الإفريقية، سوف يحصلون على جوائز تتمثل في أراضٍ خصبة لا يحتاجها السكان المحليّون، ومعظمها غير مأهولة، نحن هنا لدعم أعمالهم، إذ إنَّ سكّة الحديد سوف توصل محاصيلهم أبعد بكثير من هذه الشواطئ."

أُعطِيَ إريكسون معزقة ومعولاً، ضرب الأرض ضربة واحدة، ثم غرف من ترابها قبل أن يجلب له مساعده بعض الماء ليغسل يديه ويزوده بزوجٍ نظيف من القفازات، لوّح إريكسون بيده ذات القفاز للحشد وهو يبتسم ابتسامته الحادة، انفجر الناس ضاحكين ثم لوّحوا له بدورهم.

تدخّل ماكدونالد عند هذه النقطة، كان من المفترض به تنسيق عملية

قطع شجرة *mvinje* رمزاً إلى تنظيف الأراضي العذراء من أجل تمهيد الطريق أمام سكّة الحديد، أوعز إلى الأفارقة المستأجرين لهذا اليوم بما يجب عليهم فعله، لكنهم جميعاً هزّوا رؤوسهم رافضين وابتعدوا عنه خشية أن يكونوا قد فهموا تعليماته خطأً، استدعى ماكدونالد مترجماً وجعله يوصل رسالته لهم، لكنَّ هذا استثار المزيد من الردّ العدائي، توتّر ماكدونالد، إن كان عمّاله يعصون أوامره في وضح النهار فماذا سيظنُّ رئيسه به؟

استدعى ماكدونالد أحد الضبّاط البريطانيين وأخبره بما يريد، أخذ الضابط مدية كبيرة من يد أحد العمال الأفارقة وهوى بضربة على جذع الشجرة، لكنَّ الانتقام حدث على الفور: سحب أحد العمال الأفارقة الذين رفضوا قطع الشجرة المدية من يد الضابط ثم هوى عليه بضربة واحدة منها، فتغطّى نصلها بطبقة حمراء رقيقة وسقط البريطاني في الحال وهو ينزف بغزارة، علا الهرج سريعاً، شقّت الأعيرة النارية السماء، صلصلت المديات الكبيرة مطلقةً شراراتٍ ومحطمة بعض العظام بينما فرَّ البشر للنجاة بحياتهم.

استيقظ ماكدونالد من حلم يقظته بينما مشى الطبّال نحوه، توقّف قبل الوصول إليه ببضع خطوات وانتزع قناعه، صرخ ماكدونالد مسقطاً مسدسه في هلع.

"نيوندو!" قال هامساً وهو يتراجع، "ظننت أنّك..."

"ميت؟" ردَّ نيوندو بالسواحيلية وهو يبتسم، "لقد عشت لأروي القصة."

لم تعد ساقا ماكدونالد تحملانه فسقط على ركبتيه وهو يحتضن رأسه بين ذراعيه قبل أن ينهار جاثماً على الأرض، قد يُفهم تصرفه خطأً على أنّه استسلام -فهذه وضعية استرحام- لكن بالنسبة إلى ماكدونالد، كانت وضعيّةً دفاعيةً، إذ إنّه أعدَّ نفسه لتلقّي أيّ ضربة قد توجَّه نحو جسده.

أحاط نيوندو بماكدونالد ثم رفع ذراعه وأسقطها قبل إنشات قليلة من حيث كان السلاح مرمياً، كان يختبر إن كان الرجل لا يزال واعياً، تماماً مثل حكم ملاكمة، لوّح أحد الراقصين لنيوندو بطريقةٍ هستيريّةٍ وهو يحثّه على إبعاد السلاح عن ماكدونالد، لكنَّ نيوندو تجاهله وتابع تقييمه، جلس ماكدونالد من دون أن ينبس بكلمة.

تحولت ساحة الرقص الآن إلى حلبة مصارعة، إلا أنَّ أحد المصارعين كان على الأرض، والآخر يتمشّى حوله، ينتظره لينهض، ابتسم نيوندو:

"الآن تعرف ما يعنيه شعبنا حين يقول إنَّ الجبال وحدها هي التي لا تتلاقى..."

أومأ ماكدونالد وهو يحدّق أمامه بنظرة متحجرة.

"أتينا في سلام." قال نيوندو ضاحكاً.

"أليس ذلك ما قاله قومك حين وطئوا هذه الأرض للمرة الأولى؟"

ظلَّ ماكدونالد صامتاً، مترنّحاً بفكرة أنَّ الرجل الذي ظنّه ميتاً منذ زمن طويل كان لا يزال حياً وبحال جيدة "اخرج من أرضي." زمجر أخيراً بانكسار.

"هذه ليست أرضك." أجاب نيوندو بحزم.

"لا يملك البيض إنشاً واحداً من أرضنا."

"كيف تعرف ذلك؟"

"لأنّك لا تستطيع وضع الأرض في جيبك وإعادتها معك، لقد وجدتها هنا."

صمت ماكدونالد من جديد.

" لقد كنتُ هناك منذ البدء، منذ اليوم الذي أطلقت فيه نيران المدفع،

إلى اليوم الذي دمّرت فيه كلّ الأشجار في الكايا واقتلعتها من جذورها بتلك القنبلة، قلب ظلمة مفتوح على وسعه مثل كتاب، لقد رأيتُ كلَّ شيء بعينيَّ هاتين."

توقّف نيوندو عن الكلام للحظة ثم تابع: "تدمير الكايا كان نقطة تحوّل في حياتي، ظللتُ أسأل نفسي: ما الذي يجعل رجلاً يترك مسقط رأسه ويأتي إلى بلاد أناس آخرين ثم يفرض طريقة عيشه عليهم؟ ثم، وكأنَّ ذلك غير كافٍ، يدمّر ثقافتهم؟ لقد فقدتُ صوتي. ظنَّ الناس أنّي أمزح، لكنَّ الألم جعلني عاجزاً عن الكلام، وهكذا جعلتُ طبلي يتكلم بالنيابة عنّي..."

"هل انتهيت؟" سأل ماكدونالد بتعب.

كان أفراد الجماعة المحيطة به في هذه اللحظة يقلّدون الحركات التي سوف يستعملونها لطعنه، وتردّدت بخفة نقرات طبول بطيئة ومتردّدة.

"أتسألني إن كنت انتهيت من الكلام أم من محاربة الرجل الأبيض؟"

"أياً كان." هزَّ ماكدونالد كتفيه بلا مبالاة، وهو يحدّق بخصمه، نيوندو الذي كان فتى شاباً حين التقاه للمرة الأولى، وصار الآن في حدود السبعين من عمره، لكنَّ الشخص الذي قابله ماكدونالد أول مرّة لم يتغير كثيراً، لم يبدُ على جسده القصيرِ القويِّ أنه اكتسب إنشاً واحداً زائداً، سواء في الطول أو العرض.

"لم أنته من الكلام بعد، وحين أنتهي سأقرّر إن كنت قد انتهيت من القتال أم لا."

"إذاً، ما الذي يأتي أولاً؟ القتال أم الكلام؟"

"لا يعود قرار هذا الأمر إليك." قال نيوندو محتجّاً.

"لقد خطر لي الأمر للتوّ، لو أنّك قتلتني، فلن أكون قادراً على سماع قصتك."

"إنها ليست قصتي أيّها الرجل الأحمق، بل قصتك، أريدك أن تعرف أنّي تبعتك منذ فتنة الكايا، لقد شهدتُ الموت والدمار الذي سببته على هذه الأرض، يأتي يوم يحاسبُ فيه كلّ إنسان على ما اقترفه من جرائم، لكنَّ بعض الأمور لا بدَّ من أن يحاسبه عليها البشر الآخرون في هذه الحياة الدنيا."

أومأ نيوندو لجماعته، تعالى دويّ الطبول من جديد، واستلَّ أفراد العصابة سيوفهم ملوّحين بها في كلّ اتّجاه.

بدا نيوندو مسحوراً وهو يدور حول الجماعة ضارباً طبله، بينما أخذ يلقي بالأسئلة عليهم، وهم يجيبونه بصوت موحد، حين عاد الإيقاع ليغدو رقيقاً من جديد، واجه ماكدونالد ثانية.

"ذهبت إلى أرض الكيكويو وسمعت قصّة ذلك الرجل من واياكي الذي دفن رجالُك رأسَه لأنّه رفض مرور سكّة الحديد عبر أرضه، ذهبت إلى أرض النادي حيث رفض كويتاليل[158] السماح لرجالك بتمديد السكّة عبر أرضهم، فخدع رجالك كويتاليل للاجتماع بهم في ما كان يفترض أنّه لقاء سلمي، ثم فتحوا نيران أسلحتهم عليه على الرّغم من أنّه لم يكن مسلّحاً، وللاحتفال بجبنهم، قطعوا رأسه وأرسلوه إلى ملكتك. هنالك العديد من الجرائم الأخرى، أكثر بكثير من أن تحصى، وكلّها ارتكبها رجالك باسمك. بالرغم من أنّي أقسمت على ألّا أعمل لصالح الرجل الأبيض مجدّداً، إلّا أنّي جُررت إلى القتال في الحرب الكبيرة في بلاد الرجل الأبيض، أخذتُ طبلي معي واستعملتُه للترفيه عن الجنود البيض، لكنّي لم أقرعه مغلقَ العينين، لقد رِأيت الرجال البيض يموتون، والتقيت بجنود سود البشرة من خلف

---

158 كويتاليل: كويتاليل أراب ساموي (1860 - 1905)، الزعيم الأعلى لقبيلة النادي وقائد حركة مقاومة النادي ضدّ الحكم البريطاني الاستعماري.

البحار، أخبروني أنّهم قهروا العبودية وشجعوني قائلين إننا نحن أيضاً سوف نتغلّب على سيطرة البيض في بلادنا، قالوا إنّهم استعملوا سكّة حديد تحت الأرض ليهزموا مالكي العبيد البيض، واحتذيتُ بهم عند عودتي، عملتُ مقاومتنا المنظمة من تحت الأرض، على عكس سكّتك، لم تُبنَ سكّة حديدنا من المعدن، بل من قلوب البشر الذين قادتهم غريزة عمل الصواب، شكّل هؤلاء الرجال والنساء شبكتنا التي امتدّت من بلدة إلى بلدة، بعضهم جلب الطعام، وآخرون زوّدونا بالماء، لكنَّ أفراداً آخرين حملوا السلاح المسروق من تحت أنوف رجالك، وظلَّ العديد من داعمينا يعملون في العلن، حتى إنَّ بعضهم كانوا يعملون لصالحك، مثل بابو..."

فغر ماكدونالد فمه "بابو المسّاح؟"

"لا تتحمس كثيراً، هذا واحد من رجالنا، اسمه الحركي في الغابة هو غوكا، وطنيٌّ من الطراز الرفيع، وحين يُكتب تاريخ هذه البلاد سيخصّص فيه فصلٌ كاملٌ له وحده، لقد كان ملتزماً بالقضية حتى النهاية، أم هل عليَّ القول: منذ البدء. أقدم ما أستطيع تذكّره كان حادثة حصن يسوع حين جعلك تتبول في ملابسك، وحين جلس حكماؤنا لتقرير الأجانب الذين يمكن لنا استقطابهم لنصرة قضيتنا، تكرّر ذكر اسمه مراراً، في الواقع، لم يتذكّر أحد اسمه، كل ما تذكّروه هو جبهته البارزة، ***Sokwemtu***[159]، كما اعتدنا تسميته، وقد استعمل ذلك الرأس الممتاز للإتيان بطرق يستطيع بها المساهمة في حركتنا من دون إثارة أيّ شكوك، وهكذا هزمك مرّة ثانية، نحن ندين بهذه الحرية له، لأنَّ مساهماته هو الكريمة وبعض الأشخاص الآخرين أبقتنا ماضين قُدماً، لقد عمل على طباعة جميع الموادّ التي استعملناها على

---

159 Sokwe mtu: الرجل الشامبانزي (السواحيلية).

امتداد الحرب وساعدنا بكلّ طريقة ممكنة، كما يقول قومنا ***kwa hali na mali*** [160]، ولأنه استثمر في حريتنا، فستكرمه أمتنا وتذكره على الدوام، اليوم نصبح أحراراً، وكما قال نكروما في غانا، بلدنا الحبيب حرٌّ إلى الأبد، والآن حان دورك لترحل، بسلام."

هرع نيوندو نحو المسدس المرمي عند قدمَي ماكدونالد وأمسكه، تجمّد ماكدونالد بانتظار قتله، حتى غناء العصابة توقف تماماً، فكّك نيوندو السلاح برشاقة وأزال مخزن ذخيرته، ثم رمى كلّ رصاصة في جهة مختلفة.

"**حين تُزهر طلقات الرصاص**." قال نيوندو، "**سيحصد الأفارقة الثمرة المرّة التي زرعها البيض بيننا...**"

جرّب ماكدونالد الوقوف من دون جدوى، كان يحاول تذكّر كلمات الملاحظة التي دُسّت في جيب الكاهن تيرنبول بعد قتله، كانت تتحدث عن حمله للسلاح والإنجيل، وحصد ما زرع، قرّر ماكدونالد أنّه لن يموت راكعاً على ركبتيه، سوف يكون واقفاً، حاول النهوض ثانية لكنّه سقط، مدَّ نيوندو يده وساعده.

تصاعدت أصوات التبرم من شبّان العصابة، لم تكن هذه هي الطريقة التي خطّطوا لها لمضايقة ماكدونالد وترويعه ليهرب من المزرعة، عوضاً عن ذلك، قرّر نيوندو استعادة ماضيهما معاً ورمي الرصاصات التي كان يجب أن تسكته بعيداً، بدأ الشبّان بتفتيش المزرعة وهم يركلون ويشقّون كلّ ما يجدونه أمامهم، حين وصلوا إلى الجاكاراندا رمى حامل المشعل شعلته على المنشأة، فسقطت على واحدة من الأقمشة المشمّعة قرب محلّ جزارة غاثينجي وأشعلت إحدى جوانبه، على الفور، تراقص اللهب ممتدّاً على شوادر القنّب

---

160 kwa hali na mali: بحاله وماله (السواحيلية).

مطلقاً صوت هسيس قبل أن ينفجر في كرة من النار، خرجت من محلّ غاثينجي دستتان من الفئران البنية المسودة التي كانت هاجعة تحت أكياس البطاطس، فضلاً عن أعداد أكبر من الصراصير، كلّها بدينة وكسولة، ولم يتحرّك أيّ منها لبرهة من الزمن، بل كانت تطرف أعينها في مواجهة دفقة الضوء القوي ويبدو عليها الارتباك، تدافَع روّاد المكان القلائل الحاضرون وفرّوا نحو مكان آمن، كذلك فعلت بعض ظباء الشجيرات والبقر الوحشي التي كانت عند حفرة السقاية، استغرق الأمر ستَّ ساعات للقضاء على المبنى ومعه عقود من التاريخ الذي ضمَّ تقاليد ناكورو.

بدت أنقاض الجاكاراندا كما لو أنها تكتسب حياة جديدة حين وصلت إلى ناكورو في اليوم التالي قافلةٌ مؤلّفةٌ من ستِّ سيارات تصدح صافراتُ إنذارها، ظنَّ بعضهم أنَّ رجال الإطفاء قد وصلوا أخيراً، لكنَّهم كانوا مخطئين، كانت هذه حاشية الرجل الكبير، توقّف عند الأطلال وهزَّ رأسه وهو يراقب الدمار، ثم عاد إلى سيارته ووقف مطلًّا من فتحة سقفها يحرّك منشّة الذباب حوله محيّياً فاحتشد القرويون المجتمعون حول سيارته، قال الرجل الكبير إنّ ***Serikali ya Mwafrika***، حكومة الرجل الأسود، لن تتساهل مع الشغب والتخريب، وإنّه سوف يتعامل بصرامة وحزم مع هذه الأفعال، ثم استدار إلى مفوّض الشرطة الواقف إلى جانب السيارة بملابس زرقاء دكناء وكتفيّات على كتفيه.

" ***Bwana*** المفوّض، أريد الأشخاص المسؤولين عن هذا الحريق أمامي خلال أربع وعشرين ساعة، أحياء أو أمواتاً." هدر الرجل الكبير، ثم سخر من الديكة التي تركها المهاجمون في منزل ماكدونالد وقال إنّها حيلة رخيصة لتوريط اسم ***Serikali ya Mwafrika*** في سياسات الموت والدمار.

انطلقت قافلة سيارات الرجل الكبير بعد ذلك إلى منزل ماكدونالد الريفي، كان العديد من المستوطنين البيض قد وصلوا لمواساة الرجل، خاطبهم الرجل الكبير بشكل جمعي شارحاً: "أريدكم أن تبقوا في هذه البلاد وتزرعوها، هناك متّسع لنا جميعاً، كباراً أو صغاراً، بيضاً أو سوداً، أغنياء أو فقراء، أمّا الذين أريد رحيلهم كما قلت في ذلك اليوم، يعرفون أنفسهم، إنهم من لا تستطيع تصنيفهم كأصدقاء أو أعداء، لأنهم يختبئون بين الطرفين ويأكلون من الجهتين مثل ***thambara***، أولئك الذين يُبقون كلّ نقودهم تحت فراشهم لأنهم لا يؤمنون بإمكانيات ***Serikali ya Mwafrika***... لكن أخبِروهم ألّا يخطئوا الظنّ: لن أقف وأتفرّج عليهم وهم يُفسدون مستقبل هذا البلد العظيم، أما بخصوص هذه المسألة، فإنَّ حكومتي سوف تخصّص مبلغاً لإعادة إعمار الجاكاراندا، وهو بناء لم يمنح ناكورو حياتها فحسب، بل تاريخها على حدّ سواء، أشكركم جميعاً، أشكر السيد ماكدونالد بالتحديد لأنّه واحد من الآباء المؤسّسين لهذه الأمّة، إنَّ الأشخاص الذين لا يعرفون ماضيهم هم مثل أشجار بلا جذور، وقبل الجاكاراندا لم تكن ناكورو سوى سهول جرداء."

20

أبٌ مؤسّس هو وصف كبير لرجل ضئيل مثل أحمد، الأب الذي جعل لبابو نسِلاً، وأسّس: أحمد، بابو وكورداج ***(ABC)*** وهي الشركة التي منحته ثناءً من الدولة يوم الاستقلال في ديسمبر عام 1963، إلى جانب ماكدونالد، رسمياً، أصبح أحمد معروفاً بسبب روحه الريادية، وقيادته شركة خاصة

كبيرة نحو تحقيق الأرباح، وتأمين الوظائف لمئات العمّال.

في الواقع، كان هذا التكريم مسرحيّة أخرى لحرمان بابو من التكريم الذي يستحقّه.

ولنفهم كيف حدث هذا الأمر، دعونا نُرجع عقارب الساعة مرة ثانية إلى العام 1901 في ناكورو، حين عاد أحمد من زيارته القصيرة إلى مومباسا وقضيبه لا يزال دافئاً ورطباً عقب أيام من مضاجعة فاطمة، من جهة، كان نادماً ويشعر بتأنيب الضمير، ومن جهة أخرى جريئاً وغير مبالٍ، كان يعرف خطأ سرقة زوجة رجل آخر، خاصّة إن كان رجلاً ائتمنه على مسؤولية هامّة تتمثل في إبلاغ عائلته عند تعرّضه لمصيبة ما، لكنّه في الوقت نفسه شعر بوجود تسويغات لما فعله: أيّ رجل يترك زوجته عذراء لا ليوم أو أسبوع بل لسنوات طوال؟ وأيّ رجل صحيح العقل يترك امرأة بجمال فاطمة من دون مساس؟ على بابو أن يعدّ نفسه محظوظاً لأنّ أحمد واقعها أولاً، أكّد لنفسه.

وهكذا سوّغ الأمور: كان واجب الرعاية المنوط بأحمد هو ما أجبره على انتهاك ثقة بابو به، كما أنَّ نفي بابو يعني أنّه لن يُضطر إلى مواجهته، على الأقلّ ليس في الوقت الحالي.

بعد ثلاثة أشهر، ظهرت أمامه فرصة مثالية، بدأت أنباء تبرئة اسم بابو تنتشر، أدرك الزعيم لونانا أنَّ سبب حمل ابنته هو رجل ذو عينين زرقاوين، وأبلغ الجميع أنَّ تهمة بابو قد أُسقطت، وجّه العمال الهنود والأفارقة أصابع الاتهام نحو أشهر رجلين بعيون زرقاء في المكان، الكاهن تيرنبول وماكدونالد، لكنَّ بعضهم نفى هذا الشكَّ بالسرعة نفسها، "هذان الاثنان، آآآيي." تنهّد بعض العمّال، "هذا مستحيل، فلتخبرونا بشيء آخر..."

إلا أنَّ بعض العمال الآخرين لم يشكّكوا إلى هذه الدرجة، "لا يمكن

للمرء أن يعرف ***ya Mungu ni mengi*** كما يقول رجل الأبقار، **يعمل الربّ بطرق إعجازية ويلقي بالأعاجيب كيفما يشأ.**" كانوا يقولون، لكنَّ هذه النقطة عادة ما تنهي الحديث حيث يتابع الجميع مسار حياتهم اليومية التي كانت تشتمل بالإجمال على الاستيقاظ عند الفجر والعمل حتى الغسق.

كما ذكرنا في السابق، رأى أحمد أنَّ هذا العفو هو فرصة مناسبة ليخبر بابو ببعض الأخبار الحسنة، وهكذا يخفف شعوره الذاتي بالذنب الناتج عن مضاجعته لفاطمة، سوف يرتاح بابو حين يعرف أنَّ التهمة أُسقطت عنه، وقد يكون قادراً حتى على استرحام ماكدونالد ليعيد إليه عمله القديم، سأل أحمد بعض الحرفيين والتقنيين الذين تركوا العمل في سكّة الحديد ليبدؤوا أعمالهم الخاصّة على طول خطّ السكّة، وبعد استشارة عدّة أشخاص، تكوّنت لديه فكرة معقولة عن المكان الذي يمكن أن يجد بابو فيه، بما أنَّ مكان اختبائه كان متطرّفاً بعض الشيء فقد قرّر أحمد ركوب قطار البضائع الذي يغادر في الصباح الباكر بعد وصوله من مومباسا في أمسية اليوم السابق، لكن حين وصل القطار في تلك الأمسية، تلقّى أحمد رسالة فاطمة، شعر بالذعر في البداية حين أبلغه أحد زملائه بأمر الرسالة، لا يمكن أن تكون قادمة من أقاربه في الهند لأنّهم جميعاً أمّيّون، لم يكن له أقارب في المستعمرة، ولا حتى حبيبة، خفق قلبه أسرع وهو يتذكّر فاطمة، نعم، يمكن اعتبارها حبيبته، حتى وإن كانت متزوجة، لكنّها لا يمكن أن تكون صاحبة الرسالة، ففي ذلك مخاطرة عظيمة، عاودته ذكرى حلمة ثديها المِنتصبة وهي تذوب في فمه وأطلقت رعشة سرت في كلّ جسمه، عدّل سرواله ثم جرى ليستلم الرسالة من سائق القطار.

وجد أنها في الواقع برقيّة، وحتى قبل أن يفتحها، لاحظ الشعور الأنثوي

المنبعث منها: المغلف زاهي اللون ولفّات الأحرف المكتوبة على مهل لتهجئ اسمه، عرف على الفور أنّها من فاطمة، صبَّ اللعنات بصوت منخفض وهو يفتح الرسالة، أيها القريب عبدول، أهلاً بك إلى العائلة، أنا بانتظار طفل.

فسّر أحمد رموز الرسالة تفسيراً صحيحاً لتكون إعلاناً عن حمل فاطمة، لم يكن هناك أثر للذعر في الرسالة، بل كانت تحمل نكهة من البهجة، دعوة لينضمَّ إلى عائلتها ويزيد من عددها، امتصَّ أحمد سقف باطن فمه ما حرّض دفقة من اللعاب، فشعر كأنه على وشك التقيؤ، لا بدَّ أنَّ هذا الأمر معدٍ، ضحك أحمد مع نفسه بصمت بينما زال الغثيان، إنّي أتصرف كامرأة حبلى.

لكنَّ مسألة جعل فاطمة حاملاً لم تكن مزحة، عليه تعديل قصته، عليه تغيير الحكاية التي سيرويها لبابو، لأنّه لا يستطيع الذهاب إليه ببساطة والثرثرة: *يا رجل، لقد صرتَ في أمان، لقد ثبت أنَّ الفتاة التي ظنّوها حاملاً بطفلك كانت كريمة مع رجال آخرين، وطفلها بالتأكيد ليس من صلبك، لأنك لا تمتلك عينين زرقاوين، يقول الزعيم لونانا إنّه قد أسقط كلّ التهم الموجّهة إليك، وفي هذه الأثناء، حين أرسلتني لرؤية زوجتك العذراء في مومباسا -لا تسألني كيف عرفتُ أنّها عذراء- حدثت بعض الأمور، وهكذا، أصبحنا عائلة الآن، عائلة واحدة كبيرة، لأنني جعلتها حاملاً.*

عرف أحمد أنّه لا يستطيع قول هذا الكلام لبابو، فسرقة زوجة رجل ما هي أمر سيئ، لكنَّ جعلها حاملاً وجلب نسل لتخليد سلالته هو أمر مختلف تماماً، حتى بالنسبة لشخص مثل أحمد الذي كان يحلم بإنجاب أطفال ذوي آذان كبيرة على امتداد طول خطّ السكّة، فكّر بخياراته، ربما يستطيع إقناع فاطمة بالفرار معه، وقبل أن يدرك بابو ذلك سيكونان قد عبرا المحيط عائدين إلى الهند، سوف يتفهّم الناس هناك هذا الموضوع،

سوف يهزّون أكتافهم بلا مبالاة ويقولون إنَّ الأشياء الغريبة دائماً ما تحدث في إفريقيا، على أيّ حال، لماذا يحتاج رجل الكهف ذاك إلى زوجة إن كان لا يستطيع استهلال عملية الزواج؟ في المقابل، يمكن لأحمد الاختباء في جزء مختلف من المستعمرة، وسيكون هو وفاطمة مثل زوج طبيعي، ولن يشكَّ أحد في أيّ شيء.

استخلص أحمد أنّه لم يكن مستعداً لمواجهة بابو، كما أنّه لم يرسل ردّاً إلى فاطمة، أحبَّ إحساس القوّة الممنوح له، جرّة قلم تمنحها سعادة أبدية أو ترميها في حزن يدوم مدى الحياة، قرأ الرسالة مجدّداً وقرّر أنَّ فاطمة ستكون بخير معه أو بدونه، لم تكن تحتاجه، لم تحتج بابو في السابق، لكنّه لم يعرف ماذا يقول لها، وهكذا لم يقل شيئاً.

مضى شهران وهو يفكّر ملياً بخياراته، لقد بلغ تركيب السكّة ذروته تقريباً في مرفأ إليزابيث، كان التقنيون على وشك خسارة طريق حياتهم، تحدّث العديد منهم عن العودة إلى الهند مع الرياح الموسمية التالية، إن شاء الله، كان فصل جديد على وشك البدء في هذه المستعمرة، مع تدشين خدمات القطار سيبدأ نقل البضائع قريباً إلى الرصيف البحري في مومباسا بهدف الشحن إلى إنكلترا، القهوة والشاي والأرز والبطاطس والحبوب والذرة وكلّ ما يخطر على البال، كلّ هذه ستُعبّأ في شوالات.

سمع أحمد تحسّر ماكدونالد بشأن جميع مزارع القنّب التي أُنشئت لتلبية هذه الحاجة من دون أن يُكتب لها النجاح -سوى مكانٍ واحدٍ في البريّة، في المنطقة المحيطة بكهف بابو، عرف أحمد الآن أمراً آخر لم يكن بابو مدركاً له- أرضه مثل زوجته كانت منطقة عذراء تنتظر من يستفيد منها، وفيما كان أحمد مشغولاً بزرع نطافه في رحم فاطمة، كان بابو منشغلاً

بزراعة بذور القنّب في البريّة، ولأنَّ أحمد نجح بصورةٍ باهرةٍ مع فاطمة التي حملت ثمرة على الفور من دون جهد كبير، عرف أنّه قادر على اغتنام شيء من بابو من دون مقابل. والأهم أنَّ أحمد امتلك المعلومات التي تؤكّد حريّة بابو وعدم حاجته إلى الاختباء بعد اليوم، لكنّه لم يخبره بذلك حين التقيا ولم يخبره بولادة فاطمة الوشيكة لطفله، عوضاً عن ذلك، حدّثه عن العمل المحتمل الذي يمكن لهما بدؤه معاً بمحصول قنّبه، ولأنَّ بابو كان فارّاً من وجه العدالة، فقد قال أحمد إنّه سيكون الوجه الرسمي للشركة إذ كان تركيب سكّة الحديد يوشك على الانتهاء.

لم يكن لدى بابو أيّ اعتراضات، بل كان ممتناً لصديقه الذي خاطر؛ للالتقاء برجل خارج عن القانون، وممتناً أكثر لأنّه وفَّر له منفذاً لمحصول القنّب، ذلك المحصول الذي ظلَّ يعتني به من دون أن يعرف ما هو حقاً، اتفقا أنّه سيحرث الأرض وينتج القنّب، بينما يحصده أحمد ثم يبيع محصوله لصنع شوالات ستدرُّ عليهما أموالاً كثيرة، سيكون هذا ربحاً على جميع الصُعد، لقد زرع أحمد بذرة في شؤون بابو المنزلية، بينما زرع بابو بذرة في البريّة ستكون قادرة على تأمين مستقبليهما مادياً.

أمّا بخصوص رحلته إلى مومباسا فقد أخبر أحمد بابو أنَّ زوجته كانت في أحسن حال، وأنَّ لديها عملاً صغيراً ومزدهراً، كما كانت جزءاً من مجتمع فعّال وحيوي.

"ما الذي قالته عن... عن مشكلتي؟" قال بابو متلعثماً.

"لقد تعاملتْ مع الأمر بهدوء." قال أحمد كاذباً، "امرأة قوية للغاية، لكنّي أظنّها كانت مشوّشة لأنها وقفت تلبّي زبائن متجرها طوال اليوم."

ظلَّ بابو صامتاً للحظة قبل أن يسأل:

"حين تقول إنها تمتلك عملاً مزدهراً، هل تعني أنّه عمل خاص بها؟ أم إنّها تعمل لصالح أحد ما؟"

"لست متأكداً في الحقيقة، لكنّه بدا متجرها الخاصّ، كانت تغلقه عندما تشاء و..." ضبط أحمد نفسه في الوقت المناسب، كان يتكلم أكثر من اللازم، أو ربما كان يريد في لا وعيه أن يخبر بابو بما فعله مع زوجته حين أغلقت متجرها؟ "وأشياء من هذا القبيل." تابع سريعاً.

"أيضاً." تابع بابو، "حين قلت إنّها وقفت تلبّي الزبائن طوال اليوم، هل كنت تعني ذلك حرفياً؟"

"أوووه، نسيت إخبارك عن تلك المعجزة الصغيرة." قال أحمد بحماسة صادقة.

"لقد استعادت فاطمة قدرتها على السير."

كانت تلك المعجزة الصغيرة هي ما حمل بابو على العودة إلى مومباسا متخفياً ليرى فاطمة، مستفيداً من تجربة رحلته إلى المنحدرات، إذ إنّه تنكّر على هيئة حاجٍ متفانٍ **سادهو**[161] كما كان يحمل خرزات الدعاء، [162] ***misbaha***، ملفوفة حول عنقه فوق رداء فضفاض، شقّ طريقه فوق سكّة الحديد التي ساعد على إنشائها بنفسه، وكاد يصرخ من البهجة حين غادر القطار المحطة، شعر كأنها لحظة مسروقة، وهو يحسّ بالاهتزاز اللطيف للقطار، وتذكّر كلّ منحنى على الطريق مسترجعاً الأحاديث التي خاضها مع أحمد ومع عمال آخرين كُثر، كانت هذه بالفعل رحلة في دروب الذاكرة، بعض تفاصيلها مؤلمة وبعضها مبهجة.

ما لازم بابو هو إدراكه المفاجئ لانقضاء أربع سنوات كاملة لهم في

---

161 سادهو: رجل متديّن في الثقافة الهندية.

162 Misbaha: سبحة.

العراء، يحفرون جحوراً لهم مثل الحيوانات البريّة، فكّر بالأصدقاء الذين اكتسبهم والذين خسرهم، مرّت الوجوه في ذهنه، لكنّه لم يستطع استذكار أسمائها بسرعة مرورها نفسه.

بدا له أحمد وكريم الصديقان الوحيدان اللّذان بقيا معه على طول الدرب، اجتمع بابو وكريم من جديد حين انتقل الأخير إلى بلدة ناكورو مؤقّتاً قبل أن يهاجر إلى ندوندوري، أصدقاء رائعون حقاً، "فليحفظهم الرب." تمتم بابو وهو يستعمل سبحته للمرة الأولى، وصل بابو إلى مومباسا من دون أيّ مشاكل، كان متحمساً لمفاجأة فاطمة، وكان متوتّراً بعض الشيء، صحيح أنّه اختبأ لخمسة أشهر، إلا أنّه يهرب منها منذ عامين كاملين، غير قادر على التأقلم مع مرضها، خاصّة مع ضغط العمل في سكّة الحديد، لم يكن يسمّى قطار إكسبريس الجنوني عبثاً، لكنَّ السبب الرئيس الذي جعله يبقى بعيداً كان تجنّب اللعنة التي شكَّ أنها حاقت بزوجته بسبب حماقته، لقد عبث مع رجل من رجال الربّ، وبعد ذلك بزمن قصير فقدت فاطمة القدرة على استعمال رجليها، إن كان كلام أحمد صادقاً حول عودة صحّة فاطمة إليها من جديد فهذا يعني أنَّ آثار اللعنة قد تلاشت.

مع تلك الملاحظة المتفائلة، ترجّل بابو في مومباسا واستطاع تحديد مكان متجر فاطمة سريعاً، لم يكن هناك الكثير من المتاجر التي يديرها الهنود هناك، كما أنَّ القاطنين فيها يعرفون بعضهم، فاطمة زوجة تقني سكّة الحديد، كانت معروفة للجميع، وصل بابو إلى المتجر وعلى وجهه ابتسامة عريضة، لم تميزه المرأة الشابّة التي التقى بها هناك، إذ كانت له لحية كبيرة ويعتمر عمامة على رأسه، لم يستطع تمييزها بدوره، لقد كان يبحث عن فتاة مهزولة وضئيلة بخرزتين صغيرتين حيث يجب أن يكون ثدياها، أما تلك

الواقفة أمامه الآن فهي امرأة في ريعان أنوثتها، عامرة الصدر، ولها وركان ممتلئان، كان شكل العباءة التي ترتديها يؤكد أنَّ لها بطناً منتفخة، ابتسمت له وسألته عمّا يرغب في ابتياعه، في تلك اللحظة رأى بابو الفرجة بين أسنانها وتأكّد أنّه كان يتحدث بالفعل إلى زوجته، الأسنان التي غالباً ما تستخدم للتعرف إلى الجثث، كانت دلالته على زوجته الحيّة، زوجته التي تحمل حياة جديدة لم يكن له أيّ دور في صناعتها، مات شيء داخل بابو على الفور، لقد أصبح الميّت الحيّ.

عاد بابو إلى ناكورو من دون أيّ تنكّر، شعر، كما يقال في ناكورو، أنّه ذهب إلى حفلة راقصة في القرية متحسراً أنّه لا يمتلك حذاءً، لكنّه وجد فيها آخرين لا أرجل لهم.

اعتقد أنَّ فراره من العدالة هو أسوأ ما قد يصيب أيّ إنسان، إلا أنّه عاد من مومباسا شاعراً بأسوأ أنواع الذلّ، لقد أصبح زوج زانية، والدليل كان واضحاً للعيان، لم يسمع الإشاعات في الحانات أو مقاهي الشاي، بل رأى بأمِّ عينه ثمار مجهودات فاطمة، تخيّلها تستلقي عارية، تتأوّه تحت ثقل رجل آخر، تئن باللّذة، لم يستطع مهما بذل من محاولات أن يضع صورة لوجه ذلك الرجل، هل كان أسود أم أبيض أم أسمر؟ هل أدّى عمله بآلية، ينزع ملابسه بحذر ويرصفها فوق بعضها أسفل السرير ليتجنب تجعدها، خشية أن يحتاج إلى ارتدائها للذهاب إلى العمل، أم هل مزّقها في غمرات الشغف؟ هل يعرفه ذلك الرّجل أصلاً؟

حاول بابو تحويل أفكاره في اتّجاه آخر، هو لم يتسبّب في حمل ابنة الزعيم لونانا كما يزعمون، مع ذلك فقد طاله الذلّ، وهكذا فقد خسر على جميع الجبهات، خسر ماء وجهه في العمل، خسر عمله، والآن صار عليه العيش

مع العار الدائم لخيانة فاطمة ووجود طفلها غير الشرعي، عليه الآن الابتعاد عنها قدر الإمكان.

في طريق العودة إلى ناكورو، فكّر بابو في خياراته، ربما يستطيع التسلّل إلى ظهر مركب ما والعودة إلى الهند، لكنّه سيتعرّض لأسئلة لجوجة عن فاطمة حال عودته إلى الوطن، ما الذي يمكن أن يردَّ به على هذه الاسئلة؟ عذراً أيّها الأصحاب، لكنَّ الأمور لم تجرِ على ما يرام بيننا، حصلت زوجتي لنفسها على رجل آخر، وقد فعلاها ببراعة تامّة، حتى أنهما أنجبا طفلاً، لكن أليس هو الذي تخلّى عنها أولاً، هجر امرأة كسيحة لتعتني بنفسها، ألم تدفع به إلى الخجل من نفسه حين سعت إلى إيجاد علاج وحدها، ثم استعادت القدرة على المشي خالقة بهذا حياة جديدة لها من دون الحاجة إليه؟ لم تكن هناك طريقة يخلّص بها بابو نفسه من الفوضى والأسئلة التي لا تنتهي إن اختار العودة إلى الهند.

كانت هناك أيضاً احتمالية ترك فاطمة وبدء حياة جديدة في مكان آخر من المستعمرة، بدا هذا الخيار معقولاً، لن يخسر شيئاً إن انتقل إلى موقع جديد حيث لا يعرفه أحد، ولا يحرجه الناس بالسؤال عن زوجته فيه، في الهند، ستعتقد عائلتاهما أنهما لا يزالان معاً، وهكذا لن تنتشر إشاعات عن قطيعتهما.

لكنّه حين وصل إلى ناكورو، حدث أمران أجبراه على تغيير خططه، أولاً، وجد أنَّ أحمد قد حصد جزءاً من محصول قنّبه.

"بابو ***bhai***، بدأت أتساءل إن كنت قد عدت إلى الهند سيراً على الأقدام." قال أحمد مقهقهاً حين وصل في اليوم التالي، "أخذت قنّبنا إلى الحلّاج، أموالنا الآن تتعرض للغزل، سوف تتساقط علينا مثل المطر."

استغرب بابو قلة اهتمام أحمد بالسؤال عن فاطمة، حتى بعدما أخبره أنّه قد ذهب إلى مومباسا، ربما كان يحافظ على مسافة احترام لئلّا يبدو متطفلاً.

كلّ الذي سأله عنه كان متعلّقاً بأحوال عمل فاطمة، وهو ما ردَّ عليه بابو باقتضاب، أعلن أحمد أنّه سوف يغادر بعد وقت قصير مع محصولهما من القنّب، وسوف يعود في اليوم التالي جالباً حصّة بابو من الأرباح.

لكنَّ الأمطار لم تهطل أبداً، أمطار النقود التي وعد بها أحمد، ولا حتى بضع قطرات، نفّس بابو عن إحباطه بالعمل، مهّد أراضي جديدة، ونثر فيها المزيد من بذور القنّب، وكان واثقاً أنَّ صديقه الطيب لن يحتال عليه ويسرق جهده، سوف يجلب له بعض النقود بالتأكيد.

لكنَّ أحمد لم يعد، لا في اليوم التالي ولا في الأسبوع التالي، ولا حتى في الشهر التالي، ولم يكن بابو يستطيع الذهاب للتفتيش عن صديقه، خوفاً من أن يكشف نفسه أمام السلطات ويخاطر بالتعرض للاعتقال، مضت على رحلته إلى مومباسا ثلاثة أشهر حين قرّر العودة إليها، فقد انتهت نقوده وأصبحت الحياة لا تطاق، ندم على هربه من فاطمة عوضاً عن مواجهتها والمطالبة ببعض الإجابات، كان محتاجاً لمعرفة المزيد عن عملها، لا جدوى من العيش مع هذه المرارة المكتومة داخله، فهو محتاج إلى متنفّس، ومن أفضل لهذه المهمة من فاطمة؟ إن كان المتجر الذي رآه ملكاً لها، فهو يحتاج إلى أن يعرف الطريقة التي حصلت بها عليه، ربما أصبحت امرأة منحلّة أخلاقياً وباعت جسدها لتؤمّن معيشتها.

مرّة أخرى، سافر متنكراً على هيئة سادهو، خوفاً من أن يتعرّف إليه أحد الزملاء القدامى في القطار، ثم اتّجه مباشرة إلى متجر فاطمة، لكنّها لم تكن فيه.

وجد بابو في المكان امرأةً شابّة تدير الأمور، فأخبرته أنَّ فاطمة مريضة، "إن كنت رجلاً من رجال الربّ فهي تحتاج إلى بعض الدعاء." قالت المرأة وهي تحدّق في ملابسه.

شعر بابو بالخجل وهو يتّجه إلى المكان الذي قيل له إنَّ منزلها يقع فيه، تتضارب أفكاره بين متابعة طريقه أو الفرار عائداً إلى ناكورو، لقد أخطأت فاطمة بحقّه، لكنّه أيضاً أخطأ بحقّها، وإن كانت الآن بصحّة سيئة، فهو قريبها الوحيد في هذه المستعمرة، هذا إن استثنى والد طفلها، فكّر بمرارة.

أدرك متأخراً جداً أنّه لم يستفسر عن طبيعة مرضها، وأدرك خطأه حين وصل إلى عتبة منزلها، هاجمت صرخة طفل ثاقبة النبرة أذنيه، التفت ليغادر المكان، لكنَّ الباب فُتح في تلك اللحظة، وقفت امرأة كهلة في مدخل المنزل من دون أن تنطق بكلمة، ثم أغلقت الباب فجأة، حين فُتح الباب من جديد ظهرت مجموعة من النساء وأخذن يلوّحن له ليبتعد.

"هذا شأنٌ خاصّ بالنساء فقط." صرخت إحداهن.

حدّق بابو إلى الداخل، كانت هناك امرأة مسنّة تجلس وسط الغرفة تنفخ في بوق أسود محشو بالأعشاب والبهارات، وهي توجّه الدخان نحو الرضيع الذي احتضنته فاطمة بين ذراعيها، تراجَع بابو مذعوراً.

اجتمعت عدة نساء وبدأن بالتهامس مع بعضهن، بدا أنَّ إحداهنَّ قد عرفته، ثم دعونه إلى الداخل، لكنّه بقي متجمّداً في مكانه، في الداخل كان الطفل يصرخ ملء رئتيه، سريعاً بدأت النساء بالغناء وهنَّ يتناوبن على حمل الرضيع والابتسام في وجهه بينما يترنّم، تفحّص بابو الغرفة باحثاً عن أيّ وجه مألوف، رسمت فاطمة الجالسة في زاوية الغرفة ابتسامة بهيّة على وجهها.

"لا بدَّ أنَّ هذا هو والد الطفل." قالت إحداهنَّ متوجهة إليه بالحديث

وهي تنهض عن كرسيها وتنظر إلى فاطمة لتحصل منها على تأكيد لهذا التخمين.

ابتسمت فاطمة وأومأت برأسها.

توتر بابو، قد يكون زوجَها لكنّه ليس والد الطفل.

ناولته إحدى النساء الرضيع، "لا يُحمل الطفل بأطراف الأصابع، اقترب واحمله بطريقة صحيحة." قالت، ثمَّ بدأتْ تغنّي، شاركتها النساء الأخريات.

أخذ بابو الطفل بتصلّب، كان محتاراً، في لحظة كنَّ يطردنه خارج الغرفة، وفي اللحظة التالية رحبن به بحبور، الأمر الوحيد الذي وعد نفسه به هو ألّا تكون له أيّ علاقة بطفل فاطمة، والآن حُشر المولود بين ذراعيه بوجود نصف دستة من النساء يحدقن فيه باهتمام، تحرّك الطفل وتثاءب فتشكلت تجعيدة على وجهه، ثم مطّ ساقيه الصغيرتين النحيلتين قبل أن يطلق دفقة متقاطرة من البول الدافئ الذي سال على ذراعَي بابو ويديه.

"لقد حيّا الطفل والده." زغردت إحدى النساء وتبعتها الأخريات.

انكمش بابو، ذلك الطفل الناتج عن تبادل السوائل الجسدية يذكّره الآن بأصله، يا للفظاظة، فكّر وهو يعيد الطفل من دون أن ينطق بكلمة، ثم مشى مبتعداً.

شعر بابو أنَّ المعاملة الباردة التي تلقّاها في منزله هي قمة[163] *madharau*، في الواقع، فكّر مصحّحاً لنفسه، كان ذلك منزل فاطمة، لم يشعر أنّه منزله على الإطلاق، على الرغم من أنّه لم يتأخر أبداً عن دفع إيجاره في السنوات الأربع الماضية.

كَما أنَّ بابو شعر بالارتباك لأنَّ البوق الأسود، طوطم لعنة ناهودا، كان

---

163 madharau: الازدراء (السواحيلية).

يُستعمل في منزل فاطمة، على طفلها الوليد للتوّ، ما الذي كان يحدث لحياته؟ تساءل.

كان بابو تائهاً في أفكاره، فلم يسمع النداء الموجّه إليه إلى أن نقر أحدهم على كتفه وأخبره أنَّ شخصاً ما يناديه، فأدرك أنّها فاطمة، كانت تلاحقه وبطنها مشدودة برباط ***leso***[164].

"أين تذهب؟" سألته بحزن.

"لا أعرف." قال، وكان صادقاً تماماً.

"هل ستعود؟" بدا كلامها كاستجداء طفل يطلب من والده تأكيداً أنّه لن يهجره.

"لا أعرف." أجابها وهو يهزّ كتفيه بلا مبالاة.

"علينا أن، أن... نتكلم..."

"كلا." أجاب بحزم، "ليس علينا فعل ذلك."

"حسناً." أجابته بحزم مساوٍ، لكنها لم تغادر، "أتت النساء لمساعدتي، إنهنَّ... إنهنَّ لا يعرفن شيئاً... بشأننا."

بدأ بابو بالسير مبتعداً.

"انتظر." قالت فاطمة بنبرة أمر.

توقّف.

مشت نحوه وهي تحلُّ بحذر عقدة في طرف تنورة السارنغ التي ترتديها وأخرجت منها حفنة من الروبيات، أعطته النقود "لقد كنت أمينة." قالت وهي تنظر في عينيه، "هذه مدخرات دكّاني، جمعتها حين شفيت ساقاي، لم أخبرك لأنّك لم تسأل أبداً، لكنّك تابعت إرسال النقود وأنا تابعت استثمارها،

---

164 Leso: قطعة من القماش تشدّها النساء على بطونهنَّ بعد الولادة.

لديَّ الآن متجري ولديك ما تبدأ به عملك الخاص." استدارت فاطمة وبدأت بالسير مبتعدة.

"انتظري." نادى بابو، "أريد أن أسألك سؤالاً."

"دعني أسألك أولاً."

"لا، أنا طلبتُ أولاً."

"قلتَ إنّكَ لا تريد التكلّم."

"الآن أريد."

"كلا، لا تريد."

"بلى أريد."

"لا تريد."

"حسناً، اسألي أنت أولاً..."

لم يكن أيٌّ منهما يبتسم، لكنَّ التوتر بينهما قد تبدّد.

"لماذا تلبس بهذه الطريقة؟" سألت فاطمة.

"لأنّي الآن سادهو." ابتسم بابو، "أو أتطلّع لأن أصير واحداً."

"هل أنت جاد؟"

"ربما نعم، ربما لا."

"ألهذا لم..."

"لم ماذا؟"

"تفعلها...؟"

"أفعل ماذا؟"

"تمتنع."

"ماذا؟"

"منذ يوم زواجنا."

صمت بابو.

"ألا تزال تفعل ذلك؟"

"ماذا؟" قال بابو بحذر.

"تمتنع."

"ربما." تنهّد بابو.

"ماذا عن... عن... المشكلة الأخرى؟"

"ماذا؟"

"المرأة الأخرى."

"أيّ امرأة؟"

"إذاً هنّ كثيرات إلى هذه الدرجة؟"

صمت.

"ابنة الزعيم."

لديّ... لديّ الكثير، الكثير من..."

"النساء؟"

"المشاكل."

"عليّ مساعدتك."

صمت.

"تلك المرأة."[165] لوّحت فاطمة نحو منزلها، "تستطيع مساعدتك."

صمت.

"إنها معالجة تقليدية أعادت لي القدرة على المشي."

---

165 يذكر الكاتب في الفصل السادس أنّ المعالج كان رجلًا.

"ما الذي تفعله... تفعله لك؟"

"بل للطفل."

"طفل؟"

"رقية حماية، لقد فعلت الأمر نفسه لدكّاني، طردت الأرواح السيئة قبل أن أفتحه، وفعلت الأمر نفسه حين أخبرتها عن لعنة ناهودا، لديها عقار شديد الفعالية."

"ذلك واضح." أكّد بابو.

لقد منحتني البوق الأسود للحماية، وأخبرتني بضرورة استعماله حين تهب رياح المشاكل نحوي."

"استعمليه لطردي إذاً."

"لا تُغرني..."

تلقّى بابو من فاطمة 120 روبية وهي تعادل المبلغ الذي كان يرسله إليها في كلّ عام وتزيد عمّا كان سيتلقاه لو أتمّ عقده في أعمال سكّة الحديد، كما أنّها استطاعت توفير النقود وإبقاء دكّانها مملوءاً بالبضائع، وهكذا، على الرغم من كلّ شيء، كان افتراقهما سلمياً، وذابت الثلوج المتراكمة فوق علاقتهما إلى حدّ ما، قالت فاطمة إنها ستبقى في مومباسا إلى أن تستعيد صحتها بعد الولادة، أمّا بابو فسوف يعود إلى ناكورو ويفتّش عن فرص عمل ليستثمر النقود فيها، شعر كأنه تلقّى نقوداً لقاء صمته.

بسبب رحلتيه الهادئتين إلى مومباسا -أي إنّ أحداً لم يزعجه فيهما- ازدادٍ بابو ثقة أنّ السلطات إمّا نسيت أمره أو لم تعد مهتمة بالقبض عليه، على أيّ حال، وبما أنّه لم يكن مهتماً بالمطالبة بأيّ أجور عن عمله السابق من إدارة سكّة الحديد، فقد فكّر في الاستقرار بما يضمن راحته والبدء

ببعض العمل المثمر.

وفعلاً، بدأ ببناء أول كوخ روندافيل أبيض في المكان، والذي انبثقت منه بلدة ناكورو، قبل قدوم عمال آخرين بنوا أمكنة لهم وحوّلوا المكان إلى مستعمرة حقيقية خلال عدة أشهر فقط، وأبعد قليلاً، أنشأ دكانه الأول في المكان، والذي سوف يتحوّل لاحقاً إلى قطاع ناكورو التجاري.

منحت فاطمة العمل دفعة كبيرة حين وصلت بعد ستة أشهر وزوّدت المشروع بطاقاتها ورؤيتها، بحلول عام 1903، كانوا قد افتتحوا دكاناً آخر في مولو.

مع مرور السنوات، أنشأ بابو إمبراطورية تجارية يُحسد عليها، كان سرُّ نجاح عمله الذي أداره مع فاطمة جنباً إلى جنب سراً بسيطاً، أخذ يسافر على امتداد الوادي المتصدّع ويشتري الأطعمة من المزارعين البيض، ثم يأتي بها إلى الأسواق الإفريقية، صار صلة الوصل بين العرقين، مع مرور الوقت، تحوّل الدكان الذي افتتحه بتمويل من فاطمة إلى متجر بيع بالجملة يخدم ناكورو والبلدات المجاورة لها.

على الرغم من نجاحه الباهر، ظلَّ بابو متواضعاً، يقاوم العروض المقدّمة له للمشاركة في النوادي الخاصة التي أنشأها أفراد مجتمع الأعمال الهندي في ناكورو ومحيطها، أحد أسباب رفضه هو تجنّب التقاء رجال من ماضيه، مثل أحمد، الذي صادفه مرّة في جنازة أحد عمّال سكّة الحديد السابقين، بهت وجه أحمد حين رأى بابو ثم اختفى بين الحشود، لم يره بابو منذ احتال عليه وسرق محصول قنّبه، ولم يرغب في رؤيته مجدداً، لذلك يحافظ على مسافته.

عاش حياة منغلقة، يأخذ غداءه المعدَّ منزلياً معه ويتناوله بين تلبية طلبات الزبائن في المتجر، كان هذا الأمر في الواقع واحداً من أسباب نجاح

عمله، الاعتماد على إبقاء متجره مفتوحاً في جميع الظروف، إذ يفتح المتجر باكراً ويغلقه متأخراً، أمّا رجال الأعمال الأفارقة الذين انضموا إلى هذه الحرفة فقد كانوا يمتلكون أخلاقيات عمل مختلفة للغاية، إذ إنَّ وقت الغداء كان يعني إغلاق المتجر والانطلاق إلى المطاعم القريبة لتناول[166] *nyama choma* واحتساء كوب أو كوبين من الجعة بعد الوجبة، قليلاً ما كان أولئك الذين يبدؤون بمعاقرة الشراب يعودون إلى العمل، إذ إنَّهم يؤجّلون فتح محلاتهم إلى اليوم التالي.

عندما يعودون في اليوم التالي، مثقلين بآثار الشراب، يبدؤون عملهم برصف بضائع جديدة عوضاً عن التي نفدت بالأمس، بسبب هذه الديناميكيات بقي بابو متفوقاً على جميع منافسيه.

ظلّت فاطمة إلى جانبه بإخلاص، تدير العمل بمهارة من دون أن تكون عبئاً، وظنَّ الجميع أنهما زوج مثالي، ومن الخارج كانا كذلك حقاً، لكن الأمر مختلف تماماً في المنزل، إذ راقب كلٌّ منهما مساحة الآخر، لا يتعدّى أيٌّ منهما على الأرض الحيادية التي رسم حدودها جسد رشيد ابن فاطمة بينهما على السرير، والتي حافظا عليها حتى كبر الصبي وانتقل إلى غرفته الخاصة، ثم غادر المنزل، لكن في عام 1922، شعرت فاطمة أنَّ هناك ما يشغل بال بابو، كان يغادر المتجر مبكراً ويختفي لساعات طويلة.

هذا هو العام الذي انضمَّ فيه بابو إلى الحركة العمّالية في المستعمرة، وحين اعتُقل النقابي **هاري ثوكو**[167] كان بابو ضمن الأشخاص الذين نظّموا احتجاجات للمطالبة بإطلاق سراحه.

---

166 nyama choma: اللحم المشوي (السواحيلية).

167 هاري ثوكو: (1895 - 1970) سياسي كيني، وأحد روّاد تطوير حركة القومية الإفريقية في كينيا.

لكن العام 1950 -وكان بابو فيه قد صار قطباً من أقطاب الأعمال في المستعمرة- هو العام الذي ساهم فيه بشكل هائل لرفد صراع الحريّة، لقد تبرّع بمبالغ كبيرة من المال إلى جماعة ***Kiama Kia Rukungu*** مستعملاً المحلّيّين كقنوات لهذا الأمر، وحين نوّع مجال أعماله وخاض في حرفة الطباعة، طبع سراً منشورات كثيرة تنذر البيض وتأمرهم بمغادرة الوادي المتصدّع، لقد أصبح محنّك مقاتلي الحريّة، والد الأمة، أو كما أشاروا إليه، غوكا، أي الجد.

21

كما كان الأمر في البداية، حين جلب القطار إلى ناكورو أولئك الرجال الذين سيُنشئون البلدة ويصيغون مستقبلها، كذلك في النهاية، حين حمل القطار أولادهم إلى مومباسا ليواجهوا ماضيهم السريّ.

حين يلتقي الماضي بالحاضر، أو كما يقال بلغة القطار: حين يتقاطع دربا قطارين من دون تدخّل مدير المحطة، فسيؤول الأمر على الأرجح إلى فوضى عارمة، وسوف تتلاقى أخيراً عوالم الكاهن تيرنبول وماكدونالد وبابو الذين سارت خطوط حيواتهم بالتوازي مع بعضها لعقود، كان ماكدونالد آخر الرجال الصامدين، إذ رقد بابو في السرير لليوم الثالث على التوالي مُثقلاً بالتاريخ الذي حاول الفرار منه لستين عاماً، وطُعن الكاهن تيرنبول الذي كرّر وعظه عن هجر الإغراءات الجسدية لإنقاذ الروح، طعن على يد المقاتل الوحيد من أفراد ***Kiama kia Rukungu*** قبل عشر سنوات أي في عام 1953.

لكنَّ المذهل في الموضوع هو أن يُكشف تاريخ ستين عاماً من الأحداث بسبب اصطدام خاطف في الظلمة بين راجان ومريم على سلالم الجاكاراندا، منتجاً شرارات سوف تُلقي الضوء على تاريخ حاول آباؤهم التملّص منه، كما سيُظهر بدايات إرثهما المشترك، في معتقدات ناكورو، يُستعمل مصطلح لتفسير ظاهرة كهذه، أي اللقاءات التي تحدث بالصدفة بين غرباء يكتشفون لاحقاً أنّهم مرتبطون بطريقة ما، وهو ***damu zinavutana***، أي إنَّ الدم يجذب المرء تجاه قريبه، بالطريقة نفسها التي تشدُّ بها الجاذبية الأشياء نحو الأرض، كان دم مريم يشدّها نحو راجان.

وجد راجان نفسه مجذوباً لا إرادياً داخل دوّامة تاريخ بالكاد يفهم منه أيّ شيء، كلّ ما عرفه هو ولهه بمريم الذي يتركه دون حول أو قوّة، ولذلك كان عليه أن يجري خلفها، بينما ارتمى بابو ينشج على الأرض مثل كلب عجوز. ظلَّ بابو يتهرّب من فاطمة لسنوات، وقضى راجان أشهراً يفتّش عن مريم.

ما جهله راجان هو أنَّ مريم كانت ابنة الطفلة التي تبنّاها الكاهن تيرنبول وربّاها كما لو كانت من صلبه، الفتاة التي كانت والدتها هي سنية ابنة الزعيم لونانا، لقد أعدَّ الكاهن بالشكل الملائم، بعد تخيّله لمستقبل لا يكون هو موجوداً فيه، تعليمات لكلّ ما يجب عمله بعد وفاته، لقد أورث عائلته المؤلّفة من ابنته المتبناة رحيمة، فضلاً عن ابنتها مريم رزمة مودعة في خزنة محصّنة داخل فرع مومباسا من مصرف إنكلترا، وأوصى بأن تفتحها مريم أو والدتها رحيمة، الشرط الوحيد كان ضرورة بلوغ مريم الثامنة عشرة على الأقلّ قبل أن يُسمح لها بمعرفة محتويات الرزمة، توفّي الكاهن بعد أشهر قليلة من كتابته لوصيته.

كان قرار الكاهن تيرنبول حول فتح الخزنة ملائماً تماماً، إلى درجة أنَّ بعضهم قد يدعوه موهبة اكتشافية، وقد يعتبره آخرون بصيرة سماوية، لأن عام 1963، العام الذي بلغت فيه مريم الثامنة عشرة، كان كذلك العام الذي وُلدت فيه دولة كينيا المستقلّة، كأنَّ الأمر كله مرتّب لاختبار كفاءة مريم في التعامل مع شؤون إرثها المعقّد، وكانت والدتها رحيمة قد توفّيت مؤخراً، ذلك هو الوقت الذي قرّرت فيه مريم المحزونة والتي توشك على فقدان صوابها، قرّرت السفر من ندوندوري إلى ناكورو لغرضٍ أحمقَ بعض الشيء، أن تقتحم مكاناً لم تزره في السابق، وأن تقبّل غريباً، قد يبدو هذا ضرباً من العنجهية والحماقة، لكن كما تبين لاحقاً، فإنَّ غريزة مريم، كما المغناطيس الذي يشدُّ المعادن من كومة قمامة، كانت تشدّها نحو إرثها السرّيّ.

وهكذا بعد تلك القبلة الأولى لغريب في الظلام، عادت مريم إلى منزلها وقد حققت الأمنيتين اللتين سافرت من أجلهما، كانت مريم الطفلة الوحيدة لأمّ عزباء، لذلك أصبحت هي الوصية المتفردة على تاريخ العائلة بعد وفاة والدتها، واستلمت جميع رسائل العائلة المتضمّنة تلك التي توصي إليها بالرزمة التي تركها جدها الكاهن تيرنبول في الخزنة السرّية في مومباسا، عزمت مريم على قضاء ليلة في ناكورو قبل ركوب القطار إلى مومباسا، لأنَّ خدمة القطار كانت متوفّرة فقط أيام الثلاثاء والخميس، في تلك الليلة ذهبت في مشوارها الثاني إلى الجاكاراندا والتقت الرجل الذي ستعرفه باسم راجان، معيدة إذكاء النار التي أشعلتها قُبلتها الأولى فيه، لقد سمحت للعاطفة بالسيطرة عليها، وقد فكّرت منطقياً أنَّ الرزمة ستكون بأمان في مومباسا لعدّة أيام أخرى، ولن يشكّل ذلك فرقاً، إذ إنّها هناك منذ عشر سنوات.

ومرّةً أخرى ساعدتها حكمتها، حيث بلغ اجتماعها براجان من جديد ذروته باصطحابه لها لتلتقي جدّه.

إنَّ انهيار بابو بعد سماعه لاسم والدتها جعلها تهرع منطلقة إلى مومباسا لتحاول معرفة السبب الذي جعل مجرد ذكر أصولها يشعل ردّة فعل بهذا العنف، فرّت من منزل بابو باكية، من دون أن تعرف طريقة لطمأنة أسرته أنها لم تفعل شيئاً سوى ذكر اسم والدتها بناءً على طلبه، تبعها راجان سريعاً وهو يحاول اللحاق بها من دون أن يعرف المكان الذي فرّت إليه أو سبب فرارها، كلّ ما أراده هو أن يكون معها، جالساً إلى جانبها، جسدها يوازي جسده مثل قضبان السكّة.

وصلت مريم محطة القطار قبل راجان وابتاعت تذكرة ذهاب من دون إياب إلى مومباسا، وصل راجان إلى المحطّة خلفها مباشرة، تماماً في اللحظة التي صفّر فيها القطار معلناً عن مغادرته، ولأنّه لم يعرف وجهة مريم، فقد طلب تذكرة إلى نهاية الخط، فثقب القائم على بيع التذاكر، والذي لم يجد طرفته الفلسفية مسلّية، تذكرة إلى مومباسا التي هي نهاية الخطّ ثم منحها له، كانت مريم على متن القطار، وأسرع راجان ليتبعها.

"ألا تعرف القوانين أيها الشابّ؟" قال مفتّش التذاكر ساخراً وهو يوجهه نحو مقصورة الهنود.

أما مريم ببشرتها الحليبية فقد أُرسلت إلى مقصورة البيض، وهكذا كان الاثنان، في بطن الوحش ينزلقان على السكّة التي مدّها آباؤهما، ذاهبين لمواجهة الماضي الذي سوف يعيد ترتيب حياتيهما المقسّمة أو يخلق اصطداماً عنيفاً سيغير جميع الأمور.

وقفا جنباً إلى جنب لوقت طويل من الرحلة وهما يرميان بالقبل

لبعضهما عبر الفواصل الزجاجية التي تفصل بين المقصورات، يضحكان ويقهقهان مثل الأطفال الصغار، لكنَّ الإرهاق نال منهما بعد وقت قصير، فأشارا لبعضهما أنهما يحتاجان بعض الراحة وتراجعا كلٌّ إلى كرسيّه، شعر راجان بشيء من التضارب داخله حيال الرحلة، كان مشهد جدّه على يديه وركبتيه ينادي على أحدهم كي ينفخ البوق يقضمه من الداخل، لكنّه لم يستطع لوم الفتاة التي تجلس قبالته.

بدت رحلة القطار سريالية نوعاً ما، وهو يندفع عبر المعالم التي يذكرها في أغانيه، ويعرف معظمها من حكايات جدّه، لاحظ راجان تلال التراب الصغيرة الممتدة مثل النقاط على طول السكّة، كانت تلك قبور الرجال الذين قضوا خلال الإنشاء، ولم يذكر بابو شيئاً عنهم أثناء رواية ذكرياته، تباطأ القطار في متيتو أنديبه بما يكفي ليستطيع راجان قراءة اللوحة البرونزية الموضوعة على نُصب عامودي في المحطة.

في ذكرى 5000 رجل بذلوا أرواحهم لتمتدَّ هذه السكّة.

وتحت هذه العبارة أسماء الموتى بأحرف صغيرة تتراقص تحت أشعّة الشمس لتمنحهم حياة جديدة، وقد كُتمت في لفافات الورق الصغيرة صرخات حزن عائلاتهم التي تفجّرت عند تلقّي أنباء موتهم، غالباً ما كانت الرسائل تُبعث مع أحد العمّال، وربما يحدث ذلك بعد سنوات من المأساة، أما لبعضهم، فقد كان توقّف وصول النقود كلّ شهر هو نذير الموت، إن كانت العائلة محظوظة فقد تتلقّى جرّة تحمل رماد الفقيد، أو ربما واحدة من عظامه التي تبقّت بعد هجوم وحشي لأحد الأسود عليه، ملفوفة بمزق آخرِ ما ارتداه من ملابس.

لم تكن كلُّ الميتات عنيفةً، فلدغات البعوض أو ذبابات التسي تسي اللاسعة كانت تفرغ الحياة وتمتصّ الطاقة من ضحاياها كما لو كانوا إطاراً

مثقوباً، فيفنون خلال وقت قصير، كان هذا الاكتشاف مقلقاً لراجان، فضلاً عن تكتّم بابو بشأن ضحايا سكّة الحديد، ربما كانت تلك طريقة جدّه في التأقلم مع الألم، هكذا فكّر راجان، بينما جعله هذا الاكتشاف يفكّر في الأمور المروّعة الأخرى التي حملها الرجل العجوز في صمت.

عاد راجان بذاكرته إلى ذكرى منسية، كان في السادسة من عمره تقريباً ورأى جدّه متألماً، يعود ذلك إلى العام 1947، وبالرغم من جهل راجان بهذا الأمر إلا أنَّ جدّه انتزع بعض الشعر من قمة رأسه ورماه في النيران حيث أدّت كلّ شعرة رقصة موتها المتجعدة، وراقب راجان كيف انتحب بابو إثر شطر مسقط رأسه البنجاب، وتقسيمه بين البلدين الجديدين، الهند وباكستان.

عندما عاد بأفكاره إلى الحاضر، مشى راجان نحو النافذة ونظر إلى الخارج، في صغره، كان يهرع إلى نافذة منزلهم ويراقب القطار وهو ينزلق أسفل الوادي، لطالما امتلأ بالعجب لرؤية مسافر عند نافذة القطار، مأسوراً بالأرض الممتدّة أو غارقاً في التفكير فقط، كان يلوّح له بحماسة ويبتهج بشدة حين يلوّح له المسافر بدوره، شعر برضى غريب بسبب القدرة على التواصل مع إنسان آخر لا يعرفه، مع مرور السنوات، صار راجان أكبر سناً من الاستمرار بهذه العادة، لكنّه ظلَّ يستمتع بمشاهدة أفعى القطار تهبط الوادي كلَّ أسبوع.

حين عثر على معدّات المسح القديمة الخاصة ببابو في العليّة والتي كانت لا تزال في حالة فنيّة ممتازة، صار راجان يتسلّق إلى سطح منزلهم ويختار الوجوه الجميلة من نوافذ القطار، ثم يركّز باستعمال العدسات على الأهداف المرغوبة حتى يغيب القطار عن الأنظار، يقرّب الصورة باستعمال العدسات، فيجذب الأشخاص الذين يبعدون ميلاً كاملاً عنه إلى أن يصيروا على بعد ذراع واحد.

طويلاً بعد رحيل القطار، يظلُّ راجان يستحضر تلك الصور من خزينة ذاكرته ويتساءل، ما هي قصص هؤلاء الغرباء؟ أين يذهبون ولماذا؟ الآن وقد صار هو بنفسه على متن القطار، فكّر إن كان هناك رجل أو امرأة لم يلتقِ بأيٍّ منهما من قبل يلاحظون وجهه عبر نافذة القطار، وإن كانت ذكراه ستعلق بما فيه الكفاية لتكزّ وعيهم بعد سنوات طويلة فيتساءلون من هو وأين كان ذاهباً، لن يعرف أيٌّ منهم أنّه هو بنفسه يجهل وجهته، أو لماذا كان ذاهباً إليها.

نظر عبر المقصورة، كانت مريم مستيقظة، لوّح لها ولوّحت له وهما يبتسمان، لكنَّ العبوس غضّن وجهيهما سريعاً، كانت تفكّر بالرزمة التي توشك على استلامها، وتتساءل كيف ستؤدي معرفتها لماضيها بإعادة صياغة مستقبلها.

اشتملت متطلبات بنك إنكلترا على وثائق معقّدة، لكنها أعدّتها بشكل ملائم، كما امتلكت كلّ التفاصيل التي يريدونها لتأكيد هويتها، كانت الرزمة الملفوفة بورق بني آخذٍ في الاصفرار لا تزيد حجماً عن قدم في الطول وأخرى في العرض، وقّع راجان مؤكداً أنّه شهد استلام مريم للرزمة سليمة تماماً، استعملت مريم رأس القلم لتمزيق الغلاف، أخذت الظرف المختوم من داخله وفتحته، ثم بدأت تقرأ بتحفّز، بينما جلس راجان مقابلها إلى الطاولة يراقبها.

في حال موتي، هذه هي الكلمات الأخيرة للكاهن ريتشارد تيرنبول قسيس الإنجيل، إلى عائلته الحبيبة في ندوندوري.

أعرف أنّي بكتابة هذه الرسالة أعيد كتابة تاريخي الشخصي، وأمسح تاريخًا شريفًا قد يكون تجذّر مع حلول هذا

الوقت، هناك عدّة أمور تدفعني إلى كتابة هذا الخطاب، أولًا هناك حرب دائرة في صيف 1952، حذّرني أتباع جماعة ***Kiama Kia Rukungu*** المسلّحة أنا وقسيسين آخرين إنجيليين من مغبّة استمرارانا في أداء أعمالنا، لستُ خائفًا من الموت، لكنَّ هذه ليست درب الشهادة لأنّي ميّت منذ أمد طويل.

على أيّ حال، لا أريد أن تُقرأ كلماتي الأخيرة على أنها تصريحات تتعلق بالأمور الكبيرة في الحياة، بل هي في الواقع اعتراف بسيط، بادرة لمحاولة التكفير عن تجاوزاتي الشخصية، عبر مشاركة الحقيقة، فأنا أدمّر أوجه الكذبات التي عشتها منذ صرت في موقعي هذا، والتي بالكاد ساعد عليها دعم الآخرين، أنا، في نهاية الأمر، مجرد بشر، وأكتب هذا الخطاب عليّ أنال الغفران، وأتصالح مع ذاتي، كما أحبُّ أن أقول دائمًا، جميعنا خذلنا الربّ.

على ابنتي رحيمة وحفيدتي مريم أن تعرفا قصة حياتيهما، كما تنبأ يوحنا المعمدان بولادة المخلّص، وأخبَر بالحقيقة منذ أقدم الأزمان، أمنح ابنتي رحيمة الحقيقة حول ولادتها، أنا لست والدها الاجتماعي والروحاني فحسب، أنا والدها البيولوجي.

أعترف بأنّي أتيت الفعل الدنيء المتمثل في التحرش بوالدتها سنية، ابنة الزعيم لونانا حين كانت مجرد طفلة لأُشبع جسدي، أندم على عجزي عن السيطرة على نفسي، وأندم أكثر على عدم امتلاكي الشجاعة الكافية للاعتراف بفشلي هذا.

وأنا لم أطمع بأرض (كنيا) الجميلة فقط، بل أيضًا بأطفالها الجميلين.

فضلًا عن ذلك، فأنا خجل من نفسي لأنّي خطّطت، بالتعاون مع إيان إدوارد ماكدونالد لإلقاء اللائمة على شابٍّ هندي اسمه بابو راجان سليم، أنا خجل لأنني بثثت الخوف في قلبه ليختبئ، كنت أخشى أنَّ استمرار بقائه في انتظار ولادة الطفل سوف يكشف احتيالي، أنا خجل لأنّي استغليت رجلًا وهو في أضعف حالاته عوضًا عن مدِّ يد العون إليه ومساعدته على النهوض، ولأنّي شهدت ضدّه زورًا.

لقد جندت خطط خداعي لتمويه أعمالي الخيرية، وكأنَّ تجاوزاتي لم تكن كافية، فاحتفظت باسم الأب المشتبه به في هوية رحيمة، لأنّي لم أرغب في جذب أيّ انتباه نحو اسمي، وكما حمل قابيل في الإنجيل علامة تُميّزه أينما حلّ، فإنَّ لقب رحيمة (سليم)، يحمل نفحة دائمة من الفضيحة على الرّغم من أنّها بريئة، كان عليّ امتلاك الشجاعة الكافية لأنسبها إليّ بالشكل اللائق، لهذا السبب منحت ابنة رحيمة، مريم لقبًا مختلفًا لا يمتُّ إلى الهندي بصلة، لكنّي أعترف أنّه لم يكن يشير إليّ أو إلى والدها البيولوجي.

لقد ظلّت هوية والد مريم سرًا طوال هذه السنوات كذلك، وأريد أن أفصح هنا عن أنَّ والدها هو ماكدونالد، لقد علمت بأمر علاقته مع رحيمة متأخرًا، وقد فُطر قلبي لمعرفة أمر انتهاك صديقي العزيز لثقتي، لقد تشاركتُ الكثير من النقاط المفصلية مع ماكدونالد، لكنَّ موقعه صهرًا لي كان الوجه الذي أمقته أكثر من كلّ الوجوه الباقية.

هذه هي الحادثة الوحيدة التي يؤدّي فيها جمع خطأين إلى حدوث أمر صحيح، أشعر بالتحرّر لأنّي لست الوحيد الذي خذل الربّ، وليست رحيمة الطفل الوحيد الذي أتركه خلفي.

إنَّ السبب الذي جعلني أُودع هذه الرسالة في خزنة أماناتٍ في مومباسا هو منحك فرصة للتفكير في هذه الأمور خلال رحلة عودتك، هل هذا الفشل الجوهري هو الأمر الوحيد الذي سوف يحدّد ماهية كلّ وجودي في الحياة؟ إنَّ مومباسا كذلك هي المكان الذي بدأت فيه رحلتي، انظري إلى الأرض بعينين جديدتين واحكمي بنفسك إن كان يمكن لي العيش بشكل مختلف في مكان يفيض بكلّ هذا الجمال.

لكن لا ترتحلي بعينين مغلقتين، ابحثي دائمًا عن خُلاسيين ذوي أنوف كبيرة يتناثرون عند محطات القطار، لا بدَّ أنَّ بعضهم هم أقاربك، يتحدّرون من صلب ***mubea***، قسيس الإنجيل الذي خذل قطيعه، على الرّغم من أنّه حاول كثيرًا ألّا يفعل، إن كان في الأمر أيُّ عزاء، فقد استبدلتُ بتلال التراب التي تقبع فوق بقايا الرجال الذين ماتوا أثناء بناء سكّة الحديد أطفالًا أحياء، جميلين في عينَي الربّ.

كفعل تعويض أخير للرجل الهندي بابو راجان سليم، الذي اتهمتُه زورًا وجعلت منه كبش فداء، أقدّم هذا: ربع أيّ مقدار من الأموال التي تقدمّها كنيستي الأمّ كتعويض عقب موتي، وليس ذلك لشراء صمته، بل تعويضًا لخسائره الناجمة عن ظلمٍ آخر شهدتُ بنفسي حدوثه في وضح النهار، لكنّي لم أحرّك

ساكنًا لردّه.

لطالما اقتطع ماكدونالد وزبانيته مبالغ من رواتبه بسبب حقدٍ قديمٍ حمله عليه من دون أن يكون قادرًا على إثبات صحة سببه: وهو أنّه كان المحرّض على الشغب العمّالي الذي حدث عند الساحل.

أما بالنسبة إلى عملي الأخير، فسوف أفعل ما لم أفعله في حياتي، سوف أتصرّف عكس التعاليم الإنجيلية التي تحضُّ على فكرة العين بالعين.

كتعويض عن شهادة الزور ضدّ بابو راجان سليم، سوف أقدّم المعلومات التالية في ما يتعلق بالولادة المريبة لابنه رشيد، وصلت زوجته فاطمة إلى مشفى الإرسالية التابع لنا في السابع من نوفمبر عام 1901، ودخلت سريعًا في مرحلة المخاض، أبلغتنا الممرضات أنَّ جميع الأمور سارت على ما يرام حتى طُلب منها اسم والد الطفل، فقالت على الفور إنّه أحمد دودو.

حين طُلب منها تهجئة لقبه، عادت إلى رشدها وقالت إنَّ ذلك الاسم ليس ما يجب أن يدوّن في السجلات، وإنَّ اسم والد الطفل يجب أن يسجّل بابو راجان سليم، أظنّ أنَّ والد الطفل الحقيقي هو الرجل الذي ذكرت اسمه تحت تأثير آلام الولادة والذي هو أحمد دودو، إن كان بابو لا يعرف هذه المعلومة حتى الآن، فعليه إدراك تعرّضه للخيانة، وإن كان يعرف بأمر خديعته لكنّه لا يعرف اسم الرجل، فلا حاجة له أن يفتّش عن رجل آخر عدا أحمد دودو، جميعنا خذلنا الربّ.

حُررت في العشرين من أكتوبر عام 1952 في إرسالية ندوندوري

الكاهن ريتشارد تيرنبول، قسيس الإنجيل

حين انتهت مريم من القراءة، تنهّدت ودفعت بالرسالة إلى راجان من دون أن تنطق بكلمة.

22

يكتشف الصبي *Kihii kionire uriro mbere ya gukawe* **- عجائب الحياة قبل جدّه-** هكذا يصف سكان ناكورو الأمور التي تتجاوز العجائز وتحلُّ بالشبّان، وفي مكان ما خلف البحار قال أحد الحكماء: الطفل هو والد الرجل. تختصر هذه البلاغة المقتضبة البديهية متاعب راجان، أصبح الآن يعرف الأمور التي حيّرت جدّه طوال حياته، وأصبحت مريم تعرف ما لم تعرفه والدتها رحيمة قط، وأصبح الاثنان يعرفان أنهما يتقاسمان إرثاً مشتركاً، كان الجاكاراندا منزل والد مريم، وظلَّ ماكدونالد وبابو يحملان الأحقاد لبعضهما طوال حياتيهما.

عاد راجان ومريم إلى محطة القطار فور مغادرتهما لمصرف إنكلترا، مرهَقين ممّا اكتشفاه للتوّ، أرادا اللحاق برحلة القطار الليلية العائدة إلى ناكورو للفرار من التفاصيل البائسة لماضيهما، كما أنَّ الرحلة الليلية ستحَميهما على الأقلّ من رؤية الأطفال ذوي الأنوف الطويلة الذين كتب الكاهن تيرنبول عن احتمالية التقائهما بهم على طول خطّ السكّة، إن ظلمة

الليل قادرة على إخفاء الجائحة السرّية التي حلّت بهما، حماية وجهيهما المبللين بالدموع من نظرات الأعين المتلصّصة، لقد وجد كلاهما الليل مريحاً.

ابتاعا تذاكرهما من دون أيّ مشاكل، وأقنع وجه راجان الذي لوّنه القلق بالشحوب مضيف القطار أنّه كان أبيض البشرة، جلسا معاً متعانقين، ليس بسبب حرارة العاطفة، بل بشيء أشبه بالترابط الذي يعتري المقاتلين الناجين من الحروب، تصارع كلٌّ منهما مع خليط من المشاعر، الغضب، الإنكار، المرارة، لكنَّ الشعور الطاغي كان الإرهاق الشديد الذي هدهدهما إلى نوم متقطّع هيمن عليهما خلال رحلة استمرت لأربع عشرة ساعة، خلال ليلة واحدة، تحولا من شابّين لا همَّ لهما، إلى راشدين محمّلين بالأعباء، مدفوعين إلى حافّة دوّامة من المدِّ والجزر توشك على إغراق عالميهما كما يعرفانه الآن.

فجأةً، صارت الكثير من الأمور منطقيّة بالنسبة إلى راجان، مثل السبب الذي جعل الحديث عن والده رشيد، الغائب معظم حياته، موضوعاً محرّماً في منزل بابو، ذلك منطقي للغاية، لهذا وجد بابو وفاطمة دائماً طرقاً مبتكرة لتغيير أيّ موضوع يتطرق إلى والده.

كانت الرواية الرسمية تتلخّص في أنّه ذهب للدراسة في إنكلترا، ثم اختار تمديد إقامته هناك بعد إنهاء الدراسة، الآن فهم راجان أنَّ والده قد نُفي من البلاد غالباً لتخليص بابو من الإذلال المستمرّ المتمثّل في تذكيره بخيانة فاطمة، هذه هي التسوية التي توصّل إليها الزوجان، إرسال رشيد إلى لندن حال بلوغه الثامنة عشرة، لم يمتلك راجان الكثير من الذكريات عن والدته عدا المعلومات الشحيحة عن قرارها اللحاق برشيد في إنكلترا حين كان راجان في الثالثة من عمره، لم يستطع تذكّر وجهها، وقد توصّل إلى قناعة

أنّها لم تكن سوى بدعة، لكنّه أتى إلى هذا العالم من رحم امرأة، دليل وجودها حقاً هو وجوده هو.

من جهة أخرى، كان هناك حقد ماكدونالد الذي حمله طويلاً ومؤامراته الماكرة لحرمان بابو من رواتبه العادلة لقاء جهده الشريف، كم من الأشياء الأخرى سُلبت من بابو؟ تساءل راجان وهو يشعر بالتعاطف مع جدّه، هل ينبغي له إخبار بابو بما اكتشفه؟ وإن أخبره، فكم عليه إخباره من الحقيقة؟ هل سيكون قادراً على تحمّل الحقيقة التي استعصت عليه ستينَ عاماً؟

انطلقت صافرة القطار قاطعة حبل أفكار راجان، اقتربوا من ناكورو، كان الوقت فجراً، وأول شعاع ضوء يجاهد ليسطع عبر غمامات الفجر الدكناء، بعد لحظات قليلة انفجرت موجة من اللون الكهرماني، مشبِعَةً بقع المياه بلمسات من لون برتقالي فاتح جعلت بحيرة ناكورو تبدو كما لو أنها تشتعل، بدأت مريم بالاستيقاظ، لمس راجان وجهها ثم زرع قبلة على جبينها ونظر من النافذة.

رأى النور الفضّي ينعكس على البحيرة، والبخار يتصاعد من الينبوع، لكنَّ شيئاً ما لم يكن صحيحاً في هذه التفاصيل، لقد شهد راجان فجر ناكورو مرات عديدة جعلته قادراً على معرفة وجود نقص ما على الفور، في الصباحات الصافية، كان يرى خيال جبل كينيا، جبل الربّ الذي منح البلاد اسمها، ووفقاً للمكان الذي يقف فيه المرء، ظهرت القمم الثلجية وهي تذوب نحو البحر، بينما تتداخل ظلالها على هيكل الجاكاراندا، لكنَّ المؤسسة لم تكن موجودة الآن، فأين هي؟ أين هو الصرح الذي يعرّف عن البلدة؟ وكيف كانَت حال جدّه بابو؟ هل سيكون قادراً على مواجهته هو وجدته فاطمة بحقيقة ما عرفه؟ ارتعش راجان لهذه الفكرة، مثقلاً بتاريخ العائلة الذي

علم تماماً أنَّ عليه حمله وحيداً.

التفت راجان نحو مريم، كان على وشك سؤالها إن كانت قد لاحظت شيئاً مختلفاً في شكل البلدة، لكنّه أدرك سريعاً أنَّ الجاكاراندا أصبح الآن يحمل معنى شخصياً وعميقاً لمريم، لقد كان هذا منزل والدها، كما أنّها على الأرجح لم تقض وقتاً كافياً في ناكورو لتكون قادرة على تمييز الاختلاف، ترجّل راجان من القطار ومزيجٌ من الرعب والفضول يعتملُ في صدره، وفي مخيّلته فكرة غامضة مفادها أنَّ الأمور لن تعود كسابق عهدها بالنسبة له ولعائلته، كانا لا يزالان متشابكي الأيدي، لا يفلتان بعضهما إلّا للحظات يعدّلان فيها ياقات معطفيهما ليحميا نفسيهما من برودة ريح الفجر، وقف رجل في الطريق فافترقا ليتجاوزاه، فأمسك رجل آخر يد راجان بعنف وجذبه جانباً.

"***Wapi***[168] وثيقة التصريح؟" طالبه الرجل وهو يعرض زوجاً من الأصفاد، كانا شرطيين بملابس مدنية.

رسم راجان ابتسامة عريضة على وجهه معتقداً أنَّ هذه حيلة من معجبين متيّمين به، "أيّ وثيقة؟" سأل بابتسامة.

"لا تُظهر لي أسنانك، هل تعتقد أنّي جدتك؟ ***Wapi*** الوثيقة؟ إن لم تكن تمتلكها فلا بدَّ أنّك غريب."

"ما الذي تعنيه بغريب؟"

"ويي، أنا لست أستاذك للغة الإنكليزية، أنا رجل شرطة على رأس عمله، ***Twende***[169] سوف تخبرنا بالمزيد حين نصل إلى مركز الشرطة."

"ما هذا الهراء؟ لقد بنى جدّي هذه البلدة بيديه، ما الدليل الذي تريده

---

168 Wapi: أين (السواحيلية).

169 Twende: لنذهب (السواحيلية).

لإثبات انتمائي إليها؟" قال محتجّاً بينما أطبقت الأصفاد على رسغيه.

"*Ala unanyeta?* لنمضي، سوف تحكي هذه القصص لجدتك." أجاب الشرطي.

تجهّم وجه راجان بينما ضاقت قبضة الأصفاد على رسغيه، لم يعرف إن كان الشرطي استعمل كلمة جدتك مازحاً، إذ كانت تلك إهانة شائعة بين السكّان المحلّيين، حالما صاروا جميعاً خارج القطار، دفعوا به داخل شاحنة تقف بالانتظار -كان المحلّيّون يسمونها ماريا السوداء- وداخلها رأى معتقلين آخرين.

"سوف أذهب معه." قالت مريم للشرطي وهي تتسلّق الشاحنة خلف راجان.

"لن نلقي القبض على ***wazungu***، لكن إن كنت تريدين الذهاب معنا فمن يستطيع مقاومة جمال كهذا؟" قال الشرطي، "صار هذا البلد حراً، أليس كذلك؟ هيا، هيا جميعاً."

"إذاً فهذا هو الرجل معشوق السيدات، إيبيه؟"

قاطعهم شرطي آخر.

"سوف أريك من هو الرجل الحقيقي في هذا المكان."

أمسك براجان من مؤخر بنطاله وجرّه إلى زاوية الشاحنة، تقافز راجان على رؤوس أصابعه ليخفف الضغط المفاجئ على أسفل بطنه، ما الذي يجري؟ سأل نفسه للمرة الألف، أولاً، لم يستطع تحديد مكان معلم ناكورو السامق من القطار، والآن يخبرونه أنَّه يحتاج إلى وثائق خاصّة ليطأ المكان الذي يعرف كلّ تفاصيله، استنتج راجان حدوث أمر من اثنين: إما أنَّ هناك حدثاً جللاً وقع في غيابه، أو أنّه أصيب بلوثة في عقله.

انتشرت أنباء رؤية راجان واعتقاله اللاحق سريعاً في أرجاء ناكورو، وكما جرت العادة في هذه البلدة فإنَّ أولئك الذين شهدوا الاعتقال أضافوا تفاصيل جديدة للقصة، فقالوا إنّه اعتُقل على خلفية الشك في تورّطه في الحريق الذي تعرّض له الجاكاراندا، كيف يمكن للمرء أن يعضّ اليد التي تطعمه؟ تساءل بعضهم بهرج، لكنَّ آخرين زعموا أنّه عاد ليؤدّي أغنية البجع الخاصة به قبل أن يهاجر إلى الهند حيث سيتزوج عروساً هندية كان قد خُطب لها في السابق، عُزي هذا التحليل إلى إعادة التوطين لأعداد هائلة من الهنود مع اقتراب حلول الموعد النهائي الذي حدّدته الحكومة، من كان يظنّ أنَّ ملك الموغيثي يعتبر نفسه هندياً؟ تهامس عدّة أشخاص، هذه خيانة عظمى، ولماذا اكتشف الراج الهندي انتماءاته الهندية فقط بعدما قضى وطره من فتياتنا؟ تهامس آخرون.

بغضّ النظر عن نسخة القصة التي سمعوها، فإنَّ أفراد الحشد شعروا بضرورة زيارة الجاكاراندا بأنفسهم ليشهدوا على الطريقة التي سوف تنجلي بها الأمور، مع حلول منتصف النهار، احتشد المئات عند الأطلال، ليزيدوا أعداد الأشخاص الذين كانوا موجودين هناك من قبلهم، وأفسحت الروايات المتنافسة المجال أمام ظهور روايات أخرى جديدة، كان آخرها أنَّ راجان اعتُقل إثر القبض عليه متلبّساً أثناء مضاجعته لفتاة بيضاء.

اجتذب المجتمعون عابري الطريق الذين توقّفوا ليشاهدوا ما يشاهده الآخرون، ما هو بالتحديد؟ لم يكن أحد يعرف.

مع حلول الليل، هبط الآلاف من سكان ناكورو والقرى المجاورة مثل كارومايندو وميسيريا وإيتوراميرو ليجتمعوا عند الجاكاراندا، في هذه المرحلة اكتسب الجمع صفة اجتماعية سياسيّة، قالوا إنّهم يقيمون فعالية

سهرٍ جماعي حداداً على خسارة معلم بلدتهم، ومن هنا ظهرت إشاعات بأنَّ الرجل الكبير كان على وشك إلقاء خطاب موجّه إلى الأمة.

مع حلول منتصف الليل، عاد القادرون إلى منازلهم أو أرسلوا في طلب البطانيات والمشاعل والطعام وحطب الوقود، أُشعلت نار كبيرة في العراء على أنقاض الجاكاراندا وشقّت أغنيةٌ أجواء المكان:

Moto umewaka leo!

Moto umewaka leo!

Tuimbe haleluya, moto umewaka! [170]

نهض أحد الوعّاظ ليقدّم صلاة ما، وقبل وقت طويل، انتشرت حكاية عن زيارة شبح مقدّس للأنقاض، قد تكون النار دمرت المكان، إلا أنّها في الوقت نفسه جددته ومنحته القوة، اجتذبت الإشاعة الروحانية المزيد من الأشخاص إلى الجاكارندا حيث ادّعى بعضهم أنَّ الكاهن تيرنبول، الذي ظنّه الجميع ميّتاً منذ وقت طويل، قد عاد بكامل صحته ليتحدث إلى الجمع عند أنقاض المنشأة ***Haiya***[171]، لا تتوقف العجائب عن الحدوث، قال العديد من القرويين في ذهول.

في اليوم الثاني، أُرسلت فرقة من الشرطة المسلّحة وأفراد الجيش لمراقبة الحشد المتزايد، موجّهين إنذارات لهم بضرورة التفرّق قبل اتّخاذ إجراءات صارمة ضدّهم، لكنَّ تهديداتهم لم تُفلح إلّا في زيادة غضب الجماهير التي طالبت بأن يتوجّه إليهم الرجل الكبير بالحديث شخصياً، وهدّدوا في حال عدم الاستجابة

---

170 النار متقدة اليوم!
النار متقدة اليوم!
لنغني هللويا، فالنار متقدة!

171 Haiya: يا للعجب (السواحيلية).

لإرادتهم بالزحف نحو مبنى المجلس التشريعي ليطرحوا مطالبهم أمامه مباشرة.

سريعاً ما تحوّلت الفكرة إلى هتاف: راجان للرئاسة !راجان للرئاسة! نعم، يجب ائتمان تطلّعات الأمّة الشابّة بأيدي الشباب، قال المجتمعون إنّهم سيختارون راجان ليكون رئيس الشعب، وبدأت مجموعة منهم بالسير نحو مبنى المجلس التشريعي، وصل عدد من السياسيين لمخاطبة الحشد، قالوا إنّ راجان أصغر سناً من أن يُنتخب لهذا المنصب، لكنّه كان بالتأكيد واحداً من ضمن قادة الغد، وتعهّدوا حال انتخابهم بالضغط على البرلمان بكلِّ قوتهم لتعديل القانون وتخفيض السنّ الذي يُسمح فيه للمرء بالترشح للرئاسة من الخامسة والثلاثين إلى الخامسة والعشرين، لكنَّ ذلك حفّز الدوّامة المتحركة من البشر للمطالبة بإفراج الشرطة عن راجان وإلّا فسوف يقتحمون المكان ويخرجونه بأنفسهم.

وكان هذا التأكيد هو ما أصاب السلطات بالفزع وسرّع الخطط بجعل ماكدونالد يتحدث إلى الحشد ويصدر أمره بإخراجهم من أرضه، بعد أن كان حديثه معهم وأمرهم بالمغادرة مجدولاً لوقت لاحق، عوضاً عن ذلك، فكّر أفراد الشرطة بالخيارات المتعددة لنزع فتيل المشكلة الهائلة التي صنعوها لأنفسهم، إنَّ الإفراج عن راجان من دون توجيه تهم إليه سيؤدّي إلى رشقهم بالبيض على وجوههم، لكنهم حين استشاروا ماكدونالد، حذّر السلطات من التقليل من شأن قدرة راجان على إحداث المشاكل، "لا تسقط الثمرة بعيداً عن شجرتها الأم." قال ماكدونالد وهو يستذكر المحن التي سببها بابو له، لم يذكر أنَّ الصبية الجميلة التي ترافق راجان هي ابنته.

بعدما اقتنعت الشرطة أنَّ مناصريه مستعدّون لاقتحام أيّ مركز لتحريره، أخذوا ينقلونه من مكان إلى آخر، ومع مرور الساعات، تزايد

الحشد، وأخذ يدفع بقوّة نحو حاجز الشرطة، مع حلول بعد ظهيرة اليوم الثاني من الاحتجاجات كانت نصال حربات الشرطة تكاد تلامس حناجر المحتجين من مختلف الأعراق، فاضت شوارع ناكورو الآن بالمسيرات، لم يفهم الكثيرون سبب وجودهم في الشوارع أساساً، لكن لم يبدُ أنهم يكترثون لذلك، كلّ ما امتلكوه هو حدسٌ بأنَّ فعلهم هذا هو أمر مهم، كانوا يساهمون في صنع التاريخ، وهو أمر سوف يروونه بفخر في أحد الأيام لأولادهم وأحفادهم.

نعم، لقد كنتُ هناك في اليوم الذي احتشد فيه الجميع عند أنقاض الجاكاراندا، لقد رأيتُ الأمر يحدث بعينيَّ هاتين...

23

من ماريا السوداء اقتيد راجان ومريم إلى غرفة شبه خاوية من الأثاث حيث كان أحد الرجال في لباس رسمي أزرق، محدودباً، يخربش بشراسة.

"هذا هو المفتش هونغو الذي سيأخذ إفادتك." قال الشرطي صاحب الملابس المدنية الذي لم يعرّف عن نفسه.

نظر المفتش هونغو نحو الأعلى، اعتمر قبعة الشرطة الرسمية على رأسه المربّع، وقال بصوت يحاكي الهسيس: "نعم؟"

"نعم؟" ردَّ راجان غير واثق ممّا يتعيّن عليه قوله.

"Sema!" [172]

---

172 Sema: تكلّم (السواحيلية).

ما سبب كلّ هذا؟ تساءل راجان، طُلب منه التكلّم، لكن عن ماذا؟ بعد فترة من الصمت المربك، بدأ يشرح حادثة القبض عليه في محطة القطار وإقحامه داخل ماريا السوداء.

"هل تعرف سبب القبض عليك؟"

سأل المفتش هونغو.

"كلا." أجاب راجان بسلاسة، وهو يأمل أنَّ أحداً عاقلاً في المكان قد يفهم سخافة الموقف الذي هو فيه.

"حسناً، تعال إلى الداخل لتخبرني المزيد."

أشار له المفتش ليدخل من نصف باب يتأرجح في الاتجاهين.

"Mama, unaendawapi?" صرخ بمريم التي تبعت راجان عبر الباب المتأرجح ليسألها أين تظنّ نفسها ذاهبة.

"نحن معاً."

"نعم، إن كنت تريدين اعتقالك."

"اعتقال؟" صرخ راجان ومريم بصوت واحد.

وهكذا جرت الأمور، خطوة واحدة عبر الباب المتأرجح جعلت أحدهما سجيناً والآخر مواطناً حراً.

"لو كنتُ مكانكِ، فسأنشغل بالبحث عن طرق لتأمين إطلاق سراحه عوضاً عن إقحام مؤخرتك في هذا المأزق." ابتسم المفتش هونغو كاشفاً عن أسنان ناصعة البياض ولثة تشابه الطماطم شديدة النضوج في حمرتها.

رفضت مريم المغادرة، وأصرّت على أنها ستبقى وتنتظر خلال استجواب راجان.

"افعلي ما يحلو لك... وإن غيرت رأيك فهناك متّسع لشخص آخر، نحن

نؤمّن غرفة ووجبة مجاناً."

ظلّت مريم صامتة.

في الداخل، لم يَطُل استجواب المفتش هونغو لراجان أكثر من خمس دقائق لقد رفض الإجابة عن أيّ سؤال.

بعد عدّة دقائق من المحاولات، أغلق المفتش هونغو دفتره الأسود الكبير وقال معلناً:

"***Sawa***، لنرَ أين سيؤدّي بك صمتك، هل كنت ستُظهر هذا النوع من ***madharau*** لو كنت تتعامل مع شرطي أبيض أو هندي؟ أعرفكم أيها الهنود، دائماً ما تحاولون إضعاف مكانة ***Serikali ya Mwafrika*** ، لو أنّك تعاونت معي، لكنتُ وجّهتُ إليك تهمة التشرّد أو أيّ جنحة أخرى بسيطة ثم أطلقتُ سراحك، هذا ما منحناه للعديد من الهنود الذين لم يتقدّموا بطلبات للحصول على الجنسية، لقد حلّ الموعد النهائي لتسوية هذه الأمور وانقضى، إنّ والد أمتنا بحدّ ذاته، الرجل الكبير أعلن عن ذلك، لكن بما أنّك هنديّ عنيد يظنُّ السودَ حثالةً ومن ضمنهم الرجل الكبير، فقد اخترتَ تجاهل التعليمات، لنرَ الآن ما سيحلّ بك بسبب ذلك... سوف تكون على متن الرحلة التالية المتجهة إلى الهند."

لم يكن موقف المفتش هونغو مختلفاً عن الموقف الرسمي.

كلّ الهنود الذين لم يتعاونوا مع السلطات عبر تقديم رشاوى ضخمة، وأولئك الذين ثبت عدم امتثالهم للمتطلبات القانونية لتنظيم وضعهم حسبِ ما أقرّه (الرجل الكبير)، كانوا يرحَّلونَ إلى بلادهم الأصلية، لكن بعد ساعات قليلة من الاعتقال، توضّح للشرطة أنها لم تكن تتعامل مع رجل اعتيادي، حالما عرفوا علاقة الاحتجاجات الدائرة في الشوارع بطريقةٍ

ما باعتقال راجان، اعترفوا على الفور أنَّ هذه الحالة هي ما يسمونه بطاطس حارّة، أخطر من أن يكونوا قادرين على التعامل معها.

مع حلول ليلة اليوم الثاني من الاحتجاجات، اتصل (الرجل الكبير) بنفسه بقسم الشرطة ليستفسر عن ***ka-muhindi*** [173] الذي تجرأ على جلب ***nyoko nyoko*** [174] لأفراد ***Serikali ya Mwafrika*** القادمة.

عُقد اجتماع طارئ في تلك الليلة يشمل مجموعة من ضباط الشرطة وأفراد شُعَب الجيش من أعلى المستويات، كان المتظاهرون لا يزالون في الشوارع يهتفون باسم راجان، اعتُبر الترحيل أفضل الخيارات الموجودة، إذ إنّه كان استراتيجية مختبرة على مدى وقت طويل، استُخدمت بفعالية عبر عقود من الحكم الاستعماري، وتستمرّ بإثبات فعاليتها، لقد نُفي أولئك الذين وقفوا في طريق إنشاء سكّة الحديد من بين جماعاتهم وأُلقوا في جهات الأرض الأربع، انتُزع مي كاتيليلي من الساحل وأُسكن في كيسي في المنطقة الداخلية، وأُرسل قائد تالاي الكيرايشو إلى جزيرة غواسي في نيانزا، وأُبعد وايياكي من أرض الكيكويو نحو أرض الكامبا حيث قضى نحبه، وفي وقت لاحق، عندما ستشتعل حمى الغضب المنبثقة من سوء أوضاع العمالة والحقوق السياسية، سوف يُرسَل هاري ثوكو إلى كيسمايو على حدود الصومال، حتى الرجل الكبير بحدّ ذاته، أُرسل في وقت ما إلى كابينغويرا، على الجبهة الشمالية، بعيداً عن مركز قوّته في وسط كينيا، أَبعِدوا أي رجل عن مؤيديه وسوف يُشَلُّ تماماً، ذلك لأنّه يستقي قوّته من الشعب.

بدت فكرة ترحيل راجان مثاليةً، لكنّ هناك مسألةً تتعلق بأصول جدّه بابو، لقد غادر الرجل شبه القارة الهندية بجنسية بنجابية، إلا أنَّ

---

173 ka-muhindi: الهندي (السواحيلية).

174 nyoko nyoko: الشتائم (السواحيلية)

البنجاب قد مُسح عن الخريطة كما لو كان آثار قلم رصاص، وتوزعت أراضيه بين الهند وباكستان، ومن غير الواضح أيّ أقليم منهما يمكن أن يرضى باستقباله.

أمّا الخيار الثاني المتاح أمام الشرطة فكان ترحيل راجان إلى بريطانيا، تماماً مثلما فعلوا مع الهنود الذين وصلوا إلى المستعمرة لتركيب سكّة الحديد، إذ إنّهم يُعتبرون مع عوائلهم رعايا بريطانيين، وهكذا فهم مؤهّلون للهجرة لتمتّعهم بميزة خاصّة ممنوحة لجميع الرعايا البريطانيين في أصقاع بلدان رابطة الشعوب البريطانية، كان الخيار الثاني مفضّلاً من وجهة نظر أمنية.

لا يمكن لأحد اتّهام الحكومة الجديدة بطرد راجان، سيُعلن عن أنَّ راجان اختار ببساطة الاستقرار في بريطانيا للاتّجاه نحو اهتمامات أخرى مختلفة عن الغناء، وبأيّ حال، فإنَّ الدليل كان موجوداً على خسارته لموقعه المعتاد في الجاكاراندا، وبهذا كان الانتقال إلى بلاد جديدة أمراً منطقياً وعملياً في الوقت ذاته.

ضمَّ هذا النقاش ماكدونالد لثلاثة أسباب: لقد كان مالك الجاكاراندا، مركز الاحتجاجات، وكان رجلاً عسكرياً متقاعداً، أما السبب الثالث فهو إشرافه على بناء سكّة الحديد، وهو الدرب الذي يرسم طريق نسب راجان.

كان ماكدونالد في حال سيئة منذ إحراق الجاكاراندا، ظلّت تتكرر في ذهنه بشكل مزعج مخيلة اليوم الذي وصلت فيه طيور الفلامينغو إلى ناكورو، استمرت الطيور في الدوران داخل رأسه وهي تطلق أصوات هسيس في أذنيه إلى أنِ اضطر الأطباء المشرفون عليه إلى إعطائه جرعات من الأدوية المهدّئة في إحدى الليالي، لكنّه مع ذلك لم يستطع النوم.

"أرى الظلمة في كل مكان." ظلَّ يتمتم، على الرّغم من أنَّ المصابيح كانت

تشعُّ في الغرفة، وفي أحيان أخرى، ينتحب قائلاً إنَّ نيوندو قد عاد من أرض الأموات ليعذّبه.

في الصباح ارتسمت تحت عينيه ظلال دكناء، بينما عاودته رؤى الليل: وصول طيور الفلامينغو وعودة نيوندو. استُدعي طبيب نفسي لتقييم حالته الذهنية، وأكّد أنَّ الرجل العجوز لم يكن يهلوس، كما أكّد أنَّ ماكدونالد قد قابل نيوندو بالفعل، والعتمة في ذهنه كانت إحدى أصداء التاريخ، وصادق على إدراك ماكدونالد الكامل لحقيقة احتراق الجاكاراندا الكلّي.

"أيها الطبيب، لقد كنت أتساءل إن كان الأمر برمته يستحق هذا العناء." قال العجوز متحسّراً، "كل ما عملت من أجله لمَا يربو على تسعين عاماً ضاع للأبد."

"من الطبيعي جداً أن نعيد تقييم حياتنا عندما نتعرض لتجارب مروّعة." شرح الطبيب بلطف، لكنَّ ماكدونالد قاطعه بسلاسة: "لست أتحدث عن الخسائر الماديّة أيها الطبيب، أنا أفكّر بالذلّ الذي تعرضت له على يد... على يد... رجل استأجرته ليعمل لديَّ حمّالاً وطبّالاً، لقد كنت على مشارف... مشارف التوسّل من أجل حياتي، أنا، جندي قلّدته ملكة إنكلترا..."

"حسب ما فهمته فهو لم يهدّدك."

"هذا ما يثير إحباطي أيّها الطبيب، هو لم يهددني، كان حرياً به إطلاق النار عليّ، وهكذا أموت وأنا أقاتل..."

"لا بدَّ أنّه كان يمتلك سبباً قوياً ليعفو عن حياتك." أجاب الطبيب، "ربما كان يردُّ لك المعروف."

هزَّ ماكدونالد رأسه نافياً وأجهش بالبكاء:

"لهذا يؤلمني الأمر كثيراً، لقد أنقذني شخص نكرة، لأنني أنا بحدّ ذاتي نكرة."

وهكذا عندما سيق بكرسيه المدولب إلى الغرفة التي كان يفكّر فيها المسؤولون ملياً بخياراتهم لإخماد الانتفاضة الشعبية الدائرة حول اعتقال راجان، كان ماكدونالد أساساً في مزاج سيئ.

حين دُعي ليدلي برأيه في الاجتماع، صرّح ماكدونالد بتصريح قصيرٍ أربك الجميع: "أودّ القول مسبقاً إنّي سوف أُنقذ نفسي من هذا الموقف، لقد عرفت ذلك الشابَّ طوال حياته، ولهذا لا أستطيع اتّخاذ قرار حيادي في ما يتعلق به."

كان هناك صمت مفاجئ في الحجرة.

"كذلك..." تابع ماكدونالد، "ليس لي حقٌّ في العيش في هذه البلاد أكثر ممّا له." ثم ألقى بنظرة في أرجاء الغرفة، "م... هل تحدثتُ عن الصبية التي برفقته؟ أنا... أنا أعرفها أيضاً."

وهكذا، تحت جنح الظلام -في اليوم الثالث من تجسّده- أُخرج راجان من آخر قاعدة للشرطة، معصوب العينين، وهُرع به إلى المطار، لم تعرف مريم عن تهريبه من البناء، كانت تغفو خارج غرفة التحقيق، تنتظر بصبر، ولم تكن لديها أدنى فكرة، لا هي ولا راجان، عن الاحتجاجات التي تدور في الشوارع لنصرته، أو عن هوية المكان الذي يؤخذ إليه.

في الساعة التي بقي فيها معصوب العينين، شعر راجان براحة معينة لم يشعرِ بها منذ عدّة أيام، إذ لم يكن عليه اتخاذ أيّ قرار، لقد مضت ثلاثة أيام منذ عرف بأمر إرثه السرّي، ولادة والده غير الشرعي، الشكُّ بهوية والد مريم، وخيانة جدته، كان يشعر بحمل كبير منذ ذلك الوقت، غير واثق إن

كان من الآمن مشاركة هذه التفاصيل، ومع من؟ لقد كبر الصبي ليصبح رجلاً بين ليلة وضحاها، وحتى حين تقدمت سيارة اللاندروفر بصعوبة عبر الطريق المملوء بالحفر المؤدّي إلى المطار، خلُص راجان إلى أنّه لن يدع هذه المتاعب تكسره، سوف يحتمل كلّ شيء، وإن كان الأمر يتطلّب قضاءه بعض الوقت في السجن، فسوف يفعل ذلك، لأنّ السّجونَ كما كان غاثينجي يحبُّ أن يقول: "لم تُبنَ للماعز، بل للرجال."

فوجئ راجان عند إزالة عصابة عينيه أنّه موجود في المطار، كان المفتش هونغو على حق: سيركب الطائرة التالية المتجهة إلى الهند.

ما الذي يحدث؟ فكّر برعب.

"هل يمكن لأحد إخباري بما يحصل؟"

صرخ بالشرطيين اللذين يقودانه بعيداً، ويمسك كلٌّ منهما بأحد معصميه.

أجابه أحدهما أنه في طريقه للترحيل.

"لماذا؟"

"فلتسأل جدتك." أجابه الآخر.

جنَّ جنون راجان عند ذكر جدته فاطمة، حاول التفلّت منهما وتدحرج على الأرض جاراً معه أحد الشرطيين، ركل وخدش وعضَّ وصرخ وقد بلغ إرهاق وكرب الأيام الثلاثة المنصرمة ذروتهما، استعاد رجلا الشرطة السيطرة وثبّتاه أرضاً قبل أن يطلبا التعزيزات، وصل أحد المسعفين وخدّره.

انطلق أحد الضابطين اللذين كانا سيرافقان راجان إلى بريطانيا لإتمام عملية ترحيله، توجّه إلى مكتب تذاكر جلالتها للخدمات الجوية، فوجّهوه من هناك إلى مكتب الهجرة.

"إن كان الأمر يتعلق بالهنود يا سيدي فعليك البدء من هناك." قالت الموظفة بنبرة أنفية، "لا بدَّ من تسوية أموره أولاً."

امتثل الشرطي وتوجّه إلى المكان الذي أرشدته إليه حيث كانت هناك موظفة أخرى، شابّة إنكليزية أخذت تقلّب في أحد الملفات قبل أن تتركه وتأخذ ملفاً آخر، ثم آخر، حتى تغضّن وجهها.

"أمهلني دقيقة لو سمحت يا سيدي." قالت للشرطي وهي تمضي نحو مكتب آخر حيث كان رئيسها جالساً، لاحظ الشرطي أنَّ الموظّفة تمتلك مؤخرة كبيرة تتناقض بشكل جميل مع خصرها الدقيق، هذه هي ثمار الاستقلال، فكّر بابتهاج، قبل عدّة أشهر فقط، لم يكن ليحلم بالاقتراب من امرأة بيضاء البشرة إلى هذه الدرجة، وها هو الآن، من يعرف، ربما يطلب منها الخروج برفقته في موعد حين يأتي في المرّة القادمة لترحيل أحد الهنود.

عادت المرأة الإنكليزية بملف، كان ذلك هو الملف الذي جمعه ماكدونالد عن وضع كلّ واحد من عمال سكّة الحديد بعد إتمام الإنشاء في عام 1902.

تنهدت المرأة وابتسمت معتذرة "لدينا مشكلة." أعلنتْ، "لا يمكن ترحيل الشخص الذي في وصايتكم إلى إنكلترا."

لقد تلاقى الماضي أخيراً مع الحاضر ليعقّد المستقبل، في تلك المدّة الفاصلة أصبح حاضر راجان -النائم بمفعول التخدير في غيبوبة من الانشداه- وماضي بابو، الغارق في هلوسات من أحلام اليقظة، أصبحا واحداً.

"تُظهر سجلاتنا أنَّ جدّه تحلّل من ارتباطاته مع البريطانيين حين ترك العمل لصالحهم، وبهذا سقطت عنه كل ميزاته لأنَّه لم يُتِمّ عقد عمله حسب

المطلوب، وبالتالي فهو ليس مؤهّلاً للهجرة إلى إنكلترا بصفة أحد الرعايا البريطانيين من المستعمرة السابقة في كينيا، باختصار، لا يمكن للشخص الذي في وصايتكم الحصول على ميزة حُرِم منها جدّه عام 1901." توقفت المرأة عن الكلام ونظرت إلى الأعلى.

كان الشرطي يحدّق في صدرها، التفت وهو يشعر بالإحراج.

"هناك مسألة أخرى." تابعت.

تنبّه الشرطي من جديد "والد الرجل موجود في إنكلترا، تُظهر سجلاتنا أنّه طالب، أو كان طالباً للسّنوات العشر الماضية، من غير المرجّح أن يكون طالباً كلَّ هذه المدّة، وعلى الأغلب أنّه تخرّج لكنّه لم يُنظّم وضع إقامته قانونياً، على أيّ حال، لا يمتلك الطالب صلاحية استضافة أفراد عائلته، إلا إن كان هو معيلهم وأثبت قانونياً قدرته على الإنفاق عليهم."

"ما الذي يحدث في حالات كهذه؟" سأل الشرطي بارتباك وخيبة أمل، كان يتبجّح أمام زملائه أنّه سيكون أول فرد من قريته يستقلّ الطائرة، عليه إنقاذ الموقف قبل أن يؤول به الأمر عائداً إلى قريته يجرجر أذيال الخيبة.

"في هذا الوضع، فقد الشاب جنسيته الكينية..."

"إنّه أمر غير مسبوق." اعترفت الموظفة الإنكليزية، "يمكنني إحالة هذا الأمر إلى رؤسائي إن أحببت، وهم بدورهم يستطيعون البحث عن حلول قانونية أخرى متوفّرة أمامنا، كما قلتُ لك، من الغريب جداً أن يفقد رجل ما ثلاثة بلدان في وقت واحد، إن كانت بريطانيا خارج الاحتمالات، والحلَّ البنجاب، ولم يتقدّم الشاب للحصول على الجنسية الكينية، فهو عملياً شخص لا بلد له."

"أخشى أنَّ عليكم اتخاذ قرار على الفور." قال الشرطي، "لقد تلقّيت

أمراً من السلطات العليا لترحيله."

"أفهم ذلك تماماً."

"لا أظنّ أنكِ تفهمين."

"بلى أفهم."

"اسمعي." قال الشرطي قبل أن يخفض صوته "لقد أمر الرجل الكبير بنفسه بإتمام هذا الأمر، وحين أقول الرجل الكبير فأنا أعني أكبر رجل في البلاد."

"أفهم ذلك تماماً." أجابت المرأة.

"لا أظنّ أنّكِ تفهمين."

"بلى أفهم."

"إن كنتِ تفهمين ما أقوله فعليكِ تنفيذ هذا الأمر حالاً، ترحيل فوري."

"لقد أطلعتكَ على الوضع الرسمي."

"ما الوضع الرسمي الذي تتحدثين عنه؟ هل هناك رجل رسمي أكثر من الرجل الكبير لكينيا؟"

"أنا أتّبع القانون فقط."

"أي قانون ذاك؟ البريطاني أم الهندي أم الكيني؟ رجل كينيا الكبير هو القانون... انتظري وسترين! انتظري فحسب، سوف تعرفون أنَّ هذه هي كينيا الجديدة، بلد حرٌّ يقوده رجل أسود، هل تظنّين أننا لا نزال في مستعمرة بريطانية؟ احذري، قد تستقلين الطائرة المغادرة إلى بريطانيا ذاتها، فقط انتظري وسترين..."

لم تستخفَّ الموظفة الإنكليزية بالتهديد، فقد شهدت ترحيل مديرها السابق بعد شجاره مع رجل أعمال محلّي بسبب امرأة ما، شجار بسيط في

إحدى الحانات أدّى إلى عواقب وخيمة.

كما اتّضح لاحقاً فإنَّ رجل الأعمال هذا كان رئيس مجلس إدارة أحد فروع حزب ***Jogoo***[175] السياسي الجديد، ما يعني أنّ رجل الأعمال كان يمتلك روابط قويّة للغاية مع الإدارة المحليّة، خرج الرجل الإنكليزي لتناول الغداء، تاركاً سترته معلّقة على ظهر كرسيّه في مكتبه، وأسنانه الاصطناعية ونظارته على المنضدة، لكنَّ اتصاله التالي كان من مطار جان سمتز الدولي في جنوب إفريقيا حيث رُحِّل.

لم تُرد الموظفة الإنكليزية المخاطرة باتّخاذ فعل كهذا ضدّها، نهضت من كرسيها كاشفة عن مؤخرتها الريّانة من جديد، أشارت بإصبعها إلى ممرّ سيئ الإضاءة قريب من منطقة إقلاع الطائرات، "إن كان لا بدَّ من ترحيله الآن يا سيدي، أنصحك بأخذه هناك... هذا ما نسمّيه منطقة محايدة."

لم يكن الشرطي ينصت إليها إذ كان يحدّق في صدرها الذي بدا له أكبر مما ظنّه في السابق، كان يفكّر في أنّه في حال إفلات إبزيم حمالة صدرها، سينسكب نهداها مثل لفافتين من الهلام، هذه هي ثمار الحريّة، وفيرة بما يكفي لإطعام الأمّة بأسرها.

بينما كان لا يزال مشتتاً بسبب الإثارة الجنسية الفائضة للمرأة الإنكليزية، أودع الشرطي بذهن مغيّب راجان في المنطقة المحايدة من المطار مقيّداً بأصفاده.

حين استعاد راجان وعيه جزئياً، حاول تذكّر سبب تقييده من دون أن يعرف حقاً، جلب الضوء الخافت والممر الطويل إلى ذاكرته تلك المرّة الأولى التي التقى فيها بمريم عند سلالم الجاكاراندا، أغلق عينيه وتخيّل

175 Jogoo: الديك (السواحيلية).

قبلتها الرقيقة التي تنضح بنكهة اللافندر، استدار مستلقياً على جانبه فردّدت صلصلة اصطدام الأصفاد بالأرض صدى قرع كعب حذاء مريم العالي الذي كانت ترتديه في تلك الليلة الأولى، استلقى هناك وترك ذكرى ذلك اللقاء الأوّل تُخمِدُ تعب أوصاله، وتسكّن آلامه الذاتية، القديم منها والحديث، بينما انزلق نحو نوم غير منتظم، تذكّر تصريح فاطمة المتأخر عن ارتباطه بالخطبة منذ الولادة، ابتسم وتساءل عن هوية الفتاة التي ستبقى قصتها إلى الأبد شيئاً كان يمكن له الحدوث، جنين ميّت لم يستطع النجاة من آلام ولادة الأمّة الجديدة، ثم سمع من حيث لا يدري صوت أبدياً مجلجلاً، ليييييييييلللللللى، بينما امتلأ ذهنه بصورة وجه الفتاة الجميل ورأى ظلال صدرها المشدود الذي يدفع بلوزتها الرقيقة.

كان بابو يفقد الوعي ويعود إليه مرات عديدة في اليوم، بعد مدّة قصيرة في المشفى، أُعيد إلى المنزل، وراقبت ممرضة خاصّة وضعه على مدار الساعة، أوصى الطبيب بأن يستريح في السرير، بالرّغم من أنّه لم يعانِ أيّ كسور بسبب سقوطه، كان يُعتبر واهن الذهن، حتى عندما يكون مستيقظاً، استمرّ في إبقاء عينيه مغلقتين ليتجنّب أسئلة فاطمة، لم يُرد النظر إلى الماضي من جديد، اكتشافه بأنّه أرسل حفيده المحبوب إلى مدرسة مرتبطة بالكاهن تيرنبول، كما أنَّ بابو أوصى للمدرسة بهبة كبيرة لدعم الأطفال الفقراء في المستقبل، بالطبع، لم تكن لديه فكرة أنَّ تيرنبول ترك له تقدمة سلام على شكل ربع تعويضاته، ولم يُرد بابو الاستيقاظ على واقع يواعد فيه راجان مريمِ حفيدة سنية، ابنة الزعيم لونانا، كلّ تلك الأمور كانت مروّعة للغاية.

مع ذلك، فقد كانت هناك صورة معنّدة تستمر بالبروز من الماضي والتي حاول كشف معناها على مدى الأيام القليلة المنصرمة من دون جدوى،

الحلم الغريب الذي سبق رحلة الحج المجهضَة إلى منحدرات لايكيبيا، الحلم الذي تحوّل فيه إلى دجاجة حبشية، كانت للطائر بقع بيضاء وسوداء وقد استثار ردّات فعل مختلفة من العمّال على اختلاف أعراقهم، بينما كان يطير فوق حصن يسوع، ظنّه بعضهم أسود وآخرون أبيض، بينما كانت الدجاجة الحبشية في حلمه قادرة على الطيران، فإنَّ الدجاجة الحبشية في الواقع تعيش على الأرض، تساءل بابو إن كانت الدجاجة الحبشية مجازاً عن الهنود في محمية شرق إفريقيا البريطانية.

لقد أتوا إلى هذا المكان بصفة عناصر بريطانيين ليعملوا على إنشاء السكّة، بعضهم عمل مثله لصالح البريطانيين، إلا أنَّ الغالبية لم يستطيعوا التآلف مع الحياة الإفريقية، ولم يتماهوا مع الثقافة الاستعمارية، بل ظلّوا منعزلين وحافظوا على هويتهم، لكن كما تعلّم بابو خلال الأيام التي قضاها في البريّة فإنَّ التحيّزات الدقيقة المبنية على أساس الطبقة والدين قد قطعت معهم المحيط الهندي لتظلَّ برفقتهم.

بينما عاد ليستسلم للنوم، قرّر بابو أنَّ الدجاجة الحبشية هي الشخص الهندي لسبب لم يفكّر فيه من قبل، لقد كانت طائراً مهيئاً للطيران، في حركة مستمرّة نحو أي مكان تجد فيه الطعام، وهكذا كان الهنود يتحرّكون بشكل مماثل، يستكشفون فرصهم في مختلف أصقاع العالم من دون مدِّ جذورهم في أي أرض، ابتسم بابو حين استذكر العبارة التي كان يقولها لحفيده راجان كلّما طلب منه أن يروي له قصة: "***أتينا في مراكب شراعية لنبني خط سكّة الحديد، ثم غادرنا في طائرات***." ربما كان صحيحاً أنَّ الهنود لم يأتوا إلى هذه البلاد ليبقوا فيها، بل كانوا مجرد ***wapita njia***، **عابري سبيل**، مكان انتمائهم سريع الزوال -العالم الوسيط الذي يصل بين القارات والثقافات، بين السماء

والأرض، بين اليابسة والبحر- المجال الذي يمكن للدجاجة الحبشية في حلمه أن تطير فوقه وفي بقاعه من دون أن تكون مقيّدة إلى الأرض مثل بقية جنسها.

خاتمة

حين تنطلق صافرة القطار المتجّه غرباً كلّ يوم ثلاثاء في الساعة السادسة والربع صباحاً، وتشقُّ عنان السماء مجدّداً في أمسية الخميس عند الساعة الخامسة وخمس وثلاثين دقيقة لتعلن عن انزلاق الوحش المعدنيّ عبر الأراضي نحو المحيط حيث بدأ كل شيء، يجلب صوته دائماً البهجة للسكّان المحلّيّين، يبدؤون بسرد تفاصيل أسبوعهم وكيف يتقاطع القطار مع حيواتهم.

كنت أحتسي كوبي الثاني من الشاي حين مرَّ القطار المتجّه إلى مومباسا، تقول إحدى الفتيات مطالبة حبيبها بتوضيح سبب انتظارها الطويل له في المقهى.

كنت أعرف أنّي تأخرت عن عملي لأنّي سمعت صوت القطار وأنا لا أزال في السرير، يعترف أحد العمّال لزملائه.

نُظِّمت مواعيد تسجيل النزلاء في الفندق لتتناسب مع مواعيد وصول القطار إلى البلدة، حين يأتي السيّاح بالآلاف، يلاقيهم مرشدوهم السِياحِيُّون في محطة القطار وهم مستعدون لرواية قصص مُحكمة الحبك، يشيرون إلى فندق الجاكاراندا المهيب، الذي أعيد بناء نسخة عنه عقب الاستقلال بوقت قليل، مكلّفاً حكومة الاستقلال مبلغاً هائلاً، جُلب الخبراء من لندن للتأكّد من إعادة خلق منزل إيان إدوارد ماكدونالد الذي بناه عام 1901 على صورته الأصلية، سوف يشير المرشدون السياحيون إلى ميزات المؤسسة العديدة ثم

يعلنون بفخر: هذا هو المكان الذي حمل بشائر ولادة البلدة بأسرها.

ثم سيشيرون إلى المدرسة -التي أصبحت الآن معروفة عالمياً بتخريجها لرياضيين من الطراز الرفيع- ويذكّرون الجميع أنَّ من بناها هو مؤسس القرية عينه، إيان إدوارد ماكدونالد، على الرّغم من أنّه أنشأها بسريّة تامّة، ماكدونالد الذي موّل هذه المدرسة إكراماً لصديق عمره الكاهن تيرنبول، اشترط على المؤسّسين شرطاً واحداً: ألا يُذاع أمر مساهمته هذه إلا بعد وفاته بخمسين عاماً. دائماً ما تظهر هذه المدرسة كذلك في نشرات الأخبار بسبب تميّز طلابها الذين يؤول الأمر بالعديد منهم إلى التعيّن في الوزارة الحكومية.

يهلل المرشدون السياحيون لماكدونالد والكاهن تيرنبول على أنهما الوالدان المؤسّسان لهذه البلدة، ويروون حكاية الرحلة غير المتعمّدة إلى هذه البقعة، والتي غيّرت قدريهما.

هناك مسار طبيعي يحاكي رحلة ماكدونالد الأولى عبر براري ناكورو ما يُعرف حتى يومنا الحالي باسم الرحلة العظيمة.

لكنَّ ما وضع ناكورو حقاً على الخريطة العالمية هو محمية الحياة الطبيعية حول الجاكاراندا، والمهرجان السنوي الذي يُقام في شهر ديسمبر من كلّ عام ليتزامن مع هجرة طيور الفلامينغو، تلك الطيور الغريبة التي تسكن البحيرة مانحةً اسم البلدة، تصادفت أول هجرة معروفة للطيور من البلدة مع ترحيل الهنود، ما اعتبره العديد من الأشخاص تعبيراً من الطيور عن تضامنها مع المجتمع، لا أحد يعرف المكان الذي تهاجر هذه الطيور إليه للسبات لنصف عام، لكنها تغادر كلّ سنة في يونيو وتعود في ديسمبر، يُحتفى بهذه الهجرة كإحدى عجائب العالم الطبيعي، فيُعاد تقديم الدراما

التي شهدها بابو وعمّال السكّة الآخرين مع نهاية القرن المنصرم.

مهرجان الفلامينغو، كما يُعرف هذا الاحتفال حول العالم، يحتفي بالتنوع والثقافات المتعددة التي تتجسّد في الشخص الغامض المعروف باسم الراج الهندي، وهو موسيقيٌّ محلّي أصبحَ ضمير أمّته قبل أن يتجاوز الثانية والعشرين من عمره حين اعتُقل وكاد يتعرّض للترحيل تحت وطأة صكٍّ قانوني عنصري أُلغي لاحقاً.

طُبعت لوحات تصوّر هذا الفنان في شبابه وشعره معقوصٌ في ذيل حصان على القمصان والقبعات وألبومات الصور ومختلف أنواع التذكارات الأخرى، وبيعت بانتظام على مدار العام. يمثّل الراج الهندي أشياء مختلفة للعديد من الأشخاص، فحين يتعامل المرشدون السياحيون مع السيّاح صغار السنّ فهم يصورونه على هيئة كازانوفا الذي تعامل مع الجميع ومع كلّ شيء بطريقة تحتفي بالحبّ الإنساني، لكنَّ قصته تنقّح ليصبح التركيز فيها على الوعي الاجتماعي السياسي عند التعامل مع جمهور ناضج أو كبير السنّ من السيّاح، إنَّ ذروة هذه النسخة من القصة تحكي كيف قلب الرجل الطاولة على الشرطة بعد اعتقاله بسبب عرقه، حين هبّت الأمّة بأسرها زاحفة لنصرته، مصرّة على استحالة إعلان استقلال كينيا إن بقي هذا الشابُّ خلف القضبان، وهكذا أصبح بين ليلة وضحاها معتقل رأي.

يتضمّن مهرجان الفلامينغو موكباً يتّبع آثار الطريق الفعلي الذي سار فيه المحتجّون خلال مطالبتهم بتحرير الراج الهندي، وهو طقس يدور بمهابة رسمية وغالباً ما يتخلله عدد من الخُطب التي يلقيها سياسيّون بارزون، ينتهي الموكب عند تقاطع تعرّض فيه الراج الهندي، بعد أربع سنوات على حادثة اعتقاله وعلى مشارف انتخاباتٍ عامة، للقتل برصاصة

أحد المرتزقة، ما أشعل فتيل صراع على الصعيد الوطني.

كان الدافع وراء قتله هو منعه من الترشّح لأعلى منصب في البلاد بالرغم من أنّه لم يبلغ السن المطلوبة للترشّح، ولم يعبّر حتى عن اهتمامه بالسياسة، تخيلوا فقط أين كانت هذه البلاد لتصبح لو ظلّ ذلك الشابُّ على قيد الحياة، هكذا كان يقول المرشدون السياحيون مذكّرين ضيوفهم، قبل أن يتابعوا قائلين إنَّ إخماد أكثر النجوم سطوعاً هو المسار الطبيعي للحياة، يضرب البرق أعلى الأشجار.

تعدُّ الموسيقا جزءاً كبيراً من هذه الاحتفالات التي يستضيفها فندق الجاكاراندا، والجزء المفضّل على امتداد السنوات هو دائماً رقصة الموغيثي التي تقلّد سير القطار، وقد بدأها في الأساس الراج الهندي، تقام أيضاً مسابقة سنوية لتكريم نجم صاعد يستطيع تأويل روح فندق الجاكاراندا القديمة بطريقة مقنعة ومنعشة.

وقد كان النجم في أحدث دورات المهرجان كوميدياً ارتجالياً يقلّد جزاراً، واستطاع إغراق الجمهور في نوبة من الضحك بطرائفه عن سرقة اللحم، كان اسمه كارينجاهي غاثينجي، حفيد الجزّار الذي كان يعمل في الجاكاراندا على مشارف الاستقلال وكان يماثله في الصخب.

ظلّت ذكرى نيوندو حيّة كذلك، إذ احتضنت المدارس منافسة سنوية لقرع الطبول، وبعيداً عن الدائرة المدرسية، يعتبر نيوندو بطلاً شعبياً، وكلّما تزايد التوتّر في الوادي المتصدّع كما يحدث عند حلول عام الانتخابات، حين يحاولِ الخصوم إبعاد الآخرين عن التنافس بحجة أنّهم مالكو الأرض الأصليون -والسبب الحقيقي هو منعهم من التصويت- يهمس العجائز بكلمات نيوندو التحذيرية، هل بدأ الرصاص بالإزهار؟ يسألون بصوت خافت.

ومن هذا المنطلق، أُعيد إحياء جميع الموتى، على الرغم من أنَّ الراج الهندي هو من يلخّص ما تروّج له المنشورات الدعائية كروح ناكورو، (الحجر الذي رفضه البنّاء قد أصبح حجر الأساس) هذا هو الشعار المستعمل للترويج للسياحة في ناكورو، لكنَّ في الأمر مغالطةً تاريخية، فالرجل الذي نسيت ناكورو ذكره هو بابو، ساكن البلدة الأول، الذي مات مفطور الفؤاد حين علم باعتقال حفيده عام 1963، الأمر الذي زاد الضغط أكثر على السلطات للإفراج عن راجان.

إنَّ تأكيد بابو الأول والذي لا ينسى حين كان يراقب بناء الجاكاراندا عام 1901 -**أن يكون الأمر غير بارز يختلف تماماً عن كونه غير موجود**- يحمل حقيقة موجزة، لأنَّ بابو، الذي قادته الطيور الغريبة، هو من شعر بجاذبية ناكورو المميزة ورأى فيها مكاناً قادراً على تقديم الرعاية وروعة الطبيعة للإنسان والحيوان على حدٍّ سواء.

كانت رؤية بابو سابقة لعصرها، فبالرّغم من أنَّ تقييمه بُني على أساس ما رآه فوق الأرض، إلّا أنَّ علماء الآثار أكّدوا أنَّ ناكورو هي مهد البشرية، وهي النقطة التي انتشرت منها الشعوب بغضِّ النظر عن العرق أو اللون أو العقيدة، ومؤخراً، اكتشف الجيولوجيون أمراً آخر: مخزوناً كبيراً من الموارد في باطن الوادي المتصدّع، من المعادن الثمينة إلى النفط والغاز الطبيعي، وأغرب الاكتشافات كان طبقةً صخريةً مائيةً هائلةً قادرةً على تأمين مياهٍ صالحة للشرب للأمة بأكملها إلى الأبد، وتوفير موطن دائم لطيور الفلامينغو.

وهذا في الغالب ما عناه الكاهن تيرنبول حين قال إنَّ هذه هي بلاد الربّ، على الرغم من أنَّ كلماته كانت تعليقاً على الجمال الطبيعي للبلاد، أو كما تبيّن لاحقاً، جمال النساء اللواتي عشن فيها، لا شكَّ أنَّ ناكورو بقعة

مذهلة الجمال يتهالك عليها الكثير من الأشخاص حتى يومنا هذا، وشيّد العديد من أغنى رجال العالم منازل إجازاتهم فيها، تماماً في وسط محمية الحياة البريّة التي أنشأها ماكدونالد وحيث يقبع رفاته. لقد مات موتاً طبيعياً حين كان بلغ من العمر 101، وتلقّى جنازة رسمية، ولا يزال قبره معلماً سياحياً آخر يتهافت عليه السيّاح.

ما يثير الاهتمام فعلاً هو إغفال الجميع للنساء اللواتي كنَّ خلف هؤلاء الروّاد أو أبنائهنّ، تماماً كما ينسى الجميع أنَّ القطار الذي ينزلق فوق السكّة مرتين كلَّ أسبوع، مهتزّاً برقة، منطلقاً بسلاسة، مخترقاً الريف الجميل قبل أن تزعق صافرته بدفقة مبتهجة، قد دخل إلى أرضهم بالإرغام مغتصباً وممزقاً كلّ ما في طريقه بقسوة، يوماً من الأيام.

شكر وعرفان

يقولون إنَّ الأمر يتطلّب قرية بأكملها لتربية طفل واحد، لكنّي أعتقد أننا نحتاج قرية لنخلق قصّة، طبعات أقدام هذه القصة منتشرة في أرجاء العالم، بدءاً من ولاية آيوا حيث نمَت بذرة الحكاية وهي تتغذّى على محادثات مع كتّاب آخرين وداعمين متحمسين، وأخصُّ بالذكر: بيتر وماري نازاريث، وكريس ميريل من جامعة آيوا.

في نايروبي، أشكر زوجتي آن لإيمانها بي وحبّها لي، ولاهتمامها بشؤون العائلة خلال مواسم غيابي الطويل، وأمي الثانية وانغاري موانغي التي ساعدت على تسيير شؤون العائلة بحبٍّ وتفانٍ.

في هيوستن أنا ممتنّ للأبد للسيد جاي كاستلي، رئيس قسم اللغة الإنكليزية في جامعة هيوستن، الذي جال عبر الحلقات البيروقراطية ليضمن أنَّ دراستي كانت تجربة ممتعة ومرضية، وأودّ شكر أساتذتي في برنامج الكتابة الإبداعية، تشينترا ديفاكاروني، وألكس بارسونز، ومات جونسون، وحسام أبو العلا، الذين كرّسوا وقتهم وجهدهم لمنحي ملاحظات ونصائح قيّمة للغاية، ومؤسسة آرت أورغنيزيشن إنبرنت التي حرصت على أن أبقى منغمساً في الكتابة عبر توفير شيكات مستمرّة لأتمكّن من دفع كلّ فواتيري، خاصّة في الأيام السيئة.

في كاليفورنيا أقدّم كلَّ العرفان لصديقي وأستاذي ومرشدي البروفيسور نغوغي وا ثيونغ أو، لدعمه الثابت عبر السنوات، وخاصّة لأنّه منحني من وقته

ليكون ضمن لجنة شهادة الدكتوراه الخاصّة بي، كما أنّي مدين بالقدر ذاته لناشري وصديقي الكيني هنري تشاكافا لملاحظاته المفيدة حول المسودات الأولى من هذا الكتاب.



بيتـر كيمانـي: ولـد فـي كينيـا عـام 1971، بـدأ عمله فـي مجـال الصحافـة، ثـم نشـر عـدّة أعمـال نثريـة وشـعرية. كان واحـداً مـن ثلاثـة شـعراء عالمييـن فوّضتهـم «الإذاعـة الوطنيـة العامـة» لكتابـة وتقديـم قصيـدة تحتفـل بتنصيب «باراك أوباما» في ينايـر عام 2009، نـال كيمانـي شـهادة الدكتـوراه فـي الكتابـة الإبداعيـة والأدب من برنامج جامعة هيوستن للكتابـة الإبداعيـة عـام 2014، وهـو عضـو فـي هيئـة تدريـس كليـة الدراسـات العليـا للإعـلام والتواصـل في جامعة «آغا خـان» في نيروبي. «رقصة الجاكاراندا» هو عمله الروائي الثالث.

رؤى عزام، مترجمة من فلسطين. تخرّجت في كلية الآداب بجامعة دمشق قسم اللغة الإنكليزية، ونالت ماجستير الترجمة التحريرية في المعهد العالي للترجمة والترجمة الفورية بجامعة دمشق.

رقصة الجاكاراندا

في ظلال استقلال كينيا عن بريطانيا العظمى، تستعيد الرواية اتحاد البيض والملونين والسود لمد سكة الحديد التي اعتبرت علامة لولادة أمة. تتبع الرواية مصائر ثلاثة رجال في الحياة والحب: الواعظ، والإداري، والهندي التقني، حيث يلتقون في حادث ولادة طفل. بعد سنوات، حين يكون حفيد الهندي التقني مغنيًا لأغاني مد سكة الحديد التمجيدية والقصصية، يصطدم بفتاة غريبة يكتشف معها أمورًا عن الرجال الثلاثة لم يكن يعرفها.

Cover Design: Mohamed khalil
Cover Illustration: Smithsonian American Art Museum, Washington, DC / Art Resource, NY


ISBN 978-9948-25-017-3
9 789948 250173

